دكتور قرشي عباس دندراوي

أدب السيوطي

دراسة نقدية





دار المعارف

أدب السيوطي

دراسة نقدية

أدب السيوطى

دراسة نقدية

دكتور قرشى عباس دندراوى

الإهـداء

إلى أبى وأمى :

« أنتما العالم ، والعالم الحيـاة »

قرشى عباس دندراوى

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾
« قرآن كريم »

« العلماء أمناء الرسل على عباده »
« حديث شريف »

« العلماء هم الملوك لا بل الملوك تحت أقدامهم »
« جلال الدين السيوطى »

فهرس

الصفحة

تمهيد

الباب الأول

الصفحة

الباب الثانى

الصفحة

الباب الثالث

الصفحة

الصفحة

الباب الرابع

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كنت – ولازلت – غير راض إذا ما استباح ثمة باحث بعض خطبة أطروحته ، ليسترجع لنا صلته بموضوع بحثه ، الذى يعتقد – وقد يموّه البعض بجهد سابقيه – أنه استطاع اكتشافه ، وإخراجه – على حجم ما ذهب إليه – من سَمّ الوجود ، ليتباطئ فى هلهلة الصعوبات التى اعتورته ، والعراقيل التى كادت أن تحول بينه وبين ما يقدمه ، وإن كان بعض هذه الصعوبات ، وتلك العراقيل مختلقاً ليستميل النفوس إليه أجرا مطيرا ، وتغاضيا عما لحق بحثه من وهن ، متناسيا أن وضع اسمه على غلاف بحث كافٍ لأن يتجشم ماتجشم ، وأن يرتفع – ما استطاع – على مواطن الخور .

وربما يكون معكوس هذه الأسباب ، سببًا لأن يتجه كثير من الباحثين الذين يقدمون أعمالهم الأولى ، فضلا عن أسباب أخرى تهب بحثه هالة إعلامية – شطر عصور ازدهار الأدب العربى بينما أكثر المعاصرين من العلماء والأساتذة ، والأشباه أيضا ، قد اتجهوا بالدرسات الأدبية نحو تلك العصور ، فقطع الأولان شوطًا لا بأس به تأريخا ، وفنونا ، وأعلاما ، وظواهرٍ ، لتبقى – رغم تنبيه الواعين منها – عصور الأدب العربى اللاحقة إلى الحديث عرضةً لبعض المؤرخين والباحثين ، منهم الجاد الذى لم يسعفه الجهد لإلقاء مزيد من الضوء الكافى ، حيِّزًا وعمقًا على هذه العصور الطارحة جنيا وحشفا ، ومنهم من هوّن فى طرح هذه العصور ، أو تستاف ذلك من كتاباتهم ، ومنهم من نفّر – مكررا بعض مقولات ممن لم يطوفوا حول هذه العصور ، بل ممن لم يعرفوا مواقعها أيضا ، ومنهم من لاترى فيما يقدم إلا مسخا من القول مكرورا .

وكان طبيعيا أن تواكب الدراسات النقدية – جاهدة – هذا الاتجاه صوب هذه العصور فنرى من يقدم تحقيقا لكتاب نقدى فاز به – وإن تفاوتت قيمته ، أو ليخرج

---

* صورد طبق الأصل من رسالة الباحث التى نال بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز فى مايو ١٩٨٦ م . كلية الآداب بسوهاج . جامعة أسيوط .

قضايا نقدية فى كتاب أو ليظهر حركة نقدية كانت فى فترة ما ، أقيمت حول عَلَم أو جماعة ، أو يتتبع مبينا دور بيئة ما من البيئات فى النقد ، أو يؤرخ مراحل النقد العربى عمومًا ، تاريخيًا وغير تاريخى ، أو غير ذلك ممن نرى ، مقدمين جهدا لا يخفى فى تأصيل النقد ، ومن ناحية أخرى نستقبل ما شاخ من الاتجاهات الفكرية والنقدية الأوروبأمريكية وغيرها ، وإن اختلط الغث فيها والسمين ، والمضر والمجدى ، لتظل الدراسات النقدية – عندنا – تتراكم ، حتى أصيب النقد النظرى بالتخمة التى أعيته ، فلا أفاد نفسه ، ولا أفاد الأدب كما كان يجب .

ويكاد يستمر الوضع الأول ، وتظل عصور الأدب العربى اللاحقة غافية فى التناسى ، منبوذة منتبذة عن الدرس ، لولا أساتذة مخلصون وعلماء واعون ، يدفعون بأبنائهم إلى أدب هذه العصور وفكرها ، وهم مستشعرون أنها أقرب إلينا من العصور السالفة فى تشكيلنا المعاصر ، كيما يعود أبناؤهم حاملين شرائح هذه العصور الأدبية والفكرية ، لنتبصر عللها ، وما فيها من أسباب قوة خبيئة ، ولتبدو دراساتنا الأدبية والنقدية أوفر حظا فى مواكبة العصر وتطوراته نحو الرقى الإنسانى والحضارى .

ولما كنت راغبا فى أن أكون أحد المهتمين بالدراسات النقدية ، تطلعت إلى عصور الأدب المزدهرة مختار إحدى الموضوعات التى تآلفت بيننا وبينها وشائج المعرفة ، تزكيها إمكانات تحقيقها ، لكننى دفعت لأن أنظر فى أدب عصر من هذه العصور ، التى تتناسى حتى الإلمام بها بعض جامعاتنا ، طُلب إلىَّ أن أجيل الجهد فى شخصية ، ينسب بعض الباحثين العصر إليها .

ومن ثم كانت شخصية السيوطى الأدبية موضع تساؤلات تنثال تباعا .

أى أدب يمكن أن يُدرس للسيوطى ، وجمهرة باحثيه لم تعرفه أديبا ، بل أن الرجل قد اعترف بعدم نبوغه فى هذا الشأن ، حين ترجم لنفسه فى حسن المحاضرة ، تلك الترجمة « اليسيرة » قد حدت بأحد باحثيه أن يزعم – فيما نرى – معتقدًا وإن شاركه عامتهم فيه دونما تفوه – أن الباحث مهما جدّ ، وأجهد نفسه ، فإنه لن يصل إلى أكثر مما كتبه الرجل عن نفسه فى ثنايا حسن المحاضرة[1].

---

(١) أحمد عبد اللطيف محمود الليثى « النحو المنظوم بين ابن معط وابن مالك والسيوطى » رسالة دكتوراة مخطوطة – دار العلوم ١٩٨٣ ص ٥٠ .

بالرغم من أن الرجل قد أقام فى كتبه - خاصة التى لاتزال مخطوطة - مسرحا لحياته اليومية مكانا ، وأحداثا ، وشخوصا ، وما فيها من تفاصيل دقيقة .

والوقع أن السيوطى ، وقد وجّه الأبصار إليه ، قد شغل الناس به ، شخصية ، وعلوما ومؤلفاتٍ ، وفكرا دينيا ، مما أدى بالمهولين أن يسيلوا عليه الخوارق والمعجزات ، فصار الرجل من المعتقد فيهم فى أسيوط ، يحتفل بمولده المتنسبون إليه فى كل عام ، وما صاحب ذلك من ألوان الطقوس فى الجامع الذى يسمى باسمه ، بالرغم من أن شيخنا لم يلد فى أسيوط ، ولم يثبت للدارسين المحققين أنه رأى موطن أبيه ، وليس الجامع الموجود له بأسيوط قد بناه ، أو بنى له ، إنما بناه رجل قبله ، ولم يعقب الرجل .

ومن جانب آخر تُركت مؤلفاته التى اختلفوا على عددها وكان الاختلاف فى حدود أربعمائة رسالة ومؤلف ، وقيمتها ما هو فيها مبدع ، لم يسبق إليه مطلقا ، وما هو بها حاطب ليل ، جماع ملخص ، تركت مؤلفاته ، وأكثر المطبوع منها نهبة للوراقين المرتزقة ، والباقى لايزال مخطوطا تحتويه خزائن الكتب فى بقاع العالم ، وقليل جدا من مؤلفاته - وليس كما يظن البعض - مفقود إذ أن كتبه نالت شهرة واستنساخا فى حياته ما لم يحظ بذلك إلا عدد قليل من أعلام العربية ، إنما تحتاج إلى بحث وتحرّ .

وبالرجوع إلى المصادر وجدناها تواكب شهرة السيوطى الدينية ، حيث أنه أنفق كل ما يملك من وقت وجهد فى الوصول إلى تحقيق فكرة المبعوثية إماما مجددًا لعصره ، ولم يحظ السيوطى الأديب بإشارات ذات جدوى ، كإيراد بعض نتف من شعره عند ابن إياس وابن العماد والشوكانى ، وإن نالت ألفياته هوى ورغبة لديهم ، شرحا وتفسيرا .

أما المراجع الحديثة التى مست السيوطى الموسوعى من قريب أو من بعيد ، ففضلا عما داخلها من تهافت وأخطاء ، فإنها لم تعرف السيوطى أديبا حق معرفة - مع احترامنا لكاتبيها - وبقيت قيمة السيوطى فى هذا الجانب مجهولة ، تعتريها عدم معرفة أعماله الأدبية وما عرف منها ، ينبئك بعض مؤرخى هذا العصر أنه ركام ، لا قيمة فيه ، وقد أثبتنا جهود كل من أشار أو تحدث عنه فى هذا الصدد بالتفصيل فى مواضعه .

ومن ثم اتجهنا - رغبة فى الحقيقة - إلى استقصاء واستقراء حظ السيوطى الأدبى من خلال مؤالفاته الأدبية ، وغير الأدبية ، المطبوع منها والمخطوط ، فوجدناها تمثل كما كثيرا . وكم عانينا فيه من جهد ، وتتبع وقراءة المخطوطات بوفرة نسخها التى حصلنا عليها .

وقد وجدنا أن هذا الكم الأدبي الوفير له - بل بعضه - حقيق بالدرس ، حرى بالتحليل ، قمين بالنقد ما استطاع أن يتقبله من مفاهيم للنقد العربي قديمه وحديثه وما استفاده الأخير من العلوم الإنسانية الأخرى .

فكان موضوع البحث « أدب السيوطي ، دراسة نقدية » .

ومن ثم فقد فصّلتْ خاماتُ البحثِ لها خطة في تمهيد وأربعة أبواب ، ينقسم كل باب إلى عدة فصول .

وقد احتوى التمهيد شقين :

كان الشق الأول عن « موسوعية السيوطي » وحجمه الأدبي فيها « فتحدثنا عن الأسباب التي جعلته أشهر موسوعيي العصر المملوكي كما وكيفا ، والاختلاف على مؤلفاته ، وتفسير ذلك ، وقضية التشكيك في قيمة مؤلفاته ، منتصفين لمنهجه ، ثم تحدثنا عن فنونه الموسوعية ، ودرجاتها ومقداره في العلوم التي أجادها ، لنتوقف أمام كتاباته في الجنس ، مفندين ما قيل عن هذه المؤلفات ، والمؤلفات التي رجع عنها ، مثبتين مؤلفاته في الجنس ، ثم تحدثنا عن السيوطي أديبا ، لنثبت جهود من تحدث أو أشار عنه أديبا ، لنقوم - بعد ذلك - بإعداد ثبت لمؤلفاته الأدبية المطبوعة والمخطوطة ، وقد اجتازت التسعين كتابا ورسالة ، لايزال أثرها مخطوطا .

أما الشق الثاني فكان عن المستوى الأدبي لعصره ، فتحدثنا عن رؤية المؤرخين لهذا العصر وبحوثهم ، موضحين حتمية دراسة أدب هذا العصر وفكره ، بما يتفق والدراسات والعلوم الإنسانية الحديثة ، لنتحدث بعد ذلك عن الشعر وفنونه ، وأشهر الشعراء ، والنثر وفنونه وأسلوب الكتاب في ذلك العصر ، كما تمثله الباحثون ، تاركين دراستنا عن أدب السيوطي تقرر حق ما ذهب إليه الباحثون أو خطأه .

وكان الباب الأول عن مصادر الإبداع الفني عند السيوطي منقسما إلى ثلاثة فصول :

الأول عن بيئة السيوطي الكبرى ، لنتبين أثرها على أدبه من خلال البيئة الطبيعية والموقع الجغرافي ، والاتجاه الثقافي ، والعوامل السياسية ، والحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي ، ثم مستوى تقدم الحضارة .

أما الفصل الثاني فيتحدث عن هذا الأثر من بيئة السيوطي الصغرى التي تتكون من بيئته الخاصة وشيوخه وشيخاته ومعاصريه وعلاقاته بهم ، ثم تلاميذه .

ثم كان الفصل الثالث ، الذى نتدارس فيه مكونات الشخصية ، وإن كان البحث عامة يكشف هذا النطاق ، فدرسنا هذه المكونات ، لنتوقف أمام مفهومه للإبداع ، وموقفه بين نظرية الأدب ومفهوم الدين ، وبين الإبداع والسلفية ، لنوضح بعد ذلك مفهومه للإبداع فى شعره التعليمى .

وكان الباب الثانى عن شعر السيوطى فى مدخل وفصلين وملحق

وكان المدخل عن مصادر شعر السيوطى ، لنتحدث عن ديوانيه « الكبير » وهو مايزال مفقودا و « الصغير » وقد استطعنا العثور عليه وردنا مانسب خطأ إليه من ديوان ثالث ، لنشير بعد ذلك إلى الاشعار التى جمعناها ، وهى تفوق ماورد فى ديوانه « نور الحديقة » عشرات المرات .

ثم كان الفصل الأول : عن موضوعات شعره من خلال هذه الفنون التى طرقها « الهجاء - الرثاء المدح والمديح النبوى - الذم - قضايا المجتمع - الوصايا والحكم - الوصف - الغزل والغزل الحسى - الألغاز والأحاجى » .

أما الفصل الثانى فكان عن « شعر السيوطى ، دراسات تحليلية » من خلال :

١ - الوحدة العضوية .

٢ - علمى العروض والقافية .

٣ - الصورة الفنية .

٤ - مفردات لغته .

٥ - الاقتباس والتضمين من القرآن والحديث .

٦ - النظام النحوى والدلالى والتركيبى .

ثم ختمنا هذا الباب بملحق عن شعر السيوطى عند المؤرخين والباحثين المحدثين .

وجاء الباب الثالث عن « نثر السيوطى » من خلال فصلين :

الفصل الأول عن مقاماته دراسة عن الموضوع والشكل ، وبدأناه بنبذة تاريخية ، ثم تحدثنا عن سؤال مطروح « أين مقامات السيوطى » فاستعرضنا أرقام مقاماته كما ذكرها الباحثون والسيوطى أيضا ، لنعرض الجهود والإشارات التى مست السيوطى المقامى ، لنجد لزاما علينا أن نتتبع مقاماته المطبوعة والمخطوطة ، لنقدم ثبتا لها ، وقد اجتازت الأربعين مقامة ، ثم تحدثنا عن موضوعات مقاماته التى بين يدينا ، وهى نحو الثلاثين

مقامه قمنا بجمعها ، فوجدناها تدور فى موضوع « الموازنات - موضوعات ذاتية - موضوعات جدلية - وأحداث عصره - ومقامات وصفية - ومقامات تعليمية » فعرضنا هذه الموضوعات عرضا مبسطا ، وما يحتمل من تقسيمات داخلية .

ثم تحدثنا عن شكل مقاماته التى انقسمت إلى مقامات تقليدية ، فتقليدية مجددة ، فمجددة ، فمقامات رسائل ، فمقامات بحوث ، لننهى هذا الفصل بإشارة عن أثر مقاماته على المقامين اللاحقين .

وكان الفصل الثانى عن فنونه النثرية الأخرى ، فبدأناه بالرحلات ، ووضعنا حقيقة تائهة نصب العيون ، ثم تحدثنا عن فن الرسائل والمكاتبات الأدبية وأسلوبه فيه ، ثم قمنا بدراسة استقصائية لنوعيات مقدمات كتبه وأسلوبه فيها ، ثم تحدثنا عن فن الموازنات ثم الحكم والأمثال والترجمة الأدبية والألغاز مستقصين حظه فى كل نوع ، مبينين أسلوبه فيه .

ويأتى الباب الرابع منهذه الدراسة عن السيوطى وأدبه من الداخل ، محتويا ثلاثة فصول . كان الفصل الأول عن « شخصية السيوطى من خلال الدرس اللغوى الحديث ، فتحدثنا عن حتمية تطبيق علم اللغة على دراسة الأدب ، ومدى مواكبة الظواهر اللغوية فى أسلوب السيوطى لشخصيته من خلال الجوانب الصوتية فى أسلوبه وتنوع الجمل ، وظاهرة تتابع الأفعال وارتباطها بحالة من حالاته النفسية ، وكذلك ظاهرة تتابع الصفات ، لنتحدث عن ظاهرة توظيفه النظم القرآنى فى أسلوبه مع الاحتفاظ بشخصيته فيه ، ثم المفارقات اللغوية والجمل الشعرية والدخيل والمولد والعامى ودلالة وجود هذه الأشياء فى أسلوبه ، وارتباطها بمكونات شخصيته .

ويتقدم بنا البحث نحو الاستفادة من الدراسات الإنسانية الحديثة فيقدم لنا الفصل الثانى تحليلا تفسيريا لشخصية السيوطى الإسقاطية فى فنه المقامى .

سنتحدث فيه عن مفهوم الإسقاط فى الأدب ، والتحليل التفسيرى للشخصية الإسقاطية ، ثم إبعاد شخصية البطل عند كل من « الهمزانى - الحريرى - السيوطى » لنفصل القول عن شخصيته الإسقاطية فى مقاماته « المكية - الأسيوطية - الوردية - المسكية - الفستقية - الزمردية - الياقوتية ثم التفاحية » التى تعلن فيها الأنا الإسقاطية عن أنا السيوطى الصريحة .

ويجئ الفصل الأخير عن « شخصية السيوطى فى ضوء المعادل الموضوعى لإحدى

مقاماته . لنجيب على سؤال تخيلناه هل يمكن أن تدرس مقامة السيوطى « الوردية » فى ضوء المعادل الموضوعى وقدمنا كل معوق - افترضناه - وردنا عليه ، ثم وضحنا الفروق التى تميز طبيعة عناصر المقامة لدى رائدى المقامة والسيوطى ، لنتحدث بعد ذلك عن « الرمز والتشخيص والأنا » فى مقامة السيوطى « المسكية » ، فحللنا هذه المقامة من خلال هذه الأبعاد الثلاثية ، لنفصّل القول فى أبعاد مقامته « الوردية » وإحساس السيوطى المراد التعبير عنه ، ومجموعة الاشياء المعادلة لهذا الإحساس ، لنقوم بتقديم تفصيل المعادل الموضوعى فى هذه المقامة ، الذى رأينا السيوطى يعادل بالأزهار أنماط الشخصية الإنسانية كما عرفها ، مقدما لنا شخصيته هو المعادلة فى تلك المقامة .

ثم تحدثنا فى « الخاتمة » عن خلاصة ما حوت الدراسة ، مركزين على بعض التوصيات التى نرفعها إلى أساتذتنا العلماء ، آملا أن أكون قد وضعت يدى على بعض محددات شخصية السيوطى من خلال دراسة أدبه ، محققا بهذه الدراسة النقدية بعض مقولة رددها أساتذةٌ لنا عن أساتذتهم ، العالم **الدكتور محمد مصطفى هدارة** ، فحواها « قيمة الباحث العلمية تتضح من طرحه الأول » ، هذا الأستاذ العلامة فكرا ، وعلما ، الإنسان الفنان شخصية وسلوكا ، الذى نلت هذا الشرف بقبوله إياى طالبا بين تلاميذه الكُثْر ، وأكثرهم صار كواكب لامعة ، أجلس إليه ابنا أتزود من علمه الفياض وأدبه الجم وسلوكه الكريم ، فى مكتبه وفى منزله ، وربما يكون بعض حقه ما قاله السيوطى فى أستاذه الكافيجى .

وأجدنى مندفعا لأن أرفع آيات الوفاء والتلمذة ، والشكر والاعتزاز لأستاذى **الدكتور محمد على رزق الخفاجى** الذى تتلمذت على يديه ، وقد قربنى إليه وأحاطنى برعايته تلميذا وطالبا وأخا ، فأحببته وتأثرت به ، واقتديت مواضع سحره ، سلوكا ومنهجا ، وصفاء وكرما .

وإنى لأسجل شكرى وامتنانى للعالم المفكر الملتزم أستاذنا **الدكتور الطاهر أحمد مكى** ، الذى أضاء بزياراته إلى بلده كلية الآداب بها ، وبما أسداه لهذا البحث وصاحبه ، كلما جلس إليه يغترف من فيض علمه ، وجلساته الفكرية ، وأخلاقه الرفيعة .

فشكرا من الأعماق لهم ، متمنيا أن يكون أفضل ما فى البحث بضاعتهم ردت إليهم . ولا أنسى أن أقدم عظيم الشكر والامتنان إلى أساتذتنا الذين سيتفضلون بمناقشة هذه الدراسة ، متحملين الصبر على ما فيها من أخطاء ونقص ، وجزاهم الله خير جزاء .

والله الموفق لما فيه الخير والسداد

التمهيـــد

الشق الأول : موسوعية السيوطى وحجمه الأدبى فيها .
الشق الثانى : المستوى الأدبى لعصره .

يتكون هذا التمهيدُ من شِقيْن :

الشّقّ الأوّل : عن موسوعية السيوطيّ وحجمه الأدبي فيها ، وقد كان صاحبنا أشهر موسوعى عصره ، كمًّا وكيفًا ، عارضين الأسباب التى أهلت السيوطيّ موسوعيًا ، الذى جعل القدماء والمحدثين يختلفون حول عدد مؤلفاته ، فذكرنا أسبابَ هذا الاختلاف ، وقدمنا تفسيرنا فى هذا الشأن ، ثم عرضنا ما أثير – قديمًا وحديثًا – حول منهج السيوطيّ فى التأليف مدحًا وقدحًا منتصفين لمنهجه .

ثم تحدثنا عن فنون موسوعيّة السيوطيّ ، ودرجاتها ، ومقداره فى كلٍّ نوع من العلوم التى أجادها « القرآن – الحديث – الفقه – علوم اللغة – التاريخ » ، ثم الأغراض المتنوعة ، التى ركزنا فيها الحديث حول مؤلفات السيوطيّ فى الجنس ، وما أثير حولها من قضايا مثبتين أسماءَ هذه المؤلفات مطبوعةً ومخطوطة .

ثم تحدثنا عن الأدب الإنشائى عند السيوطيّ . ذاكرين أهمَّ من أشار أو تحدث عنه أدبيًا ، موضحين أن هذه المحاولات – مع احترامنا لكاتبيها – لاتفى بحق السيوطيّ الأديب ، فقمنا باستقصاء مؤلفات السيوطيّ الشعرية والأدبية « إنشائيًا ووصفيًا » فى ضوء ما هو مطبوع ومخطوط وكان عددُها يثير التعجّبَ ، كى نستطيعَ بعد ذلك أن نقدم دراستنا النقديّةَ فى ضوء ما أحطنا به من أدبهِ .

وكان **الشّقَ الثانى** : عن « المستوى الأدبىّ فى عصره » لنتعرف من خلاله فنون الأدبِ ، ومقدارها والاتجاهات الأدبية ، وكان ذلك من خلال معطيات المؤرخين للأدب شكلاً ومضمونًا ، منبهين أن رؤية المؤرخين المتباينة عن هذا العصر لاتعد حُكمًا فاصلاً ، تاركين دراسة أدب السيوطيّ – غير المعروف أدبيًا – تقرر فصل الخطاب .

الشق الأول

« موسوعية السيوطىِّ ، وحجمه الأدبىُّ فيها »

تضافرت كثيرٌ من العوامل التى عددّها ، وفصّل فيها القَوْلَ مؤرخو العصر المملوكى وباحثوه لأن يكون هذا العصرُ عَصْرَ نهضةٍ علميةٍ ، على اختلاف بعضهم[1] ، التى اتسعت لظهور العقليات الموسوعية ، وجعلت عصرها يسمى بعصرِ المجاميعِ والموسوعات .

ولقد دافع كثير من الباحثين عن النزعة الموسوعية ، سواء كانت فى علوم شتى أم فى علم واحد ورأى بعضهم أنها آيةٌ من آيات التجديدِ فى العلم والأدب ، التى ينبغى أن تُسجّل لصاحبها بالفخار والحمد[2] .

ومن أشهرِ الموسوعيين الذين عرفوا فى ذلك العصر ابن منظور ، والنويرى ، وأبو حيّان الغرناطى وابن فضل الله العمرى ، وابن قيم الجوزية ، وصلاح الدين الصفدى ، وابن شاكر الكتبى ، والفيروز بادى ، وابن جماعة ، والقلقشندى والمقريزى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ثم جلال الدين السيوطى الذى كان

---

(١) يرى د . فليب حَتّى أنه « عصر جمع وشرحٍ وتفسير وجود عقلى لا عصر إبداع واستنباط ، مقدمته على « نظم العقيان فى أعيان الأعيان « للسيوطى » ط نيويورك ١٩٢٧ ص ح ، وكذلك مقالة د . عصام عبد الرؤوف فى « جلال الدين السيوطى » مجموعة بحوث . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ص ١٩ .

(٢) عن ظهير النزعة الموسوعية وأسبابها وقيمتها أقرأ – أثر البيئة المصرية فى الشعر فى عصر المماليك « محمود رزق سليم » رسالة دكتوراة . دار العلوم ١٣٨٣ هـ ص ٢٣٠ وما بعدها وكتابه « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » ط دار الكتاب العربى ١٣٨١ هـ . المجلد السادس . و « صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى » . عبد الوهاب حمودة . ط الهيئة المصرية للتأليف والترجمة . يونية ١٩٦٥ م ص ٣٨ وما بعدها و « الإمام جلال الدين السيوطى أديباً » عبد الله محمود حسن . رسالة ماجستير . مخطوطة . أزهر سيوط ١٩٧٨ م الفصل الأول . و « المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر » . رسالة دكتوراة مخطوطة ١٤٠٠ هـ ، و « النقد الأدبى فى العصر المملوكى « عبده عبد العزيز قلقيلة رسالة دكتوراة دار العلوم ١٣٩٠ هـ ص ١٠ ومابعدها و « الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف . دار المعارف ط ٧ ص ٣٧٩ وما بعدها و « جلال الدين السيوطى » د . مصطفى الشكعة . ط البابى الحلبى ١٩٨٩ . و « الإمام جلال الدين السيوطى » د . على صافى حسين وغير ذلك .

على حد تعبير أحد الباحثين « أعظمهم همة » ، وأكثرهم نشاطًا وإنتاجًا ، بل ولعله أغزر كتاب العربية قاطبةً إنتاجًا[1] .

وذلك لما للسيوطى من إسهام وافر فى علوم القرآن والتفسير والحديث ، والفقه ، والأصول والتاريخ والطبقات والتراجم والرحلات ، واللغة ، والنحو والبلاغة والأدب والطب والشعر . حتى غدا معاصروه وتلاميذه والمؤرخون القدماء والباحثون المعاصرون يزينون اسمه أو الحديث عنه بآيات التبجيل والإعجاب .

ومهما يكن من أمر إطلاق المعاصرين لقب « المفكر الموسوعى » « المثقف الموسوعى » « عمدة المفكرين الإسلاميين » « العالم الموسوعى الجليل » « مجسم العلوم الإسلامية فى القرن ١٥ م » ... الخ على السيوطى ، فإن السيوطى نفسه زان شخصيته وسلوكه وعلمه وفكره وإنتاجه المتعدد بما يبز وصف الباحثين المعاصرين له كما سيأتى فى موضعه .

يقول السيوطى فى رسالته « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » ... فإنه ثم من ينفخ أشداقه ويدعى مناظرتى ، وينكر علىَّ دعواى الاجتهاد والتفرد على رأس هذه المائة ويزعم أنه يعارضنى ويستجيش علىَّ من لو اجتمع هو وهم - يقصد السخاوى وفريقه - فى صعيد واحد ونفخت عليهم نفخة صاروا هباءً منثورا[2] لانفراده بالتبحر فى أنواع العلوم على حد قوله[3] أو كما يقول « لو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفًا بأقوالها ، وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوصها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت ...»[4] .

ويمكننا أن نورد بعض الأسباب - كما نرى - التى أفرزت السيوطى موسوعيًا ، وأعجوبةً من أعاجيب مصر فى أواخر عصرها المملوكى .

---

(١) « السيوطى » مجموعة البحوث ص ٢٠ .

(٢) « الحاوى للفتاوى » للسيوطى ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان . ١٤٠٢ هـ .

(٣) « التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » للسيوطى مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ص ٤٩ .

(٤) « حسن المحاضرة » للسيوطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط أولى (١٩٦٧ م) دار أحياء الكتب العربية ج ١ ص ٣٣٩ .

١ - تلك البيئة الثقافية العلمية الحضارية في ذلك العصر الذي كثر فيه العلماء والأعلام الذين نبغوا في علوم الدين واللغة والتاريخ والأدب .

٢ - هاتيك النشأة والوراثة ، فأبوه عالم ديني ، تردد به منذ أعوام سنيه الأولى على مجالس ابن حجر العسقلاني ، وقد ترك له أبوه مكتبة زاخرة بالمصنفات[١] .

وقد نشأ السيوطي بين الكتب حتى أنه لقب بابن الكتب أو لأنه ولد بين الكتب[٢] .

٣ - إن السيوطي كان يتمتع بحافظة قوية ، وعقل منظم[٣] وقد ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره علامات الفطنة ، وإمارات الذكاء[٤] ، وقريحة سيالة تحفظ وتستظهر بصورة فذة[٥] ولا غرابة في هذا فقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمان سنين ، ثم حفظ العمدة والمنهاج الفقهي والمنهاج الأصولي ، وألفية ابن مالك ومما ذكره هو بنفسه[٦] .

٤ - تعلق السيوطي بالكتاب وحبه الشديد له ، إذ تعكس مقدمات كتبه هيامه بالمراجع الكبرى في زمن الطلب حفظًا واستظهارًا ، ومن ناحية أخرى قد لزم منذ نعومة أظفاره مكتبة محمود الاستادار - فضلا عن مكتبة أبيه كما ذكرنا ، وكان بالمكتبة المحمودية أربعة آلاف مجلد ، وأنشأ لها السيوطي فهارس منظمة جمعها في كراسة أطلق عليها « بذل المحمود في خزانة محمود »[٧] .

---

(١) راجع السابق جـ ١ ص ٣٣٨ ، و« نظم العقيان » ص ٩٥ .

(٢) راجع « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » للسيد عبد القادر العيدروسي ص ٩٩ » . و« مناقب السيوطي ... « مجهول المؤلف . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦٠٧ تاريخ ص ١/ ٢ وراجع قول الزركلي في كتابه « الأعلام .. » ط الرابعة - مكتبة المثنى . بيروت - ١٩٧٩ ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٣) طه عبد الرؤف سعد ، مقدمته على « الأشباه والنظائر في النحو » للسيوطي ط الكليات الأزهرية ١٩٧٥م ص ر .

(٤) بحوث « السيوطي » ص ١٠٥ .

(٥) السابق مقالة د . أحمد عمر هاشم ص ٢٦٢ .

(٦) راجع حسن المحاضرة . ترجمته بالجزء الأول ص ٣٣٨ .

(٧) راجع « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن العماد . ط المكتب التجاري - بيروت جـ ٨ ص ٥٤ . وجدير بنا أن ننبه على أن حاجي خليفة جانبه الصواب حينما قال عن « بذل المجهود في خزانة محمود » رسالة للشيخ السيوطي المذكور ، جمع فيها من عاش من الصحابة مائة وعشرين سنة « كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ط المثنى - بيروت جـ ١ ص ٢٣٧ .

أما الكتاب الذي جمع فيه السيوطي من عاش من الصحابة مائة وعشرين سنة فهو « ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين » .

٥ - كان السيوطى مِكْثارًا ، أساتذةً وشيوخًا ، فيذكر أنه تتلمذ فى علم الحديث وحده على نحو مائة وخمسين شيخًا ، وبلغ عدد شيوخه وشيخاته ستمائة ، ترجم لهم فى أكثر من كتاب ، مثل « المنجم فى المعجم » ذكر فيه أسماء شيوخه فى علم الحديث و « حاطب ليل وجارف سيل » وهو فى شيوخه عامة ، وزاد المسير فى الفهرست الصغير ذكر فيه خمسين من شيوخه ، وقال الشعرانى « كان يقول أخذت العلم عن ستمائة نفس ، وقد نظمتهم فى أرجوزة ، و .. ، وهم أربعة طبقات .. »[1] .

٦ - الأسفار التى قام بها بفرض التحصيل[2]. فالسيوطىُّ كما نعرف قد قام بعدةِ رحلاتٍ داخليةٍ وذهب إلى الحجاز وجاوز هناك عاما كاملا ، أما بشأن سفره إلى اليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور ... الخ فلم يكن إلا من وَهَمِ باحثى السيوطى المعاصرين قاطبة كما أثبت وسيأتى فى موضعه فى الباب الثالث « الرحلات » .

٧ - تبكيره فى التأليف والتدريس والإفتاء ، إذ أخذ فى التأليف ولم يكن بلغ السابعة عشرة ، وأجيز فى ذلك الحين بتدريس العربية ، وأنه تصدر للتدريس والإفتاء وعمره سبع وعشرون عاما كما وضح هو بنفسه فى ترجمته .

٨ - سرعة السيوطىِّ فى التأليف فقد كان كما يقول ابن العماد « آية كبرى فى سرعة التأليف حتى أن تلميذه الحافظ الداودى قال « عاينت الشيخ وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا وتحريرا وكان مع ذلك يملى الحديث ويجيب السائلين بأجوبة حسنة[3] ومصداق ذلك أن السيوطى ألف كتابه « النفحة المسكية والتحفة المكية » بمكة فى يوم واحد وفيه نحو وبديع ومعان وعروض ..[4] .

---

(١) ذيل الطبقات الكبرى . عبد الوهاب الشعرانى المخطوط بدار الكتب تحت رقم ٦٧٤ تاريخ تيمور ص ٥ ، وفيما نعلم أنه مطبوع .

وننبه أيضا أن بعض الباحثين من يظن أن شيوخ السيوطى كلية مائة وخمسون شيخا كالدكتور الخربوطلى فى مقالته المنشورة ببحوث السيوطى ص ١٥٤ ، والباحث عبد اللطيف الليثى فى رسالته « النحو المنظوم بين ابن معط وابن مالك والسيوطى » ص ٥٢ ، فهذا العدد عن شيوخه فى علم الحديث وحده ، كما ذكر صحيحا فى ترجمته بحسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٢) السيوطى أديبا . عبد اللاه محمود حسن ص ٦١ .

ولكننا نرجح أنه أراد بها تعريف الناس عليه وما المجادلات التى حدثت بينه وبين ابن ظهيرة أثناء وجوده فى الحجاز إلا من قبيل تأكيد قوته العلمية وفرضها فرضا .

(٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ط المكتب التجارى - بيروت ج ٨ ص ٥٣ وقد وردت فى ذيل طبقات الشعرانى ص ١٧ بشىء من التغيير .

(٤) راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٦٩ .

٩ - يضاف إلى كل هذا أن السيوطي كان شديد الغضب ، تكلفه الغضبة الواحدة ، رسالة أو أكثر يكتبها في يوم أو ليلة ليرويها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه وفي ذلك يقول : وخالفني أهل عصري في خمسين مسألة ، فألفت في كل مسألة مؤلفا ، بينت فيه وجه الحق[1] وسنرى ذلك مفصلا فيما بعد .

١٠ - إن السيوطي يتمتع بشخصية قوية ، يتجلى ذلك في مدى اعتزازه بمؤلفاته وآرائه متمسكا بما يراه حقا ولو أغضب السلطان ، فلم يبغ من وراء ذلك مغنما ولا نفعا ، إنما أراد أن يشبع رغبة ملحة وهي الدراسة والبحث ، خاصة وإن براعة السيوطي لم تعرف الملل ، فضلا عن « أن السيوطي حاول أن يكون رائدا ومبتدعا لأمور كثيرة لم يتقدم عليه أحد فيها[2] » ، وقد ذكر هو ذلك كثيرا في كتبه التي دافع بها عن نفسه كالفوايد البارزة والتنبئة والرد على أخلد ... وسنلم بذلك في مقامه .

١١ - يؤصل كل ماسبق ، وهو بيت القصيد كما يقولون ، منشأ فكرة الاجتهاد في رأس السيوطي واعتقاده أنه المبعوث على رأس المائة التاسعة ، الذى كان من الأسباب التي أثارت عليه الجامدين والمقلدين على حد قول باحث[3] فكان حريًّا أن يستمر السيوطي حتى أنفاسه الأخيرة مثبتًا ماتمناه وأراده في كتبه ومؤلفاته التي انقطع بسببها عن الحياة العامة وهو في عامه الأربعين .

ومن ثم أصبح السيوطي موسوعيا وأعجوبة مصر في ذلك الزمان ، تاركا لنا ما اختلف عليه القدماء والمحدثون حوله كمًّا وكيفا . ونال به صاحبه آياتٍ من الإعجاب وسهامًا من الهجوم .

ونرغب في إثبات العدد الكمّي لمؤلفات السيوطي عند القدماء والمحدثين ثم نذكر الأرقام كما أوردها السيوطي نفسه .

فبلغت مؤلفاته عند ابن إيّاس ستمائة مؤلف[4] وعند الشعراني ٤٦٠ مؤلف[5] وعند

---

(١) راجع بدائع الزهور في وقائع الدهور . لابن إيّاس ج ٢ ص ٢٨١ ، وذيل الطبقات الكبرى للشعراني ص ٤ .

(٢) « السيوطي » بحوث . مقالة د . حسنين محمد ربيع ص ٤٢ .

(٣) أبو الفضل عبد الله الصديق . مقدمه على « الحبائك في أخبار الملائك » للسيوطي ط دار التاليف ص ٦ .

(٤) « بدائع الزهور في وقائع الدهور » لابن إيّاس ج ٣ ص ٦٣ .

(٥) ذيل الطبقات الكبرى . ص ٧ .

العيدروسي نحو الستمائة[١] وعند الداودى كما روى ابن العماد نافت عدتها على خمسمائة مؤلف[٢] .

وعند المعاصرين عربا ومستشرقين على النحو الآتى :

عند حاجي خليفة ٤٠٥ كتاب[٣] وعند إسماعيل البغدادى ٥٩٣ كتاب[٤] وعند جميل العظم ٥٧٦ مصنف[٥] وعند فوجل ٥٦١ مؤلف[٦] وعند بروكلمان ٤١٥ مصنف[٧] والزركلى نحو ٦٠٠ مصنف[٨] وهذا العدد مال إليه أكثرية من الباحثين كـ « طه عبدالرؤف سعد[٩] وعبد اللاه محمد حسن[١٠] وعبدالوهاب حمودة[١١] ، وعند عدنان محمد سلمان أكثر من ٧٠٠ مصنف[١٢] وقد أورد طاهر حمودة ثبتاً بستمائة كتاب[١٣] وعند مصطفى الشكعة ٥٥٥ كتاب ورسالة[١٤] .

أما السيوطى فإنه يقول فى حسن المحاضرة « وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ماغسلته ورجعت عنه[١٥]. إلا أنه ذكر فى رسالته « التنبئة بمن يبعثه الله على رأس

---

(١) النور السافر عن أخبار القرن العاشر . السيد عبد القادر العيدروسى المخطوط بدار الكتب رقم ٩٧٣٣ . ص . ٨ . وهو مطبوع ببغداد عام ١٩٣٤ م .

(٢) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢ .

(٣) كما يقول د . صافى حسين - الأمانة عليه - ص ٥٦ جلال الدين السيوطى .

(٤) هدية العارفين ط المثنى - بيروت . وثبت المؤلفات فى الجزء الأول من ص ٥٣٤ إلى ٥٤٤ .

(٥) راجع المزهر للسيوطى ط ثالثة ج ٢ ص ٦٤٧ ط دار التراث تحقيق البيجاوى وجاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

(٦) راجع جلال الدين السيوطى د . الشكعة ص ١٩٩ . وكذلك المزهرج ٢ ص ٦٤٧ (فلوغل ٥٦٠ مصنف) .

(٧) (راجع المزهرج ٢ ص ٦٤٧ . هذا وقد نفرد الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه القاهرة .. ط الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م . بأن بروكلمان ذكر له « ٣٣٣ مؤلفا للسيوطى » . واستكثر هذا العدد الذى ذكره بروكلمان واعتبر أن هذا العدد لا يجاريه أى مؤلف عربى آخر راجع ص ١٣٧ نفسه .

(٨) الأعلام ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٩) مقدمته على تحقيقه الأشباه والنظائر فى النحو ص ز .

(١٠) الإمام جلال الدين السيوطى أديبا ص ٢٠ .

(١١) صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ١٤١ . وراجع الهامش .

(١٢) السيوطى النحوى . رسالة دكتوراة مخطوطة . آداب الأسكندرية ١٩٧١ ص ٣٢٦ وما بعدها .

(١٣) السيوطى اللغوى ، رسالة دكتوراة - آدب الاسكندرية .

(١٤) السيوطى م . م ص .

(١٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٨ .

كل مائة أن مؤلفاته عدتها إلى الآن نحو خمسمائة مؤلف »[١] فضلا عن أنه عمل بنفسه فهرسا لكتبه من عشر مجلدات - كما يذكر الشعرانى . وبدار الكتب فهرس السيوطى وعدد ما فيه من أسماء الكتب ٥٣٨ مؤلف[٢] .

ومن ذلك يتضح لنا أن مشكلة عدم تحديد عدد ثابت لمؤلفات السيوطى عند القدماء والمحدثين بدأت من السيوطى نفسه ، فذكَرَ أكثر من رقم ، وأىُّ رقم منها يثير التعجب والشك ، وقد بدأ الهجوم المتواصل على كم مؤلفات السيوطى التى يفتخر بها دائما ويرفع هذه الأرقام إعجازًا فى وجه أعدائه يقول السيوطى وسارت مصنفاتى وعلومى فى سائر الأقطار ، ووصلت إلى الشام والروم والعجم والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور وامتدت من التكرور إلى البحر المحيط ، ولامشاركة لى فى مجموع ماذكرته (نحو خمسمائة مؤلف) ، ولا اجتمع لأحد من الموجودين مجموع العلوم التى اجتمعت لى ولا وصل الآن أحد إلى رتبة الاجتهاد المطلق غيرى فيما أعلم »[٣].

فها هو السخاوى يتهمه بالسرقة قائلا واختلس حين كان يترد إلىَّ مما عملته كثيرا ، كالخصال الموجبة للضلال ، والأسماء النبوية ، والصلاة على النبى ﷺ ، وموت الأنباء ومما لا أحصره ، بل أخذ من كتب المكتبة المحمودية وغيرها كثيرا من التصانيف المتقدمة التى لا عهد لكثير من العصريين بها ، فغيَّر فيها يسيرا ، وقدَّم وأخَّر ، ونسبها لنفسه[٤].

ونعتقد أن السخاوى هنا لا يهمه كمُّ مؤلفات السيوطى بقدر ما يحاول الطعن فى أمانة السيوطى ، وقد نال السخاوى من سبه هذا غضبة السيوطى الكبرى التى ردَّ بها عليه فى عشرات من مؤلفاته ، فضلا عن أن أكثر باحثى السيوطى سواء كانوا معاصريه أم تلاميذه - على كثرتهم ، أم المؤرخين أم الباحثين المعاصرين قد فندوا هذا الزعم ، وتلك الافتراءات كما سنلم بذلك .

بيد أن الأمر من الجانب الآخر استمر منذ السخاوى وفريقه ومنه القسطلانى الذى تاب عما طعن به السيوطى ، حتى يصل إلى العصر الحديث فنرى الدكتور فليب حتى

---

(١) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ص ٤٥ .

(٢) مخطوط بدار الكتب تحت رقم « ١٩٨ » « مكتبات » .

(٣) « التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » للسيوطى مخطوطة . بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ص ٤٥ .

(٤) الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع . للسخاوى . عنيت بنشرة مكتبة المقدس - القاهرة - سنة ١٣٥٣ هـ ج ٤ ص ٦٥ .

يقول : « وربما نسب إلى نفسه مؤلفاتٍ لغيرهِ ، وقعت نسخها بين يديه » ، لكنه يخفف ظنه هذا بقوله وهو عدد غير قابل للتصديق ، لولا أن بعضها كراريس قصيرة تدل على رغبة المؤلف فى طرق مواضيع غريبة واهية كما يستدل من عناوينها وإليك بعضها : الإسفار عن قلم الأظفار ، بلوغ المآرب فى قتل العقارب[1] وقد سار على قوله هذا ثلة من الباحثين[2]. وقد رأى البعض الآخر عدداً من المؤلفات قد دست عليه من حساده وأضافها إليه بعض الناس لترويجها ومنها[3] الفاشوش فى أحكام قراقوش ديوان « المرج النضر والأرج العطر » الرحمة فى الطب والحكمة وغير ذلك .

والواقع أن أكثر مؤلفات السيوطى أصابت ذيوعا وشهرة عالية فى البلدان الإسلامية فى أثناء حياته ، كما كان يفتخر بذلك كثيرا ، فليس فى الإسلام قطر إلا وقد وصلت تصانيفه إليه كما قال هو فى طراز العمامة[4] وغيرها مما سيأتى فى موضعه .

وقد أكدتْ ذلك أقوال تلاميذه والمؤرخين ، فنقرأ قول ابن العماد عن مؤلفاته – التى فاقت عدتها خمسمائة مؤلف .. وشهرتها تغنى عن ذكرها ، وقد اشتهر أكثر مصفاته فى حياته فى أقطار الأرض ..[5].

ولكى يهب السيوطى مؤلفاته تلك الشهرة ، وأسباب الزيوع فى البلدان الإسلامية ، وفرة النسخ الموجودة لمؤلفاته ، ففى ترجمته لابن ظهيرة « قاضى مكة » نقرأ .. ، ويطلب له منى عدة كتب من تصانيفى ليستنسخها له ، فجاءنى ، وذكر لى ذلك فأجبته إلى ماسأل ، وأعطيته الكتب التى سألها وهى : الاتقان والأشباه والنظائر وتكملة تفسير الجلال المحلى وشرح ألفية الحديث وشرح ألفية بن مالك والجزء الأول من الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ...[6] ، وفى رسالة من التكرور إليه يقول الشيخ « اللمتونى » فيها وتبين لى أمر هيئة السموات والأرض بدلائل القرآن والحديث وعرض بلدنا وطولها وبلغنى أنك ألفّتَ شيئا فى حروف التهجى ، فلا يليق بكرمك أن تكتمه عنا[7].

---

(١) مقدمته على « نظم العقيان » ص خ .
(٢) مثل عصام عبد الرءوف فى مقالته المنشورة ضمن بحوث « السيوطى » .
(٣) صفحات من تاريخ مصر . عبد الوهاب حمودة ص ٢٥٦ .
(٤) طراز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٠٢٣ ز الزكية » . ورقة ٣ .
(٥) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢ . وقد ورد هذا الخبر فى ذيل الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٧ .
(٦) نظم العقيان ص ٢٠ . (٧) الحاوى للفتاوى ج أ ص ٢٩١ .

فرد عليه السيوطي برسالة جاء فيها :

« سألت أن أبين لك أمر السموات والأرض بدلائل القرآن والحديث ، و « الجواب » أن لى فى ذلك تأليفا كاملا يسمى الهيئة السنية ، وسأرسل لكم منه نسخة لى ، وسألت عن الرسالة التى لى فى حروف التهجى وسأرسل لكم منها نسخة أيضا[١] .

وواضح من هذين النصين - على سبيل المثال - شهرة مؤلفات السيوطى وقيمتها فى حياته وهذه ميزة لم ينل شرف الحصول عليها إلا عدد قليل من العلماء ، لكن أمر هذا الكم الوفير لمؤلفات السيوطى ، جعل الباحثين المعاصرين يتضاربون حول تفسيره يقول الدكتور حسنين محمد ربيع : « ويمكن تفسير ذلك العدد الوفير من المؤلفات الكبرى والصغرى للسيوطى ، بأن كثيرا من رسائله الصغيرة لا تزيد الواحدة منها على مقالة طويلة أو صغيرة »[٢] .

ويرى محققو « المزهر » أنه ليس ببعيد أن تكون نسبة هذه الكتب إلى السيوطى صحيحة فقد نسب المؤرخون والمترجمون إلى غيره من العلماء والأدباء قريبا من هذا العدد[٣] غير أن الكثير من كتب السيوطى يقع فى رسائل صغيرة . وقد رأينا له أخيرا مجموعة من الكتب مطبوعة بعنوان الحاوى للفتاوى ، ويحوى ثمانية وسبعين كتابا ، معظمها فى جملة ما ذكره السيوطى فى حسن المحاضرة[٤] .

وفسّر الدكتور عصام الدين عبدالرؤف هذا العدد الكبير لمؤلفات السيوطى « بأن السيوطى كان يؤلف الكتاب الواحد ثم يقسمه إلى عدة كتب حيث يقول والسيوطى كان يؤلف الكتاب الواحد ثم يعود إلى تقسيمه وتجزئته إلى عدة كتب ضاربًا بمصنفات السيوطى فى الطبقات شاهدًا على ذلك وفى مصنفاته التاريخية يترجم بحسب الطبقات مما جعله يؤلف ثلاثة عشر كتابا لطبقات مختلفة هم الأنبياء والصحابة والمفسرون ، .. الخ[٥] .

---

(١) السابق ج ١ ص ٢٩٣ .

(٢) السيوطى « البحوث » ص ٤١ .

(٣) بل أكثر من ذلك ، فقد نسب لابن جماعة (٧٥٩ - ٨١٩ هـ) أكثر من ألف كتاب ورسالة راجع كتاب د . الشكعة ص ٤٨ .

(٤) المزهرج ٢ ص ٦٤٩ .

(٥) « السيوطى » مجموعة بحوث عنه ص ١١٠ .

والواقع أن هذا الحكم جانبه الصواب ، فالمعروف أن كتب الطبقات التى ألفها السيوطى كتب مفردة ، وبعضها شغل حجما كبيرا ، وبعضها كان من تجديدات السيوطى ، وبعضها كان قد اختصره أو زاد عليه مما وصل إليه ، وبعضها تركه فى صورة مسودات لم تبيض بعد مثل طبقات المفسرين ، على نحو ما سنرى .

فالسيوطى يقول فى مقدمة كتابه « تاريخ الخلفاء » فأفردت كتابًا فى الأنبياء ، وكتابا فى الصحابة ، ..... ، ..... ، .... ، ولم يبق من الأعيان غير الخلفاء مع تشوف النفوس إلى أخبارهم ، فأفردت لهم هذا الكتاب[١] ، فإنه – إذن – لم يصنف للطبقات كتابا ثم جزأه ، على نحو مازعم الباحث – إنما جعل لأهل كل طبقة مؤلفا كاملا وقد استمر فى تأليف هذه الطبقات حتى انتهى إلى « الخلفاء » .

بل إن السيوطى معروف بأنه كان يؤلف كثيرا من البحوث والرسائل ، ثم يجمع تلك البحوث والرسائل فى كتاب واحد – على عكس ماذهب ذاك الباحث – فإن الإتقان فى علوم القرآن يضم كثيرا من الرسائل التى أثبتها – فى غير موضع – كتبا قائمة بذاتها ويمكن القول – كما يقول د. أحمد شلبى – بدون خوف إن كتاب الاتقان يحوى أكثر ماكتبه السيوطى عن القرآن من أسباب التنزيل إلى المتشابهة فالمبهمات وتناسب السور .. ثم جمعها كلها فى كتاب الاتقان فى علوم القرآن[٢].

ويمكننا الآن أن نفسر ذلك العدد الوفير لمؤلفات السيوطى الذى حينما يرى الناس وقد هامت بكتاب ما لمؤلف ما ، يشرحه أو يحشيه أو يختصره أو ينظمه ثم يفصل الزيادة ويختصرها وهكذا ، ولنأخذ على ذلك مثلا :

فعلى كتاب الروضة فى الفروع المسماة « روضة الطالبين وعمدة المتقين » كتب السيوطى الحاشية المسماة بأزهار الفضة وهى الكبرى ، وكتب منها الحواشى الصغرى ، وله الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع ، وله مختصر الروضة مع زوائد كثيرة تسمى الغنية ولم يتم ، وله العذب المسلسل فى تصحيح الخلاف المرسل فى الروضة وقد اختصر الأصل مجردا وسماه العنبر مع ضم زيادات ، وقد نظم الروضة وسماه الخلاصة وشرح هذا النظم وسماه رفع الخصاصة[٣].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ط الرابعة . المكتبة التجارية الكبرى ص ٣ وما بعدها .
(٢) مقالته بـ « السيوطى مجموعة بحوث عنه » ص ٢٢٧ .
(٣) حاجى خليفة . كشف الظنون ج ٢ ص ٩٢٩ .

ويبدو أن السيوطى أراد أن يلاحق القارئ أينما ذهب ، فيؤلف له الشرح والاختصار والتذييل والنظم ، على كتاب عمدةٍ ، أهميةً ومكانًا ، حتى يصيره سيوطيا دمًا ولحمًا .

ويضاف إلى ذلك ماذكره المؤرخون والباحثون أن كثيراً جدا من كتبه صغير الحجم ، منه ما هو ورقة كما تهكم بذلك السخاوى . وهو محق فإن « قطف الثمر فى موافقات عمر » عده السيوطى مؤلفا وهو خمسة عشر بيتا من النظم ، وكذلك « تحفة المهتدين بأسماء المجددين » وهى منظومة فى ثمانية وعشرين بيتا .

ويضاف إلى ذلك أيضا – أن اختلاف بعض عناوين كتبه جعلت القدماء والمعاصرين يكثرون من تعداد كتبه ظنا منهم أنها كتب مختلفة كأسماء بعض المقامات التى أعطى السيوطى – كثيرا – من المقامات أكثر من عنوان .

ويضاف إلى ذلك أن السيوطى كان يميل – أحيانا – إلى تغيير عنوان كتابه ، وكان ينبه على ذلك إلا أن بعض المؤرخين – للأسف – وضعوا هذه العناوين كتبا ، كل عنوان لكتاب منفصل ولنأخذ مثلا على ذلك .

يقول السيوطى « ... وألفت فى ذلك مؤلفا سميته أولا الإعراض والتولى عمن لا يحسن أن يصلى » ثم عدلت عن هذا الاسم وسميته « الثبوت فى ضبط القنوت وهو مودع فى الجزء السادس والثلاثين من تذكرتى »[1].

فنرى البغدادى مثلا – فى هديته ، وهو يفهرس مؤلفات السيوطى يذكر ذلك الكتاب كتابين « الإعراض والتولى عمن لا يحسن أن يصلى ص ٥٣٥ ج ١ والثبوت فى ضبط القنوت ص ٥٣٧ ج ١ .

هذا وقد شارك السيوطى نفسه فى هذا التضارب حول العدد الكمى لمؤلفاته على نحو ما ذكره من أكثر من رقم متباين لمؤلفاته . ويبدو – من ناحية أخرى – تسمية أبواب الكتاب الواحد بأسماء الكتب من تعشقات السيوطى ككتابه الأشباه والنظائر فى القواعد النحوية التى أدت به إلى أن يضع بابًا منها على أنه مؤلف كامل له ، يثبته فى مؤلفاته ، كالباب المسمى « المصاعد العلية فى القواعد النحوية » وضعه فى ترجمته فى حسن المحاضرة ككتاب له[2] .

---

(١) السيوطى « الحاوى للفتاوى » ج ١ ص ٣٥ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٣ .

وعموما – كما يقول الشكعة – « أن هذا العدد من المؤلفات ليس بالعدد الكبير على عالم ذكى عبقرى ، خصب القريحة ، سخى العطاء ، كرس جهده للعلم ، وترهب فى محرابه . فلقد اعتزل الناس منذ أن بلغ الأربعين من العمر ، واتخذ من بيته فى جزيرة الروضة – آنذاك – معبدا ومحرابا ، صلاته فيها بعد الصلوات الخمس قراءة وتحصيل وعبادته وتصنيف وتأليف ، وهوايته إملاء وتدريس ، وقد ظل على تلك الحالة واحدا وعشرين عاما ، هذا غير الكتب التى ألفها قبل أن يعتزل الناس ، وقد مارس السيوطى التأليف العلمى فى سن مبكرة ، وكان فى السابعة عشرة من عمره »[1] .

والحق أننا لا نستغرب هذه الكثرة الواضحة فيما قدم الرجل من علوم إلا استغراب الجهد الإنسانى[2] الذى يذكرنا بقول ابن العماد وهو يذكر مقامات وكرامات السيوطى« لو لم تكن له من الكرامات إلا كثرة المؤلفات مع تحريرها ، وتدقيقها لكان ذلك شاهدا لمن يؤمن بالقدرة ..»[3] .

■■ غير أن هذه الكثرة الرائعة من المؤلفات التى تركها لنا السيوطى تعرضت منذ أن ألفها حتى يومنا هذا القضية التشكيك فى قيمتها » .

وبدأت تلك القضية حينما أخرج السيوطى هذه المؤلفات الوفيرة العدد ، المتعددة الفنون متباهيا بكتبه ، معتزا بعلومه ، ثم فاجأ العالم وادعى الاجتهاد ، معتقدا أنه مبعوث على رأس هذا القرن ، فقام عليه المقلدون الجامدون وتألبوا ضده ، وزعموا أن الاجتهاد أقفل بابه وإن كان قد وضح أنه يقصد الاجتهاد المطلق المنتسب وليس الاجتهاد المطلق المستقل كما قال فى أكثر من مؤلف ، وسنلم بذلك فى حينه .

وقضية التشكيك فى مؤلفاته قد بدأها السخاوى وفريقه ، القسطلانى ، والجوجرى وابن الكركي وابن العليف وغيرهم .

وقد قضى السيوطى زمنا طويلا يدافع عن نفسه سهام خصومه الذين ناصبوه العداء وواجهوه بالبغضاء ، وصوبوا إليه كثيرا من الاتهامات فى ذاته وعلمه ومؤلفاته وإن كان قد رد الصاع صاعين وأكثر .

هذا وقد خصص السيوطى العشرات من رسائله ومؤلفاته علمية ووصفية وإنشائية

---

(١) جلال الدين السيوطى م . م ص ١٤٣ .

(٢) بحوث « السيوطى » مقالة د . عبده الراجحى ص . ٣٨ .

(٣) شذرات الذهب جـ ٨ ص ٥٤ .

للدفاع عن نفسه ، وتفنيد كل اتهام وجه إليه ، وكل سب قذف به ، تاركا وإياهم كمًا هائلا من النقائض الفكرية .

وكان السيوطي ذا منهج علمي دقيق ، أمينا فيما ينقل حيث يقول « وقد علم الله والناس من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفا من كتاب أحد إلا مقرونا إلى قائله ، ونسبته إلى ناقله[١] إذ أنه كان ينقص قدر كتاب للقسطلاني ، ويزعم أنه يسرق من كتبه ، ويستمدُّ منها ولم ينسب النقل إليها ، وادعى ذلك بين يدى شيخ الاسلام زكريا الأنصاري ، فألزمه ببيان مدعاه ، فقال : أنه نقل عن البيهقي وله عدة مؤلفات ، فليذكر لنا ذكره في أي مؤلفاته ، لنعلم أنه نقله عنه . ولكنه رأى ذلك في مؤلفاتي فنقله ، وكان الواجب أن يقول ، نقل السيوطي عنه ..[٢] .

ومن جانب آخر فإن القسطلاني تنبه إلى خطئه مع السيوطي عامة . فذهب إلى مسكنه حافيا ليعتذر إليه[٣] ، وقد وقف إلى صف السيوطي في معاركه مع معاصريه عدد كبير من العلماء الثقات ينصفون علمه ، ويبرئون ساحته وفي مقدمتهم ابن إياس والشوكاني (م ١٢٥٠ هـ) فإذا كان ابن إيّاس متهما بولائه للسيوطي بوصفه تلميذا له ، فإن الأمر يختلف بالنسبة للشوكاني .

■ ومن قبيل تتمة الكلام فقد ظهر في العصر الحديث من حاول أن يحط من قدر السيوطي والتشكيك في قيمة مؤلفاته منهم د. فليب حتي[٤] ود. عصام الدين عبدالرؤف وإن ناقض نفسه بعد ذلك[٥] وعبدالوهاب حموده وإن دافع عنه[٦] وغير هؤلاء .

ودافع عنه كثير من الباحثين كالدكتور أحمد شلبي الذى عده أقرب ما يكون إلى الباحثين المعصرين وإلى طرق بحثهم ، فهو يختار المشكلة التي تحتاج إلى بحث ، ويدرس كل ما كتب عنها ، ويبني نواحي النقص ، ويعد بإكمال مافات ، ويضع خطة بناء على ذلك ، ويحلل مراجعه تحليلا دقيقا ، وينسب كل اقتباس إلى صاحبه ، والفرق بينه وبين

---

(١) مقامة الكاوى على تاريخ السخاوى للسيوطي مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣١٩٩٠ عمومي ، ١٥١٠ خصوصي . الورقة الخامسة .

(٢) كشف الظنون ج ٢ ص ١٨٩٧ .

(٣) راجع القصة بالكتاب السابق نفس الصفحة .

(٤) في مقدمته على « نظم العقيان » للسيوطي .

(٥) في مقالته بيحوث « السيوطي .. » ص ١١١ .

(٦) صفحات من تاريخ .... ص ٢٤٨ .

المنهج الجديد هو أنه لا يذكر صفحات الكتاب الذى يقتبس منه ، وله فى ذلك عذره طبعا فلم تكن هناك طبعات يعتمد عليها على نحو ماهو واقع الآن[١] .

وهناك الكثيرون من الباحثين المعاصرين الذين دافعوا عن منهجه العلمى ، دقةً والتزامًا وإبداعًا منهم د. مصطفى الشكعة[٢] د. محمد حسين الذهبى[٣] وأكثر الباحثين الذين نشروا بحوثهم فى الكتاب المعنون « بجلال الدين السيوطى » ، وغير ذلك كثير كمحمد أبو الفضل إبراهيم[٤] وصاق حسين[٥] وأحمد ظافر كوجان[٦] والسيد على حسن[٧].

■ ونرغب فى ذكر تحامل لباحث على السيوطى لنعقب عليه .

يقول على محمد عمر فى مقدمته على كتاب السيوطى (طبقات المفسرين) .

« وقلَّ أن تظفر من السيوطى بكلامٍ له أو نقدٍ أو تعليقٍ أو نحو ذلك ، بل يكاد كتابه يخلو من ذلك كله ، ومن هنا اختلف الكتاب حسب اختلاف المصدر الذى نقل عنه واحتجبت شخصية السيوطى وراء الروايات التى يغمرك بها ، والنقول التى يسوقها عن مصادر المؤرخين »[٨].

ولا ندرى كيف يصدر هذا الاتهام باحتجاب شخصية السيوطى فى الكتاب ، من محققه وكأنه لم يقرأ نهاية الكتاب حيث يقول :

« انتهى ما وجد من خط مؤلفه ، قال تلميذه الحافظ شمس الداودى رحمه الله تعالى : علقت ذلك من مسودة فى أوراق لم يتمها شيخنا ، وكان عزمه أن يكون مؤلفا حافلا ، فلله الحمد والقوة سبحانه ..»[٩] .

فكيف - إذن - للسيوطى كلامٌ أو تعليقٌ على مسودةٍ فى أوراق ، لم تتم ، وجدها

---

(١) « السيوطى » مجموعة بحوث عنه . ص ٢٢٧ / ٢٢٨ .

(٢) جلال الدين السيوطى م . م . فى أكثر من موضع وكذلك مقالته بالسابق ص ٣٩٠ .

(٣) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٤٤٧ . ط الثانية دار الكتب الحديثة .

(٤) مقدمته على حسن المحاضرة ص ٥ ج ١ .

(٥) جلال الدين السيوطى . أكثر من موضع .

(٦) مقدمته على « شرح شواهد المغنى للسيوطى » منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ج ١ ص ٣ .

(٧) مقالته بمجلة آداب سوهاج العدد ٣ عام ١٩٨٣ م ص ٣٩٩ .

(٨) طبقات المفسرين للسيوطى . تحقيق على محمد عمر . (مقدمة المحقق ص ٧ ط أولى . مكتبة وهبة ١٩٧٦ م .

(٩) السابق ص ١٢٤ .

تلميذه الداودى بعد وفاة شيخه ، وإن كان نص الداودى يجرنا إلى قضية أخرى كان على محقق هذا الكتاب درسها ، منتهيا إلى ما يليق بكلمة « تحقيق على محمد عمر » على غلاف كتاب السيوطى .

فنص الداودى « علقت ذلك من مسودة فى أوراق لم يتمها شيخنا ، وكان عزمه أن يكون حافلا » وفى نسخة ثانية كانت بين يدى المحقق يكمل الداودى قائلا : فأدركته المنية ، فلله الحول ....[1] فكيف هذا والسيوطى نفسه قال فى مقدمة على كتابه تاريخ الخلفاء أنه كتب تاريخ الخلفاء بعد أن انتهى من كتابة جميع كتب الطبقات ومنها طبقات المفسرين وكان كتابا حافلا على حد قوله[2] .

فهل يعنى هذا أن هذا الكتاب الذى قال عنه السيوطى كان كتابا حافلا ، لم يكن بين يدى تلميذه الداودى ، أم أن هذا الكتاب قد فقد ، ولم يكن معه إلا تلك المسودات التى تركها له السيوطى خاصة وقد أجاز له رواية كتبه ومصنفاته على نحو ماذكرت المصادر كشذرات ابن العماد وغيرها . أم أنّ السيوطى لم يكن قد جمع إلا تلك المسودات والأوراق ورآها ستمثل مؤلفا حافلا ، فتركها ليعود إليها بعدئذ فأثبتها فى تاريخ الخلفاء ككتاب كان حافلا ، وإن كنا نرى أن قوله (كان حافلا) يضعف هذا الظن ، فضلا عن أن كتبه كانت ذات شهرة وذيوع فكيف يقول عن مسودات إنها مؤلف حافل ؟ وبعد فأين الكتاب الحافل هذا ؟ وليست المسودات التى علقها الدوادى ونشرها على محمد عمر ؟! .

وخلاصة الأمر أن السيوطى ظاهرة علمية فكرية أدبية متميزة بين أقرانه من أعلام القرنين التاسع والعاشر من حيث تنوع ثقافته ووفرة كتبه ونفاسة محتواها والعلوم المتعددة التى رزق الإجادة فيها على درجات كما قرر هو على النحو الآتى :

■ يقول السيوطى موضحا فنون موسوعيته ، ودرجاتها ، ومقدار ماله فيها ، فى ترجمته عن نفسه « ورزقت التبحر فى سبعة علوم : والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التى أطلعت عليها فيها ، لم يصل ، ولا وقف عليه أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونهم ، وأما الفقه فلا

---

(١) طبقات المفسرين . هوامش ص ١٢٤ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ط الرابعة ص ٣ .

أقول ذلك فيه ، بل شيخى أوسع فيه نظرا ، وأطول باعا ، دون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ولم آخذهاعن شيخ ، ودونها الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شىء على ، وأبعده عن ذهنى ، وإذا نظرت فى مسالة تتعلق فكأنما أحاول جَبَلاً أحمله .. »[١].

ثم يورد السيوطى تقسيما لمؤلفاته فى سبعة فنون وهى « فن التفسير وتعلقاته والقراءات ، فن الحديث وتعلقاته ، فن الفقه وتعلقاته ، الأجزاء المفردة فى مسائل مخصوصة على ترتيب الأبواب ، فن العربية وتعلقاته ، فن الأصول والبيان والتصوف ، فن التاريخ والأدب » ، وإن كان السيوطى قد غير شيئا ما من هذا التقسيم فى غير موضع فى كتبه الأخرى ففى فهرسه وضع الفن الأخير تحت عنوان « فى الأدب والنواد والشعر » .

ونرغب فى ذكر مقدار السيوطى - بإيجاز - فى هذه الفنون ، لنرى حجم الأدب عنده ودرجته وكما تمثله الباحثون .

■ « وتأتى على رأس هذه القائمة من الفنون ، الدراسات القرآنية عنده ، إذ أنه ابتدأ حياته العلمية وحياة التأليف بالقرآن ، وكان أول شىء قام بتأليفه هو كتابه فى تفسير الاستعاذة والبسملة ، وقد عرضه على شيخه البلقينى فأقر تأليفه وامتدحه يقول الدكتور أحمد شلبى « وقد هالنى أنه كتب فى هذا المجال مجموعة ضخمة من المؤلفات التى تعد مراجع مهمة للباحثين والدارسين »[٢] ، وعدد ماله فى علم التفسير ٧٣ مؤلفا[٣] وننبه على أن كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » هو الكتاب الوحيد الذى اقتصر على التفسير بالمأثور[٤] ومع ذلك يقول الدكتور الذهبى « نجد العلامة السيوطى ينحو منحى الغزالى فى القول بالتفسير العلمى[٥] ، ناهيك عن كتابه الإتقان فى علوم القرآن وما يحظى به من مكانة عند كل الدارسين ، وللسيوطى ألفية فى القراءات العشر .

■ أما فن الحديث وتعلقاته ، فقد بلغت مصنفات السيوطى فى هذا المجال نحو مائتين

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٨ .
(٢) السيوطى بحوث . مقالة . د . أحمد شلبى ص ٢٢٦ .
(٣) السيوطى . د . صاقى حسين ص ٥٦ .
(٤) راجع مقدمة الكتاب ط دار المعرفة - بيروت - لبنان ج ٢ ص ١ وما بعدها كذلك « التفسير والمفسرون » للدكتور الذهبى ج ١ ص ٤٤٧ ط الثانية .
(٥) « التفسير والمفسرون » . د . محمد حسين الذهبى ج ٢ ص ٤٤٧ .

وخمسة كتب كما ذكر أحد الباحثين[١] ، وهناك ثبت أعدّه الدكتور عبدالحكيم السيد علتم لمؤلفات السيوطى فى علم الحديث « راوية » بلغت مائة وثمانية وستين مؤلفا ورسالة[٢] ، وقد كان السيوطى - كما يقول ابن العماد نقلا عن الداودى - « أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالا ، وغريبا ومتنا وسندا ، واستنباطاً للاحكام ، وأخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتى ألف حديث قال : لو وجدت أكثر من هذا لحفظته ، قال : أى الداودى - ولعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك[٣]. وكان يقول أن النبى قال له فى المنام يسأله عن بعض الأحاديث : هات ياشيخ السنة ، هات ياشيخ الحديث[٤] وقيل « إنه كان يجتمع بالنبى ﷺ يقظة »[٥] .

هذا وللسيوطى أكبر موسوعة فى الحديث وهى الجامع الكبير ومختصره « الجامع الصغير » اللذان أثارا إعجابا وطعونا أنفقت أرداحا من الوقت قديما وحديثا[٦] . وله - مثلا - الألفية فى علم الحديث وهى أجمع منظومة فى هذا الصدد كما قال دارسوها[٧] ، وهو مع كل هذا كان يجيب بقدر مايعرف وترى ذلك فى الحبائك[٨]. وننبه على أن السيوطى لم يصل - فيما أعتقد - إلى درجة أمير المؤمنين فى علم الحديث كما زعم أحد الباحثين[٩].

■ أما فن الفقه وتعلقاته عند السيوطى فإنه يرى أن علماء الفقه هم « قوام الدين وبهم ائتلافه وانتظامه ، هم ورثة الأنبياء ، وبهم يستضاء فى الدهماء ، ويستغاث فى الشدة والرخاء ، ويهتدى كنجوم السماء ، وإليهم المفزع فى الآخرة والدنيا ، والمرجع فى

---

(١) د . على صافى حسين « الإمام السيوطى » ص ٧٨ .

(٢) راجع ص ٣١٤ إلى ٣٢٦ ببحوث « السيوطى » .

(٣) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣ .

(٤) السابق ج ٨ ص ٥٣ / ٥٤ .

(٥) ذيل الطبقات الكبرى للعرانى ص ١٩ .

(٦) تفصيل تلك القضية فى مقالة الدكتور علتم ببحوث « السيوطى » ، وما أثبته من مؤلفات قامت على هذين الكتابين مدحا وقدحا ، تفسيرا وتمحيصا وشرحا ، عند القدماء فى أكثر من ثلاثة عشر كتابا ، فضلا عما أثاره الكتابان . وخاصة الأول - حديثا - من معارك كان فارساها الشيخ عبد الجليل عيسى والدكتور عبد الحليم محمود ، واستمرت فترة طويلة فى الصحف والمجلات كالمنبر - راجع من ص ٣٢٧ - ٣٥٣ « بحوث » « السيوطى .. » .

(٧) راجع شرح أحمد محمد شاكر على ألفية السيوطى ط دار المعارف ببيروت .

(٨) الحبائك فى أخبار الملائك للسيوطى « ص ٢٢٦ » .

(٩) محمد المبارك عبد الله فى كتابه « الناقد الحديث فى علوم الحديث » ط أولى . محمد على صبيح بالأزهر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ص ١٢٤ .

التدريس والفتيا ، ولهم المقام المرتفع على الزهرة العليا ، هم الملوك ، لا بل الملوك تحت أقدامهم »[١].

وفى النص ما يشير يقينا إلى تعشق السيوطى للفقه وعلمائه ، ومدى تقديره للعالم ويعكس - ضمنيا - ما فى السيوطى من ترفع واعتزاز وهجاء ساسة العصر ، ومن ناحية أخرى يشعرنا بمكانته - وهو الفقيه - ومحاولاته الدوب لنشر حلمه فى مبعوثيته كإمام مجدد ، ومصلح أمور أمته الإسلامية فى ذلك القرن ، وسنناقش الإمامة فى رأس السيوطى فى الباب الأول من هذا البحث .

ولاننسى أن السيوطى ألف فى الفقـه واحدا وسبعين كتابا ورسالة كما قال أحد الباحثين[٢] .

■ أما فن العربية وتعلقاته عند السيوطى فإنه ألفّ فيه - كما يقول الشكعة - أكثر من مائة كتاب ورسالة فى علوم اللغة المختلفة[٣] ، « وقد تحرز تحرزا واضحا حين قرر أنه أتقن ما أتقن من علوم العرب على طريقة العرب البلغاء ، وأهل الفلسفة ، لأن طريقة العرب هى النهج السلفى الذى يقرب إليه فهم المسائل فى نطاق من الصواب ، وسياج من السلامة وإطار من الدقة خشية أن يقوده النهج الآخر إلى تعقيد شديد ، ومشاكل عقلية على نحو ما هو معروف عند القزوينى فى تلخيصه ، ومن شرحوه من أمثال الجرجانى والتفتازانى »[٤] .

هذا والسيوطى اللغوى نال هوى وإعجابا عند المعاصرين فأقيمت عليه كثير من الدراسات ، والأطروحات الجامعية ، وإن بعض الباحثين المعاصرين كالدكتور الشكعة والدكتور عبده الراجحى[٥] عدوه رائدا لغويا بين الأعلام اللغويين المشهورين كسيبويه والكسائى ...[٦] .

---

(١) الأشباه والنظائر فى الفقه ط إحياء الكتب العربية عيسى البابى ص ٣ .
(٢) د. على صافى حسين . الإمام السيوطى ص ٥٦ .
(٣) جلال الدين السيوطى م . م . ص ١٣٤ .
(٤) الترجمة الشخصية . د . شوقى ضيف - دار المعارف - ص ٥٦ .
(٥) مقالة الراجحى ببحوث « السيوطى » وكتاب الشكعة « جلال الدين السيوطى » م . م .
(٦) كتاب الشكعة السابق ص ١٥١ .

ولوحظ أن دراسة اللغة عند السيوطى موصولة بالمنهج الحديثى وهو من أدق المناهج عرفها العقل الإنسانى المثقف حتى يومنا هذا .

ومع أن السيوطى لم يثبت لنا أنه كان يعرف لغة غير العربية ، ولكننا أمامه وهو يحلل بعض المعرب ، ويردها إلى أصلها كأننا أمام خبير عليم باللغة التى ينقل عنها كما قال حد الباحثين[١] هذا والسيوطى صاحب مدرسة نحوية مكتملة أسباب الصحة والبناء[٢] ومن كتبه فى النحو الاقتراح الذى سبق به أهل زمانه فى الإبداع وهو من أوضح كتب الأصول النحوية المبنية على الأصول الفقهية[٣] وله الألفية وجمع الجوامع والموشح وغير ذلك .

وفى علم اللغة له المزهر وهو من خير المصنفات اللغوية فى جميع الحقب بمصر وغير مصر[٤] وله المهذب والمتوكلى اللذان يرى الدكتور الشكعة أنهما « يصلحان لكى يشكلا دراسة رائدة فى علم اللغة المقارن »[٥] ، وعموما فإن كتاباته اللغوية تعتبر أشمل ما قدم من درس لغوى متأثر بعلوم الحديث[٦] – وإن كان وسطيا فى الاحتجاج أصلاً بالحديث الشريف[٧] .

هذا غير مؤلفاته الكثيرة فى البيان والبديع والمعانى ، كألفية « عقود الجمان » غيرها .

■ أما فن التاريخ عند السيوطى فأنه لم يذكره مفردًا مما حدا بعبدالوهاب حمودة إلى أن يقول « لعلَّ عدم النص على ذلك تواضع منه أو تسيان أو عدم اعتداد منه بالتاريخ كما اعتد بالفقه والنحو والحديث[٨] .

---

(١) د . شعبان ربيع فى بحثه عن « السيوطى والمعرَّب عن الفارسية » الذى اشترك به فى مؤتمر السيوطى إبريل ١٩٨٢ م بجامعة أسيوط .

(٢) « السيوطى » د . الشكعة ص ٢٤١ .

(٣) منهج النحاة العرب من خلال الاقتراح « للسيوطى » رسالة ما جستير مخطوطة دار العلوم ١٩٧٢ م عبد الحميد أحمد جاد . ص ص .

(٤) عصر الدول والإمارات . مصر – الشام . د . شوقى ضيف دار المعارف ١٩٨٤ . ص ١١٤ .

(٥) جلال السيوطى م . م . ص ١٥١ .

(٦) السيوطى « مجموعة البحوث » مقالة الراجحى ص ٣٨١ .

(٧) راجع « موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف » د . خديجة الحديثى ، دار الرشيد بغداد – ١٩٨٠ م . ص ٢٦ وما بعدها .

(٨) صفحات من تاريخ مصر . ص ٢٢٤ .

وفي اعتقادنا أن السيوطي لم يتواضع أو ينس أو لم يعتد بالتاريخ حينما لم يذكره في حديثه عن العلوم التي رزق التبحر فيها ، إنما رأى أن التاريخ والأدب أقرب ما يكونان إلى الفن أو العلم الواحد من أي جنس فني أو علمي آخر . فلذلك حينما قسم مؤلفاته في فنون جعل الفن السابع والأخير تحت عنوان « فن التاريخ والأدب » . وتؤكد ذلك بقوله في مقدمته لنظم العقيان أن الشافعي أقام عشرين سنة على تعلم أيام الناس والأدب للاستعانة بها على الفقه يضاف إلى ذلك أن كثيرا من كتب السيوطي التاريخية تورد على أنها كتب أدبية كحسن المحاضرة[١] .

هذا وقد اتخذ السيوطي لنفسه منهجا مخالفا لمنهج مؤرخي القرن الخامس عشر[٢] وكان كما يقول الدكتور حسنين محمد ربيع رائدا ومبتدعا لأمور لم يتقدم عليه أحد فيها ، ولاريب أن منهجه في كتابة التاريخ وكان إحداها[٣] جعل هذا الباحثين يستحسنون كتبه التاريخية ، ويضفون عليها آيات الإعجاب ، وإن كان علي صافي حسين يشتط ويرى أن السيوطي « أقدر على تطبيق منهج ابن خلدون في التاريخ من ابن خلدون نفسه « . ومن ناحية أخرى نتفق معه - كما هو يقيني - أن كتبه ومصنفاته في التاريخ والطبقات كانت ولم تزل أهم المراجع التاريخية لمعرفة أحوال العروبة والإسلام في مصر والشام إبان العهود الفاطمية والأيوبية وفي أثناء عصور المماليك البحرية والبرجية ، وقد حفل بدراستها وتحقيقها ونشرها عدد غير قليل من فريق المستشرقين والباحثين المجتهدين[٤] .

وقد أحصى له الشكعة خمسة وخمسين كتابا ورسالة في التاريخ والطبقات والتراجم وعده حجة ثقة في علم التاريخ . وهو شيخ مؤرخي زمانه دون منازع ، وربما احتل المقام الثاني بين المؤرخين المصريين بعد المقريزي[٥] .

■ ونرغب الآن ونحن نقترب من السيوطي في أدبه الإنشائي في التحدث عن الأغراض المتنوعة التي تناولتها براعة السيوطي ، محللين قضة ذات شأن تتعلق بجانب من جوانب شخصيته ومنها لفهم بعض أدبه الخاص بهذا الشأن كما ينبغي .

---

(١) راجع ص ١٤٠ جلال الدين السيوطي م . م . د . الشكعة « لأنه حافل بالنصوص الشعرية الفريدة ، والرسائل النثرية النفيسة » .

(٢) جلال السيوطي « مجموعة البحوث » ص ٤١ وما بعدها .

(٣) السابق ص ٤٢ .

(٤) جلال الدين السيوطي . د . صافي حسين ص ١٢٠ / ١٢١ .

(٥) كتابه « جلال الدين السيوطي م . م . ص أ .

يقول الدكتور الشكعة « ألّف السيوطى عددا كبيرا من الكتب فى موضوعات مختلفة مثل الطب والتصوف ، وتحريم المنطق ، والرد على خصومه ، والوعظ ، وعلاقته بالعلماء والجمهرة والحكام والسلاطين ، والفتاوى ، وإجابات المسائل ، كل ذلك فضلا عن كتب أخرى فى موضوعات لا تجمل بالعالِم أن يتورط فى الكتابة فيها ، فتبرأ منها ، وأسقطها من عداد مؤلفاته »[١] .

ويهمنا هنا الفقرة الأخيرة من عبارة الشكعة « كل ذلك .. مؤلفاته » التى لم يوضح لنا الباحث الكتب التى تبرأ منها السيوطى إذ شعر أنه تورط فى الكتابة فيها ، وإن كنا ندرى أن الباحث يشير - ضمنيا - إلى المؤلفات العديدة التى ألفها السيوطى فى علم « الباه » والتى ترجم بعضها فى أدب إنشائى كمقامته « رشف الزلال من السحر الحلال » التى وقف أمامها الباحث نفسه فى بحثه « السيوطى كاتبا أديبا » متحيرا كما يقول « إزاء الصراحة العارية والألفاظ المكشوفة والكمات المفرطة فى الإباحية التى جرت على لسان السيوطى فى هذه المقامة ، إنه أدبٌ - إن صحت هذه الكلمة - مكشوفٌ إلى الحد الذى يخجل منه القارئُ أى قارئ ، وإن المرء ليتحير فى تسميته ، أهو أدب مكشوف ، أم أدب جنسى أم أدب فراش » ؟[٢] .

وقد ذهب إلى هذا الدكتور أحمد عبدالرازق فى بحثه « المرأة فى كتابات السيوطى » وهو بصدد استعراض مجموعة من الكتب للسيوطى فى مضمار بحثه عن الباه إلى أن السيوطى « تنبه فجأة إلى مدى فداحة الخطأ الذى وقع فيه ، فقرر أن يتنكر لمثل هذه المؤلفات »[٣] .

فهى « من الموضوعات الواهية التافهة التى أقبل عليها جلال الدين السيوطى فى بعض الأحيان[٤] ويستند الباحثان إلى قول السيوطى عن عدد مؤلفاته فى حسن المحاضرة « بلغت ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه »[٥] ، ويجعلان من هذا النص مِشْجَبًا يعلقان عليه ظنهما بأن الذى غسله السيوطى ورجع عنه مثل هذه المؤلفات التى جعلت الأخير يتساءل هل تكون تلك المصنفات دُسّتْ عليه باسم السيوطى الآخر ؟

---

(١) السابق ١٤٦ .

(٢) جلال السيوطى . مقالة د . الشكعة ص ٤١٩ .

(٣) السابق مقالة د . أحمد عبد الرازق ص ٢١٠ .

(٤) السابق ص ٢٠٨ .

(٥) ج ١ ص ٣٣٨ .

أو يكون جلال الدين السيوطي صاحبها نقلها ودسها لنفسه ، وهو غير واع إلى ما فيها رغبة في الإكثار من إنتاجه[١] ، الذى عاد فناقض نفسه وهو يقول إنه أراد أن يثبت لعلماء عصره أنه قادر على التصنيف فى مثل هذه الموضوعات الهزلية ، ثم تنبه فجأة إلى فداحة الخطأ ..[٢] ، ونزيد الأمر وضوحا في تناقضه وهو يعلق على كتاب « الإيضاح فى علم النكاح » بقى أن نشير والحق يقال أن بعض الباحثين - يقصد إلياس سركيس فى معجم المطبوعات - قد نفى عن جلال الدين السيوطي تهمة وضع هذا الكتيب ، وذكر أنه منسوب إليه ، بيد أنه لانجد حرجا فى نسبته إليه خاصة ، ونحن نعلن أن له باعا طويلا فى مثل هذه التآليف ..[٣] .

والغريب أن الباحثين يدركان أن السيوطي لم ينص على نوعية هذه الموضوعات التى مجّهَا السيوطي ونفض يده منها « على حد تعبير أحدهما »[٤] .

وهذه حقيقة فلم ينص السيوطي على ماهية « ما غسله ورجع عنه » فى أى كتاب آخر ولكننا نسألهم أسئلة لماذا - لو كان السيوطي يقصد ما أوّلوه - يذكر بعض مؤلفاته فى كتابه حسن المحاضرة نفسه مثل « المستظرفة فى أحكام دخول الحشفة » ومن ناحية أخرى لماذا لم يحذف كل هذه المؤلفات - كما سيرد ذكرها - من فهرسه الذى صنعه ؟! ، ولماذا لم ينفض يده من مقامته رشف الزلال وهى من أدب الفراش والجنس المكشوف وهى من مقاماته وقد ذكر المقامات فى حسن المحاضرة وذكرها هى فى فهرسه ؟ .

ومن ناحية أخرى فإن السيوطي فى هذا الثبت لمؤلفاته فى حسن المحاضرة لم يذكر كتبا باللغة الأهمية كالمزهر كما قال عبدالوهاب حمودة ، بل أننا نضيف أنه فى كتب الطبقات وحدها ، لم يذكر للسيوطي فى هذا الثبت « طبقات الأنبياء - والفرضيين ، والبيانيين ، وأهل الخط » وقد نصَّ هو فى تاريخ الخلفاء - كما تحدثنا سابقا - أنه كتب تاريخ الخلفاء بعد أن أنتهى من كتابة جميع مؤلفاته فى الطبقات ومنها الأربعة هذه ، ولكنه أثبت تاريخ الخلفاء وبقية الطبقات عدا هذه الأربعة ، فهل مثل هذه الكتب الأربعة

---

(١) جلال الدين السيوطي مقالة د . أحمد عبد الرازق ص ٢١١ .
(٢) السابق ص ٢١٢ .
(٣) السابق ص ٢٠٧ .
(٤) بحوث « السيوطي » ص ٢١٢ .

النفسية ، والمزهر ، والأشباه والنظائر فى النحو .. الخ ، ممن هو ذاك الذى غسله السيوطى ورجع عنه فلم يثبته ؟! .

وإننا نرجح بأن السيوطى يقصد بقوله « سوى ما غسلته ورجعت عنه » بعض تلك المؤلفات التى أنشاها السيوطى فى زمن الطلب ، ونمّاها حتى صارت مؤلفات قوية البنية والمقام ، ففى كتابه الإتقان يقرر انه كان فى زمن الطلب قد دون كتابا فى علوم التفسير ، وكان صغير الحجم جدا ، ثم خطر بباله بعد ذلك أن يؤلف كتابا مبسوطا فألف « الاتقان »[1] ، بل لاحظ الدارسون أن هذا الكتاب عينه ضم أكثر ما ألفه السيوطى فى علوم القرآن فكانما - كما يقول الدكتور أحمد شلبى - كتبها رسائل عن مباحث مختلفة ، ترتبط بالقرآن من أسباب التنزيل إلى المتشابهة فالمبهمات ، وتناسب السور ، ثم جمعها كلها فى الإتقان الذى جعل اسمه أميل إلى الشمول ليضم مختلف البحوث الأخرى[2] وكما فعل فى حسن المحاضرة إذ نشر كتابه « در السحابة فيمن دخل فى مصر من الصحابة »[3] .

بيد أن السيوطى نراه قد أثبت شيئا من هذه المؤلفات السابقة التى أنشأها فى زمن الطلب وضمنها كتبه الكبرى ذكرها منفردة فى ثبته هذا ، بل وصل به الأمر - كما ذكرنا - إلى أن يقتطع بعض أبواب من كتبه التى يعطيها اسما بديعيًا مثل الباب الأول من الأشباه والنظائر فى النحو السمى « المصاعد العلية فى القواعد النحوية » وضعه ككتاب ضمن مؤلفاته ولم يذكر الكتاب برمته ، وهو يتضمن الكثير من الرسائل ، له مثل رسالته « تحفة النجبا فى قولهم هذا بسرا أطيب منه رطبا » ولغيره أيضا .

ولذلك فإننا بعد هذا الثبت - وإن فهرسه السيوطى نفسه - ليس ثبتا لكل مؤلفاته ، خاصة وقد ذكر الشكعة - مرجحا - بأن السيوطى ألف حسن المحاضرة حوالى سنة ٩٠٤ هـ[4] أى قبل وفاته بسبع سنين ، وذكر فيه ما تذكره من مؤلفاته وليس كلها كما ضربنا المثل بطبقات الأنبياء والفرضيين والبيانيين وأهل الخط ، وقد كان قد ألفها بالفعل كما ذكر فى تاريخ الخلفاء ، ومن ناحية أخرى لايعبر قوله « سوى ماغسلته

---

(١) راجع مقدمة الإتقان ج ١ .
(٢) بحوث السيوطى ص ٢٢٧ .
(٣) السابق ص ١٣٦ . مقالة د . سيدة اسماعيل كاشف .
(٤) جلال الدين السيوطى م . م . ص ١١٩ .

ورجعت عنه » ماذهب إليه الباحثان وغيرهما ، مؤكدين ذلك - فضلا عما سبق - بأن السيوطى قد أفرد للحديث عن علم « الباه » وفروعه من جميع أبعاد الكتابة لديه علمية وأدبية ، كدأبه فى العلوم والقضايا التى يتناولها بالدرس والتمحيص .

فمن الناحية الطبية أفرد السيوطى كثيرا من أبواب كتبه فى الطب للحديث عن الباه والجنس والعملية الجنسية ، وكيفية الاستمتاع بها ، وتقوية الشهوة وأعضائها لدى الجنسين ، وترى فى كتابه الرحمة فى الطب والحكمة - مثلا - وهو من كتبه المشهورة فى الطب كما يقول بعض الباحثين[١] على اختلاف[٢] .

ومن الناحية التعليمية كتب « نزهة المتأمل ومرشد المتأهل والوشاح فى فوائد النكاح والأيك » .

ومن الناحية التثقيفية كتب « مباسم الملاح ومناسم الصباح فى مواسم النكاح .. » .

ومن الناحية التخصصية كتب « شقائق الأترنج فى دقائق الغنج .. » .

ومن الناحية اللغوية كتب « الإفصاح فى أسماء النكاح ، وضوء الصباح فى لغات النكاح » .

ومن الناحية الأدبية الجامعة كتب « الوسائل فى مسامرة الأوائل » والأس فيمن رأس ..

ومن الأدب الإنشائى كتب مقامته رشف الزلال من السحر الحلال أو النساء وكذا فى الشعر .

فهل هذا الموضوع الذى عالجه السيوطى - كما ترى - بكل أبعاده ، ولم يترك زاوية يبتغيها القارئ إلا وقدمها له ، من الموضوعات الواهية التافهة التى أقبل عليها كما يقول أحمد عبدالرازق[٣] ليثبت أنه مستطيع الإسهام فى كل من فنون القول غلا أم رخص كما يقول الشكعة[٤] فانزلق إلى هذا الضرب الماجن الذى يتنافر كل التنافر مع ما عرف عن

---

(١) السابق ص ١٤٢ .

(٢) قال عبد الوهاب حمودة أنه مدسوس عليه بكتابه « صفحات من تعليه بكتابه « صفحات من تاريخ مصر ص ٢٥٦ . وراجع « مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة فى مكتبة المتحف العراقى « إعداد أسامة ناصر النقشبندى . ط دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨١ م ص ١٢٨ .

(٣) « السيوطى » مجموعة البحوث . ص ٢٠٨ .

(٤) السابق ص ٤١٩ .

السيوطى من زهادة وتقوى كما يقول عبدالوهاب حمودة[١] .

ومن جانب آخر غاب على هؤلاء الباحثين - فيما يبدو - إذ عدوا موضوع تلك المؤلفات من الموضوعات التافهة الماجنة الرخيصة التى طرقها السيوطى ، أن هذا الموضوع ، بكل أبعاده ، وقوته وجرأته من الموضوعات التى لها حيز تأليفى قبل السيوطى بأزمان عديدة ، فهناك - مثلا - الكثير من أمثال هذه المؤلفات ، كتبت فى الدولة الأموية ، دارت حول النكاح والباه والسحاق[٢] ، على نحو ما أشار السيوطى[٣] .

بل إن علماء السلف الصالح عدوا « الغنج » علما ، وذهب صاحب الموضوعات إلى أن « الغنج » فرع من فروع علم الموسيقى وقال : هو علم باحث عن كيفية صدور الأفعال التى تصدر عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال ، والمتصفات بالظرف والكمال إذا اقترن الحسن الذاتى بالغنج الطبيعى كان كاملا فى الغاية وإن كان الغنج متكلفا أو عرضيا يكون دون الأول ، .... ، وهذا الغنج إن وقع أثناء المباشرة والمخالطة والتقبيل وغير ذلك كان محركا لقوة الوقاع ، وينتفع به العاجزون عن القربان كل الانتفاع ، وهذا الغنج مرخص فى الشرع ، ويحمد هو من النساء فى تلك الحالة ، بل قد تؤجر عليه فى الجماع الحلال ، ونساء العرب مشهورات بين الرجال بحسن الغنج ولطف الدلال »[٤] .

فكم ترى - إذن - من مفارقة وبون بين اعتبار علماء السلف الغنج الذى هو من فروع علم الباه من فروع علم الموسيقا ، وحثهم المرأة عليه إذ رخصه الشرع ، وتحمد وتؤجر عليه حلالا وبين اعتبار هؤلاء العصريين لهذه الموضوعات التى طرقها السيوطى طبيا وعلميا ، وتعليميا ، ولغويا وأدبيا من الموضوعات السيوطية التافهة الواهية الرخيصة التى أراد بها السيوطى كما قال أحمد عبدالرازق « أن يثبت أنه قادر على

---

(١) صفحات من تاريخ مصر ص ٢٣٥ .

(٢) راجع تعريف السحاق فى جمع الجوامع للسيوطى ط أولى ١٩٨٤ . مجمع البحوث الاسلامية العدد العشرون من الجزء الثانى هوامش ص ٢٤٣٥ . ومنه الحديث الشريف « سحاق النساء زنايينهن » .

(٣) كشف الظنون ج ٢ ص ٩٠٤ .

(٤) السابق ج ٢ ص ١٢١٠ وفيها ما قيل عن علم الباه والمؤلفات التى كتبت لبعض الملوك وغيرهم من أجل تقوية الشهوة واستطالتها . وراجع « مختصر تاريخ الطب العربى » للدكتور كمال السامرائى نجد أن أول من تكلم عن « الباه » هو الحارث بن كلده الثقفى المتوفى فى خلافة أبى بكر الصديق السابق ج ١ ص ٢٧٦ - دار الحرية للطباعة بغداد - ١٩٨٤ .

التصنيف فى تلك الموضوعات الهزلية » ، وكان السيوطى شأنه شأن معاصريه ينظر إلى المرأة نظرة الازدراء والاستخفاف ، كان ينظر إليها نظرة للمتعة[١] .

وفى قول هذا الباحث مغالطة كبرى سنرد عليها فيما بعد ، والغريب أنه يعلق على مؤلفات السيوطى هذه وما جاء فيها - كما يظن - من ازدراء واستخفاف بالمرأة قائلا « ليس من النصفة فى شىء أن نقيس السيوطى ، وهو المحسوب نابغة زمانه وأشهر علماء عصره بمقاييس اليوم ، لأنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها كثير من الباحثين عند دراسة التاريخ هو أن يحكموا على العصور السابقة بعقلية العصر ومنطق العصر الذى يعيشون فيه ، متناسين ذلك التراث الضخم من العادات والتقاليد[٢] .

وكاد يشاركه هذا الرأى الدكتور الشكعة وهو يعلق على ما ترجمه السيوطى إنشائيًا لهذه الموضوعات نقصد « رشف الزلال » أنه قد يكون لونًا من ألوان التحدى أقدم عليه السيوطى ليثبت أنه مستطيع الإسهام فى كل من فنون القول ، غلا أم رخص ، صعب أم سهل ، لئن كان الأمر كذلك فالثمن لايعدل السلعة ، والصفقة من حيث مكانة الشيخ خسارة على كل حال ، ثم حاول أن يكون أكثر اعتدالاً ومنطقًا فقال « أم أن السيوطى وقد هاله الفساد المتفشى فى المجتمع ، وانتشار فاحشة الغلمان بين الناس رأى أن يعالج مرضا شديد الضرر بعمل فنى ، مهما بلغ قبحه ، فهو لبنة نحو البناء ، وحبه فى سبيل الدواء فكتب ما ينفر من هذه الآفة ، وأنشا على ما يشجع على التحويل إلى النساء ولو عن طريق الإثارة الجنسية والصراحة غير المرضية »[٣] وفى تأويل الشكعة هذا جزء من ردنا على مغالطة أحمد عبدالرازق السابقة ، بيد أن الشكعة ختم تفسيره هذا بقوله « الحق أنى لم أصل إلى رأى أخير »[٤] .

وجدير أن ننبه أن ذلك الفساد المتفشى فى المجتمع ، وانتشار فاحشة الغلمان لم تكن بين عامة الناس فحسب إنما كانت عند المتصوفة - عفوا مدعى التصوف -[٥] وما آل

---

(١) « جلال السيوطى » ص ٢١٠ ، ص ٢١٢ .

(٢) السابق ص ٢٦٢ .

(٣) السابق ص ٤١٩ .

(٤) السابق نفس الصفحة .

(٥) هجا أمثالهم الشاعر ابن سيد الناس بقصيدة يقول فيها :

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليو م لا ستة بغير زيادة

وهى : (....) العلوق ، والسكر والسلطة والرقص والغناء والقيادة

راجع بالتفصيل « المجددون فى الإسلام .. » عبد المتعال الصعيدى - مكتبة الآداب بالجماميز ص ٢٨٧ وما بعدها .

فسادهم الطاغى فى جميع شئون الحياة والملك ، وقد ضرب بعضهم السيوطى « بالقبقاب » بعد أن أسقطوه فى بركة موحلة ، نتيجة صده لما يقترفون من فساد ، وإن كان قد دافع عن مفهوم التصوف وبعض أعلامهم .

وفى الطبقات الكبرى للشعرانى - بجزئيه - عشرات من القصص التى تمثل انتشار الفواحش والشذوذ المثلى والارتكاسى .

يقول السيوطى فى كتابه « نزهة المتأمل » وبعد فلما رأيت نساء هذا الزمان يتزين بزى الفاحشات ، ويمشين فى الأسواق وهن للدين كالمحاربات ، ويكشفن وجوههن وأيديهن عند الناس لتميل إليهن النفوس بالوسواس ، ويلعبن فى الولايم مع الشبان ، .... ، .... ، .... ، وهيهات هيهات قد امتلأ الزمان بالغواة ، فأين شراط الدين والشريعة ، وأين من تحفظ بذلك فى النوع والزريعة ، فأعاذنا الله من تلك الطائفة ، ورزقنا العفو والعافية ، فأردت أن أبين الحال فى مختصر شريف المقال وأبين فيه آداب النكاح ، ومايتعلق به وبالسفاح ، ثم قال لى قلبى إن أهل هذا الزمان يشتغلون فيك بمقتضى ذلك بالهزيان ، لأن عندهم أكل الجيفة فى طلب النصيحة أحب إليهم من الحضور بسماع النصيحة وقلت ياقلب لا تؤجل ، وإلى ما فيه من الخير فاعجل ، فأبتدأت بتصنيف هذا الجزء وتحقيقه بتأييد من الله وتوفيقه ... »[1] .

ونعتقد أن هذا النص - على سبيل المثال - كاف للرد على المزاعم السابقة ، وإن كنا لم نفصل تفسيرنا فى هذا ، مرجئين ذلك حتى نتفهم أبعاد شخصية السيوطى ودراسة مكوناتها محاولين - قدر الإمكان - تعرف مصدر هذه التعابير ، المتلاطمة الاتجاهات له ، لا أصدار انطباعات تبثها أعين مرهقة من مكان قصى

وهذا ثبت لبعض مؤلفات السيوطى فى « فن النكاح والباه » وقصدنا من ذلك الرد على من أنكر على السيوطى هذا أو ظن أنه دسها لنفسه ومن ناحية أخرى تتيح لنا التحدث عن مقامته « رشف الزلال » - بعد ذلك - دونما إنكار أو خوف على صاحبها .

(١) المستظرفة فى أحكام دخول الحشفة[2] .

---

(١) نزهة المتأمل وبغية المتأهل « مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٩٤٢٤ ص ٢ / ٣ .

(٢) ذكرها السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٤٢ . وفى فهرسه ص ٧ .

الأدب والنوادر والشعر وليس فى فن الفقه كما يقول حاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ١٦٧٤ وإن كان السيوطى قد أثبتها فى حسن المحاضرة فى الفقه وليس التاريخ والأدب .

وأوردها البغدادى كذلك فى هديته ص ٥٤٢ .

(٢) الوشاح فى فوائد النكاح[١] .

(٣) شقائق الأترنج فى دقائق الغنج[٢] .

(٤) الوسائل فى معرفة الأوائل[٣]

(٥) اليواقيت الثمينة فى صفات السمينة[٤] .

(٦) الإفصاح فى فوائد النكاح[٥] .

(٧) ضوء الصباح فى لغات النكاح[٦] .

(٨) نزهة المتأمل ومرشد المتأهل[٧] .

(٩) مباسم الملاح ومناسم الصباح فى مواسم النكاح[٨] .

(١٠) نواضر الأيك ...[٩] .

(١١) الآيات فى معرفة ....[١٠] .

(١٢) الأس فيمن رأس فى .... من المطايبات[١١] .

(١٣) الوشاح الايضاح فى علم النكاح[١٢] .

---

(١) ذكرها السيوطى فى فهرسه ص ٦ ، مخطوط ولم يطبع بعد ، بدار الكتب نسخة تحت رقم ٥٠٨ أدب تيمور . وذكرها حاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ٢٠١١ والبغدادى فى هديته ص ٥٤٤ .

(٢) ذكره السيوطى فى فهرسه فى النوادر والأدب والشعر ص ٦ ، وذكره بكشف الظنون ص ١٠٥٦ وبهدية البغدادى ص ٥٤٠ وبدار الكتب نسخة منه تحت رقم جـ ٣٤٩٠ ضمن مخطوطة من ورقة ١١٣ / ١١٥ .

(٣) ذكره فى فهرسه ص ٦ ، وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق أسعد طلس . بغداد . مكتبة الزوراء ١٩٥٠ م .

(٤) ذكره فى فهرسه فى النوادر والأدب ص ٦ ، وذكر بكشف الظنون ص ٢٠١٠ ، وذكره السيوطى فى كتابه « الوشاح ص ٢ المخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٠٨ أدب تيمور والبغدادى ص ٥٤٤ .

(٥) ذكره السيوطى فى الوشاح ص ٢ وذكره حاجى خليفة ص ٢٠١١ ج ٢ والبغدادى ص ٥٤٤ .

(٦) ذكره فى فهرسه ص ٦ ، وحاجى خليفة ص ١٠٥٦ ج ٢ والبغدادى ص ٥٤٠ .

(٧) مرّ له عدة نسخ بدار الكتب تحت رقم ب ٢٣٥٢٨ ، ٩٤٢٤ أدب تيمور .

(٨) ذكره فى فهرسه ص ٦ ، وفى كتابه الوشاح ص ٢ ، وذكره حاجى خليفه ح ٢ ص ١٥٧٩ ، والبغدادى ص ٥٤١ .

(٩) ذكره حاجى خليفة قائلا « لعله له » ج ٢ ص ١٩٨١ ، ولاندرى لِمَ وقد ذكر السيوطى فى كتابه الوشاح وذكر أنه مختصر من مباسم الملاح « وهو مخطوط تحت رقم ح ٣٨٠٩ .

(١٠) قيل أنه الكتاب السابق أى « نواضر الأيك » أو الأيك فى .. نوادر الأيك . راجع ص ٢١٠ ، ٢١١ بحوث السيوطى .

(١١) ذكره البغدادى ص ٥٣٥ ، وراجع ص ٢٠٠ « بحوث السيوطى » .

(١٢) طبع طبع حجر ١٢٧٩ م .

■ هذا غير ما ورد له فى مؤلفات أخرى فى هذا الصدد ، اصطبغت بالصبغة الأدبية ، ويلحظ أن السيوطى أقر بأن علم الطب من العلوم التى ألمّ بها وتعلمها من محمد بن إبراهيم الدوانى وغيره ، وقد ألف السيوطى الكثير من المؤلفات ذات الأغراض المتنوعة ، يأتى ذكر بعضها فى تضاعيف البحث .

■■ هذه فنون موسوعية السيوطى ، الخارجة عن نطاق البحث ، ومقداره فيها ، فكم كان حجم فن الأدب فى تلك الموسوعية ؟ وكم كان مقدار السيوطى فيه من خلال رؤية الباحثين له أديبًا كاتبًا ؟! .

يقول السيوطى « ثم قدر الله أنى أصبت بفقده ، فإنّا لله وإنّا لله راجعون »[1] .

يتبادر للذهن أن السيوطى يتحدث عن عزيز فقده ، لكتنا سيأخذنا العجب والتقدير بعد أن نعلم أن السيوطى يتحدث هنا عن كتاب بل مسودات كتاب كان يدخرها لتكون كتابا - ككل كتاب هو فلذة كبدهِ تمشى على الأرض .

والحق يقال إن السيوطى نَصَّ صراحةً على درجات العلوم والفنون التى ألمَّ بها فى حسن المحاضرة[2] وجعل الأدب فى درجة متأخرة ، بل إنه ضمن علم الفرائض مع الإنشاء والترسّل ، مما حدا بأحد الباحثين أن يتعجب من اعتراف السيوطى بعدم نبوغه الكافى فى فن الإنشاء والترسّل مع العلم أن حسبه من الإنشاء هذه المجموعة الضخمة من المؤلفات[3] .

وقد أثار موضوع كون السيوطى قضية اختلف فيها الباحثون ، كما يقول عبداللاه محمود حسن فى السيوطى أديبًا[4] وإن لم يكن الباحث قد تحدث أو أشار عن تلك الاختلافات ، ونرجح - إن لم يكن بالقطع - أنه لم يكن أمام الباحث إلا بعض اشارات عن آراء بعض الباحثين الذين تحدثوا عن السيوطى فى فنونه الأخرى التى أجادها كالتفسير والحديث ، والنحو ، وتلك قضية بمكان - كما يقول الشكعة - إن صفة العالم الدينى واللغوى والمؤرخ قد حجبت صفة السيوطى الأديب عن كثير من الدارسين »[5]

---

(١) راجع مقدمته على الأشباه والنظائر فى النحو .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٨ .

(٣) عبد الوهاب حمودة . الذى يستطرد - للأسف قائلا « ولكن لعله أراد من « الإنشاء والترسل » الكتابة الأدبية لا العلمية . صفحات من تاريخ مصر ص ٢٢٣ / ٢٢٤ .

(٤) ص أ .

(٥) جلال السيوطى م . م . ص ١٣٩ .

وإن كان الشكعة نفسه لم يعرف السيوطى أديبا حق معرفة .

ولكي نبين الأمر بوضوح نود أن نشير إلى أهمّ من كتب عن السيوطى أديبًا ، فيما توصلنا إليه سواء كان ذلك فى مقالة أم بحث أم حتى إشارة ملحوظة فى تضاعيف بحث له .

ويأتى على رأس هؤلاء - زمنيا - الباحث محمد رشدى حسن فى رسالتيه « أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة[١] والثانية تطور فن المقامة العربية[٢] ، وقد بين فى هاتين الدراستين مقامات السيوطى - التى بين يديه - وأغراضها وأثرها فى نشأة القصة ، ومقدارها عموما ، وسنتعرض لما جاء فيهما فيما بعد .

ثم يأتى الدكتور محود رزق سليم ذاكرًا السيوطى وبعض أعماله الأدبية فى أماكن متفرقة فى عصر سلاطين المماليك[٣] وفى « أثر البيئة المصرية فى الشعر فى عصر المماليك[٤] وله بعض البدوات ستمر بنا .

ثم الأستاذ عبدالوهاب حمودة فى كتابه « صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى »[٥] ، ذكر السيوطى « شاعرا » و « أديبا » معتمدا فى الغالب على ما كتبه الدكتور محمود رزق سليم ، أشار أم لم يشر ، وتخلل آراء نتعرض لها فى حينها .

ثم يأتى الباحث « عدنان محمد سلمان » ذاكرا السيوطى شاعرا فى رسالته « السيوطى النحوى »[٦] وأورد بعض قطع ونتف للسيوطى ، مع الإشارة إلى مقاماته وموضوعاتها مستفيدًا بسابقيه فى هذا الصدد .

ثم الدكتور على صافى حسين فى « كتيبه » الإمام جلال الدين السيوطى[٧] الذى يعده أول مرجع كامل عن السيوطى وآثاره ، وفيه مقال صغير عن السيوطى اللغوى الأديب يكيل فيه للسيوطى المدح كيلا - وإن كان ذلك سمة من تحدث عنه أديبا عند أكثر باحثيه - دونما أدلة علمية يقول على صافى حسين « أما المظهر الأدبى لشخصية السيوطى

---

(١) رسالته للماجستير . آداب القاهرة فرع الخرطوم عام ١٩٦٠ م .

(٢) رسالته للدكتوراة . آداب القاهرة فرع الخرطوم عام ١٩٦٦ .

(٣) ط . دار الكتاب العربى ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

(٤) رسالته للدكتوراة - دار العلوم - عام ١٩٦٤ .

(٥) ط . الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩٦٥ م .

(٦) رسالته للدكتوراة . آداب القاهرة ١٩٧٠ .

(٧) سلسلة كتاب « الجمهورية الدينى » عام ١٩٧١ م .

فإنه يتجلى فى مثل مصنفاته « رشف الزلال » - رصف اللآل - شرحه على بديعيته - المقامة السندسية الفاشوش - وأخيرا قصيدته « نظم البديع » وقد تصفحت هذه المؤلفات ، وتلك المصنفات جميعا فأدركت منها أن جلال الدين السيوطى قد أسهم فى شتى فنون الأدب العربى ، إذ كتب فى فن المقامات ، وألف فى الأساطير والحكايات ، وصنف فى النقد ، وأنشأ القريض ووضع الموسوعات فى النوادر والملح ، وذلك كصنيعه فى كتابه المشهور بام محاضرات الأدباء ، والمستظرف فى كل فن مستطرف « وجملة القول فى السيوطى - اللغوى الأديب - أنه كان نحويًا مدققًا ، ولغويًا محققًا ، وناقدًا جهبذًا ، وأديبًا بليغًا ، وشاعرًا مفلقًا ، وكاتبًا مبدعًا »[1] .

ولاندرى كيف يصدر هذا الباحث تلك الأحكام من خلال ذكره أسماء ستة كتب بل هى مقامتان وقصيدة وشرحها ، وكتاب يضم حكايات وإن قيل انه منحول عليه ، وكتاب آخر يضم ما قاله الصفدى وغيره فى وصف الهلال .

ولاندرى ما هى الكتب التى ألفها السيوطى فى النقد حتى صار ناقدًا جهبذًا ؟ ، أو أى دليل هذا الذى يجعل الباحث يحكم بأن السيوطى شاعرٌ مفلق وكاتبٌ مبدع ؟

هذا وقد أشار الباحث طاهر حمودة فى رسالته « السيوطى اللغوى »[2] عن السيوطى شاعرًا وأديبًا من خلال ذكره لبعض منظومات السيوطى وبعض مقاماته ، وذكر الباحث يوسف نور عوض فى رسالته « فن المقامات بين المشرق والمغرب »[3] بعض مقامات السيوطى ، عارضا مقامته « الوردية » بشيىء من التفصيل .

ثم يأتى الدكتور مصطفى الشكعة بمقالته أو بحثه الذى شارك به فى الندوة التى أقيمت عن السيوطى عام ١٩٧٦ . بعنوان « السيوطى كاتبا أديبا »[4] ، وتحدث فيه عن النثر عند السيوطى عارضا ، شارحا بعض رسائل للسيوطى ، ومقسما وشارحا بعض مقاماته التى بين يديه ، ثم عن السيوطى الشاعر بهذا النص « .. وفى الشعر ترك عددًا من المنظومات النفيسة ، وكثيرًا من القصائد التى ترجمت بين الجودة والتوسط »[5] .

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطى ص ١٢٦ / ١٢٧ .

(٢) رسالته للدكتوراة . آداب الاسكندرية عام ١٩٧١ م .

(٣) رسالته للدكتوراة . دار العلوم عام ١٩٧٢ م .

(٤) منشور فى « جلال الدين السيوطى » ط الهيئة المصرية العامة عام ١٩٧٨ . ص ٣٩٠ وما بعدها .

(٥) السابق ص ٤٣٣ .

عموما - وإن استند كثيرا على جهد سابقيه - فإنه أضفى على بحثه آراءه وتحليلاته التى نناقشها فى مكانها ، منبهين إلى هذا أول بحث « مقالة » عن السيوطى أديبًا كاتبًا - فيما توصلنا إليه .

ومن جانب آخر ففى كتابه « جلال الدين السيوطى مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية »[١] خطرات وبدوات جليلة ، منبهين أنه حقق ونقل فيه ثلاث مقامات للسيوطى .

ثم يأتى الباحث عبداللاه محمود حسن فى أطروحته « الإمام جلال الدين السيوطى أديبًا »[٢] وهى بلاشك أول محاولة تقدم للحديث عن السيوطى أديبا ، بشكل تأليفى منفصل ، وجهد مشكور حاول به صاحبه أن يقول إن السيوطى أديبٌ ، فاحتوت الرسالة ترجمةً لعصر السيوطى بأبعاده المتعددة ، والسيوطى وظروف نشأته وحياته ، ومؤلفاته ، ترجمة لم يأت فيها بجديد يذكر وشغل هذا أكثر من نصف الرسالة - على توسط حجمها - وقد أثبت فيها - مثلا - مؤلفات السيوطى الثلاثمائة التى ذكرها فى حسن المحاضرة ، ثم تحدث عن أدب السيوطى فنقل ست مقامات للسيوطى نقلًا كاملًا وجدها مطبوعة وهى « الوردية - المسكية - التفاحية - الزمردية - الفستقية - الياقوتية » ، واستعرض بعض رسائل للسيوطى ، ذكرها بعض الباحثين السابقين كالدكتور محمود رزق سليم ومن نقل عنه كعبدالوهاب حمودة ، وتخلل هذا بعض الآراء والأحكام ستراها فى تضاعيف بحثنا مقبولةً ، أو مرفوضة - بالأدلة - فى أكثر الأحايين .

ثم تحدث السيوطى الشاعر معتمدا على مافى المقامات الستة السابقة[٣] وغيرها من نتف متناثرة للسيوطى - على قلتها - ، وكذا بعض القطع الأخرى التى وردت فى كتابه حسن المحاضرة مكثرا ذلك بما ألفه السيوطى نظمًا تعليميا وفى هذا ما فيه ظلم للسيوطى الشاعر كمًّا وكيفًا .

عمومًا فإن الرسالة - بغض النظر عما فيها من تهافتٍ وضعفٍ شكلًا ومضمونًا - فإنها - كما قلنا - أول محاولةٍ وجهد يستحقان الشكر على كل حال .

---

(١) ط البابى الحلبى عام ١٩٨١ م .
(٢) قدمها لنيل درجة الماجستير فى الأدب فى كلية اللغة العربية ، أزهر أسيوط عام ١٩٧٨ م .
(٣) تنبه أنه ليس للسيوطى فى هذه المقامات إلا بيتا شعر فقط وهما فى « الوردية » .

ثم يأتى الدكتور السيد على حسن بمقالة « جلال الدين السيوطى وفن المقامات »[١] ، الذى شارك به فى المؤتمر الذى انعقد عن السيوطى بجامعة أسيوط[٢] ، وتحدث فيه صاحب المقال عن السيوطى ونشأته ، ثم ذكر - عارضا - بعض مقامات للسيوطى ذاكرا مزاياها .

وهذا المقال ، استمد معظم مادته ملخصة مما جاء فى بحث الشكعة السابق ، وإن كان قد أشار أنه وجد مخطوطة لبعض مقامات السيوطى تضيف مقامتين جديدتين لما بين يدى الباحثين من مقامات له ، فى مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج ، فعرض هاتين المقامتين عرضا مفصلا ، ونود أن نذكر هنا أن المقامتين موجودتان - كذلك - بدار الكتب المصرية ، وسيأتى هذا مفصّلًا فى الفصل الأول من الباب الثالث فى بحثنا هذا .

هذا غير اللمحات الأخرى التى وردت عن نفر من الباحثين حول السيوطى أديبا ، وغيرهم ممن تناول بعض أعماله التعليمية كأحمد عبداللطيف الليثى فى رسالته « النحو المنظوم بين ابن معط وابن مالك والسيوطى » .

وإننا نعتقد أن دراسة أدب السيوطى دراسة نقدية ، لايمكن أن تكون جديرة بالدرس والتحليل من معطيات الباحثين لأدب السيوطى على هذا المجال ، وتصويرهم كم إنتاجه الأدبى وكيفه ، فكان حتمًا علينا أن نتتبع مؤلفات السيوطى مخطوطة ومطبوعة ، محاولة منا لاستقصاء كل أعماله الشعرية والأدبية الإنشائية والوصفية نستطيع - بعد ذلك أن نقدم - ما استطعنا - دراستنا النقدية على أدبه .

وهذا ثبت أعددناه لمؤلفات السيوطى الأدبية التى توصلنا إليها فى ضوء ما هو مطبوع أو مخطوط أو ماذكره السيوطى والمؤرخون القدماء ولما نعثر عليه . إن لم يكن فقد .

ثبت بأعمال السيوطى الأدبية :

(أعمال شعرية ، منظومات وشعر تعليمى ، أدب إنشائى أدب وصفى)

(١) اتحاف النبلاء فى أخبار الثقلاء[٣] .

---

(١) منشور مجلة كلية الآداب بسوهاج العدد الثالث ١٩٨٣ م .

(٢) فى الفترة من ٣ - ٥ أبريل ١٩٨٢ م .

(٣) مخطوط منه نسخة بمكتبة جامع الأزهر تحت رقم (٦٢٤) أباظة ٧٢١ .

(٢) الأجوبة الزكية فى الألغاز السبكية[١] .

(٣) الأرج فى الفرج[٢] .

(٤) الاقتباس فى محاسن الاقتباس[٣] .

(٥) ألفية السيوطى فى الحديث المسماة « نظم الدر فى علم الأثر » وشرحها[٤]

(٦) ألفية السيوطى فى علوم البلاغة المسماة « عقود الجمان فى علم المعانى والبيان وشرحها[٥] .

(٧) ألفية السيوطى فى القراءات العشر[٦] .

(٨) ألفية السيوطى فى النحو والصرف المسماة « الفريدة » وشرحها[٧] .

(٩) البارق فى قطع كف السارق أو « الفارق بين المصنف والسارق »[٨] .

(١٠) بهجة الناظر ونزهة الخاطر[٩] .

(١١) بديعية السيوطى المسماة « النظم البديع فى مدح خير شفيع وشرحها المسمى الجمع والتفريق[١٠] .

(١٢) التبرى من معرة المعرى[١١] .

---

(١) منظومة فى الفقه موجودة بكتابه الحاوى للفتاوى ج ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها .

(٢) مطبوع . دمشق - مطبعة الترقى ١٣٥٠ هـ . ضمن كتاب « تفريج المهج بتلوح الفرح » .

(٣) ذكرها فى فهرسه (ص ٥) ، ولما نجده ومن الجائز أن يكون هو « رفع البأس وكشف الألتباس فى ضرب المثل من القرآن والاقتباس « بالحاوى ج ١ ص ٢٥٩ .

(٤) مطبوعة بشرحها وبشرح أحمد محمد شاكر . دار المعارف - بيروت - دون تاريخ .

(٥) مطبوعة بشرحها طبعة الحلبى ١٩٧٩ م .

(٦) ذكرها فى حسن المحاضرة فى ثبته لمؤلفاته ج ١ ص ٣٤٠ .

(٧) ذكرها فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٤٣ وفى فهرسة ص ٥ والشرح يسمى المطالع السعيدة ، وهى مطبوعة فى مصر .

(٨) ذكره فى فهرسه (ص ٥) . ويقول حاجى خليفة « ألفه فى تأليف رجل استعار عنه كتابه الخصائص ، وساق الألفاظ فى تأليفه بعبارته وأدعى أنه له ، راجع ص ١٢١٥ ج ٢ كشف الظنون .

(٩) مخطوط للسيوطى منه نسخ بدار الكتب تحت رقم آدب ٥١٢٤ فى ٣٨١ ص « وتحت رقم ٩٥٩٦ .

(١٠) قصيدة مدح فى الرسول عارض بها بردة البوصيرى . والبديعية والشرح مطبوعان معا بالمطبعة الوهبية - القاهرة . ١٢٩٨ هـ .

(١١) منظومة للسيوطى فى أسماء الكلب . مطبوعة ضمن كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء . القاهرة ١٣٨٥ / ١٩٦٥ م .

(١٣) التثبيت عند التبييت[١] .

(١٤) تحفة الأحباب فى منطق الدواب[٢] .

(١٥) تحفة المجالس ونزهة المجالس[٣] .

(١٦) تعليق للسيوطى على الكوكب الساطع فى نظم جمع الجوامع للسيوطى[٤] .

(١٧) تحفة الظرفاء فى أخبار الخلفاء[٥] .

(١٨) التعريف بآداب التأليف[٦] .

(١٩) التذكرة فى العربية[٧] .

(٢٠) التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة[٨] .

(٢١) تحفة المهتدين فى أسماء المجددين[٩] .

(٢٢) الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة[١٠] .

(٢٣) حسن السمت فى الصمت[١١] .

(٢٤) حديقة الأديب وطريقة الأريب أو ديوان شعر السيوطى الكبير »[١٢] .

---

(١) منظومة للسيوطى فى حساب الميت . مطبوعة . المطبعة الحسنية بالقاهرة ١٣٢٨ هـ .

(٢) مخطوط بدار الكتب تحت رقم « ٣٦٠ الزكية » .

(٣) مطبوع بتصحيح محمد بدر الدين النفسانى الحلبى – القاهرة . مطبعة السعادة ١٩٠٨ م .

(٤) مخطوط بدار الكتب تحت رقم (٢٣٠٧٥ أدب) فى ٢٦ ورقة .

(٥) منظومة موجودة فى نهاية كتابه « تاريخ الخلفاء » ص ٥١٧ / ص ٥٢٢ . المكتبة التجارية الكبرى .

(٦) مخطوط بدار الكتب تحت رقم (٤٠٠ الزكية) فى ٤ ورقات .

(٧) « مؤلف كبير للسيوطى فى ثلاث مجلدات ثم نظمها وسماها الفلك المشحون .. « راجع كشف الظنون حاجى خليفة ج ١ ص ٣٩٣ .

(٨) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٩٨ مجاميع ، رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .

(٩) منظومة للسيوطى فى أسماء المجددين ، نقلها الدكتور الشكعة فى كتابه السيوطى سيرته العلمية ص ١١٦ وكذلك عبد المتعال الصعيدى فى كتابه « المجددون فى الإسلام ص ١١ / ١٣ .

(١٠) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤١٦ مجاميع تيمور ويكتبه رفاعة رافع الطهطاوى تحت رقم ٣١٢ أدب .

(١١) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤٧ حديث حليم .

(١٢) وهو ديوان شعره الكبير ، قال فى فهرسته « هو ديوان نظمى ونثرى ص ٦ » وذكره فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٤٤ ، وراجع كشف الظنون ج ١ ص ٦٤٤ .

(٢٥) الخلاصة فى نظم الروضة[١] .

(٢٦) درر الكلم وغرر الحكم[٢] .

(٢٧) ديوان الخطب[٣] .

(٢٨) ذو الوشاحين[٤] .

(٢٩) رأى جلال الدين السيوطى فى محيى الدين ابن عربى[٥] .

(٣٠) الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل بأن الاجتهاد فى كل عصر فرض[٦] .

(٣١) رسالة إلى ملوك التكرور[٧] .

(٣٢) رسالة مشتملة على قصة جرت بين السيوطى وبين رجل من أهل التصنع ...[٨] .

(٣٣) رصف اللآل فى وصف الهلال[٩] .

(٣٤) رحلة الإمام الشافعى[١٠] .

(٣٥) الرحلة الفيومية[١١] .

(٣٦) الرحلة الدمياطية « وتسمى قطف الزهر فى الرحلة الجامعة .. »[١٢] .

(٣٧) الرحلة المكية[١٣] .

---

(١) وهو فى الفقه ، راجع كشف الظنون ج ١ ص ٦٤٤ .

(٢) هى رسالة على أسلوب نوابغ الزمخشرى كشف الظنون ج ٢ ص ٧٤٨ وهى مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤١٦ مجاميع ، ونقل أغلبها محمود رزق سليم فى كتابه « العصر المملوكى .. » .

(٣) ذكره فى فهرسه ص ٧ ، وراجع كشف الظنون ج ٢ ص ٧٨٨ .

(٤) ذو الوشاحين ذكره فى فهرسه من النوادر ، ص ٦ . وراجع كشف الظنون ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٥) مطبوع تحقيق ابن الخطيب ، المطبعة المصرية ١٩٦٤ مع مجموعة « غرائب المصنفات » .

(٦) مطبوع - الجزائر - المطبعة الثعالبية ١٩٠٧ م .

(٧) مخطوط . بدار الكتب تحت رقم ٤١٦ مجاميع ، ونقلها محمود رزق سليم فى كتابه « العصر المملوكى » .

(٨) مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٠٠ حديث ٧ ورقات .

(٩) مطبوع بالهند ١٣٠٦ هـ .

(١٠) مطبوع الآستانة - الجوائب ١٣٠٢ هـ وبالأسكندرية مطبعة الحامدية ١٣٠٨ هـ .

(١١) ، (١٢) ، (١٣) ذكرهم فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٤٤ وفى فهرسه (ص ٦) ، وراجع كشف الظنون ج ٢ ص ٨٣٦ وعن الرحلة الدمياطية راجع ج ٢ ص ١٣٥٣ السابق .

(٣٨) رفع الأسل فى ضرب المثل[١] .

(٣٩) الذوق السليم[٢] .

(٤٠) ساجعة الحرم[٣] .

(٤١) شقائق الأترنج فى دقائق الغنج[٤] .

(٤٢) الشهاب الثاقب فى ذم الخليل والصاحب[٥] .

(٤٣) شفاء العليل فى ذم الصاحب والخليل[٦] .

(٤٤) صاحب الذوق السليم ومعدوم الزوق اللئيم[٧] .

(٤٥) طوق الحمامة[٨] .

(٤٦) فجر الدياجى فى الأحاجى[٩] .

(٤٧) الفاشوش فى أحكام وحكايات قراقوش[١٠] .

(٤٨) فاكهة الصيف وأنيس الضيف[١١] .

(٤٩) الافتراض فى رد الأعتراض[١٢] .

(٥٠) الفوائد البارزة والكامنة فى النعم الظاهرة والكامنة[١٣] .

---

(١) ذكره فى فهرسه (ص ٦) مراجع كشف ا لظنون ج ٢ ص ٢٠٢٤ .

(٢) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤٨٨ أدب تيمور فى ٣٢ ق و « ٧٨٦ الزكية فى ٨٣ ق » .

(٣) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٦٠ أدب فى ٦ ق و « ٢٦٧٤٩ أدب » فى ٦ ق .

(٤) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .

(٥) هو مختصر لشفاء العليل فى ثلاث كراريس . راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٠٥١ .

(٦) راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٠٥١ .

(٧) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٨٨ أدب تيمور فى ٢٩ ورقة .

(٨) يقول حاجى خليفة « رسالة للسيوطى على مقدمة ومقصد وخاتمة . دعا إلى تأليفه سؤال ذكره فى ديوان الحيوان بتمامه « كشف الظنون ص ١١١٨ .

(٩) ذكره فى فهرسه (ص ٦) ، وواضح من عنوانه أنه جمع فيه ألغازا .

(١٠) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤١٦ مجاميع تيمور .
وقال عبد الوهاب حمودة : « انه مشكوك فى نسبته إليه ص ٢٥٦ صفحات من تاريخ مصر وراجع عموما ملامع الشخصية المصرية « الجوينى ص ١٤٩ وهامشها .

(١١) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٧٧ أدب تيمور .

(١٢) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .

(١٣) مخطوط بدار الكتب تحت ٢٠٢ مجاميع تيمور .

(٥١) الفتح الجليل للعبد الذليل[١] .

(٥٢) فتح الحى القيوم بشرح روضة الفهوم[٢] .

(٥٣) الفلك المشحون[٣] .

(٥٤) قلائد الفوائد[٤] .

(٥٥) قطف الوريد من أمالى ابن دريد[٥] .

(٥٦) قطف الثمر فى موافقات عمر[٦] .

(٥٧) قصيدة رائية[٧] .

(٥٨) كوكب الروضة[٨] .

(٥٩) الكوكب الساطع فى نظم جمع الجوامع[٩] .

(٦٠) كنه المراد فى بانت سعاد[١٠] .

(٦١) كشف العمى فى فضل الحمى[١١] .

(٦٢) اللوامع المشرقة فى ذم الوحدة المطلقة[١٢] .

(٦٣) مارواه الواعون فى أخبار الطاعون[١٣] .

---

(١) رسالة فى أسرار البلاغة مستخرجة من آية قرآنية م . الزكية ٦٠١ فى ٧ ق .

(٢) هو نظم النقاية ، راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٢٣٢ .

(٣) وهو نظم للكتابة التذكرة فى العربية ، راجع كشف الظنون ج ١ ص ٣٩٣ .

(٤) مختارات من منظومات السيوطى مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨١ الزكية و ٢٥٠٠ تصوف .

(٥) ذكره فى فهرسه ص ٧ ، وراجع كشف الظنون ص ١٣٥٣ .

(٦) منظومة مطبوعة بالحاوى للفتاوى . ج ١ ص ٣٧٧ / ٣٧٨ .

(٧) موجودة بالحاوى . وهى فى رثاء شيخه الشمنى . ج ١ ص ٤٧٥ / ٤٧٧ .

(٨) مخطوط بدار الكتب ومن نسخة (٢٦٣ تاريخ فى ٢٧٠ ق) (٥٤ تاريخ تيمور) (٢٦٣ تاريخ) (٢٢٤٩) ويقول الزركلى « .. ورأيت منه نسختين إحداهما فى الخزانة الخالدية بالقدس فى مجلد ضخم والثانية فى خزانة الرباط « ١٣٥ ق » أنظر الأعلام ج ٣ ص ٣٠٢ .

(٩) مخطوط بدار الكتب تحت رقم (١٥ ق أصول فقه ش ٥) .

(١٠) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٦٦٥٦ ز ، ٢٣٩ أدب وبمكتبة الأزهر ٨٩٩ .

(١١) راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٤٩١ .

(١٢) ذكره فى فن الكلام ص ٤ ، وراجع ج ٢ ص ١٥٦٩ كشف الظنون .

(١٣) اختصر فيه بذل الماعون لابن حجر وأورد فيه مقامته ابن الوردى والصفدى والمقامة الوردية لنفسه . راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٥٧٤ . وهو مخطوط بدار الكتب ٤٩٢ حديث تيمور .

(٦٤) المزدهى فى روضة المشتهى[١] .

(٦٥) المقامات ..[٢] .

(٦٦) المحاضرات والمحاورات[٣] .

(٦٧) الموشحة فى النحو[٤] .

(٦٨) مستظرف الجلسا فى أشعار النسا[٥] .

(٦٩) مختصر شفاء العليل فى ذم الصاحب والخليل[٦] .

(٧٠) منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف[٧] .

(٧١) مختصر ملحة الأعراب[٨] .

(٧٢) المنى فى الكنى[٩] .

(٧٣) المنجم فى المعجم[١٠] .

(٧٤) المستظرف فى أخبار الجوارى[١١] .

---

(١) من مؤلفاته فى النوادر كما قال فى فهرسه ص ٦ ، وراجع كشف الظنون ص ١٦٦٠ .

(٢) أفردنا لمقامات السيوطى ثبتا منفصلا فى الباب الثالث . إذ أنه لم يجمع تحت هذا العنوان إلا بضع مقامات . والمخطوطات التى حملت هذا الاسم « مقامات السيوطى » وهى ٣١٢ مكتبة رفاعة الطهطاوى سوهاج وبدار الكتب تحت رقم « ٢٢٧٧٩ ب » و « ٥٠٤ أدب تيمور » و « ٨١١ أدب تيمور » و « ٥٥٩ الزكية » و « ٤٥٦٤ أدب طلعت » و « ٤٦٨٧ أدب طلعت » ، وطبعت « مقامات السيوطى فى الجوائب سنة ١٢٩٨ هـ . ويقول الزركلى « مقامات السيوطى مخطوطة ٢٤ رسالة فى مباحث مختلفة بخزانة الرباط » د ٢٩٦ « الاعلام ج ٣ ص ٣٠٢ وراجع مخطوطات كمبردج » مقامات السيوطى (٢٤ ق ق / ١١٠) بمجلة المورد العراقية المجلد ١٣ العدد الثانى ص ١٧٩ / ١٨٠ .

(٣) مخطوط بالظاهرية دمشق ٢٨٦ أدب .

(٤) راجع السيوطى أديبا ص ٢١٧ .

(٥) ذكره فى فهرسه ص ٦ .

(٦) ذكره فى فهرسه ص ٦ .

(٧) طبع . مطبعة الشرق الاسلامية بالقاهرة ١٩٣٨ م .

(٨) منظومة فى ١٢٠ بيت راجع السيوطى أديبا ص ٢١٧ .

(٩) مخطوط دار الكتب ٢٥ مجاميع .

(١٠) بدار الكتب تحت رقم ٢٥٦ فى ٢٧٣ صفحة وبمكتبة جامعة أسحلنبول تحت رقم ١٤٤٥ .

(١١) مطبوعه وقام بنشره د . صلاح الدين المنجد راجع « السيوطى بمجموعة البحوث » ص ٢١٨ .

(٧٥) مفاخرة بين الروضة والمقياس ومصر الجديدة[١] .

(٧٦) المنقح الظريف فى الموشح الظريف[٢] .

(٧٧) المستظرف من كل فن مستظرف[٣] .

(٧٨) مقاطع الحجاز[٤] .

(٧٩) نزهة الجلساء فى أشعار النساء[٥] .

(٨٠) نزهة العمر فى التفضيل بين البيض والسمر[٦] .

(٨١) نزهة الغيضة فى فضائل الروضة[٧] .

(٨٢) نزهة الإخوان وتحفة الإخوان[٨] .

(٨٣) النهر لمن رام البروز على شاطئ النهر[٩] .

(٨٤) جواهر العقود فى الفقه[١٠] .

(٨٥) النفحة المسكية والتحفة المكية[١١] .

(٨٦) الوسائل إلى مسامرة الأوائل[١٢] .

(٨٧) الوصف الذميم فى وصف اللئيم[١٣] .

---

(١) مخطوطة بالسليمانية باسطنبول لا له لى ٣٧٠٦ .

(٢) ذكره فى فهرسه ص ٦ .

(٣) ذكره فى فهرسه ص ٦ .

(٤) راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٣٨١ .

(٥) مطبوع وقام بنشره د . صلاح الدين المنجد راجع ص ٢١٨ « السيوطى » بمجموعة البحوث » .

(٦) مطبوع دمشق - مطبعة الترقى ١٣٤٩ هـ .

(٧) ذكره السيوطى فى فهرسه (ص ٨) وحاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٤٤ .

(٨) ذكره السيوطى فى فهرسه (ص ٨) وحاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٤٤ .

(٩) منظومة فى الفقه موجوده بالحاوى ج ١ ص ١٤٥ / ١٤٨ .

(١٠) راجع « السيوطى أديبا » ص ٢١٧ .

(١١) ألفه السيوطى فى يوم واحد وفيه نحو - بديع - معان عروض ، راجع كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٦٩ .

(١٢) مطبوع بتحقيق د . سعد أطلس - بغداد - الزوراء - مكتبة النجاح ١٩٥٠ م .

(١٣) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩٨٨ تصوف فى ٢٠ ورقة .

(٨٨) اليواقيت الثمينة فى مواصفات السمينة[١] .

(٨٩) نور الحديقة ونور الطريقة « ديوان شعر السيوطى الصغير »[٢] .

(٩٠) السماح فى أخبار الرماح[٣] .

---

(١) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٠٨ أدب تيمور .

(٢) سيأتى بالتفصيل فى الباب الثانى ذكره .

(٣) « ذكر فيه أنواع الرماح وألقابها ، والأحاديث والآثار التى وردت فيها ، وما قيل من الأشعار والمفاخرة بين الرمح والسيف . ضمن مجموعة مخطوطة ٣٠٢ و ١٥١٧ حديث و ٣٢ مجاميع . راجع فهرس دار الكتب ج ٢ ط أولى ١٩٢٦ م ص ١٨ .

الشق الثانى « المستوى الأدبيّ لعصره »

ونقصد بهذا العنوان أن نتعرف - بإيجاز - فنون الأدب فى هذا العصر ، أنواعها ، ومقدارها ، والاتجاهات البارزة ، وما قدمته من عطاء فنى ، قوةً أو ضعفا ، تقليدًا أو إبداعا حتى يكون هذا الشق مرآة تعكس لنا حجم السيوطى الأدبىّ ، بما تركه من إنتاج أدبى نتدارسه .

وعلى الرغم من محاولة بعض الباحثين المعاصرين[1] تقديم رؤية عن المستوى الأدبى لهذا العصر ، أعلاما ، وفنونا إلا أن النتائج كانت غير متفقة ، وصلت إلى حد التناقض ، وإن كانت الصورة الدميمة لمستوى هذا العصر الأدبى واضحة عند أكثرهم .

ومن ثم فإننا فى هذا الشق نحاول أن نذكر - بإيجاز - تلك الرؤى المتناقضة التى انتهى إليها باحثو العصر فى ذلك المضمار ، منبهين - بداية - أنها ليست حُكمًا يعطى للسيوطى حقا أدبيا لا يستحقه ، أو تسلب - أيضا - حقا أدبيًا هو أهلٌ له .

فإننا نزعم - مع الاحترام للدراسات التى أرخت لأدب هذا العصر - أن عصر المماليك ممتلئٌ بالظواهر الأدبية التى تحتاج إلى الباحثين الدارسين ليغوصوا فى مظانها ، محللين - بما وصل إليهم من الدراسات والعلوم الإنسانية والفكرية - ما أفرزه العصر على الأدباء من اتجاهات وإسقاطات وأمراض ، تعد حينا آية فنية رائعة ، وحينا آخر كمًّا

---

(١) من أهم هذه البحوث « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » و « أثر البيئة المصرية فى الشعر فى العصر المملوكى » لمحمود رزق سليم و « الأدب فى العصر المملوكى » لمحمد زغلول سلام و « النقد الأدبى فى العصر المملوكى » لعبده عبد العزيز قلقيلة ، و « الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى » لأحمد صادق الجمال و « المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر » لمحمد محمد محمود عامر و « الأدب فى عصر الدويلات - مصر والشام » لشوقى ضيف « الشهاب الحلبى » رسالة دكتوراة لإبراهيم راشد بآداب الاسكندرية ، و « الأدب فى العصر المملوكى » لمحمد كامل الفقى » والعصر المماليكى فى مصر والشام .. » و « مصر فى عصر دولة المماليك البحرية » لسعيد عبد الفتاح عاشور ، « والأدب المصرى .. » لعبد اللطيف حمزة و « مجالس الغورى .. » لعبد الوهاب عزام و « المؤرخين فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لمحمد مصطفى زيادة وآخرين و « دراسات فى الشعر فى عصر المماليك » لبكرى الشيخ أمين و « أثر التصوف فى العصر المملوكى » أحمد صبحى منصور ، وغير ذلك .

غثًا ، يبقى شاهدًا على تحطم الفن ، وحشفا طرحته نخلة هى أقرب إلى العقم منها إلى الإثمار .

ولنأخذ مثلا واحدا من هذه الظواهر ، وإن عرفت فيما قبل ، إلا أنها اتسمت بصفات كثيرة يجب الوقوف أمامها .

فالأدب العربى قد عرف التغزل بالغلمان منذ القرن الثانى كما يذكر أستاذنا الدكتور هدارة إن هذا اللون الشاذ من التغزل أصبح نوعًا جديدًا فى تاريخ الشعر العربى[1] ، لكن المثير هنا أن هذا قد أصبح قاسما مشتركا عند الشعراء جميعهم - تقريبا - بما فيهم الشعراء الفقهاء والمحدثون فيتغزل الشاعر فى الغلام فى بيتين من الشعر - غالبا - مع ذكر اسم المتغزل فيه أو صنعته أوبلده .

والأمثلة كثيرة لاتحصى ، تجد ذلك فى كتاب واحد ، وهو « نظم العقيان فى أعيان الأعيان » للسيوطى ، على صغر حجمه .

نأخذ منه على سبيل المثال قول الشاب السعودى فى مليح اسمه علىّ :

- قُلْ لى متى ظَعنهم جَدّ السّرى بعلى ... وأىّ دمعٍ عليه غير منهمل
قد سارع الحزنُ نحوى بعد فرقتِهمَ ... فلا تَسَلْ عَن مصابى يَوْمَ سَارَ على[2]

وقول النواجى فيمن اسمه عثمان :

- عثمانُ وافَى فِى الظّلامِ ووجَهُهُ ... وجَبينُه يسبِى ضِيَا القمرينِ
آهــلـا مـن لَيْـلةٍ بمحـمّـدٍ ... إذ زَاره عثْمانُ ذو النّورينِ[3]

وتتعدد الأسماء بتعدد شواهدها المماثلة[4] ، ويلحظ أن الشعراء أضفوا على الأسماء كل ما فى إمكاناتهم الفنية الواضحة من جمال بديعى ، يدور كل هذا فى فلك الوجد والصبابة ، وطلب القرب والمطارحة .

والحق يقال أن شعراء هذا العصر ، وماسبقه - قد اشتغلوا فى بعض الأحيان فى أمور ليست بذى شأن فنى يذكر فى ذاتها كالأحاجى ، والألغاز ، والمدائح الإخوانية ،

---

(١) اتجاهات الشعر العربى . د . محمد مصطفى هدارة . دار المعارف . ط ثانية ١٩٧٠ ص ٥٢٠ .
(٢) نظم العقيان ص ٣٧ .
(٣) السابق ص ١٤٦ .
(٤) راجع السابق ص « ٥٨ / ٦٥ / ٨٤ / ٨٧ / ١٤٢ / ١٤٤ / ١٤٥ / ١٤٦ / ١٤٧ ... » .

ووصفهم الأدوات والأشياء التي يستعملها أو يراها الإنسان في حياته اليومية .

غير أن بعضهم ضَمّنَ تعبيرَهُ عن الذات ، وهى نزعةٌ قديمة فى الشعر العربى[١] فى الأشياء التى يصفها ، ونخالف أحد الباحثين الذى قال أنهم « اكتفوا بالأمور التافهة ، التى لا تكلفهم شيئا من ذلك فوصفوها ، كما قال شهاب الدين الحلبى فى سبحة :

- وسبْحـةٍ مسـودّةٍ لـونُهـا يَحْكِي سَـواد القلبِ والنّـاظـرِ
كـأنّنى عنْـدَ اشْتغـالى بهـا أعـدُّ أيـامَـكَ يـا هـاجِـرى[٢]

فلم يكن وصفه منصبًّا فى السبحة ذاتها ، إنمّا لتصوير موقفٍ نفسيٍّ يحياه .

وسوف نعرض رؤية الباحثين على المستوى الأدبى لذلك العصر ، الذى كان فى رأى بعضهم « صفحة زاهر فى تاريخ الفن العربى » ، ولم يكن عصر محاكاة وتقليد ، إنما كان عصر علم وفن وأدب[٣] و « نهضة أدبية فى مصر وسورية »[٤] .

وكان فى رأى آخرين « عصر جمود عقلى فنرى المتأدبين يشتغلون بتوافه الأمور ويعدون للاسترسال فى الأسلوب[٥] كان فيه الأدب يعانى أسباب العقم ذاتها التى لقيها خلال القرن الثامن تحت ضغط العوامل ، من عجمة سلاطين المماليك ، وغلبة العلوم على فن الأدب[٦] كما يقول آخرون .

ونحاول أن نعرض ما كان عليه الشعر والشعراء آنذاك فى ضوء كتابات الباحثين على اختلاف آرائهم .

■ فالشعر - عند بعضهم - كان « فى هذا العصر تقليدا ، لا استقلال فيه ، وصدى لا حياة به وصورة معكوسة فى الأيام الخالية » ، فقد شاع استعمال الأوزان المولدة كالمواليا والزجل والقوما والكان كان ، والموشحات العامية والفصيحة ، وكان للزجل مكانة رقيقة كادت تنسخ الشعر الفصيح ، فنرى الشعراء وقد يئسوا من رواج أدبهم وعدموا الوسيلة

---

(١) راجع اتجاهات الشعر العربى ، د . هدارة ص ١٧٤ وما بعدها .
(٢) عبد الوهاب حمودة . صفحات من تاريخ مصر ص ١٣٧ .
(٣) النقد الأدبى فى العصر المملوكى . عبده قلقيلة ص ١٣ ، ص ٢١ .
(٤) يوهان فك « العربية » ترجمة د . رمضان عبد التواب . مكتبة الخانجى ١٩٨٠ ص ٢٣٨ .
(٥) فيليب حتى مقدمته على نظم العقيان للسيوطى ص خ / ط .
(٦) مصطفى إبراهيم حسين « رواية الأدب من القرن الرابع حتى نهاية العاشر ص ٣٨٣ .

فى التكسب به ، وقد اندسوا فى غمار الناس وتناولوا حرفهم فكان الكحّال والدهّان والجزّار والحمّامى »[١] .

وقد تناول الشعراء فى هذا العصر الأغراض التى خاض فيها المتقدمون من مدح وغزل ووصف ومجون ورثاء وشكوى وطرد وألغاز ، وأجالوا فى الأسئلة الفقهية واللغوية ونظموا به العلوم والفنون .

والشعر على الجملة أصبح صناعة لفظيةً وتلاعبًا يفتن فى ضروبه الشعراء بعد أن كان من قبل قريحة وطبعا »[٢] .

هذا وقد تعددت المدارس الأدبية الفنية فى ذلك العصر الذى كان فيه العلماء هم الشعراء ترى شعراء التيار التقليدى الذى هو أمتداد لمدرسة العقائد ، وشعراء مدرسة التورية فضلا عن شعراء التصوف[٣] على اختلاف تقسيم الباحثين لهذه المدارس[٤] .

هذا وقد احتلت المنظومات العلمية المقام الأول عند أكثرية الشعراء ، بل وعمدوا إلى عمل منظومات فى قالب المديح والغزل والأشعار الدينية - وإن كان بعضها ذا مستوى - إلا أن بعضها الآخر كان بالغ الضعف لغة ووزنا[٥] .

وقد عاصر السيوطى كثيرا من الشعراء منهم « شمس الدين النواجى ت ٨٥٩ هـ والشهاب التائب ت ٨٦١ هـ ، والشهاب بن صالح ت ٨٦٣ هـ ، والشهاب بن أبى السعود ت ٨٧٠ هـ ، والشهاب الحجازى ت ٨٧٥ هـ ، والشهاب المنصورى ت ٨٨٧ هـ ، وعلاء الدين بن مليك الحموى ت ٩١٧ هـ ، وبدران بن الزيتونى ت ٩٢٤ هـ وغيرهم .

ونرى - أن حكم النقاد على الشعر فى هذا العصر جملة بالسقوط والضعف والتخاذل ، ونفى الإحسان بعامة - كما يقول الدكتور الفقى[٦] إن العدل والنصفة تقتضى

---

(١) عبد الوهاب حمودة « صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى » ص ١٣٥ وما بعدها .
(٢) الأدب فى العصر المملوكى . د . محمد كامل الفقى . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ص ١٢٦ .
(٣) أحمد صادق الجمال . « الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى » ص ٤٢ وما بعدها .
(٤) راجع تقسيم د . صافى حسين لهذه المدارس فى الأدب الصوفى فى مصر . دار المعارف بمصر ١٩٧١ م ص ٥٣ / ٥٩ .
(٥) راجع رواية الأدب . مصطفى إبراهيم حسين ص ٣٨٩ .
(٦) الأدب فى العصر المملوكى ص ٩٣٣ .

التحرى وأن يقال للمحسن أحسنت وبين شعراء هذا العصر من يسمو على الوصف بالسقوط والركاكة ، ومن له فى التجويد والرونق حظ غير قليل .

أما النثر - كما قالوا - فى ذلك العصر من خطابه ونصائح ومواعظ ووصايا وحكم وموازنات والرسائل الديوانية والإخوانية « فلا تكاد ترى فرقا واضحا بين قطر وقطر بل وكاتب وكاتب مجمود أهلها على طريقة واضحة ، جروا على نهج من سبقهم كما جرى سابقوهم على نهج غيرهم ، فهى سلسلة من التقليد »[1] .

ويقول الباحث السابق « كذلك ترى الكتابة تنحدر من علوها يوم كانت على يد بديع الزمان والخوارزمى وأضرابهما فى أواسط العصر العباسى كلاما رصينا ، وسجع مقبول ، قصير الفقرات لايظهر فيها زخرف البديع بقدر ما يسمح به الطبع ، فينتهى قصر الفقران إلى طول ، ويصير الإلمام بالبديع التزاما له والتوشية بالاقتباس ، والتضمين استكبارا يطغى على أسلوب الكاتب ويواريه تحت جمال الاقتباس[2] .

ونرى ذلك الرأى مفصلا عند شوقى ضيف وهو يقول :

وهكذا كانت تؤلف الرسائل من ألوان البديع ، واصطلاحات العلوم ، وتضمين الأبيات والأشعار والاقتباس من آى الذكر الحكيم ، وقد أصبحت الأشياء تلصق إلصاقا ، وتلفق تلفيقا ، فليس هناك كاتب ممتاز لهذا العصر إلا وهو يسعى إلى جلب هذه الفنون فى نثره يقتسرها اقتسارا وقد يعتسفها اعتسافا ، وقد نعجب نحن الآن من هذا التصنع الثقيل ، ولكنه بدعة العصور الوسطى ، وأنه لينطوى فى داخله مدى ما أصاب الكتابة من جمود وتبلور فى هذه العصور ، فإذا الكتاب لايعنون بأساليبهم إلا هذه العناية التى تجعلهم يسلكون اصطلاحات العلوم فى كتاباتهم ، فإن تركوا ذلك فإلى الاقتباس من آى الذكر الحكيم ، وتضمين الأشعار والأمثال ، وهم يوشون كلامهم بفنون البديع وخاصة فى التورية ، ومن العبث أن نبحث بعد ذلك عن شىء طريف يمكن أن نضيفه إلى عصر المماليك ، فقد كان كتابه مقلدين تقليدا شديدا لفن القاضى الفاضل وما عنده من تصنع وتضيع ، ولم يستطيعوا أن يستحدثوا من جديد سوى أن يغرقوا إلى آذانهم فى هذه الأشكال البديعية والعلمية ، ومن الحق أن نلاحظ أن البديع لم يعد يؤدى عندهم معنى التحسين فى صورة طبيعية فقد خرجوا به عن طاقته التى كنا نألفها وأصبح عندهم تلفيقا

---

(١) عبد الوهاب حمودة « صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ١١٨ .

(٢) السابق ص ١١٨ / ١١٩ .

وتلزيقا ، فالكتاب يتصيد فى رسالته تورية أو جناسا معكوسا أو اصطلاحا علميا ليدل على مهاته ، ومما لاريب فيه أن ذلك كان يفتن الأدباء حينئذ وهى فتنة جعلت النثر العربى عملا لفظيا يعنى فيه بالزخرف والتنميق لا بالمعانى ولا ما يتصل بالمعانى من فكر دقيق ، وهذا كل ما عند القوم ، تصنع وتلفيق وما نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نحس بأن الأساليب فى النثر تجمدت »[1] .

ولن نناقش هنا ما قاله مؤرخو الأدب فى هذا العصر شكلا ومضمونا ، بل نترك لأدب السيوطى أن يقرر حق ماذهب إليه الباحثون أو خطأه .

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر . د . شوقى ضيف . دار المعارف بمصر ص ٣٨٢ .

الباب الأول

مصادر الإبداع الفنى عند السيوطى

الفصل الأول : بيئة السيوطى الكبرى .

الفصل الثانى : بيئة السيوطى الصغرى .

الفصل الثالث : المكونات الشخصية .

يستعرض هذا الباب مصادر الإبداع الفنى عند السيوطى من خلال فصوله الثلاثة ، وقد جاء الفصل الأول بيئة السيوطى الكبرى فى ست نقاط :

تحدثنا فى النقطة الأولى عن البيئة الطبيعية التى نشأ فيها السيوطى ، ومصادرها وأثر هذه البيئة عليه ، فضلاً عن أثر الموقع الجغرافى عامة ، وتحدثنا فى النقطة الثانية عن الاتجاه الثقافى فى عصره ، مبينين أثر الصياغات العلمية والفلسفية والدينية ، ومدى علاقته بوصفه إماما وأديبًا بهذه الصياغات قبولا أو رفضا ، ثم تحدثنا فى النقطة الثالثة عن العوامل السياسية التى سادت مجتمعه القومى والعربى ، وموقف السيوطى من سياسات عصره وسياسييه ومدى مواكبة موسوعيته عامة ، وأدبه خاصة لهذه العوامل السياسية ، وأردفنا العوامل السياسية بالعوامل الاقتصادية وموقف السيوطى من هذه النظم السائدة موضحين أثر هذه العوامل على صاحب الطاقات ، سلبا وإيجابا ، ثم تحدثنا عن الحالة الاجتماعية ورؤية السيوطى لها ، وما صاحب ذلك من تأثير وتأثر بها ، مُنْطَلِقًا من خلال عزلته وترفعه عن التنظيم الاجتماعى إلى النفاذ والتأثير موضوحين فى النقطة الأخيرة أن مستوى تقدم الحضارة – آنذاك – ينطلق من نظره علماء العصر عامة ، والسيوطى خاصة إلى الرجوع إلى الإسلام ، وعلومه الدينية .

واستعرض الفصل الثانى بيئة السيوطى الصغرى من خلال أربع نقاط :

الأولى عن بيئة السيوطى الخاصة ، فتحدثنا عن السيوطى « ابن الكتب » وعن سمات أبيه والوصىّ عليه وعن أمه وعن زوجه وبنيه وخدمه ، ثم تحدثنا فى النقطة الثانية عن شيوخ السيوطى وشيخاته وأثر خصال شيوخه على سماته وتحدثنا عن معاصرى السيوطى وعلاقته بهم ، أدباء وشعراء ، ثم عن مهاجميه وفصلنا أسباب ذلك ، ودور شخصية السيوطى فى هذه المواقف عارضين موقفين للسيوطى من مهاجميه ، يمثلان صورة حية لمفهوم السيوطى لبعض مكونات شخصيته ، وكذلك تحدثنا فى هذه النقطة عن المدافعين عنه وأصدقائه من الشعراء والأدباء وختمنا هذا الفصل بالحديث عن تلاميذه .

وكان الفصل الثالث عن المكونات الشخصية : ففصلنا القول عن مكونات شخصيته موضحين العلاقة بين مكوناته الشخصية ومفهومه للإبداع عامة ، والإبداع

الفنى بصفة خاصة ، وأثر هذه المكونات على إنتاجه الإبداعى من خلال مفهومه للدين والأدب ، ومفهومه للإبداع والسلفية فى فنونه الأدبية ، وفصلنا الحديث عن مفهومه للإبداع الفنى داخل شعره التعليمى .

الفصل الأول

بيئة السيوطى الكبرى

(١) البيئة الطبيعية ، والموقع الجغرافى :

تؤثر البيئة الطبيعية تأثيرًا غير مباشر على الإبداع ، بما تحويه من أنواع المصادر الطبيعية ومقاديرها ، مما يؤثر فى أنواع أدواته والأشكال التى يتخذها[١] ولذلك تختلف إبداعات مجتمع قائم على البر ، وآخر محاط بالبحر ، وآخر صحراوى أو زراعى .

ولما كان السيوطى قد ولد ، وعاش فى جزيرة الروضة التى تغنى بها شِعرًا ونثرًا كما فى كتابه القيّم « كوكب الروضة » أو فى « الفيضة فى فضائل الروضة » أوفى « مقامة الروضة » فقد تأثر السيوطى ، جدَّ التأثر ، بهذه البيئة ومصادرها ، فانعكس ذلك على مفردات لغته ، وتشبيهاته واستعاراته ، وأخيلته ، رقةً وعذوبةً ، وامتدَّ هذا الأثر كذلك على أسماء مؤلفاته الأدبية وغير الأدبية ، مما أدى به إلى ما يشبه التكرار « نزهة الأخوان .. ، نزهة الجلساء .. نزهة العمر .. ، نزهة الفيضة .. ، نزهة المتأمل ، نزهة الخاطر .. ، نزهة المجالس » .

وقد كان السيوطى مغرمًا بهذه البيئة ، مغرما بالنيل كما فى مقامته النيلية ، مدافعا عن « حريم النيل » ضد الذين يحاولون أن يشوهوا روعته بما يقيمونه من أبنية على شاطئيه ، دفعه هذا لمجادلة بعض معاصريه ، ممن أفتوا بجواز ذلك ، بل تمكن من رفع تلك القضية إلى السلطان حتى انتصر للنيل وشاطئيه ، وترى ذلك فى منظومته « النهر لمن أراد البروز على شاطئ النهر » وغير ذلك .

وظل السيوطى لايمل من وصف جزيرته « الروضة » والتغنى بجمالها ونيلها ، وبروجها وقصورها وخمائلها ، فهى مأواه وسكنه ، حتى أنه يرى قبيحها حسنا ، وعيوبها مزايا ، كما يقول مصطفى الشكعة « يجعل من بعوضها المؤذى حسناوات من حسناوات جرير ، وأن طنين البعوض تغريد بلابل ولسعاته سهام عيون .

---

(١) الإبداع والشخصية . عبد الحليم محمد السيد . دار المعارف . مصر ١٩٧١ ص ٨٥ .

- ياليلةً غَرّدتْ فيها البعوضُ وقَدْ طـاروا إليَّ زرافـاتٍ ووحـدانـا
يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراكَ بهِ وهنَّ أضعف خَلْقِ اللهِ أَرْكـانَا

بل أنه يبارك براغيث الروضة ، ويصحف اسم البرغوث إلى كلمتين نبيلتين « برٌ » و « غَوْث » ، ويجعل البراغيث تؤدى مهمتين جليلتين هما « مص الدماء الفاسدة ، وإيقاظ الملدوغ ليؤدى صلاة الفجر » يقول السيوطى فى هذا المقام :

- لا تَكْره البرغوثَ انّ اسمَهُ بَـرٌّ وغَـوثٌ لَـكَ أَنْ تَـدْرى
فـبـرُّه مصُّ دمٍ فـاسـدٍ والغَـوثُ إيقاظُـكَ فى الفجْـرِ[١]

وإن كنا نرى فى هذين المثلين السابقين شيئا ثانيا ، نذكره فى مقامه .

وفى مقامات السيوطى يكفى هنا أن نذكر - كأثر تلك البيئة - اسماء هذه المقامات التى لم يكتبها إلا بعد تفكر وروية ، وبعد رغبة مبيتة فى ابتداع موضوعاتها ، بما لم يحُمْ حولها سابق فاختار لها البساتين وأزهارها ، والحدائق وفاكهتها ، والحقول وخضرواتها ، والعطور وأريجها والجواهر ونفاستها ، مما أدخل طعما جديدا شهيا كما يقول عبدالوهاب حمودة على مائدة المقامات[٢] ، نذكر منها « المزهرية - الوردية - المسكية - التفاحية - الفستقية - الياقوتية - البحرية - بلبل الروضة - رشف الزلال ، ..... » .

هذا وقد أثر الموقع الجغرافى فى عملية الاتصال ، وقد كانت الروضة - بموقعها الجغرافى « دار ملك وخلافة ، وسرير سلطنة ورتبة إناقة ، ومسكن علماء أعلام ، ومجلس قضاة وحكام ومقر صلحاء وعباد ، ومفر صوفية وزهاد » . كما قال السيوطى[٣] .

وناهيك عن موقع مصر الجغرافى ، وطبيعة الاتصالات الخارجية ، وقد كان السيوطى مِكثارا فى استقبال الرسائل القادمة إليه من البلدان الإسلامية من البلدان الإسلامية ، يسأله أهلها ما يحتاجونه من علم وفتاو ، ومن ناحية أخرى فإن السيوطى - وإن لم يكن على شاكلة معاصريه - قد قام بعدة رحلات داخلية ورحلة خارجية ، ويبدو أن طبيعة الاتصالات والانتقالات على ما فيها من سهولة كانتا إلى حد ما ميسرتين .

---

(١) « جلال السيوطى » - بحوث - ص ٤٠٧ / ٤٠٨ ، والأبيات فى « مقامات السيوطى » طبعة الجوائب ١٢٩٨ ط أولى ص ٦٧ / ٨ .
(٢) صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ٢٢٩ .
(٣) مقامات السيوطى ص ٦٥ / ٦٦ .
(٤) طبقات المفسرين للسيوطى ص ١٧ .

(٢) الاتجاه الثقافى :

« لما كان عصر السيوطى – على اختلاف بين الباحثين » عصر نهضة علمية تمثلت فى نشر الثقافة الإسلامية وحياة فكرية تتسم بالخصوبة والغزارة فى مختلف العلوم وشتى الفنون بما يحاوله أفراد الشعب نحو العلم رجالا ونساء ، رأينا كثرة العلماء الأعلام الذين نبغوا فى علوم الدين ، وتوفروا على علوم اللغة بمختلف فروعها .

ونكاد نرجع رؤية بعض الباحثين فى أنه عصر جمع وتفسير لا عصر استنباط وإبداع ، وأنّ المتأدبين يشتغلون فيه بتوافه الأمور إلى أن هناك فرقا شاسعًا بين الكم الإنتاجى والكيف الإبتداعى لطاقات مبدعيه ، مما كان له بالغ الأثر فى فهمهم « للإبداع » ، والذى انعكس مفهومه القريب إلى الكم لا إلى الكيف عليهم ، وانسحب شيء من هذا على صاحبنا .

ومن جانب آخر قد تحكمت عدة عوامل فى توجيه الحركة الدينية فى هذا العصر ، سلبا وإيجابا ، فقد تضافرت كثير من الأسباب لتقوية النزعة الدينية لرأب هذا التمزق السياسى ، والاضمحلال الاقتصادى ، والتفكك الاجتماعى وما صاحب ذلك من فساد كان مستشريا فى كثير من طبقات الأمة من الأمراء إلى السوقة . لذا فقد كان طبيعيا أن يكون الرجوع إلى الإسلام مطلبا حتميا شعر به ، وحث عليه ، وقام له علماء الدين ، المخلصون ، وجاوبهم الحكام رهبة ورغبة .

ومن ثم لم تكن لعلماء اللغة والأدب تلك المنزلة الرفيعة التى سما إليها علماءُ الدينِ ، فكان طبيعيا أن يحرص العلماء على النبوغ فى علوم الدين ثم اللغة والأدب .

وقد تطلب ذلك من السيوطى بأن جعل نفسه تنمو فى فلك التدين ، رغبة فى الوصول إلى المبعوثية ، مصلحا أمور أمته ، مقوما ما اعوجّ فى أهلها ، مجددا ماثبت ، مموجا ماءها الآسِن .

بيد أن ذلك – بطبيعة الحال – أثار عليه الجامدين المقلدين ، فتآلبوا عليه ، معرقلين مساعيه ، موقفين نمو أهدافه ، حسدًا تارة ، وجهلا حينا ، وكجنود مجندةٍ لذلك الاضمحلال الشامل .

وقد أوجب هذا الكثير من التصادمات الشرسة بين السيوطى – طيلة حياته – وبين

كثير من فئات المجتمع آنذاك ، ولا نغلو إذا قلنا بين المتحرك والثابت ، بين المبدع الإمام المجدد وبين أصحاب النسخ المشوّهة ، سلاطين التعوّد .

ولنأخذ مثلا من تلك المصادمات ، لنرى عن كثب إمكانات السيوطى ، وقدراتِ فئةٍ من الجامدين المحبطين .

السيوطى ومواجهة المتصوفة الأدعياء :

فقد « كان أولئك المتصوفة فى بحبوحة بين ذلك الشقاء ، يتمتعون بما يغدقه عليهك أولئك الملوك ، وبما يجلبونه باسم الدين من الرعية الغافلة المعتقدة فى ولايتهم ، وقد صور هذه الحالة أحمد بن عبدالكريم القاهرى المكى فى قوله :

– إذا شئْتَ أَنْ تحيا حياةً سعيدةً ويستحسن الأقوامُ منك المقبّحَا
تزىّ بزىّ التّركِ واحفَظْ لسانَهمْ وإلّا فجانبْهمُ، وكُنْ مُتَصَولِحَا[1]

فالمتزيىّ بزىّ الترك يظهر أولئك الحكام ، والمتصولح يظهر بمظهر أولئك المتصوفة فيسعد الأول بمظهر الجبروت ، ويسعد الثانى بمظهر الصلاح المغشوش ، إذ أن « التصوف قد انساق تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية إلى التدهور والاضمحلال فى أواخر القرن العاشر الهجرى ، ودخله العوام ، واعتنقه الوصوليون ، والأدعياء ، وظهر فى كبار رجاله الجهلة الأميون ؛ وكان بعضهم أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، ولم يستهينوا بدراسة العلوم الشائعة فى عصرهم وحدها ، بل أهمل بعضهم التمسك بأعظم مظاهر التصوف ، وهو الزهد فتهافت هؤلاء على الدنيا ، وتسابقوا إلى الظفر فيها بأوفى نصيب ، وأهملوا القيام بفروض الدين ، وتوخوا التمرد على أوامره ، وثاروا على أبسط نواهيه على ملأ من الناس ، واطمأنوا بعد هذا إلى سمعتهم عند الشعب . حكامه وعلمائه على السواء ، وكان كبار متصوفة هذا العصر لا يقيمون الصلاة أبدًا مدعين أنهم يقومون بأدائها فى الأماكن المقدسة[2] .

ولنأخذ بعض الأمثلة التى طفحت بها كتب التراجم والطبقات لهؤلاء ، ففى الطبقات

---

(١) راجع و « المجددون فى الإسلام » . عبد المتعال الصعيدى ص ٣٢١ .

(٢) صفحات من تاريخ مصر ص ٢٣ / ٢٤ . . والحق يقال أن كثيرا من علماء المتصوفة الصالحين كانت لهم واقف قوية وجريئة فى الإصلاح ، والمجاهرة بالتقويم كعز الدين عبد السلام وغيره . راجع لذلك « مواقف تاريخية لعلماء الإسلام » د . محمد رجب البيومى « كتاب الهلال » ٤٠٢ . رمضان ١٤٠٤ هـ .

الكبرى للشعرانى نقرأ فى ترجمة الشيخ أحمد بن سلمان الزاهد« .. كان يقول مادخل أحد إلى مسجدى هذا ، ثم صلى ركعتين إلا أخذت بيده فى عرصات يوم القيامة ، فإن الله شفعنى فى أهل جميع عصرى »[١] .

وفى ترجمة الشيخ حسين أبى على يقول الشعرانى :

« وكان هذا الشيخ من كمّل العارفين وأصحاب الدوائر الكبرى ، وكان كثير التطورات تدخل عليه بعض الأوقات تجده جنديًا ، ثم تدخل فتجده سبعًا ، ثم تدخل فتجده فيلاً ، ثم تدخل عليه فتجده صبيًا ، وهكذا مكث نحو أربعين سنة فى خلوة مسدود بابُها ، ليس لها غير طاقة يدخل فيها الهواء ، وكان يقبض من الأرض ، وينال الناس الذهب والفضة ، وكان من لا يعرف أحوال الفقراء يقول هذا كيماوى سيماوى[٢] .

وفى ترجمة الشيخ حسن التسترى نقرأ :

« .. فأرسل الوزير إلى زاويته ليسد بابها ، وكان الشيخ خارج مصر فى المطرية هو والفقراء فرجعوا ، فوجدوا الباب مسدود . فقال الشيخ : من سد هذا الباب ؟ فقالوا : سده الوزير فلان بأمر السلطان . فقال : ونحن نسد أبواب بدنه وطيقانه فعمى الوزير وطرش وخرس ، وانسد أنفه عن خروج النفس وقبله ودبره عن البول والغائط[٣] فمات الوزير فى الحال ، فبلغ ذلك السلطان فنزل إليه وصالحه وفتح له الباب ، وكان عسكر السلطان كله قد انقاد لسيدى حسن رضى الله عنه حتى خرجوا عن طاعة السلطان إلى طاعته[٤] .

هذا وقد « اشتهروا بفعالهم الغريبة التى زعموا أنها من الدين ، حتى أن بعضهم حلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، كما أزال رموش عينيه فبدوا فى صورة مخيفة أثارت الرعب فيمن رآهم »[٥] .

وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون – فيما سبق – بقوله : « من هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم « بهاليل » معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء ..[٦] .

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ط أولى ١٩٥٤ . ط الحلبى ج ٢ ص ٨٢ .
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٢ . وناهيك عما كان فى أوربا من يقظة ونهضة شاملة .
(٣) الترتيب المنطقى يقتضى التقديم وإلا فكيف ؟ ، وإن كنا نشعر – عموما – بعلو هذه الأخبار .
(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٦٦ .
(٥) صفحات من تاريخ مصر ص ٢٣ .
(٦) راجع مقدمته . فصل « علم التصوف » ص ٤٣٩ وما بعدها . ط كتاب الشعب .

ولما كان السيوطى وهو المفكر الإسلامى المثقف يدرك ما للصوفية من قدر جميل وأداة للإصلاح ، ولم يكن التصوف مجرد هروب ، إنما يعين المتصوف لأن يقول للطاغية : قف مكانك كتب السيوطى شيئا من كتبه عن الصوفية ، واقفًا إلى جوار أقطابهم كأبن عربى وابن الفارض مدافعا عنهم تشدُّه إلى ذلك طبيعتهُ الجدلية ، لكنه – وإن توهم بعض الباحثين –(١) لم يكن متصوفا ، ولم يحاول أن يقبل بعض أفكارهم وجادل فى ذلك طويلا كالقصة التى جرت بينه وبين أهل الاتحاد ، كما سنعرض لها ولغيرها فى حينها .

دافع السيوطى عن الصوفية وعن أعلامها فى مؤلفات له مثل « قمع المعارض ، وتنبئة الغبى ، والمعانى الدقيقة ، والخبر الدال ، وتأييد الحقيقة « لأنه يدرك ما فى الصوفية من سمو وإصلاح ، وما فى أقطاب التصوف « السابقين » من قدر كبير من المعرفة ، ودفع النفوس إلى الإصلاح والالتزام الاجتماعى ولكن أن يتحول التصوف والمتصوفون إلى تلك الصورة المشوهة له ، وإلى هذا الإصلاح المغشوش بما فيهم من جهل وأمية وتهافت على ترف الدنيا ، وإهمال فى أوامر الدين ، وإلى من صار شفيعا لأهل عصره جميعا ، وإلى من يتحول جنديًا أو سبعًا أو فيلاً أو صبيًا ويحول التراب ذهبًا وفضةً ، مسيطرين بهذه الخزعبلات والأمور العبثية على هيبة العرش والسلطنة فالرعية دمية والسلطان – وإن كان شريكهم – لعبة يحركونها من خلف كواليس موات هذا العصر أوجد كل هذا التصادم الحتمى ، والصراع الطبيعى بين السيوطى وبين تلك الأداة التى تحولت إلى عامل هدم ، وعميل ينخر فى موروث أمة الإسلام ، وقد استطاعوا من خلال هذا التصادم والصراع أن يصيبوا السيوطى بالمتاعب الجمّة ، بل حاولوا قتله عندما صار « شيخ خانقاه سعيد السعداء ورأى أهلها ينعمون فى أوقافها ، ويهتمون بتكاليفها الصوفية بل كانو يظهرون بمظاهر الأغنياء ، ويقتنون الخيل والبغال ، فأراد أن يحرمهم من أوقاف الخانقاه ، فثاروا عليه وأوسعوه ضربا ، وألقوه فى الميضأة بثيابه وفاخر أحدهم بأنه ضربه بالقبقاب ، وتمكنوا من عزله من ذلك المنصب ، وقد قيل إنه تركها(٢) وسوف نتعرض لذلك فى مقاماته مثل الاستنصار والؤلؤية .

---

(١) مثل عبد الوهاب حمودة فى « صفحات من تاريخ مصر » ص ٣٢ .
وصافى حسين فى كتابه « السيوطى » فصل السيوطى الصوفى ، ومن القائلين بعدم تصوف السيوطى عبد اللاه محمد حسن فى رسالته « السيوطى أديبا » ص ٧٤ .

(٢) المجذدون فى الإسلام ص ٣٢٦ وما بعدها .

ويفسر كل هذا من جانب آخر اتخاذ السيوطى جانبا من المنطق فإن العصر - كما يقول عبداللاه محمود حسن« لم يكن بالمسرح الصالح لظهور رجال المنطق والفلسفة ، المجدد منهم والمبتكر ولا رجال الحكمة والنظر فيما وراء الطبيعة . ولعل ضعف الثقافة بعامة والعناية بعلوم الدين بخاصة كان لهما دخل فى ذلك »[1] .

وإن كنا نميل إلى أن السيوطى وجد أن تطهير المجتمع والفرد فى يد علماء الشرع لا من قبَل أهل الجدل والفلسفة ، فإن طريقة إيصال ذلك الهَدْى تتخذ طريقها القصير المعبّد من قبَل التأثير الدينى لا الجَدلى يقول السيوطى :

واشْكُر لأهلِ علومِ الشّرعِ إذْ شَرحوا   لَـكَ الصّوابَ وأبْـدوا فيـهِ تَـذْكِيْـرَا
وأَصْلَحُـوا لَـكَ لَفْـظًا أَنْتَ مفتقـرٌ   إليـهِ فِى كلِّ صبْـحٍ لَيْسَ منكـورَا
لاتَحْسبن مَنْـطقًـا يَحْكى وفَـلْسفـةً   ساوى لدى عُلماءِ الشّرعِ تَطْهيْرَا[2]

هذه هى الصياغات العلمية والدينية والفلسفية التى كانت تتحكم فى المجتمع آنذاك ، لترى مقدار ذلك على من يحاول أن يكون مبدعًا ومجددًا ، بل مقدار ماهية الإبداع المُفْرَز فى مواجهة تلك الصياغات الموجودة ، وأثر هذه الصياغات على الإبداع ، قوة وضعفا والعكس ، قدر ما تحمل من إمكانات دفاعٍ ، وقدر ما يحمل المُبدِع من طاقاتِ هجومٍ وتفريغٍ وتعبئة .

(٣) العوامل السياسية :

عاش السيوطى فى عهد دولة المماليك « البُرجية » ٧٨٤ - ٩٢٢ هـ ، التى قامت إثر انقلابٍ ضد دولة المماليك السابقة البحرية ، وكان المماليك عموما - يتصفون بالهمة والحماسة ، وأحيانا بالتّقى والورع ، وأحيانا بالانتهازية الكلبية على حد تعبير « ستيوارت » ، ولكن محال وصفهم بأنهم مصريون[3] وإن ذهب نفر من الباحثين إلى أن المماليك قد صاروا عربًا بالموطن وبالمصلحة المشتركة ، وبالحياة المترابطة[4] وقد أدوا دورهم فى كافة النواحى والعلوم[5] .

(١) جلال الدين السيوطى أديبا ص ٢٠ .
(٢) الحاوى للفتاوى ج ١ ص ٣٥ .
(٣) القاهرة . ديزموند ستيوارت . ترجمة يحيى حقى . كتاب الهلال ١٩٦٩ ص ١٢٠ .
(٤) محمود رزق سليم « أثر البيئة .. » ص ٤ وما بعدها .
(٥) محمد محمد محمود عامر « المماليك المصريون الذين نبغوا فى ميدان الفكر » ص ٤٥٤ .

وكان عدد سلاطين « البرجية » ثلاثة وعشرين ، حكم تسعة منهم مائة وخمسة وعشرين عاما ، وحكم فى التسع السنوات الأخرى أربعة عشر سلطانا ، وقد ساد عصرها الاضطراب الداخلى ، فضلا عن الاضطرابات الخارجية من قبل أمراء سورية ، وغارات البدو المتكررة ، وغزوات المغول ، ومنافسة العثمانيين لحكام مصر ، ومن جانب آخر تعرضت لبعض المجاعات فى الوقت الذى أخلد فيه أمراء وسلاطين المماليك البرجية إلى الدعة والنعيم ، الأمر الذى أضعف شوكتهم القتالية ، وأدى إلى ظهور الفوضى ، وكثر التشاحن فيما بينهم على السلطة ، وبخاصة فى الفترة التى عاشها السيوطى ، التى طفحت بمؤامرات السلاطين والأمراء ، وفتن القضاء والفقهاء ، وفساد موظفى الدواوين وولاة الأقاليم .

فكان طبيعيا أن يتولى ثلاثة عشر سلطانا فى حياة السيوطى ، وهى لاتزيد على ستين عاما شهدت طفولته هدوءً وأمنًا بتآلف جقمق والخليفة المستكفى بالله ، حتى شبع الفقراء بعد جوع ، ولكن الخلاف دب بين جقمق وأخى المستكفى الخليفة الجديد « القائم بأمر الله » ، فتنازل جقمق لابنه « الملك المنصور » ودُسّت الدسائسُ بين المنصور وبين القائم بأمر الله وخلع الملك المنصور بعد واحد واربعين يوما ، ومع ذلك لم يتمكن الخليفة من الاستواء على العرش ، إذ اختارت الأحزاب مملوكا هو الملك الأشرف ، وقد دب الخلاف بينهما ، وتمكن الأشرف من الغلبة حتى أخرج الخليفة مقهورا مبعدا ، فأقام فى الاسكندرية إلى أن مات ، ودفن عند شقيقه المستعين بالله ، ومن رتابة الأحداث ، أنهما شقيقان ، كل منهما رام السلطة ، وكل منهما خلع ، وكل منهما سكن الاسكندرية ، ودفنا معا ، وحكم بخلعهما قاضيان أخوان الجلال والعلم البلقينى .

واستبد الملك الأشرف ، وعين أبا المحاسن يوسف (المستنجد بالله) خليفة ، وقد خلع الأشرف - فيما بعد - نفسه إثر شيخوخته ومرضه ، وعين ابنه « المؤيد » الذى تصرف فى الأمور على أحسن مايرام ، فحسده الأمراء ، فخلعوه بعد فتنة عظيمة ، وولوا « الملك الظاهر » ، ثم اختاروا الأمير أبا سعيد الذى خلعوه بعد ستة وخمسين يوما ، وولوا بعده الأمير تمربغا الذى سرعان ما ظهر فساده ، فخلع ، فولوا الأشرف قايتباى ، الذى خشى من السلطان محمد الغازى العثمانى أن يهاجم الديار الشآمية - بعد فوزه على ملك فارس - فيسلخها عن ملك مصر ، فجيّش جيشا ، والسلطان العثمانى غير مبال به ، منشغل بقتال الروم ، فخاف الأشرف وهم بخلع نفسه فمنعه الأمراء ، ومن ناحية ثانية يضيق الخناق على الخليفة أبى المحاسن ، ولم يُسمح له حتى النزول من قلعة

الجبل إلى أن مات فتولى الخلافة ابن أخيه عبدالعزيز « المتوكل على الله » وتولى السلطنة بعد الأشرف الملك الناصر الذى عبث بالأمور ، وجار ، وظلم ، واستقرت السلطنة بقانصوة الغورى ، الذى حاول أن يعالج ما فسد فلم يفلح ، فخلع نفسه .

وأخذ الخلافة بعد موت المتوكل على الله المستمسك بالله ، ومن جانب آخر تحزب البعض للناصر محمد حتى أرجع ، لكن الناصر جار وظلم وغالى فى ذلك ، حتى تمكنوا من ضربه ، وأجمعوا على مبايعة خاله قانصوة الغورى الذى خلع أيضا بعد سنة وبضعة شهور ، وولوا الأشرف قايتباى الذى خلع بعد سنة وأشهر ، واختل السلطنة مما دعا أمراء الشام لتنصيب طومان باى سلطانا بالقاهرة ، وقد أعيد قانصوة الغورى إلى الحكم بعد قتل طومان باى ، الذى كان مصرعه والدولة البرجية مع الغزو العثمانى[١] .

هذه الماحة سريعة لسياسة عصر السيوطى وسياسية ، فما هو أثرها على السيوطى ؟ وما موقفه إزاء سلاطين وخلفاء عصره ؟ وملامح كل هذا على أدبه ؟ .

فى أغلب الأمر إن الشعب المصرى – كما يقول محمود رزق سليم – لم يكن له دور يذكر فى السياسة المملوكية[٢] وقد رأى السيوطى – على نحو ما انتهى إليه الدكتور الخربوطلى – أن شخصيات الخلفاء تؤثر فى أبعاد السياسة ، حتى أصبحت الدولة انعكاسات لخصائص الخلفاء النفسية والعقلية والخلقية[٣] .

ويلاحظ – مبدئيا – أن السيوطى لم يتعرض للترجمة عن الخلفاء إلا بعد أن فرغ تماما من دراسته عن سائر الطبقات ، يقول السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » « ولم يبق من الأعيان غير الخلفاء ، مع تشوق النفوس إلى أخبارهم ، فأفردت لهم هذا الكتاب ، ولم أورد أحدًا ممن أدعى الخلافة خروجا ، ولم يتم له الأمر ككثير من العلويين والعباسيين ، .... ، ولم أورد أحدًا من الخلفاء العبديين ، لأن أمامتهم غير صحيحة »[٤] .

وتأخير السيوطى للخلفاء إلى أن أتم كتابة سائر الطبقات يثير بعض تساؤل ، أهو إجلال لهم ، وانتظار لأن يؤرخ ما استطاع أن يعاصره منهم ؟ أم عدم اعتناء وتتمة موضوع لا يشعر فيهم بصلة قوية فأرخ لكل الطبقات حتى انتهى بهم ؟ .

(١) راجع « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » . ميخائيل شاروبيم بك . ط أولى – بولاق عام ١٨٩٨ م ، ج ٢ ص ٥٠٢ / ٥٢٥ .

(٢) أثر البيئة ص ١٦٨ وما بعدها .

(٣) بحثه فى « جلال السيوطى » بحوث ص ١٥٩ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣ وما بعدها .

بيد أن مايراه السيوطى من سياسات عصره جعلت العلماء عنده هم الملوك بل الملوك تحت أقدامهم كما قال فيما سبق ، ومن ناحية أخرى « يبدو تحيز السيوطى للخلافة العباسية واضحا فى صفحات كتابه تاريخ الخلفاء ، ولايعترف بأى نظام للخلافة بعد تولى العباسيين ، ويرى أن العباسيين يحتفظون بالخلافة حتى يسلموها إلى عيسى أو المهدى[1] وذلك صادر من منطلق إيمانه بالخلافة كنظام اسلامى ، ولأنه شافعى المذهب ، فالشافعى متشدد فى وجود أن تكون الخلافة فى قريش ، فضلا عما يتعرض له خلفاء عصره من قيود السلاطين المماليك .

ولذلك فقد كان السيوطى كما يقول الشعرانى « لا يتردد إلى أحد من الأمراء والملوك ، ولا إلى غيرهم مدة حياته[2] وهذا لاينفى أنه قابل بعض هؤلاء ، ووقعت مواقف كثيرة ذكرها الشعرانى نفسه[3] .

لقد وضع السيوطى فى علاقته بالسلاطين نفسه فى مكانها الصحيح ، وسلك معهم سلوك العلماء غير مداخل الدنيا أو الحكام ، بل إنه - فى ظننا - كان يتعمد إصدار بعض السلوك مثلما رأيناه يذهب للقاء الأشرف قايتباى وعلى رأسه الطيلسان ، فعوتب على ذلك ، لكنه رفض هذا وأنشأ رسالته « الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان » ، ومن ناحية أخرى ليعرف المجتمع قيمة العالم فإنه حينما شفى قايتباى توجه العلماء لتهنئته بالشفاء عدا السيوطى الذى ورفض مصاحبتهم ، وامتنع عن لقاء السلطان ، وأنشأ رسالة أخرى أسماها « رواية الأساطين فى عدم المجئ إلى السلاطين وكان السلطان - كما يقول ابن العماد - طلبه مرارا فلم يحضر إليه[4] .

وكذلك دفعه هذا السلوك إلى مصادمات بينه وبين طومان بأى أدت إلى إهدار دمه فاختفى ونجا بعد أن خلع طومان باى ثم قتل[5] .

وقد حاول الغورى أن يقربه إليه ويعيده إلى سابق وظائفه ، ولكنه أبى وآثر العزلة مع العلم على الحياة مع السلطان ، بل كان مترفعا عن قبول الهدايا ، فقد أرسل إليه الغورى ألف دينار وخصى ، فرد المال وأعتق الخصى ، وقال لبعض أصحابه حين سأله

---

(١) « جلال السيوطى » بحوث ص ١٦٤ وما بعدها .

(٢) ذيل الطبقات الكبرى ص ٤ .

(٣) راجع السابق من ص ٢٤ إلى ص ٣٢ .

(٤) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣ .

(٥) الأعلام ج ٣ ص ٢٣٣ .

أن يقضى له حاجة عند الغورى : يا أخى إنى أرى النبى (ﷺ) يقظةً ، وأخاف أن أجالس الغورى فيحتجب عنى عقوبةً لذلك »[1] .

ومن المعروف أن السيوطى كتب عدة رسائل عن الحرب مثل « غرس الأنشاب » و « السماح فى أخبار الرماح » وإن كنا نميل إلى أنه فوّق الجهادَ الداخلى ، وإصلاح أمور الدولة والإنسان كيما يستطيع بعد ذلك الجهاد الخارجى ، وصد العدوان كما ينبغى ، فإن السيوطى لم يكتف بأن يعظ من حوله والقريبين إليه مكانةً إنما الحكام والأمراء أينما كانوا فقد علم أن ملوك التكرور شاع ظلمهم فألف رسالة إلى ملوك التكرور يردهم إلى إطار الرشد والعدل ذاكرا أحداثا وأسماء مما يدل على أنه كانت هناك مكاتبات بين السيوطى وبين رعايا تلك البلاد ، وسوف نتعرض لهذه الرسالة فى موضعها .

وقد انعكست سياسات العصر فى شعره ، وفى مقاماته التى اتخذ من موضوعاتها الجديدة وشخوصها مسرحًا مثل فيها سياسة العصر ، بجميع مصادرها من منظوره الخاص مما ستراه مبسوطا فى صفحات البحث .

هذا وقد توافرت كثير من الأسباب ولم يكن هذا الاضطراب السياسى هو الدافع الرئيسى فى اعتكاف السيوطى عن العامة والخاصة مدة تناهز اثنين وعشرين عاما كما قال الشكعة[2] ، إذ أننا – نظن – رأى إصلاح كل هذا الاضمحلال الشامل إنما مرجعه إلى التثقيف الدينى والدنيوى فما الحاكم إلا ثمار الشعب وموروثه الحضارى ، فبدأ الإصلاح بتقوية الماهية فى المواطن من خلال الثقافة الموسوعية ، فإن الانتماء الأكبر للإسلام ودياره ، إنما يبدأ من انتماء الإنسان المسلم ، والإحساس بقيمته ووجوده .

لذا رأينا السيوطى – وإن سبقه آخرون – يميل إلى قوميته المصرية على الرغم من ذوبانه فى أمة الإسلام ، ذوبانا كليا – ويرى أنها صاحبة فضل على العلم والأدب ، فألف الكثير فى أدب المصريين وأشعارهم ، حتى أنه يعد رائدا للدراسات الأدبية المصرية ، ومن جانب ثان كتب السيوطى فصلاً فى حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة بعنوان « السبب فى كون أهل مصر أذلاء يحملون الضيم[3] وهو ما يثير – بذكاء السيوطى كما نعتقد – ذلك التأثير العكسى بتشريح الإنسان المصرى ، ثم معالجة ما فيه من وهن باستخدام نعرات النخوة فى رفض الامتهان .

---

(١) ذيل الطبقات الكبرى ص ٢٠ .

(٢) جلال السيوطى . م . م . ص ٤٤ .

(٣) الفصل فى ج ١ ص ٣٣٦ وما بعدها .

(٤) العوامل الاقتصادية :

يرى بعض الباحثين « أن عصر السيوطى هو عصر الانتعاش الاقتصادى ، ولاسيما مدنها ، مما انعكس أثره على حياة الحكام ، وعلى بعض الناس فى شكل ثراء وبذخ نادرين ، وإبداع فى الصناعة والحياة الاجتماعية بشكل لم يعرف من قبل[1] .

ويراه آخرون أنه كثرت فيه المجاعات والأزمات الاقتصادية والغلاء المستمر والقحط الملحّ والأوبئة المتكررة ، ونقص النيل الذى لايكاد ينقطع ، « وأن الذى زاد فى سوء الأحوال الاقتصادية ما كان يرتكبه الأمراء وأصحاب الشأن فى الدولة من ظلم الناس ، واحتكار الأموال ، وتزييف العملة والتلاعب بها ، والاستيلاء بالقوة والبطش على ما كانت تنتجه أرض الفلاحين ، والزراع من الثمار والمحاصيل ، أضف إلى ذلك كثرة الضرائب التى كانت تفرض على الأفراد والعقارات ، وقد أصاب الناس فى عصر السيوطى ضيق من العيش ، وارتفاع فى الأسعار ، غير أنه لم تحدث مجاعات عامة وإنما كان هناك فقر وإقلال »[2] .

بيد أننا نرى أن الحالة الاقتصادية تجمع بين الرأيين السابقين معا .

فكان هناك النظام الاقطاعى وهو للماليك حسب درجاتهم من السلطان إلى أصغر مملوك الذين استحوذوا على أرض مصر بقصد استغلالها، وليس ملكيتها ، وقد سيطرت الدولة المماليك على التجارة العلمية بين الشرق والغرب عن طريق مصر فانعكس هذا فى حياة القصور الباذخة والاحتفالات ، ومن جهة أخرى كان على عامة الشعب – حقا – أن تدفع ضريبة ترك مقاليد الأمور لمن كان غريبًا عنهم .

هذا وقد كتب السيوطى – بدافع منه إلى اعتدال النظم الاقتصادية وما فيها من ضرائب باهظة رسالة سماها « رسالة فى ذم المكس »[3] ، ورأى فيها أن المكس أمور مذمومة مكروهة ، وأن المكاسين أو الجباة مصيرهم إلى جهنم ، ونقل الحديث الشريف « لا يدخل الجنة صاحب مكس »[4] .

---

(١) راجع « العربية » ليوهان فك ص ٢٣٨ و « جلال السيوطى » البحوث ص ٢٩ .
(٢) راجع « صفحات من تاريخ مصر ص ١٨ و « جلال السيوطى » لصافى حسين ص ١٦ .
(٣) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٤١٦ حديث فى ١٨ ورقة و ٢٣٢٢ حديث .
(٤) رواه السيوطى فى « الجامع الصغير » من الأحاديث الصحيحة ج ٢ ص ٢١١ ، ورواه كذلك المناوى فى « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » ج ٢ ص ١٨٣ ط خامسة – مطبعة الحلبى .

فالسيوطى وجد أن الضرائب اختلفت كل الاختلاف عن أنواع الضرائب الشرعية ، ورأى أن من واجبه الدعوة إلى العودة لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى أمور الضرائب فكتب تلك الرسالة .

وفى حسن المحاضرة أشار السيوطى « إلى الأزمات النقدية » التى حدثت كثيرًا طيلة العصر المملوكى ، وما كان يتبع ذلك من عادة من تغير الأسعار تداول العملات ، وتحرك الأسعار واختفاء العملات الجيدة ، وتداول النقود عَدَدًا أو وَزْنًا ، وهذه الأزمات وفشل السلاطين فى حلها كان له أكبر الأثر فى إلحاق الضرر بالاقتصاد المملوكى ومن الأزمات النقدية التى أشار إليها السيوطى تلك التى حدثت فى مصر فى السنوات الهجرية « ٦٩٣ - ٧٢٤ - ٧٤٠ - ٧٨٩ - ٧٩٤ - ٧٠٦ - ٨١٥ - ٨١٧ » وشرح السيوطى الوسائل التى لجأإليها بعض سلاطين المماليك لمواجهة هذه الأزمات النقدية مثل سك نقود جديدة جيدة العيار ، أو تغير سعر الصرف أو الأمر بأن يتعامل الناس بالنقود وزنًا لا عددًا ، وما كان لذلك من أثر على حياة الناس المالية والمعيشية .

وللسيوطى كذلك رسالة الإنصاف فى تميز الأوقاف « حارب فيها ذلك النظام الاقطاعى وهو استحواذ الأغنياء لأرض مصر ، وأوقافها الأهلية ، إنما يرد إيرادها إلى بيت المال[1] .

أوردنا ذلك لندلك على ما للضغوط والعوامل السياسة - كما رأيت سابقا - والاقتصادية من أثر حتمى فى تفتيت جهد صاحب الطباقات وتنوعها بدلًا من توحدها فى غرض معين وإنتاج واحد يثمر إبداعا أكثر كمًا وأفضل كيفًا فى نوعه ، وتلاحظ - مع ذلك - إن السيوطى قد أدى رسالته - وإن فتت جهوده بتنوع التبعات - بشكل منقطع الند .

(٥) الحالة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعى :

المجتمع المملوكى مجتمع جامد ، طبقى البنيان ، شأن المجتمعات الإقطاعية فى كل زمان فكان الشعب وهم جميع عناصر السكان من الرعايا ، غير جنس المماليك وطبقتهم ، وهم طبقات الوطنيين والمستوطنين ، وطبقة المثقفين والعناصر العربية المنتشرة

(١) « جلال السيوطى » بحوث ص ٦٢ / ٦٤ .

فى البلاد ، وكانت هناك كلمة العوام أو العامة تطلق على جميع الرعايا من سكان المدن باستثناء رجال القلم حتى مياسير التجار كانوا يعرفون باسم « بياض العامة » وأما السواد الأعظم من العامة فهم دون « بياض العامة » ثروة ومكانة حتى نصل إلى زمرة « الحرافيش » ، وهناك الفلاحون المشتغلون بالزراعة ، أما المماليك فكانوا يمثلون طبقة حربية ، ارستقراطية . كثرت اعتداءاتهم على الناس ولاسيما خلال الأزمات وإعداد الحملات الحربية وإن كانت بعض المواقف المشرفة من العلماء فى رفض الظلم كالأقصرآئى مع قاتيباى[1] .

وساءت الأحوال الاجتماعية بين المسلمين فى هذا القرن ، وازداد فيه شقاء الرعية خاصة « بعد ازدياد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية لأن الملوك كانوا يبالغون فى الخضوع لهم ، ولازدياد اعتقاد العامة فيهم[2] وما أوتوا من فكر سقيم ، وسلوك شاذ وتخريب شامل وتضييع لكل المفاهيم التى تأخذ الإنسان إلى برٍّماهيتهِ ووجوده المادى والروحى ، وهذا ما يفسر موقف السيوطى من العامة الذين كان يذمهم - فى أكثر الأحيان - « العوام كالأنعام بل أضل وأجحد من الأنعام ، ما للعوام غير السيف ، ولو أصابهم الحيفٌ[3] مما سنبسط فيه القول فى أدبه فى هذا المضمار .

ومن جهة أخرى أن المرأة تمتعت فى ذلك العصر بمكانة فيها شيى غير قليل من الاحترام يتمثل فى أن بعضهن كان يلعب دورا فى سياسة العامة ، وكن يشاركن مشاركة فعالة فى النشاط الدينى والعلمى والأدبى .

هذا وقد انصرف بعض الناس - نتيجة التحلل والفساد - عن النساء كمتعة حياتية إلى الشذوذ فكتب السيوطى كثيرا من مؤلفاته فى النكاح ومن تلك المؤلفات مقامته رشف الزلال ، مُرغّباً هؤلاء فى اتخاذهن سكناً ومودةً .

والتنظيم الاجتماعى الذى يتمايز من خلاله « الأفراد فى مختلف الطبقات والطوائف الاجتماعية بأنواع من الامتيازات والالتزامات ، وقد يؤدى هذا التمايز إلى الحد من الاتصال بينهم مما نقلل فرص الإبداع لدى أفرادها ، وعلى العكس من ذلك قد يؤدى هذا إلى حث بعض الأفراد على الإبداع وتركيزهم لجهودهم وطاقاتهم لهذا العرض مادام

---

(١) صفحات من تاريخ مصر ص ١٠ وما بعدها .

(٢) المجددون فى الإسلام ص ٣٢٠ .

(٣) « در الكلم وغرر الحكم » للسيوطى مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤١٦ مجاميع ورقة ٩٧ .

الحراك الاجتماعى إلى فئات أعلى ممكنا عن هذا الطريق الذى يتطلب جرأة نادرة للنفاذ إلى الفردية ، والإبداع دون الاعتماد على ضمان من المركز الاجتماعى[١] .

وهذا ما تراه فى تمايز طبقات هذا الشعب فى العصر المملوكى ، سواء كانت طبقة المماليك وطبقات الرعية أم تمايز طبقات الرعية نفسها .

والسيوطى قد ارتضى لنفسه - تدفعه دفعا كثير من العوامل تتمثل فى تحطيم أكثر تلك النظم والمفاهيم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية - مكانا لم يعتمد على ضمان المركز الاجتماعى فهو لم يتهافت مثل غيره على منصب ، بل كان مرتفعا أشد الترفع عن الحكام وإمكاناتهم ، وعن أصحاب العلاقات ، بل أنه من خلال هذا الترفع وتلك العزلة ، ركز جهوده وطاقاته وفكره وسماته الشخصية للنفاذ إلى الفردية والتجديد والإبداع .

(٦) مستوى تقدم الحضارة :

« يؤثر مستوى التقدم الذى بلغته الحضارة فى الموقف الذى يبدأ منه الفرد عليه الإبداع » .

ولا نقصد هنا موروث هذه الأمة الحضارى الذى وصل إلى السيوطى ، إنما كيفية حال هذا الموروث فى عصره ، فقد كان مستوى تقدم الحضارة العربية - فضلا عن أنه كان منهكا نتيجة الحوادث وعوامل التعرى الداخلية - كان فى عصر السيوطى لعبة تتحكم فى إعطائه مفاهيم ضيقة وتتحكم فى توجيهه تلك العوامل السابقة .

فكان حريا أن يفترق مفهوم الحضارة العربية وما يحدث فى الغرب من نهضة شاملة مقننة ، كل منهما يبدأ فيه صاحب الطاقات والإنتاج بما وصل إليه - عيانا - من مستوى لتلك الحضارة ، فكان الرجوع إلى الإسلام فى ذلك العصر كأداة مخلصة للإنسان ، آخذة بيده ، حاضرة ومستقبله ، مستحوذا على شخصيات المنتجين المبدعين وأفكارهم وطاقاتهم ، وبما أن السيوطى بَيّتَ فكرةَ الإمام المبعوث على رأس هذا العصر لنفسه ، مصلحا أمور أمته ، مجددا لطرائق حياتها المادية والمعنوية انحسر - أو كاد - ذلك الإبداع فى هذا المجال ، وبالتالى وظف السيوطى الإبداع الأدبى لخدمة فكرة التجديد والاجتهاد .

---

(١) الإبداع والشخصية ص ٩١ .

الفصل الثانى

بيئة السيوطى الصغرى

(١) بيئة السيوطى الخاصة :

إن الشخص الذى يصبح مبدعا فى رشده لا يتصل بالبيئة الاجتماعية الكبيرة إلا بعد أن يعيش فترة طويلة فى بيئة خاصة محدودة ، وهى الأسرة ، يتلقى فيها من الخبرات ما يعده للاستجابة بطريقة معينة ، إيجابية أو سلبية للخبرات القادمة فى حياته ، إذ تلعب الأسرة دورا عاما فى التنشئة وتشكيل العادات[1] .

ولقد ولد السيوطى فى القاهرة[2] فى منزل أبيه ، ولذلك كان يلقب بابن المكتب أو بابن الكتب لأن أباه قد « احتاج إلى مطالعة كتاب فأمر أمه أن تأتيه بالكتاب من بين كتبه فذهبت لتأتى به فجاءها المخاض فولدته بين الكتب[3] .

وكان حين ولد لأبيه مثار البهجة والجدل فى نفوس الكثيرين ، وحُمِلَ فى حياة أبيه إلى الشيخ محمد المجذوب ، وكان رجلا صالحا بجوار المشهد النفيس ، فبرّكَ عليه كما ذكر ذلك صاحبنا[4] ، وسماه والده سابع يوم ولادته عبد الرحمن ولقبه بجلال الدين ، ثم لما

---

(١) الإبداع والشخصية ص ٧٢ / ٧٣ .

(٢) هناك نفر من الباحثين مثل « يحى إسماعيل أحمد فى مقدمته على « أسباب الحديث للسيوطى ط الأولى ١٩٨٤ ، دار الكتب العلمية - بيروت ص ٣٩ ، ومثل « محمد سيد جاد ا لحق فى مقالة له بمجلة المنبر رجب ١٣٨٨ هـ ص ٢٤٨ ، يذكر أنه ولد بأسيوط ، والمعروف أن أباه قد نزح من أسيوط إلى القاهرة واستقر بها قبل مولد صاحبنا بعشرين عاما ونيف ، ومات كذلك بها وما تدعيه العامة من أنه مدفون بأسيوط خطأ ، صوّبه تيمير باشا فى مقالة له عن قبر السيوطى ومن ناحية أخرى فإن الجامع الذى يظن العامة أنه فى أسيوط ليس له ، وقد أنشأه أسيوطى آخر غير صاحبنا فى القرن الثامن ، راجع قصة الجامع فى مقدمة محقق الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى ج ١ ص ك وما بعدها ، وكذلك السيوطى أديباً .

(٣) النور السافر عن أخبار القرن العاشر للعيدروسى ص ٩٩ ، وراجع « مناقب السيوطى » - مخطوط بدار الكتب ، مجهول المؤلف تحت رقم ٥٦٠٧ تاريخ ص ٢ ، والاعلام للزركلى ج ٣ ص ٣٠١ .

(٤) راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٦ .

كبر سأله شيخه عز الدين أحمد بن إبراهيم عن كنيته فقال لا كنية لى ، فقال أنت أبو الفضل وكتبها بخطه[١] .

وكان جده الأعلى من أهل الحقيقة ، ومن مشايخ الطريقة بأسيوط[٢] وكان من أسرتهم ممن هو من أهل الوجاهة والرياسة ، والحكم ، والحسبة ، والتجارة ، وغير ذلك ، ولم يخدم العلم منهم حق الخدمة إلا والد السيوطى[٣] .

أما والده فإن السيوطى ترجم له فى أكثر من كتاب[٤] ، ذكر أن أباه ولد بأسيوط فى أول القرن التاسع ، وأقبل على العلوم بأنواعها ، وبرع فى الفقه والأصول ، والنحو الصرف والمعانى والبيان ، والفرائض والحساب بأنواعه والمنطق والوثائق ، وبلغ فى صناعة التوقيع النهاية وكانت له اليد الطولى فى الإنشاء ، وأقر له فيها كل من رآه بالبراعة وكان المنادى يسأله فى أوقات الحوادث فى إنشاء خطبة تليق بذلك ليخطب بها فى القلعة ، وقد أفتى ودرس سنين كثيرة ، وناب فى الحكم بالقاهرة ، وكان متوليا قبل نزوحه إلى القاهرة أمر القضاء بأسيوط ، وإن كان قد رفض حينما عينه جقمق وظيفة قاضى قضاة الديار المصرية مستشهدا بقول الشاعر :

وأَلَذُّ مِنَ نَيْلِ الوزارةِ أَنْ تَرَى يَوَماً يريكَ مَصَارِعَ الوزرَاءِ

وكان والد السيوطى على جانب عظيم من الدين ، والتحرى فى الأحكام ، وعزة النفس والصيانة ولم يتردد على أحد من الأكابر ، وإن كان بينه وبين الخليفة المستكفى جلٌ وتعظيم ومودة واتصالٌ ، وكان يغلب عليه حب الانفراد ، وعدم الاجتماع بالناس ، صبورا على كثرة آذاهم له مواظبا على قراءة القرآن الكريم ، يختم كل جمعة ختمة ، وله كثير من الكتب والمؤلفات ، وقد ذكرها جلال الدين السيوطى فى تراجمه عنه .

وقد توفى عام ٨٥٥ هـ ، ورثاه الشهاب المنصورى بقصيدة مطلعها :

مـاتَ الكَمَالُ فقـالـوا ولّى الحِجَـا والجـلالُ

---

(١) مناقب السيوطى ص ٢ .

(٢) ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة أن سيترجم له فى قسم الصوفية ، ولم يفعل .

(٣) راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٦ .

(٤) فى كتاب « نظم العقيان » ص ٩٥ وما بعدها ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها وفى بغية الوعاة .

هذا وتلاحظ انعكاس تلك السمات التى نسبها السيوطى لأبيه على سماته هو ، ومن شابه أباه فما ظلم .

أما وصيُّة الأول فهو العالم الجليل كمال الدين بن الهمام الحنفى فكان علامة محققا جدليا نظارا ، قرره الأشرف فى مباشرة مدرسته . فباشرها ثم تركها وولى مشيخة الشيخونية ثم تركها أيضاً ، وكان علامة فى علوم القرآن والفقه والأصول والنحو التصريف والمعانى والتصوف والموسيقى ، وكان قد غمس نفسه فى طريق المتصوفة ، ولكن أهل الطريق ثنوه عن ذلك قائلين : أرْجعْ فإنَّ للناس حاجةً بك ، وكان الشيخ محباً للرحلة ، فقد زار بلاد الشام ، ونزل بحلب ، وجاور الحرمين الشريفين ، وسكن الاسكندرية ، كما عرف عنه ملازمته للبس الطيلسان وعدم الالتفات إلى الأكابر وأرباب الدولة[١] ، وترك الكثير من المصنفات[٢] .

أما الجانب الآخر من هذه البيئة الخاصة فيتمثل فى أمه ، وأخوته ، وزوجته وبنيه وخدمه وللأسف فإننا لم نستطع الحصول على معلومات تذكر ، وقد حفهم الغموض الشديد لم يذكر السيوطى فى ترجمته الذاتية أى شيء عن والدته ، إلا أنه أشار إليها أشارة طفيفة فى مقامته « طراز العمامة » ملحا إلى أن أصلها من الجراكـة ، بينما ذكر الذين ترجموا له – كما قال أحد الباحثين المعاصرين ولم يثبت مصدره ، إنها تركية ، أسمها قُطلو پاى كَلستانْ[٣] .

وقيل « إن السيوطى كان مترفعا على أمه ، متكبرا عليها ، وكثيرا ما كانت تشكو منه كما قال بعض مهاجميه ، والذى يعرفه الناس والتاريخ إنها توفيت بعده ، وانها كانت تزوره فى ضريحه وقد عملت له على قبره بناءُ لطيفاً »[٤] .

ولا نعلم إن كان له إخوة أم لا ، أما زوجته فلا توجد إية إشارة عنها ، ولا عن علاقاته بها خاصة حينما اعتزل الناس ، فهل كانت معه أم طلقها ، لا ندرى . وهل كان لها شيء من الأثر فى كتابة السيوطى لمؤلفاته فى الجنس ؟ ربما .

---

(١) ترجمته فى « حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٧٤ .

(٢) ثبت مؤلفاته بهدية البغدادى ج ٢ ص ٢٠١ .

(٣) عدنان محمد سلمان « السيوطى النحوى » ص ٤٣ / ٤٤ . وفى « مناقب السيوطى » المخطوط « نقرأ » وامه أم ولد تركية ، قال السيد حسن بن خليل المقدسى فى ترجمته ولم أقف على اسمها » ص ١ .

(٤) راجع صفحات من تاريخ مصر ص ٢٥٢ .

أما عن بنيه فإنه لم يعقب – يقول عبد الوهاب عبد اللطيف – « والمحقق على أنه لم يعقب فالمنتسبون إليه فى أسيوط ليسوا من ذريته ، بل إما من نسل نظار المسجد أو خدمه[١] وقد نبهنا – فيما سبق – إن الجامع ليس له .

ويبدو لنا أن السيوطى قد أنجب ابناء وقد توفوا فى حياته – تأويلا – لبيتى السيوطى القائلين :

قُلْتُ وقد بَشَّروا بنَجْـلٍ   رَبِّ أنلنى منـــاى فَضْـلا
إنْ عاش فاجْعلَه خَيْرَ نَجْلٍ   مُــوفَــيًّـــا عَـهْــدَهُ وإلاّ

ويعلق « أى وإلاّ فاقبضْه صغيرا »[٢] .

أما خدمه ، فقد كانوا على علاقة تبجيل ومودة وتعظيم ، يفتخر السيوطى بما وضعه فيهم من علوم لأن يناظروا أعداءه ، كما سيمر بنا فى مقاماته ، وكان خدمه يروون « مكاشفاته وخوارقه » ، إذ يذكر محمد بن على الحبّاك خادم السيوطى أن السيوطى صلى به فى مكة وقت عصر وهو فى زاوية الجيوشى بمصر وغير ذلك .[٣] .

(٢) شيوخ السيوطى وشيخاته :

ولما كان السيوطى مِكْثاراً من الشيوخ الذين تلقى عنهم فنون موسوعيته ، « وكان يقول أخذت العلم عن ستمائة نفس ، وقد نظمهم فى أرجوزة »[٤] وقد ترجم لهم فى عدة كتب ، فإننا نقصد هنا الإشارة إلى بعضهم وبعض سماتهم ، سيما الذين تعشقوا الأدب والشعر ، وإن كان الجميع أصحاب نزعة دينية متأصلة ، ونشير أيضا إلى مصادر هذه ا لنزعة من سلوك وسمات أنصبّ فى شخصية صاحبنا ، وما بينهم وبين السيوطى من صلة مؤثرة .

ومن شيوخ السيوطى « ابن حجر العسقلانى » وقد ترجم له السيوطى فى أكثر من موضع فى كتبه[٥] وقال عنه « هو شيخ الإسلام ، وإمام الحفاظ فى زمانه ، وحافظ الديار

---

(١) تدريب الراوى للسيوطى ج ١ ص ٢٩ .
(٢) شرح عقود الجمان للسيوطى ط الحلبى ١٩٧٩ ص ١٣٧ .
(٣) راجع شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٤ ، راجع ذيل الطبقات الكبرى ص ٣ .
(٤) ذيل الطبقات الكبرى ص ٥ .
(٥) فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦٣ ونظم العقيان ص ٤٥ .

المصرية بل حافظ الدنيا مطلقا[1] وقد « عنى بالآدب والشعر حتى برع فيها[2] ، ونظم الكثير فأجاد وهو ثانى السبعة الشهب من الشعراء[3] ، ثم طلب الحديث ورحل ، وتقدم فى جميع فنونه وانتهت إليه الرحلة والرياسة بالحديث فى الدنيا بأسرها[4] ، ولى منه إجازة عامة ، ولا استبعد أن يكون لى منه إجازة خاصة ، فإن والدى كان يتردد عليه ، وينوب عنه ، وإن يكن فاتنى حضور مجالسة ، والفوز بسماع كلامه ، والأخذ عنه فقد انتفعت فى الفن بتصانيفه واستفدت منه الكثير »[5] .

بيد أننا نستبعد ظن السيوطى أن له إجازة خاصة من العسقلانى ، فإن السيوطى كان طفلا حتى موت العسقلانى (م ٨٥٢) ، أما الإجازة العامة نفسها - لو كانت هناك إجازة منه عامة أو خاصة - فإنها من قبيل المجاملة والحدس من العسقلانى فى السيوطى الطفل ، والإجازة العامة لا يُعمل بها كما ذكر صاحبنا نفسه فى ترجمة الشار مساحى فى نظم العقيان[6] .

وكان ابن حجر « ذا صوت شجى ، جيد الذكاء ، عظيم الحذق ، راوية للشعر ، عالما بأيام من تقدمه ومن عاصره[7] ، ومن كتبه « ديوان منظور الدرر[8] .

ومنهم الشارمساحى وكان إماما فى الفرائض والحساب وأدركه السيوطى فى آخر عمره ، وتعلم منه[9] ، ومنهم علم الدين البلقينى وولده ، و كان علم الدين « مجتهد عصره ، وعالم المائة الثامنة ، وانتهت أليه رياسة المذهب والافتاء ، وبلغ رتبة الاجتهاد[10]

---

(١) طبقات الحفاظ للسيوطى . تحقيق على محمد عمر . ط أولى مكتبة وهبة ص ٥٤٧ .

(٢) له يدوان مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٢١ أدب تيمور (٨٠ ق) و ٨١١ شعر تيمور (٥٩ ق) .

(٣) هم « ابن حجر ، وابن الشاب التائب ، وابن ابى السعود ، وابن مبارك شاه ، وابن صالح والحجازى والمنصورى » كل منهم كان يدعى بشهاب ، وظهروا كلهم فى زمن واحد .

(٤) حسن المحاضرة ص ٣٦٣ ج ١ .

(٥) طبقات الحفاظ ص ٥٤٨ .

(٦) ص ٤٤ .

(٧) طبقات المدلسين لابن حجر العسقلانى مراجعة طه عبد الرءوف ط الكليات الأزهرية ص ٥ .

(٨) ثبت كتبه بهدية العافين ص ١٢٨ / ١٣٠ ج ١ ، وكذلك فى ترجمة السيوطى له فى نظم العقيان وراجع « سبل السلام بشرح بلوغ المرام » للصنعانى تحقيق أبراهيم عصر دار الحديث مصر ج ١ ص ٣ .

(٩) راجع نظم العقيان ص ٤٤ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٦ وما بعدها .

(١٠) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٩ .

وحينما ألف السيوطى شرح الاستعانة والبسملة ، وهو أول ما ألف ، كتب عليه تقريضا ، ولازمه فى الفقه إلى أن مات ثم لازم ابنه الذى أجازه سنة ست وسبعين وثمانمائة بالتدريس والافتاء وحضر تصديره[١] .

ومنهم شرف الدين المناوى آخر علماء الشافعية ومحققيهم كما قال صاحبنا ورثاه شعرا فقال :

قُلْتُ لَمَّا ماتَ شَيْخُ الـ ـعصْـرِ حَقًّـا باتفـاقِ
حِيَنَ صَار الأمرُ ما بينَ . جهـولٍ وفسـاقِ
أيّهـا الدنيـا لكِ الـويلُ إلى حـينِ التـلاقِى[٢]

ومنهم تقى الدين الشبلى الحنفى ، وقد واظبه أربع سنين ، وكتب له الشبلى تقريظا على شرح ألفية ابن مالك ، وعلى جمع الجوامع ، وشهد له غير مرة بالتقدم فى العلوم بلسانه وبنانه ، ولم ينفك عنه إلى أن مات[٣] .

ومنهم الكافيجى يقول عنه السيوطى « علامة الوقت أستاذ الدنيا فى المعقولات[٤] وكان أكثر مشايخ السيوطى عطاءً له ، واهتماما به وحدبًا عليه ، فقد لازمه السيوطى أربعة عشر عاما كاملة ينهل من معين علمه ، ويكتسب من غامر فضله ألوانا شتى من صنوف المعرفة ، وقد أخذ منه إجازة عظيمة ، لقبه السيوطى بأستاذ الوجود حينا وبأستاذ الأستاذين وحينا ثالثا بأستاذ الدنيا ، وكان صحيح العقيدة والسلوك كثير التعبد والصدقة ، كثير الاحتمال لأعدائه ، صبورا على الأذى[٥] ومن كتبه « سيف القضاه على البغاة » و « سيف الملوك والحكام المرشد لهم إلى سبيل الحق والأحكام »[٦] ومنهم سيف الدين الحفنى ، ورثاه السيوطى بقصيدة يقول مطلعها :

مَاتَ سَيْفُ الدّينِ مُنْفردًا وغَدَا فى اللحْدِ مُنْعمدًا[٧]

---

(١) السابق ص ٣٣٧ ج ١ .
(٢) السابق ج ١ ص ٤٤٥ .
(٣) السابق ج ١ ص ٣٣٧ .
(٤) السابق ج ١ ص ٥٤٩ .
(٥) راجع هدية البغدادى ج ٢ ص ٢٠٨ / ٢٠٩ .
(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٧٨ .
(٧) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٧٨ .

ومنهم تقى الدين الشمنى ، وقد ترجم له السيوطى ترجمة أدبية ، سنتعرض لها ، وكان الشمنى حنفى المذهب والسيوطى شافعيا ومع ذلك لم يجد بأسا فى أن يطيل الجلوس بين يديه ، وقد رثاه بقصيدة يقول مطلعها :

رزءٌ عظيمٌ به تُستنزلَ العبرُ وحادثٌ جلَّ فيه الخطْبُ والغيرُ[١]

ومنهم جلال الدين المحلى يقول عنه صاحبنا « كان علامة ، آية فى الذكاء والفهم ، وكان بعض عصره يقول إن ذهنه يثقب الماس ، وكان يقول عن نفسه : أنا فهمى لا يقبل الخطأ ، وكان غرة هذا العصر فى سلوك طريق السلف ، على قدم من الإصلاح والورع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يواجه بذلك أكابر الظلمة والحكام ، ويأتون إليه فلا يلتفت إليهم ، ولا يأذن لهم بالدخول عليه وكان عظيم الحدة جدا ، لا يراعى أحدا فى القول ، يوصى فى عقود المجالس على قضاة القضاة وغيرهم ، وهم يخضعون له ويهابونه ، ويرجعون إليه ، وظهرت له كرامات كثيرة ، وعرض عليه القضاء الأكبر فامتنع ، ولى تدريس الفقه بالمؤيدية والبرقوقية ، وقرأ عليه جماعة ،وكان قليل الإقراء ، يغلب عليه الملل والسآمة ، وكان متقشفا فى ملبوسه ومركوبه ، يتكسب بالتجارة ، وألف كتبا تُشدُّ إليها الرحال »[٢] .

ويبدو أن مثل هذه الصفات التى ذكرها السيوطى فى المحلى كانت دافعا كبيرا فى جعل السيوطى أن يتم تفسيره وهو فى ميعة صباه .

ومنهم الحافظ البقاعى الذى مهر فى الفنون وله ديوان شعر سماه « إشعار الواعى بأشعار البقاعِى وترجم له السيوطى فى أكثر من موضع[٣] .

ومنهم الشهاب الحجازى الشاعر البارع الذى عنى بالأدب حتى صار أحد أعيانه وصنف كتبا كثيرة[٤] .

ومنهم شهاب الدين الإبشيطى ، يقول عنه السيوطى « العلامة الصالح ، الزاهد ، الولى الكبير والإمام الشهير ، معرضٌ عن الدنيا ، حالٌ بالمرتبة العليا ، بعيدٌ عن الخلق ، قريبٌ من الحق مواظبٌ على الصلاة والقيام ، قائمٌ يحْمد مولاه والناس ينام ،

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٧٥ .

(٢) السابق ص ٤٤٣ / ٤٤٤ « باختصار يسير وثبت كتبه فى الهدية ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٣) انظر نظم العقيان ص ٢٤ .

(٤) راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦٤ ، ٥٧٣ وما بعدها ونظم العقيان ص ٦٥ - ٧٧ .

هذا مع تفنن وعلوم كثيرةٍ ما بين منظومةٍ ومنثورة ، ..... ، سافر إلى المدينة وأقام بها إلى أن مات واجتمعت به لما حججت ، فسألته أن يحدثنى بشىء لا كتبه عنه فى العجم فامتنع ، فقلت له : لم يا سيدى وهذا خير ، فقال : قال الشافعى رضى الله عنه .

فإن تجتنبها كنتَ سَلمًا لأهلِهَا وإنْ تَجْتذبْكَ نَازَعتكَ كِلابُهَا

فعلمت أنه يشير إلى أن ذلك من أمور الدنيا[١] .

ومنهم أحمد العسقلانى ، وقد ترجم له ترجمة أدبية ، سنتعرض لها .

ومنهم عبد القادر بن أبى القاسم بن عبد المعطى الأنصارى السعدى العبادى ، قاضى قضاة مكة وكان حجة فى التفسير ، وثقة فى الحديث ، ومالكا زمام الفقه على مذهب الإمام مالك ، وإماما فى علوم النحو ، فلعلها كانت ميدانه الذى لا يبارى فيه ، وكانت ميدانه تعج بالدارسين ، وكان من الأمور البديهية أن يزور القاهرة ، وكان للسيوطى به صلة علمية خاصة فلم يترد حين زار مكة على غيره « ويقول مصطفى الشكعة : ولم يجالس سواه من العلماء »[٢] بيد أن السيوطى جالس غيره من العلماء فى مكة ووقعت بعض المصادمات العلمية بينه وبين بعضهم مثل ابن ظهيرة على نحو ما سنذكره .

ومن المشايخ الذين لقيهم السيوطى فى رحلاته وأخذ عنهم جعفر بن إبراهيم الذى قرأ عليه فى سنهور ، والإمام الفقيه عز الدين بن عبد الواحد التكرورى الذى قرأ عليه فى منية سمنهود والحفاظ أبو الفضل محمد بن محمد البهاشمى العلوى الذى أخذ عليه فى المسجد الحرام بمكة .

ومن مشايخ السيوطى مجد الدين إسماعيل بن السباع وقرأ عليه الميقات وكذلك عز الدين عبد العزيز بن محمد الميقاتى ، ومنهم « محمد بن إبراهيم الدوانى الذى أخذ عنه الطب » .

ومن شيوخه قاضى القضاة العز أحمد بن ابراهيم الكنانى ، وشمس الدين البابى الذى دب خلاف شديد بينه وبين السيوطى وصار البابى واحداً من الجماعة التى ناصبت السيوطى العداء ، وكذلك كان من شيوخه الحافظ السخاوى الذى قاد الحملة الضارية عليه فيما بعد .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٣٠ . (٢) السيوطى ص ٢١ .

■ أما شيخات السيوطى ، فقد ترجم لبعضهن فى نظم العقيان[1] ، وقد أخذ عنهن الحديث وكان يطلق على شيخاته بعض الصفات ، فيقول عن « أم هانى بنت الهورينى ، قرأت على الأصيلة الثقة الخَيِّرة الفاضلة الكاتبة ، ويلقب أم الفضل بنت محمد المقدسى بالمسند ، وآمنة بنت المستكفى بالقارئة الكاتبة ، ونشوان بنت عبد الله الكنانى بالأصيلة ، وغيرهن ، وقد روى عنهن السيوطى الكثير من الأحاديث التى بثها فى ثنايا كتبه ، ومن هذه الأحاديث ، حديث عن رسول الله يحض فيه على الإكثار من الأصدقاء ، يقول السيوطى : لقيت أم الفضل بنت محمد المصرية ، فسألتنى عن أسمى وكنيتى ونسبى وبلدى وأين أنزل ، فأخبرتها بذلك ، فقالت لى لقيت عبد الله بن عمر الأزهرى فسألنى عن اسمى وكنيتى ونسبى ، .... ، فأخبرته بذلك ، فقال لقيت .... ، .... ، قال أنس : لقيت النبى (ﷺ) .... « يا أنس اكثر من الأصدقاء ، فأنكم شفعاء بعضكم على بعض » .

ولا نعتقد أن لهن أثرا يذكر على حياته الأدبية إلا الإحساس العام بوجود المرأة فى إطار الحياة العقلية فى ذلك العصر .

ومن تتمة الكلام نذكر بأن السيوطى فى مقامته « رشف الزلال » ، قد قال بشىء من التهكم على لسان المحدث :

صِفاهَا وأتْركانى من حديثٍ رواه لنا فلانٌ عن فلانةْ[2]

(٣) معاصرو السيوطى وعلاقاته بهم :

إن معاصرى السيوطى من علماء الدين الأعلام واللغة والتاريخ والآدب والشعر من الكثرة والنفاسة بمكان ، حتى وإن برّهم السيوطى فى معظم الفنون ، فالقارى كتاب السيوطى « نظم العقيان » - مثلا - وقد ترجم فيه لأعيان عصره ، سيعرف الكثير عن معاصريه ، وقد نكتفى هنا بالإشارة إلى بعض معاصريه ، والذين كانوا ذوى علاقات مودة واتصال وجفاء وخصومة معه .

---

(١) راجع نظم العقيان ص ٢٣ / ١٠٠ / ١٠٣ / ١١٤ .. وكذلك « كتاب الشكمة » ص ٢١ وما بعدها .

(٢) رشف الزلال ص ٨ .

ونقتطف من معاصرى السيوطى :

« شهاب الدين أبا الطيب المصرى المعروف بالحجازى » ، الشاعر الأديب الشافعى ، وإن كان يعد أستاذاً للسيوطى (ت ٨٧٥ هـ) له من التآليف تذكرة الحجازى فى خمس مجلدات « الدرر المنظومة من النكت المفهومة » ديوان شعره ، روض الأدب مجموعة أدبية ، صوت الحكمة ، قلائد النحور فى جوهر البحور ، فوائد المقامات ، نديم الكئيب[١] .

ومنهم « ابن الشحنه الحلبى » (م ٨٩٠ هـ) تفقه وتفنن واعتنى بالأدب ، ونظم الشعر الحسن ، وأنشأ النثر وولى كتابة السر بالقاهرة »[٢] .

ومنهم « أبو ذر الحلبى (ت ٨٨٤ هـ) « الإمام البارع الأديب ، محدث حلب ، تولع بنظظم الفنون حتى برع وصار بأخذه ، وهو المشار إليه فى الحديث بحلب ورأى مع رجل هناك كتاب « السيوطى » بزوغ الهلال فى الخصال الموجبة للضلال فكتبه بخطه كما قال السيوطى[٣] .

ومنهم المشدّالى المغربى (ت ٨٦٥ هـ) « شاع ذكره ، وملأ اسمه الأسماع ، وصار كلمة اجماع ، وكان أعجوبة الزمان فى الحفظ والفهم والذكاء وتوقد الذهن[٤] .

ومنهم الباعونى الدمشقى الشافعى (ت ٨٧٠ هـ) صنف عقود الأبكار من بنات الأفكار فى ديوان شعر ، الغيث الهاتن فى وصف العذار الفاتن ، ينابيع الأحزان ، ديوان الخطب ، نظم سيرة مغلطاى[٥] .

ومنهم الكتانى (ت ٨٧١ هـ) وله ديوان الخطب ، قصة يوسف الصديق ، غينة المحتاج إلى نظم المنهاج ، المدائح النبوية والمناقب المحمدية[٦] .

ومنهم ابن ظهيرة . برهان الدين قاضى مكة ، وكانت بينه وبين السيوطى أسباب خصومة ، ثم مصالحة ، وقد عرفنا السيوطى بأن أباه كان شيخا له ، وقد أواه بالقاهرة

---

(١) هدية العارفين ج ١ ص ١٣٣ .
(٢) نظم العقيان ص ١٧١ .
(٣) راجع السابق ص ٣٠ .
(٤) نظم العقيان ص ١٦٠ .
(٥) هدية العارفين ج ١ ص ٢٠ / ٢١ .
(٦) السابق ج ١ ص ٢١ .

وكفل عيشه ، وقد أرجأنا ذكر الخصومة وأسبابها لأن مكانها بين مهاجمى السيوطى والتى مثلت فى اعتقادنا صورة حية لنوعية الخصومات التى واجهها السيوطى وأسبابها ، كرد فعل لمكونات الشخصية .

ولا ننسى بعض المعاصرات العالمات للسيوطى[1] وكانت بينه وبينهن علاقات تلقٍ علمى ، واحترام وأواصر علمية وصداقة وتلمذة أحيانا .

ومنهن أم الهنا بنت القاضى ناصر الدين محمد البدرانى المصرية ، وقد توفيت فى العام والشهر والأسبوع الذى توفى فيه السيوطى ، وقيل قبله بيوم واحد ، وكانت محدثة عالمة .

ومنهن عائشة بنت عبد الهادى وهى أستاذة العالم الجليل الجرىء يحى الاقصرآئى وأجازت له وسمحت له بالجلوس لإملاء الحديث وهى شيخة الباعونى والسيوطى أيضا .

ومنهن سارة بنت السراج بن جماعة ، وكانت عالمة راسخة القدم ، نِدًّا لشيخ الإسلام ابن حجر ، ومنهن زينب وجويرية وأم أيمن بنات الحافظ العراقى الحافظات المحدثات .

ومنهن عائشة الباعونية ، وهى بالنسبة للسيوطى تلميذة له ، وقد رحلت إلى مصر أكثر من مرة ، وهى دمشقية ، فجلست إلى علماء مصر آنذاك ، وأجيزت منهم بالتدريس والافتاء ومن شعرها :

– حَبيبى أَنْتَ فى قلبى قَريبُ ... وعن سِرَى جمالُكَ لا يَغيبُ
جَلوتَ الحُسْنَ فى خِلع التّجلّى ... فشاهدتَ الجمالَ ولا رَقيبُ
تنادمُنى وتسقينى مدامي ... وتحضرنى لديكَ فلا أغيْبُ
وتدنينى وتشهدنى جمالا ... تقدَّسَ أنْ يكونَ له ضَريبُ
فَلَا خوفٌ وأَنْتَ أمانُ قلبى ... ولا أَمَلٌ وأَنْتَ لى الحَبِيْبُ[2]

أما مهاجمو السيوطى والمدافعون عنه المعاصرون له فقد كانوا – خاصة مهاجميه – العامل الأساسى فى كثرة ما كتب السيوطى من أدب ووسائل فكرية علمية .

وكان لاحتراف السيوطى الكتابة منذ صغره ، والسرعة فى التأليف ، وما كان يتمتع

---

(١) ترجم لمعظمهن د . الشكعة فى كتابه « جلال السيوطى م « م » . ص ٢٥ – ٤٠ .

(٢) ديوان عائشة الباعونية المسمى « فيض الفضل وجمع الشمل » مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٨٤ أدب ص ٣٠٠ .

به من شخصية قوية غضوب ، بل حادة نرجسية ، طموح إلى أعلى الدرجات – آنذاك – فنمت فى رأسه فكرة أنه مجتهد مطلق وإن كان منتسبا ، فاعتقد بعد ذلك أنه المبعوث على رأس عصر لما قدم من علوم وفكر دينى ، كان هذا كله مشعل ثورات جارفة عليه من بعض أقرانه ومعاصريه فى مصر وغيرها من البلدان الإسلامية ، فلم يترك مهاجموه شيئا له إلا وقد أنقصوه ، وجرحوه ، وهونوا من قيمته ، فزعموا أن السيوطى سرق بعض الكتب ، وأنه ليس من أهل التحصيل مع ذلك أدعى الاجتهاد وكان كثير الكذب وصاحب دعاوى لا تصلح كما أدعى أنه ألف ألفيته فى الحديث فى خمسة أيام ، وكان بليدا لعدم معرفته الحساب ، وأنه نشأ فقيرا ، وعاش فقيرا ، وأنه كان مترفعا عن الناس متكبرا حتى على أمه ، وكثيرا ما كانت تشكو منه ، ولسنا هنا إزاء ما قاله أعداؤه ، ورده عليهم فسوف تراه مبسوطا فى أبواب البحث ، فلم يترك السيوطى فرصة من فنون الشعر والنثر إلا فاز هجاؤه لمهاجميه بالنصيب الأوفر ، فما كان عليه إلا أن يقف شامخا ، مدافعا فى نفسه مفتخرا بها تارة ، ومعريا مثالب مهاجميه تارة أخرى ، مثبتا ما أراد وتمنى على كل حال .

ونذكر أن أول من قاد حملة الهجوم على السيوطى ، الحافظ السخاوى حينما ترجم للسيوطى فى كتابه الضوء اللامع « ترجمة ظالمة فى حياته ، رد عليها السيوطى بمقامته الكاوى على تاريخ السخاوى ، وانثالت بعد ذلك رسائل النقائض بين السخاوى وفريقه ، وبين السيوطى وفريقه .

وكان فريق السخاوى يتكون منه ومن ابن العليف شاعر البطحاء (ت ٩٢٢ هـ) وقد كتب منظومة الكاوى على السخاوى للسيوطى ، وعدة كتب أخرى منها الدر المنظوم فى مناقب السلطان « بايزيد » ملك الروم[١] ، ومنهم ابن الكركى وهو من تلاميذ السخاوى[٢] ، ومن العلماء القلائل الذين استحلوا مصاحبة الأمراء والسلاطين ، ومن « القسطلانى » وهو من تلاميذ السخاوى أيضا وكان زاهدا متواضعا[٣] ، ومنهم الجوجرى المصرى الشافعى م ٨٨٧ هـ ، والشمس البانى وابن ظهيرة .

---

(١) راجع ترجمته فى نظم العقيان للسيوطى ص ١٧ – ٢٣ . وثبت كتبه فى هدية البغدادى ج ١ ص ١٣٩ وهناك ابن العليف ، غير هذا راجع ترجمته ص ١٠٦ فى نظم العقيان أيضا .

(٢) ترجم له السخاوى ترجمة ضافية فى كتابه « الضوء اللامع » . طبعة مكتبة المقدسى – القاهرة – سنة ١٣٥٣ هـ ص ٥٩ / ٦٤ .

(٣) راجع السابق ج ١ ص ٧٠ / ٧١ .

وكان السيوطي قد قسم في « طراز العمامة[1] ما ساقه إليه علماء عصره ثلاثة أقسام : الأول منها مجرد سب واغتياب ولم يرد عليه ، والثاني إنكار شيء من مسائل العلم ورد عليه ، والثالث ما تردد بين القسمين وترك الجواب على أكثره .

ومن المؤلفات والرسائل والمقامات التي رد بها السيوطي على مهاجميه نذكر هنا « الكاوي على تاريخ السخاوي ، الدوران الفلكي ، الجواب الذكي من قمامة ابن الكركي ، القول المجمل في الرد على المهمل ، الاستنصار بالواحد القهار ، الفتاش على القشاش ، المقامة السندسية ، الجهر بمنع البروز على النهر ، طراز العمامة في التفرقة بين القمامة والمقامة ، الرحمة في التحدث بالنعمة ، الرد على من أخذ الى الأرض ، الحبل الوثيق في نصرة الصديق مسالك الحنفا ، تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء ، تنوير الملك ، أولية النصر ، الصارم الهندي في عنق ابن الكركي ، وغير ذلك .

ولقد وقف في صف السيوطي عدد كبير من العلماء الثقاة ينصفون علمه ، ويبرئون ساحته وفي مقدمتهم ابن إيّاس ، والفخر الديني ، وأمين الدين الاقصرآئي ، وزين الدين قسام الحنفي ، وسراج الدين العبادي ، بل وحتى موت السيوطي بزمن طويل كالإمام الشوكاني الذي فند مزاعم السخاوي وفريقه ، ورد للسيوطي حقه في كتابه « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » .

وسوف نكتفي هنا بتقديم صورتين من صور تلك المنازعات وأسبابها ، مثلتا في اعتقادنا مفهوم السيوطي لشخصيته ، ومدى ثقته في نفسه وعلمه ، واصطدام ذلك المفهوم بالقوى الثقافية فنجم ما نجم من اصطدامات ونقائض .

(١) بين السيوطي وابن ظهيرة « قضي مكة » :

وابن ظهيرة هذا « المتوفى ٨٩١ هـ » قد لازم والد السيوطي بمكة وبالقاهرة ، وأخذ عنه الفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان ، وانتفع بأبي الفضل المغربي وابن حجر والكمال بن الهمام « وصيّ السيوطي » ، والشمني ، والمناوي والكافيجي ، ولي قضاء مكة المشرفة نحو ثلاثين سنة ، وانتهت إليه رياسة الحجاز على الإطلاق على نحو ما بسط القول عنه صاحبنا في كتابه نظم العقيان .

---

(١) طراز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة للسيوطي . مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٦٠٢٣ ز ص ٨ .

يقول السيوطي « ولما جاورت مكة المشرفة ، اتفقت لى معه قضية أوجبت بعض النفور ، لما كنت أرى أنه لا يصدر منه ذلك ، لأنه نشو والدى ، وغرس نعمته وتربية بيته ، لأنه كان فى أول أمره فقيراً مملقاً خاملاً ، فكان والدى هو الذى يؤويه ، ويقوم بمؤنته ، ويعلمه العلم ، ويعرف به الأكابر ، ويسعى إليه بالمرتبات ، فلما صار إلى ما صار إليه ، ورحت إلى هناك (٨٨٧ هـ) رام أن أكون فى كنفه وتحت لوائه ، كما كان هو عند والدى ، وكما يكون أهل مصر عنده ، رغبة فى ماله وأنا لست هناك ، إنما أراه واحدا من جماعة أبى كان يحملنى وأنا صغير على كتفه ، فلم يبلغ منى مرامه ، فكان لا يزال يعتبنى على ذلك ويرسل إلىَّ من يعتبنى ، فلا أزداد إلا شهامة ، ثم حضرت عنده ختم البخارى ، فأخذ يتكلم فى فضل التواضع ، وذم المتكبرين خصوصا فى الحرم ، ففطنت أنه يعرض بى ، فالتفتت إليه وأوردت عليه عدة أسئلة فى الحديث الذى كان يتكلم فيه ، فأجاب عنها بما لا أرضى ، فجئت معه إلى أن انقطع ، واعترف بالاستفادة منى ، ونقلت نقلا عن « الارتشاف » فأنكره ، ثم أرسل وأحضره من البيت ، فوجد فيه النقل كما ذكرت ، فخضع ، وصار فى نفسه ما فيها ، ثم مشت الإعداء ، واشتد الشقاق ، بحيث خرجت من مكة ولم أودعه ، ثم قدم القاهرة بعد سنين فسألنى بعض الأمراء أن يجمع بينى وبينه للصلح ، فما أجبت ، ثم بعد سنين أخرى أرسل إليه الشيخ عبد القادر بن شعبان الفرضى وهو رفيقه فى القراءة على والدى ، كتابا يسأله فيه أن يجىء إلىّ ويقرأنى السلام ويطلب له منى عدة كتب من تصانيفى ليستنسخها له فجائنى ، وذكر لى ذلك فأجبته إلى ما سأل وأعطيته الكتب التى سألها وهى : الإتقان والأشباه والنظائر ، وتكملة تفسير الجلال المحلى ، وشرح ألفية الحديث ، وشرح ألفية ابن مالك ، والجزء الأول من الدرا المنثور فى التفسير بالمأثور ، ثم كتبت له كتابا بالصفا ، وهذه صورته بسم الله الرحمن الرحيم .... »[١] .

ولعلك لاحظت مافى أسلوب السيوطى من اعتزاز بنفسه وشخصيته ، وإقلال من قدر ابن ظهيرة ، وتذكيره بالذى مضى « ورحت إلى هناك رام أن أكون فى كنفه وتحت لوائه « ويتعالى قائلا » كما كان هو عند والدى « مبينا نيّة الشك فى هذه المعاملة خشية أن يكون حتى رد معروف ، ومن ناحية أخرى أن يكون « كما يكون أهل مصر عنده رغبة فى ماله ، فيقول « وأنا لست هناك » ويزداد تعاليا بقوله « إنما أراه واحدا من جماعة أبى

(١) نظم العقيان للسيوطى ص ٢٠ / ٢١ .

كان يحملنى وأنا صغير على كتفه » ، ومن ناحية ثالثة يحس السيوطى بما أثاره أو يثار عليه من صفة التكبر حينما يقول عن ابن ظهيرة « فأخذ يتكلم فى فضل التواضع وذم المتكبرين ففطنت أنه يعرض بى » إلى آخر ما ذكر من سمات الجدل وقوة الشخصية ، بل فى المكاتبة أو الكتاب الذى أرسله ، وسوف نعود إليه .. وقد وضح السيوطى طبيعته وشخصيته وطبائع بعض القوم فى خطاب الصفاء أو الصلح كما نرغب فى تسمتيه فإنه يقول - مثلا عن طبيعته وشخصيته والتى مثلت السبب الرئيسى فى تلك الخصومة « وقد كان لكم فى قلبى من قبل أن أحج الحجة الأولى ، وقبل أن أراكم من المحبة مالا يقدر قدرها ، ولا يستطاع حصرها ، وكنت أضمر لمخدوم فى قلبى أن أكون له من الناصرين ، وعلى أعدائه من الثائرين ، فلما حصل الاجتماع بالمخدوم رأيته يرانى بغير العين التى أراه ، ويسوقنى مساق الطغام الجفاة ، وربما قدم علىَّ من ليس كشكلى ، ولست ممن يرضى بالذل ولا يرضى بذلك من كان مثلى .

ولا أَلينُ لغيرِ الحقِّ أَساله حَتّى يَلينَ لضرسِ الماضِغِ الحجرُ

فهنا لك حصل ما حصل وفرح به العدو ....[١]

(٢) بين السيوطى والناجى :

وقد ترجم له السيوطى فى نظم العقيان ، فذكر هذه الخصومة العلمية التى وضح فيها السيوطى افتراءات الناجى العلمية عليه وهو منها براء ، وتعكس جهل الناجى كما أراد توضيح ذلك السيوطىُّ .

يقول السيوطى كتب إلىَّ بعض أصحاب من دمشق مطالعة يذكر فيها ، إن الناجى هذا اعترض على فى شيئين : إحدهما : إفتائى أن والدى رسول الله ﷺ فى الجنة ، وتصنيف فى ذلك الكتاب الذى ألفته سنة سبع وثمانية ، وسمتيه « التعظيم والمنة فى أن والدى المصطفى فى الجنة » ، وقال إن الحديث الوارد فى إحيائهما ذكره ابن الجوزى فى « الموضوعات » قال كاتب المطالعة : وجدت التصنيف المذكور ، وذهبت إليه لننظر جوابه فيه ، فلقيت بعض طلبته فى الطريق فذكرت له ما أنا قاصد إليه ، فقال لى : دعنى أنا أكلمه فإن عنده حدة ، قال فذهبت معه إليه ، فقال : اعترضتم على فلان بكذا وكذا ، فقال : نعم ، فقال : إن شيخكم الحافظ ابن ناصر الدين قد ذهب إلى مثل

---

(١) نظم العقيان ص ٢٢ .

ذلك ، ومشى على أن الحديث غير موضوع ، وإنما هو ضعيف فقط ، وذكر له الأبيات الثلاثة التى ذكرها ابن ناصر الدين فى كتابه الى « مورد الصادى فى مولد الهادى » قال كاتب المطالعة : فسلم حينئذ لما سمع كلام شيخه .

والثانى أنه فى « ألفيتى » التى فى الحديث : « محمد بن أَتَش الصنعانى . بالتاء والشين بلا توانى »[1] فقال : هذه رواية ضعيفة فى بعض نسخ البخارى ، والصحيح أنه محمد بن أَنَس بالنون والسين . قال كاتب المطالعة : فقلت لذلك الطالب : الحق ما ذكره فلان ، يريدنى قال : وقد ذكر ابن الجوزى فى « التنقيح » ثم قال : أنا ذاهب إليه وأذكر له ذلك ، فذهبت معه ، فقلت له : يا سيدى اعترضتم على فلان بكذا وكذا قال : نعم ، قال : فإن ابن الجوزى قد ذكر هذا بعينه فى « التنقيح » ، وأراه له فقال الناجى : ينبغى أن نصلح نسختنا من البخارى انتهى .

قُلتُ - أى السيوطى - وهذا منه دليل على عدم حفظه وتحقيقه ، فإن « محمد بن أَنَس » الذى فى البخارى ، الصحيح فيه بالنون والسين كما ذكر أولا فى اعتراضه ، وليس هو الصنعانى الذى ذكرته فى الألفية ، بل هو رجل آخر غيره ، ولو تأمل نفس الألفية عرف ذلك منها ، فانى ذكرتُ فيها ما يتعلق بصحيح البخارى وحده ، وما يتعلق بغيره ، فإذا لم يهتد لذلك ، فكان يهتدى إليه فى قولى « الصنعانى » فإن محمد بن أَتَش الصنعانى لا رواية له فى البخارى ، وهو بالتاء والشين بإجماع أهل الحديث . لا خلاف بينهم فى ذلك ، ولهذا أشرتُ إلى عدم الخلاف فيه بقولى « بلا توانى » وأما الذى فى البخارى فهو محمد بن أَنَس الكوفى ، وفيه الخلاف . فبعضهم قال : هو بالتاء والشين كالصنعانى ، والجمهور قالوا هو بالنون والسين كالجادة ، وهو الصحيح ، وقد بين ذلك حافظ العصر أبو الفضل فى كتابه « المشتبه » وفى « مقدمة شرح البخارى »[2] .

■■■ وتنهى معاصرى السيوطى بأصدقائه من الشعراء والأدباء .

تدل مؤلفات السيوطى ورسائله ومكاتباته إلى من فى مصر والعالم العربى فحسب بل إلى من فى ديار الإسلام على كثرة أصدقاء السيوطى وأصحابه ، وما يستقبله السيوطى من مراسلاتهم ، يرسل بها فتاويه وأجوبته وألغازه أو يرد بها لغزا ، بل يرسل بها مؤلفات

---

(١) هو بيت من ألفية السيوطى فى الحديث . البيت رقم ٨١١ . ولم يعلق عليه المرحوم أحمد محمد شاكر فى تحقيقه للألفية إلا بقوله « أَتَش بوزن أَنَس » راجع ص ٢٦٥ . ط دار المعرفة - بيروت .

(٢) نظم العقيان ص ٢٧ / ٢٨ .

له كما رأيت مع الشيخ اللمتونى من بلاد التكرور ، وكذا مع ابن ظهيرة فأننا سنكتفى هنا بذكر أصدقائه من الشعراء ، بل المطلع على نهاية مقامته « الفتاش على القشاش » يجد السيوطى قد احتطب « فيها عشرات من نتفٍ قالها الشعراء مدافعين عنه ، ومادحين فيه ، بل وصل الأمر منه إلى أن يقول « وقال آخر » دون تحديد اسمه ، وقد يُخالط بعض الظن فى هذا إلا أن ذكره للأسماء شعراء كبار فى عصره مع إيراد تتفهم فيه « ومنهم » جلال الدين القادرى والفضل شمس الدين بن المحدث ، والفاضل شمس الدين البساطى والشاعر أبو الفتح الرسام ، وشمس الدين بن البردار ، وأبو الفتح القمين ، ومحمد بن قانصوه ، وزين الدين عبد الباسط الحنفى[١] لا يسمح لنا بذلك .

ونذكر أيضا من أصدقائه الشعراء المتأدبين « الشهاب المنصورى الذى يخاطبه أو يتحدث عنه بـ « أنشدنا الشهاب المنصورى » « قال صاحبنا المنصوريُّ « أنشدنى شاعر العصر » وفى الملك الأشرف إينال العلائى أنشد الشهابُ السيوطىُّ قائلا :

- يا ملكًا بالجورِ فى حكمِهِ　　لم يَخْشَ يَوْمِ الطولِ والعَرْضِ
كَيْفَ بحرِّ الجورِ أَحْرقتَنَا　　وأَنتَ ظلُّ الله فى الأَرْضِ[٢]

وكذلك عبد الباسط بن خليل الذى رثى السيوطى بقصيدة يقول مطلعها :

- مات جَلالُ الدّينِ غَيْثُ الوَرَى　　مُجْتهِدُ العَصْرِ إمـامُ الوجـودْ

وكذلك الشهاب الحجازى ، وإن كان أستاذه إلا أنه أنشده بعض الأشعار على نحو ما يذكر السيوطى فى تضاعيف كتب التراجم والطبقات .

ولا ننسى القادرى (ت ٩٠٣) الذى قال عنه السيوطى وهو الآن شاعر الدنيا على الإطلاق ولا يشاركه فى طبقته أحد ، ومن نظمه وأنشده عندى فى الإملاء « وهى قصيدة مدح رائعة فى السيوطى ، عدد فيها مناقب السيوطى وفنونه ، وقد أثبتها فى حسن المحاضرة[٣] .

---

(١) راجع أشعار هؤلاء فى « الفتاش على القشاش « للسيوطى » مخطوطة تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ورقة ٧٠ وما بعدها .
(٢) نظم العقيان ص ٩٣ .
(٣) ج ١ ص ٥٧٥ وما بعدها .

(٤) تلاميذ السيوطى :

بديهى لكى يتواصل فكر الأستاذ فى الناس على مر الحقب أن يكون له تلاميذ ، وكلما استكثر من تلاميذ نجباء ، كما وكيفا ضمن بقاء ما أورد من فكر ونظم وكذلك كان السيوطى بحكم إنه عالم عصره ، ومجتهده والمبعوث على رأس زمنه كان له عدد موفور من التلاميذ المشهورين نذكر منهم تلميذه « ابن إياس م ٩٣٠ هـ « صاحب بدائع الزهور ووقائع الدهور[١] وللسيوطى كتاب بهذا العنوان لا ندرى مكانة ؟!

ونذكر منهم « الشاذلى ت ٩٣٥ » وقد ترجم لشيخه فى كتاب أسماه « بهجة العابدين بترجمة الحافظ جلال الدين ، ومن كتبه أيضا تشنيف الأسماع بشرح أحكام الجماع ، وفوائد الأفراح فى فوائد النكاح ، وشفا المتعال بأدوية السعال[٢] .

ونذكر منهم « السفيرى » م ٩٣٩ هـ ومن كتبه « تحفة الأخبار فى حكم أطفال المسلمين والكفاح ...[٣] .

ونذكر منهم « الأرميونى » م ٩٤٠ هـ ، ومن كتبه « تحفة الأساطين فى أخبار بعض الخلفاء والسلاطين[٤] .

ونذكر منهم « الحافظ يوسف الشامى « ت ٩٤٢ هـ ومن كتبه » سبل الرشاد فى سيرة خير العباد .

ونذكر منهم « ابن المغيزل والأخطابى ، وكان السخاوى وهو يترجم له يقول « ولا يخلو من هوس كشيخه[٥] .

ونذكر منهم « الداودى ، ومن كتبه طبقات المفسرين ، وذيل الألباب فى الأنساب للسيوطى[٦] .

---

(١) ثبت مؤلفاته فى هدية البغدادى ج ٣ ص ٢٣٦ .
(٢) السابق ج ١ ص ٥٩٨ .
(٣) السابق ص ٢٣٤ ج ٢ .
(٤) السابق ج ٢ ص ٥٦٤ .
(٥) مقدمة محقق نظم العقيان ص ز .
(٦) هدية العارفين للبغدادى ج ٢ ص ٢٣٧ .

وندكر منهم « ابن طولون » سيوطى الشام وقد أجازه السيوطى مكاتبة ، وقد كتب من مؤلفات شيخه الكثير . (ت ٩٥٣ هـ) .

ونذكر منهم « العلقمى » (ت ٩٦٩ هـ) ومن كتبه قبس النيرين على تفسير الجلالين ، الكوكب المنير فى شرح الجامع الصغير للسيوطى ، ملتقى البحرين فى الجمع بين كلام الشيخين[١] ، ومنهم الأشمونى وغيرهم من التلاميذ[٢] .

---

(١) السابق ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) التبس الأمر على محقق « أسباب ورود الحديث » للسيوطى (يحيى اسماعيل أحمد) بأن من تلاميذ السيوطى « السخاوى » ، راجع ص ٤٢ ط دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة أولى « والصواب هو العكس » .

الفصل الثالث

المكونات الشخصية

« المكونات الشخصية »

تعرف الشخصية بأنها استجابات الفرد المميزة للمثيرات الاجتماعية وكيفية توافقه مع المظاهر الاجتماعية فى البيئة[1] بمعنى أنها التكامل الوظيفى الذى يتعلمه الفرد من قيامه بأدوارٍ فى مجموعةٍ مختلفة ، والمكان الذى يعمل فيه ، والذى يخلق منه شخصا مميزا ، وتتكون شخصية الفرد من مزيج أهدافه ، وتصرفاته ، وآرائه ، وعاداته ومعاييره الخلقية ، ومدى فهمه لنفسه ، ومقدار تقيمه لها[2] .

ولما كان السياق الاجتماعى « الأولى والثانوى » يؤثر فى المكونات الشخصية ، التى تتحكم فى عملية الإبداع كما وكيفا ، سلبا وإيجابا ، كان جديرا بنا أن نتدارس - بعدما تحدثنا عن السياق الاجتماعى وأثره فى السيوطى - المكونات التى رسمت لنا بوضوح شخصية السيوطى .

ونرى أن أهم المكونات مجملة هى :

إحساسه بمولده السعيد ، إذ كان حين ولد لأبيه مثار البهجة والطرافة حينما وضعته أمه بين الكتب ، وأثر ذلك من شعور خفى بالتميز ، وقد حمله أبوه للشيخ محمد المجذوب فبرّك عليه وقد افتخر هو بذلك فى ترجمته الذاتية فى حسن المحاضرة ، ومن ناحية أخرى اصطحابه مع أبيه لمجالس شيخ الإسلام ابن حجر ، بإعتناء علماء العصر وأصحاب أبيه به ، فقد رأيته يفتخر بأنه قاضى مكة كان يحمله على كتفه وهو صغير ، واعتناء الكمال بن الهمام كذلك به ، وقد ظهرت عليه - منذ نعومة اظفاره - علامات الفطنة

---

(١) سيكولوجية الشخصية . محدداتها ، قياسها ، نظرياتها . د . سيد محمد غنيم . دار النهضة العربية . ٩٩٧٨ م . ص ٤٤ .

(٢) راجع مجلة كلية الآداب بسوهاج العدد الثالث . مقالة د . السيد حفنى عوض « العقيدة الدينية والشخصية المصرية » ص ٢٢٤ .

وأمارات الذكاء ، وكان يتمتع بحافظة قوية ، وعقل منظم ، وقريحة سيالة ، تحفظ وتستظهر بصورة فذة ، ولا غرابة فى هذا فقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمانى سنين ، ثم حفظ العمدة ، والمنهاج الفقهى ، والمنهاج الأصولى ، وألفية ابن مالك ، وقد تعلق السيوطى العلم[1] والكتاب تعلقا شديدا ، حتى وصف كتاباً فقده قائلا « ثم قدر الله أنى أصبت بفقده ، فإنا إليه راجعون » ، وكان ميالا إلى الروح العربية فقد أتقن ما أتقن على طريقة العرب البلغاء ، وليس على طريقة العجم ، وأهل الفلسفة ليفهم المسائل الدينية وفنون العربية فى نطاق من الصواب ، وسياج من السلاسة وإطار من الدقة ، محددا أمانيه لأن يكون على قائمة العلماء ، والعلماء هم الملوك ، لا بل الملوك تحت أقدامهم كما قال ، دعاه ذلك لأن يبكر فى التأليف والتدريس والإفتاء منذ ميعة الشباب ، ومن ناحية ثانية كان أية كبرى فى سرعة التأليف ، ألف النفحة فى يوم واحد فى مكة ، بل وقيل بعض يوم ، وألف فى يوم وآخر ثلاثة كراريس ، وألف ألفيته فى الحديث فى خمسة أيام .

– نظمتها فى خمسةِ الأيّامِ بقــدرةِ المهيمـنِ العــلّامِ[2]

وكان هذا مثار هجوم من بعض معاصريه .

وكان كما عرفت شديد الغضب ، كتب خمسين رسالة فى خمسين مسألة خالفة أهل عصره فيها فقد كان مجاد لا مشاحنا حتى النهاية ، وقد أدى به ذلك لأن يكون عظيم الهمة كثير النشاط لا يعرف الملل ، ولا النكوص ، يلقى الدرس ، ويملى الحديث ، ويجيب عن أسئلة السائلين ، وهو مع هذا حامل قلمه ومحبرته غير غافل عن الكتابة والتأليف ، كل هذا فى وقت واحد فى أكثر الأحايين .

وكان من ذكائه الحاد فى التأليف أن يختار المشكلة التى تحتاج إلى بحث ، ويدرس كل ما كتب عنها ، ويبرز نواحى النقص فيها ، ويعد بإكمال مافات ، ويضع خطة بناءً على ذلك محللا مراجعة وناسبها كل اقتباس إلى صاحبه ، مراعيا عدة أشياء – فيما نعتقد –

---

(١) يقول السيوطى فى كتابه الحاوى « .. فإنى رجل حبّب إلى العلم والنظر فيه ، دقيه وجليلة والغوص على حقائقه ، والتطلع إلى دقائقه ، والفحص عن أصوله ، وجلبت على ذلك فليس فى منبت شعره إلا وهى محوتة بذلك ، وقد أوذيت عن ذلك أذى كثيرا من الجاهلين والقاصرين ، وذلك سنة الله فى العلماء السالفين .. » ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) ألفية السيوطى فى الحديث . ص ٢٨٩ .

أولها هو الحصول على أكبر عدد من القراء عازفا بمهارة شديدة على مقتضيات أحوالهم فهو كما عرفت يؤلف الكتاب فى شيىء ما – وغالبا ما يكون ذا قضية جماهيرية – فيؤلف منه المطول لمن يريد التطويل ، والموجز لمن يرغب عن التطويل ، ويشرح لمن لا يتسنى له فهم المتن ، وينظم ليسهل له عملية الإيصال فالتثبيت ، ويزيل المطول أو الموجز لمن يميل إلى استقصاء ما تبقى ، أوجَدَّ من الموضوع ، ومن ناحية أخرى لاحظنا أنه يمسك بتلابيب الموضوع من جميع زواياه ، فهو كما رأيت فى مؤلفاته عن « الباه » قلّب هذا الموضوع من جميع أبعاده ، ومن الناحية الطبية والفقهية والعلمية والتعليمية ، والتخصصية ، واللغوية والإنشاء شعرا ، ونثرا وصفيا وإنشائيا ، فضلا عما ينثره نثرا داخل كتبه من أنواع الترفيه ، والترويح وهذه لمحة فى غاية الذكاء ، قلما انتبه إليها المؤلفون كما انتبه إليها صاحبُنا وكأنه أقسم ألا يترك مجالا للقارىء إلا وقد كان أمامه .

وقد عرف السيوطى بشجاعته الأدبية ، وقوته فى إقامة أحكام الشريعة الإسلامية وتطبيقها دون أن يجامل أحدا ، فلم يَخْشَ فى الحق لومة لائم ، فقد تصدى للإفتاء ، وشئون القضاء فحرص على إقامة الحدود ، وتطبيق الأحكام الدينية مهما كلفه ذلك ، ولم يكترث بغضب الأمراء أو السلاطين ، بل إذا ما رأى قاضيا ما تأول فى حكم إرضاءً لأمير أو زلفى لسلطان قاوم مثل ذلك وأدعى انكاره ومعارضته ، وبين خطأه ، وقد ذكر فى مقامته « الاستنصار بالواحد القهار » إنه قاسى كثيرا من جراء الفتوى .[1] .

وقت عرفت شيئا من مواقفه مع بعض السلاطين ، التى تدل على استقلال شخصيته ، وترفعه وإظهار تأففه وضيقه من نظمهم ، وحاول بعضهم الفتك به وحاول آخرون استمالته إليهم ، فلم يلق هؤلاء وأولئك إلا التحدى والاعتزاز ، ومن ناحية أخرى ، عرفت محاربته لما يصدره مدعو التصوف من انحلال وفساد لاقى منهم الانتقام وإلقاءه فى البركة وضربه « بالقبقاب » والدس عند أولى الأمر حتى عزلوه عن منصبه أو تركه هو .

هذا فضلا عن محاربته لمعاصريه الألداء وبعض العامة وما نجم عن ذلك من تصادمات شرسه .

وتتصل شجاعة السيوطى الأدبية اتصالا مباشرا وثيقا بخصلة جوهرية من خصال مكوناته الشخصية التى لا يفتأ السيوطى يعلن عنها فى كل مناسبة وفى أى موضع ، بل

---

(١) « السيوطى » مجموعة بحوث ص ٢٦٥ / ٢٦٦ .

ترى أنها تفرض قوتها فرضا على لسانه وقلمه وفكره ، نقصد بها ثقته المطلقة اللامحدودة فى نفسه ، واعتزازه الشديد كل الشدة بها ، سلوكا ، وتصرفاتٍ ، وآراءً ومؤلفات ، وما يلمح فى ذلك من غرير وتكبر ، بل قد صرح به السيوطى حينما تحدث ابن ظهيره والسيوطى جالس فى مجلسه عن فضل التواضع وذم المتكبرين ففطن السيوطى أنه يعرض به إلى آخر القصة الحوارية التى تشير إلى ترفع السيوطى وتكبره .

وهذه الخصلة التفاخرية التى تثبت له ما تمناه ، قد احتطب لها السيوطى كل ألوان التفاخر والتباهى نظما ، وشعرا ، وأدبا إنشائيا ، وفى كتبه كلها ، سواء فى المقدمة أم الخاتمة أم فى تضاعيف الكتاب أم الثلاثة معا فى كل الأحوال ، ولنأخذ لونا من ألوان الكتابة السيوطية لنرى كيف أن السيوطى يتخذها أداة من أدواته المتعددة لتوطيد شخصيته ، وجهازا إعلاميا يكشف عنها وعن أمانيه التى أراد .

وليكن النظم الذى يكتبه السيوطى فى الأغراض الدينية والفتاوى ، منبهين هنا إلى أن السيوطى تعود أن ينظم السؤال ويجيب عنه ، حتى ولو ذكر السؤال نثرا وأننا نعتقد أنه لم ترد إلى السيوطى مطلقا أسئلة منظومة إلا إذا أشار هو فيقول : « وهذه مسألة وردت نظما » ونجد مثل هذا فى الحاوى .

تعود السيوطى ان يمتدح نفسه ، وعلمه ومؤلفاته ، فيتحدث عن مكوناته الشخصية ، ومنزلته الموسوعية ، ومدى احتياج الناس إليها وقيمة كل مؤلف ومدى تأثير موسوعيته ونتائجها فى الناس تضمينا تارة ، وإشارة أخرى ، وصراحة ومباشرة فى أغلب الأحوال ، ومن ناحية أخرى ، امتداح الناس له سواء كان هذا على لسانه مباشرة أم على لسان الناس – وهو الأغلب – فى أسئلتهم والأجوبة التى نظمها ، كل هذا فى خطة محكمة ، وذكاء حاد ، وجهد متواصل لتثبيت حلمه الأوحد الذى ذوب نفسه وعمره وجهده وشخصيته فيه ، وهو الوصول إلى تحقيق الإمامة ، وأن يكون المبعوث على رأس عصره .

وقد اكتنز فى منظوماته فى الفتاوى والعلوم ، قناطير مقنطرة من الصفات والسيمات والألقاب العلمية « يا عالم العصر ، يا عالم الزمن ، يا بحر العلوم ، إمام مفرد ، الحبر والبحر المحيط ، البحر المفيد ، شيخ السنة ، ...... إلخ »[1] .

---

(١) من هذه الشواهد :

=

بل إن السيوطى لا يزال غير متوقف فى جمع العلوم وآيات الفخر بين يديه حتى العلوم التى رغب عنها ، مثل الحساب مع أنه اعترف صراحة فى حسن المحاضرة بثقله عليه ، إلا إذا كان قد أراد بالحساب مرادفًا لعلم المواريث .

- هداة الدين ، أعلام الخِطَابِ وفرسان الفرائضِ والحِسَابِ(١)

عموما فإن السيوطى قد جمع ذلك فى منظومة له أجاب بها على أسئلة ، ملاحظا أنه أجاب عنها نثرا ، يقول السيوطى فيها موضحا هدفه الأوحد .

- وكلّ قرنٍ أتى فى رأسهِ رَجُلٌ يقيمه الله فى التّجديد للدّينِ
نعم وإنّى بحمد الله مجتهدُ الـ ـعصر الأخير على رغمِ الشياطينِ
أقـولُ ذلك تحـديثًا بنعمتـهِ لا أقصد الفَخر أوصِنَعَ المرائينَ
نعم وإنّى بحمد الله يُغدقُ بى فتح المغاليقِ مَعْ حلّ العويصينَ
إذا بَدَا مشكلٌ فى العلم أقْصدُ فى إيضـاحـهِ فـأوفّيـهِ بتبيْـينَ
إنْ شئتَ نَقْلاً ، فأووى فيه أبْحرَهُ أو الـدليلُ فـآتى بالبـراهِينَ
.... الخ(٢)

فهذا يؤكد أنه مجتهد عصره على رغم الرافضين ، أو على حد قوله : « الشياطين » .

وفكرة الاجتهاد هذه ، هى محور ارتكاز شخصيته ، وقد تحدث عن نشوئها وتطورها فى رأس السيوطى الدكتور فليب حتى فى مقدمة تحقيقه لكتاب السيوطى « نظم العقيان » فى أعيان الأعيان غير أنه تعسف فى القول ، وأوّلَ ما شاء له التأويل فى بعض العبارات ، فهو يضع ما جاء فى كتاب حسن المحاضرة من حديث السيوطى عن المجددين كأول خاطرة نشأت فى ذهن السيوطى عن فكرة المبعوثية له « إذ وضع ترجمة لنفسه ، واختار لها مكانا بين المجتهدين ، ورتبها بعد ترجمة سراج الدين البلقينى(٣) الذى

= ما القولُ يا عالم العصرِ الذى شَهِدَتْ بفضلهِ فرقُ الأعرابِ والعَجَمِ
ماذا جوابُ إمامٍ مُفردٍ شَهِدَتْ فى العصر بل ليس ذافى قدرة البشر
يا من له نظمٌ على الفتاوى يشوق كلّ عالمٍ وراوى
ونحيلك على هذه الصفحات فى الجزء الأول من كتابه الحاوى - مثلا - « ٢٦ / ٦٤ / ١٠٦ / ١٠٨ / ١٣٩ / ١٧٦ / ٢٩٦ / ٣٠٧ / ٣١٢ / ٣١٣ / ٣٣٣ / ٣٥٣ / ٣٥٤ / ٣٧٥ / ٣٨٤ .... إلخ » .

(١) الحاوى ج ١ ص ١٧٦ . (٢) السابق ج ١ ص ٢٩٦ .

(٣) راجع ترجمة السيوطى لقاضى القضاه تاج الدين عبد الوهاب ، وهى سابقة لسراج الدين البلقينى تجد تحيزاً لطيفاً منه لدعوة تاج الدين فى الاجتهاد ج ١ ص ٣٢٧ ، حسن المحاضرة » .

وصفه السيوطى بأنه هو المبعوث على رأس المائة الثامنة وعقب على ذلك بقوله « وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر »[١] .

وتأويل فليب حتى صحيحٌ من شق ظاهرى ، وخطأ تاريخى ، فكتاب حسن المحاضرة ألفه أو انتهى من تأليفه فى حدود عام ٩٠٤ هـ كما ذكرنا سابقا ، وفيه معظم كتب السيوطى فى مجادلاته مع معاصريه وكان معاصروه لا يملون مهاجمته لادعائه الاجتهاد على نحو ما سيمر بنا ، ومن ناحية أخرى فإن السيوطى فى ترجمته تلك فى حسن المحاضره « وقد كملت عندى الآن آلات الجهاد بحمد الله تعالى أقول ذلك تحدثا بنعمة الله لا فخرا ، وأى شيىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر ، وقد أزف الرحيل ، وبدأ المشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوصها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت ....»[٢] .

ومن ناحية ثالثة لو قرأ فليب حتى قصيدة القادرى فى مدح السيوطى ، التى أثبتها السيوطى فى نفس الكتاب لعرف أن القادرى سجل بها حياة السيوطى ، وفنونه ، وما صادفه من حسد المعاصرين لدعوته المبعوثية لنفسه ، ومنها مثلا : —

فحق له دعوى اجتهاد لأنه هو البحر علما زاخر اللُّجِّ مُزْبِدُ

ومنها : وحيث وَهَى ثوبُ اجتهاد فذو العلا يقيضُ فى الدنيا له من يجدِّدُ
بمنٍ أخبر المختارُ عنهم وأنّهم لطائفةٌ بالحقِّ للدينِ تعضدُ
وإنٍ جلالَ الدينِ منهم وأنّه بيمنى علوم الدينِ سيفٌ مجرَّدُ
وإنٍ القوافى ضقن ذرعًا عن الذى له من تصانيف فليست تعدَّدُ
وإنَ المقتير القادرىّ لعاجزٌ عن المدحِ فى علياه إذ ينفصّدُ[٣]

وصحيح من حيث تأويله لكلام السيوطى مجردا ، وان كنا نعتقد أنه تلطفٌ ورقةٌ من السيوطى فليس من المقبول وهو يترجم للبلقينى إمام المائة الثامنة يقول « وأنا إمام المائة التاسعة » ، فضلا عما يخاطرنا من زعمَ أن حسن المحاضرة ألّفَ متفرقا وليس مرة

---

(١) ص س .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٩ .
(٣) السابق ج ١ ص ٥٧٦ / ٥٧٧ .

متواصلة ، فإنه لم يذكر كل مؤلفاته كما فصلنا القول سابقا ، ولم يترجم لجده ، وقد ذكر أنه له ترجمة فى قسم المتصوفة .

ويواصل الدكتور فليب حتى تأويله المخطىء قائلا : « وفى كتابه » الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض مهّد السيوطى لبث دعوته عن نفسه ، ولكن الفكرة لم تختمر ، وهو لم يجاهر بها إلى أن وضع « رسالة فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة » حتى أنه فى هذه الرسالة لم يتجاوز فى التعبير عن نكرته حداً لرجاء قال « إنى ترجيت من نعم الله وفضله كما ترجى الغزالى لنفسه أنى المبعوث على رأس هذه المائة التاسعة لانفرادى عليها بالتبحر فى العلوم »[١] .

فإننا نرى إن الباحث قد أجتزأ من كلام السيوطى مَا يتمشى مع تتبعه لفكرة المبعوثية فى رأس السيوطى فأوّل نصَّ السيوطىِّ ، أما قول السيوطى فهو « وإنما حمل الرجل علىَّ ذلك لأنه فهم عنى إنى ترجيت من نعم الله وفضله كما ترجى الغزالى لنفسه أنى المبعوث على رأس المائة التاسعة « وأخذ بعدها يشرح مؤكدا ما ذهب إليه لا نفراده بالتبحر فى أنواع العلوم ، وكتبه « وعدتها الآن نحو خمسمائة مؤلف ، وقد اخترعت علوم اللغة ودونته ولم أسبق إليه وهو على نمط علم الحديث وعلم أصول الفقه وسارت مصنفاتى وعلومى فى سائر الأقطار ، ووصلت إلى الشام والروم و ... ، وامتدت من التكرور إلى البحر المحيط ، ولا مشاركة لى فى مجموع ما ذكرته ، ولا اجتمع من الموجودين الآن مجموع العلوم التى اجتمعت لى ، ولا وصل الآن أحد الى رتبة الجهاد المطلق غيرى فيما أعلم »[٢] .

فواضح من عبارته الأخيرة أنه يؤكد - وإن تلطف - دعواه بالاجتهاد وليس من قبيل الترجى .

ونود أن نشير إلى أنه قد أكدَّ دعوته للاجتهاد فى أكثر كتبه الجدلية مثل « الفوائد البارزة والكامنة فى النعم الظاهرة والكامنة »[٣] وفى « الصواعق على النواعق »[٤] وفى « تحفة المهتدين بأسماء المجددين »[٥] وفى « تقرير الاستناد فى تفسير الاجتهاد »[٦] وفى

---

(١) نظم العقيان . ص س .

(٢) التنبئة للسيوطى « المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٢ أدب تيمور » ص ٤٥ / ٤٦ .

(٣) راجع « مخطوط بدار الكتب فى نفس المجموع السابق » ص ٢ .

(٤) مخطوط بدار الكتب تحت رقم مجاميع ٤١٦ (من ورقة ٦٣ / ٦٨) .

(٥) قد حققه الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد . دار الدعوة . طبعة أولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٦) راجع فيه فصل « الاجتهاد لم ينقطع والمحدث بنعمة الله » ص ٦٣ ، ص ٦٧ .

الكثير من مقاماته وفى رسالته « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » - وإن لم تكن لهذا الموضوع الذى نحن بصدده - فإنه عرض فى مقدمتها بمعاصريه الرافضين دعواه فى المبعوثية ، المقللين علومه وفنونه وجهوده قائلا « فإنه ثَمّ من ينفخ أشداقه ، ويدعى مناظرتى ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضنى ، ويستجيش على بمن لو اجتمع هو وهم فى صعيد واحد ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباءً منثورا[١] .

ويبقى أن نشير إلى أن السيوطى كثيرا ما وضح أنه يقصد بالاجتهاد المطلق الذى وصل إليه هو الاجتهاد المطلق المنتسب[٢] أى لمذهب ما ، وليس الاجتهاد المطلق المستقل كما وصل إليه أئمة المذاهب المعروفون ، وكثيرا ما فسر فخره بالعلم والمعرفة على معاصريه وسابقيه أنه لا يقصد بسابقيه احدا ممن لهم مكانة تقديس وجلة عند المسلمين ، وترى ذلك فى الصواعق[٣] .

وكان فى السيوطى مع كل ألوان التفاخر شيىء من التواضع العلمى « أحيانا » .

- هناك جوابى بحسب مبلغ علمى والله له العلم ذو الجلال تعالى[٤]

وكان - فيما يقال - متكبرا على أمه ، وكانت تشكو منه ، ولا نعلم صحة هذا الاتهام ، وقد قالوا إنها كانت تزوره كثيرا بعد موته وعملت له بناء لطيفا على ضريحه .

وإلى جانب كل هذه الخصال التى ذكرت فإنه كان « مجبولا على الخصال الحميدة من صفا الباطن وسلامة السريرة ، وحسن الاعتقاد ، زاهدا ورعا ، وكان له مكاشفات غريبة وخوارق « على نحو ما فصل هذا الشعرانى[٥] ، وابن العماد[٦] .

---

(١) الحاوى الفتاوى ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) كان يقول مثلا « قد أشاع الناس عنى أننى أدعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة وذلك باطل عنى ، إنما مرادى بذلك المجتهد المطلق المنتسب ، فإن الاجتهاد على نوعين أحدهما المجتهد المطلق المستقل وهذا النوع توقف من القرن الرابع ولا يتصور وجوده الآن ولم يدعه أحد بعد الشافعى إلا بعد جرير خاصة ، والنوع الثانى المجتهد المطلق المنتسب وهذا النوع هو المستمر إلى أن تقوم الساعة ، وفى أصحاب الشافعى من هذا النوع كثير ، راجع ذيل الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٢ ، ص ٨ ص ٩ .

(٣) ص ٦٧ وما بعدها .

(٤) الأشباه والنظائر فى الفقه ص ٢٩٩ .

(٥) ذيل الطبقات الكبرى ص ٣ .

(٦) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢ وما بعدها .

هذه هي مكونات صحية السيوطي التي كانت أثرا من مؤثرات المصادر الإبداعية ، ويجب أن نتوقف إزاء مفاهيمه للإبداع .

السيوطي ومفاهيمه للإبداع ..

الإبداع أو الابتكار Creation هو إنتاج شئ ما ، على أن يكون هذا الشيء جديدا في صياغته ، وإن كانت عناصره موجوده من قبل ، كإبداع عمل ما من أعمال الفن أو التخيل الإبداعي[١] .

وأهمية الإبداع في إطار الحضارة العربية الإسلامية أنه يمثل إطلاقاً لطاقات الخلق والاجتهاد دون قيد على العقل إلى الحد الذي ينال فيه المجتهد أجرا ولو أخطأ ، هذا على شرط الالتزام بإطار خلقي ، يحكمه الضمير الذي يدرك مسئوليته عن إنتاجات الإبداع بطريقة تؤكد توجيه طاقات الإبداع لدى الأفراد والجماعات توجيها بناء »[٢] .

وقد رأينا السيوطي كثيرا ما يتباهى بنفسه مستخدما الاختراع أو الابتكار أو ما يؤدي ذلك المعنى عن فنونه التي أفرز فيها طاقاته وإمكاناته الشخصية ليتسنى له تحقيق حلمه بالإنفراد والتبحر بالعلم والمعرفة لإمامة عصره ، فقد رأيته يقول « وقد اخترعت علم أصول اللغة ووثته ولم أسبق إليه »[٣] وقد سبق هذه العبارة بقوله أن مؤلفاته الخمسمائة لم يسبقه أحد في نظيرها لا كما ولا كيفا ، وكثيرا ما تباهى بأن العلوم السبعة المعروف بها ، لم يصل ولا وقف عليها أحد من أشياخه ومن دونهم .

وقد تأكد دارسو السيوطي في فنونه أنه كان رائدا مبتدعا في الكثير من الأمور فكان كتابه الاقتراح في علوم اللغة يدل على سبقه لأهل زمانه في الإبداع ، فقد وضع الأسس الأولى لهذا العلم ، وكان كتاباه المهذب والمتوكلي يعتبران دراسة رائدة في علم اللغة والمقارن ، وكتابه الدر المنثور وطبقات المفسرين أول كتابين يؤلفان في غايتهما ، وقد اتخذ لكتابة التاريخ منهجا مخالفا لجميع مؤرخي ديار الإسلام في ذلك الزمان ، وكان « للسيوطي تجربة علمية جديرة بالتقدير ، وهي وضع « علم مصطلح الأدب » يحاكي به علم « مصطلح الحديث »[٤] .

---

(١) الإبداع والشخصية ص ٢١ .

(٢) الإبداع د – عبد الحليم محمود السيد . دار المعارف ص ٥ / ٦ .

(٣) التنبئة للسيوطي ص ٤٥ .

(٤) راجع رواية الأدب . « مصطفى إبراهيم حسين » ص ٤٠٠ وما بعدها ، ومحاولات السيوطي في تجديد إملاء اللغة وفشله ، لانصراف الناس عنه (ص ٣٩٨ وما بعدها) .

عموما ما من موضع للتفاخر إلا حاول السيوطى أن يبين مقداره تجديده وإبداعه فيه .

وإذا كان السيوطى قد وظف كل فنون موسوعيته لتحقيق حلمه فى الإمامة ، وحيث أن فكرة الإمامة المحور الأول لتحقيق شخصيته ، سترى أن كل ما قدمه السيوطى من أعمال فنية جاءت إنتاجا خالصا لمكونات شخصيته التى ذكرناها سلفا ، بل صور بها شخصيته الذاتية جل تصوير ، وهذا ما أحدث نوعا الاستغراب والتنكر لما قدمه الرجل من أعمال مباينة عن العرف السيوطى ظاهريا ، مثلما حدث مع مقامته « رشف الزلال » وما حدث من آيات الجرأة والغرابة ، وما حشده حشدا من مصنفات فى الباه والجنس ، حتى خطر لبعض الباحثين ألا يصدق أن مثل هذه الأعمال ألفها السيوطى بل حاول تأكيد ذلك .

ولما كانت دراستنا النقدية هذه تقوم على ادب السيوطى وتحليل امكاناته الفنية ومعرفة الإبداع الفنى داخل أعماله شكلا ومضمونا رغبنا فى التحدث عن :

ارتباط « الإبداع الأدبى » بشخصية السيوطى .

وإن هناك علاقة وطيدة بين القدرات الإبداعية وبين السمات المزاجية « للشخصية »[١] وكثيرا ما يقال ان العمل الفنى ينبغى أن يكون تعبيرا عن شخصية مؤلفه وهذا هو على سبيل رأي كروتشه « Croce » كما عبر عنه فى نظريته « الإلهام – التعبير » التى تنادى بأن مهمة العمل الفنى أن يعبر لا عن نوع فنى أو عن تكنيك ولا حتى عن إحساس أو انفعال جزئى ، بل مهمته أن يعبر عن الإلهام الذى لا يتجزأ والذى يصدر عن شخصيته بأكملها »[٢] .

(١) راجع الإبداع والشخصية ص ٢١ . وعن هذه العلاقة بين ا لقدرة الإبداعية بالسمات المزاجية ثلاثة مذاهب فلسفية – مذهب التحليل النفسى الفرويدى حيث يفسر الإبداع بالإعلاء أو التسامى أى بتحويل الطاقات الغريزية والرغبات الطفلية إلى أعمال ثقافية وإبداعية عظيمة والثانى : مذهب تحقيق الذات ويرى أصحابه أنه يمثل أسلوبا أكثر شمولا لتحقيق الفرد لامكاناته أثناء تفاعله مع بيئته مما يؤدى إلى نتائج يمكن الحكم عليها بأنها إبداعية والثالث : أصحابه أن الابداع نتيجة للجهد العقلى وهو الانفعال الأسمى من العقل والتحلق الوجودى وهناك دراسات ذات طابع تجريبى تناولت علاقة القدرات على الإبداع بالسمات المزاجية . راجع السابق بالتفصيل من ص ٢٣١ .

(٢) مبادىء علم الجمال. شارك لالو ص ٤٨، وإن كان لالو يرى فيما بعد (ص٥٦)، ان الفن إذا عَبّر عن الدوام عن شخصية المؤلف سلك خمس سبل مختلفة للتعبير عن هذه الشخصية ، ومن =

« ومن الصفات الإيجابية التى تنسب إلى الأشخاص المبدعين : الثقة بالنفس ، والاستقلال بالرأى ، والشجاعة التى تساعد للشخص على أن يرى الأشياء لحسابه الخاص ، وعدم التأثر بالآراء الشائعة ، أو بتراث الماضى المتناقض ، ويذكر بعض الباحثين لتبرير هذه الصفات أنه إذا كان الإبداع أو الابتكار يحمل فى طياته دائما هجوما على الثبوت والجمود فإنه يحتاج فى صاحبه إلى قوة لكى يتحمل عبء ما يثيره إبداعه من اضطراب ، وحيث يعكر هذا الإبداع صفو العادات ويعطل الأساليب القديمة للتفكير ونستطيع أن ندرك ما يتطلبه الإبداع من ثقة بالنفس وشجاعة تمكن صاحبها من أن يجهر بما يراه ، وقدرة على التمسك بالرأى إذا علمنا ما يترتب على ذلك من متاعب عانى منها معظم المبدعين على مر التاريخ على يد « سلاطين التعود » ممثلين فى سلطات مخالفة جامدة ، علمية كانت أم سياسية أم دينية أم غيرها ، وكذلك هناك صفات سلبية تنسب إلى الأشخاص المبدعين وتلصق بهم أنواعا من الإضطرابات أو الشذوذ فقالوا أنهم أكثر الناس صراعا مع والديهم ، ويعانون من مشاعر الذنب ، وأكثر انطواءً[١] وكثيرا من الأمراض كالعصابية التى يرى لا نجلفيد Langliafd إنها من مستلزمات الإبداع الفنى أو العلمى[٢] .

وقد وُجدتْ معظم هذه السمات المزاجية لشخصية المبدع ، خاصة الإيجابية لدى السيوطى التى ترجم لها أعماله الفنية ، مؤكدةً فى النهاية ما يملك من أفكار لا توجد عند الآخرين من خلال الإطار الدنى العام .

ويقتضينا هذا أن نتعرف على شخصية السيوطى بين نظرية الأدب ومفهوم الدين » . فإن العلاقة بين الدين والفن ليست بالأمر العابر أو الشكلى ولكنها من الدقة بحيث تستدعى المراجعة دائما ، فالدين كمفهوم عام يتعلق حوله الفنانون لأنه يقدم التشويق الروحى الذى يسعى إليه الفنانون ، وهو من جهة أخرى ليس معنى غامضا ولكنه حقيقة اجتماعية لا يمكن تجاهلها ، لذلك تلاقيا منذ الأزل فأصبح تاريخ الفن يتلمس بدايته الحقيقية من خلال الدين تماما ، كما أن أولئك الذين بحثوا فى تاريخ

= هذه السبل ما يدعو إلى الابتعاد عن الشخصية أكثر الابتعاد » . مبادىء علم الجمال « الأستطيقا » شارل لالو . ترجمة مصطفى ماهر . ط عيسى الحلبى ١٩٥٩ م .

(١) الإبداع والشخصية ص ٢٣ / ٢٤ / ٢٥ .

(٢) السابق ص ٣٢ .

العقيدة الدينية لم يجدوا خيرا من تلك التى احتضنها الفن »[1] .

ولما كانت طبيعة عصر صاحبنا ترى أن خلاصها من الصدع السياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى إنما هو فى الرجوع إلى الدين عبادة وسلوكا ، فقد أتجه علماء هذا العصر جميعا لإحياء علوم الدين ، وتوطيد الروح الإسلامية فى الإنسان المسلم المفتت ، ومن ثم جُعِلَت اللغة وفنونها فى المرتبة الثانية ، وعليه لم يكن للأدباء أو علماء اللغة تلك المنزلة المرموقة التى تبوأها علماء الدين ، فضلا عما أصاب الأدب وفنونه من التوقف إلى حد ما .

ولما كانت نشأة السيوطى تصطبغ فى شتى اتجاهاتها وكل مناحيها بالصبغة الدينية والعلمية ، محددة هدف صاحبها - كما أراد - نحو إمامة العصر ، مصلحا أمور أمته فألّف ما ألف فى التفسير وتعلقاته ، وعمل فيه أول مؤلفاته وهو فى طراوة العمر ، وكانت أحب الفنون لديه ، وألف ما ألف فى الحديث وتعلقاته وكان له من « أشرف العلوم » وقد وضح السيوطى درجات هذه العلوم أو الفنون - كما يقول التى رزق التبحر والإنفراد فيها ، مبيّنا فائدة هذه العلوم وصلتها ببعض التى تصب جميعها فى القرآن الكريم وعلى هذا فقد وضع السيوطى أو جاء الأدب الإنشائى لديه بعد العلوم السبعة مكانة « من ناحية العلوم عنده . ومن مقداره فيه ، ملاحظا أنه فى التقسيم الذى ذكره ضم الفرائض مع الإنشاء والترسل » ثم الأدب والتاريخ تحت فن واحد ثم إنه رأى الأدب مستشهدا بقول الشافعى - معينا له على متطلبات الناس الدينية « ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه ، وذلك عظيم الفائدة ، جليل العائدة ..»[2] .

وكأنه يريد أن يقول إذا كانت جمهورية أفلاطون لا يباح فيها قول الشعر - مثلا - أن يكون سبيحا وهدفا للصلاح فهو عنده - بالفعل سبيح ، وأداة تقويم وقد رسم كتاب الله الحدود المثالية للشعر وغيره من الفنون ، دوره الطبيعى فى خدمة المجتمع الإسلامى الذى يقوم على مبادىء الصدق والفقه والحق كما يقول أستاذنا الدكتور هدارة[3] .

---

(١) مجلة « عالم الفكر » المجلد الرابع عشر . العدد الرابع بحث سليمان الشطى « الإسلام والإبداع الشعرى » ص ١٤٠ .
(٢) نظم العقيان ص ٢ .
(٣) دراسات فى الشعر العربى د . محمد مصطفى هدارة . دار المعرفة الجامعية ١٩٨٣ - ٢٩ - ٣٩ .

والواقع أننا لا نجسد اختلافا على أن مفهوم الأدب مرتبط عنده ارتباطا وثيقا بمفهوم الدين شريطة أن نسلم بأن أكثر ما أنشأ من فن أدبي إبداعي مرآة تعكس مكونات شخصيته في كل أحوالها ، تصب هذه المكونات بطاقاتها الموسوعية نحو إمامة العصر .. لذلك نجد أن فنون الأدب عنده قد ارتبطت بها شخصيته متحكمة فيها ، كمًّا وكيفاً ، طريقةً وغايةً . فجاء فنُّ الأدب الذى يتخذ الوزن والقافية أداة للتعبير عن الفكرة منقسماً إلى شقين . النظم وقد طوعوه تطويعا لملكاته العلمية الدينية ، والأحكام الشرعية والفتاوى والأحاجي ، ونظم العلوم ليسهل للناس قراءتها وحفظها . والشعر وإن كان أقرب مفهوما إلى النظم ، إن لم يكن تساوى اللفظان فى المعنى عند أهل هذا العصر وما سبقه وقد وضحت شخصيته السيوطى فيه شكلا ومضمونا .

كما سنرى فى الباب الثانى . وجاء النثر عنده الذى عالج به كل ما يمس قضاياه الذاتية . وجدير بنا أن ننبه إلى أنَّ مفهوم السيوطي للإبداع والسلفية ، منطلق الأعلام فتحتذى حذوهم إلى أن تكون قاب قوسين أو أدنى ، فإنها – حينئذ – تبدأ فى إظهار ما كان خفيا يمثل ذاتيته وطموحه لاختراق شرنقة السلف ، ثم يحاول جاهداً اكتساب نتائج اجتهاداته وابتكاراته .

فاحتفظ السيوطى بالكثير من أشكال فنون الأدب مع الغاية الدينية الشاملة ، وما استطاعت شخصيته من تغير وابتكار وتجديد فى شكل الفنون الأدبية والمضامين وفهم خاص بطرائق الإيصال ، كان ذلك كله صورة واضحة مثلت أصالته ومعاصرته جد تمثيل ويجرنا ذلك – قبل أن نقوم بدراستنا النقدية حول أدبه – أن نتفهم **شخصية السيوطى بين الإبداع والأدب التعليمي** .

فبالرجوع إلى مؤلفات السيوطى الأدبية ، ستراه فى أعماله الشعرية . ونقصد بالشعر هنا النظم التعليمي والعلمى مثل « ألفيته فى الحديث وألفيته فى القراءات العشر وعقود الجمان فى المعانى والبيان والفريدة ، والخلاصة فى نظم الروضة ، والتثبيت عند التبيت وقطف الثمر فى موافقات عمر ، والنهر لمن رام البروز على شاطىء النهر وتحفة الظرفاء والتبرى ، وجواهر العقود ومختصر ملحة الأعراب للحريرى ، والموشحة والكوكب الساطع والفلك المشحون ، وقلائد الفوائد ، ناهيك عن مؤلفاته الأدبية الوصفية التى حاول السيوطى من خلالها تقديم الغايات التعليمية .

والشعر العربي فى القرن الثانى وإن لم يكن فنًا مؤثرًا ولا شعرًا خالدًا ، وليس له من

الشعر إلا اسمه كما يقول أستاذنا الدكتور هدارة[١] إلا أنه أصبح فى هذا العصر وما سبقه يسمى شعرا ، كان السيوطى يفتخر بمواهبه فى النظم - نقصد النظم العلمى - وقدرته الإبداعية فيه فهو يقول عن نفسه على لسان أحد أبطاله فى مقامته رشف الزلال :

- انى رَجـلٌ أديبٌ أريبْ أنظمُ فى كلِّ فنٍّ غـريبْ[٢]

وفى خاتمة كتابه « تاريخ الخلفاء يؤلف منظومة طويلة فى الخلفاء ويذكر أن قصيدته أفضل من الأرجوزة الأخرى المماثلة[٣] ويمدح . وما من مناسبة ألف فيها منظومة كبيرة أو صغيرة إلا وامتدحح قدرته على النظم ، وهاك بعض الأمثلة :

- وناظمه ابن السيوطى أبدى جـوابًا لم يغـادرْه مسـاكـا
بنظمِ ناسـجٍ منوالِ حسنٍ على نسقٍ يحاك ولا يحاكى[٤]
- خذْ ما سئلتَ فى أبياتٍ منـظومةٍ تـأمن من شتاتِ[٥]
- أبياتُه كالأنجم الدريّةْ[٦] .

- وهايتك أبياتا يضاهى قريضها إذا ما رأى الراءون بالكوكب البدرى
فمسنـدُه لابن الفراتِ عـذوبةً وبهجتهُ الزهراءُ تعزى إلى الزّهْرى
وألفـاظهُ تحكى عن المـاءِ رقّةً وفيه معانٍ كلها عن أبى بحْرٍ .
شذاه إلى الآفاق طار فعرفُـه وتحليقه فى الجوِّ كالوردِ والنّسْر
وذلك فى حكمٍ من الشّرعِ بيّنٍ يفوق السّنى البدرىّ فى ليلةِ القَدْرِ[٧]

وإذا كنا نبحث عن مفهومه للإبداع - وهى سمه من سمات شخصيته - فى شعره التعليمى وإن كان الشعر التعليمى ليس له فى نفسه قيمة أدبية ، فإنه يتمثل ذلك - بإيجاز فى :

١ - هذا الكم الوفير من الشعر التعليمي ، الذى سجّل به اجتهاداته الفقهية والعلمية

---

(١) راجع اتجاهات الشعر العربى د . محمد مصطفى هدارة ص ٣٦٧ .
(٢) رشف الزلال للسيوطى ط حجر بمصر ص ٢٣ .
(٣) راجع تاريخ الخلفاء ص ٥١٧ . ولم يذكر السيوطى من صاحبها ، ونظن أنه يقصد « ابن فضل الله » فى قصيدته « حسن الوفاء لمشاهير الخلفاء » التى أوردها فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٠٩ وما بعدها .
(٤) الحاوى ج ٢ ص ١٩٨ .
(٥) قطف التمر من موافقات عمر . المخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٥٠٠ تصوف ، دار الكتب .
(٦) التثبيت عند التبييت المخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٤٦٤ تصوف وأخلاق .
(٧) الحاوى ج ١ ص ١٤٥ / ١٤٦ .

وأفكاره ، وسجل به بعض سمات شخصيته وأهدافه ، من خلال « النظم فهو أسرع انتشارا ، وأقصر طريقا للإيصال ، وأقرب للحفظ ، وأيسر للفهم »[١].

٢ - قدرته الإبداعية فى ارتجال هذا الشعر ، فقد رأيته ينظم ألفيته فى علم الحديث فى خمسة أيام ، وفى رسالته « تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة أجاب على هذه الأسئلة نثرا ثم نظمها فى ساعتين ، يقول :

- دَعْ ذا وعد لعلمٍ أو لفائدةٍ   واحفظ جوابَ سؤالاتٍ بتمكينِ
كتبتها سرعةً فى ساعتين كما   كتمتها غيرةً للعلم والدينِ[٢]

٣ - قدرته على الجمع ، والتزييل ، والتفرد والتفوق :

- وهذه ألفيةٌ تحكى الدُّررْ   منظومةٌ ضمنتها علم الأثرْ
فائقةٌ ألفية العراقى   فى الجمعِ والإيجازِ واتساقِ[٣]

وفى كتابة تنوير الحوالك ترى أمثلة له فى تتبعه لما جاء عن السلف فى شىء ما مثل « ما جاء فى المتحابين فى الله فوجدهم سبعة فأخذ يتتبع ماورد فى الآثار حتى أوصل العدد سبعين متحابا ونظمهم[٤] وكذلك الألفاظ المعربة فى القرآن فنظمهم وذلك فى أقل الأبيات مع كثرة هذه الألفاظ[٥] .

٤ - منزلة شعره التعليمى :

١ - من ناحية المضمون ، وما يمتاز به السيوطى فى تسجيل العلوم الموسوعية نظما من أنه صورة مماثلة أشد المماثلة لمنهجه فى التأليف ، من ترتيبٍ منطقىٍ ، ودقةٍ فى الأحكام ، وتركيزٍ ومباشرةٍ وأمانةٍ علميةٍ والتوسع فى معالجة الشىء من زواياه المختلفة .

ومن ناحية الشكل ، ففى الغالب أن كل منظومة له - غير الألفيات - تأتى على قافية واحدة وما فى توارد القافية من نسق صوتى تسترق له الآذان ، مقتربا به إلى الشعر ، مختار القوافى من أحرف سهلة لينة ، وإن كان يختار بعض القوافى الصعبة

---

(١) اتجاهات الشعر العربى . د . هدارة ص ٣٦٧ .
(٢) السابق ج ٢ ص ٣٢٣ .
(٣) ألفية السيوطى فى الحديث ص ٢ .
(٤) راجع تنوير الحوالك ج ١ ص ٢٣٥ .
(٥) راجع « الاتقان ج ١ ص ١٨٤ .

للدلالة على قدرته الفنية ، ملتزما - أحيانا - مالا يلزم « هذا وقد خانته قدرته الفنية فى تلك القوافى - أحيانا - فأخذ فى تكرارها بشكل توجب التساؤل مثلما رأيناه فى نظم مسألة فقهية وجوابها[١] قد بلغا واحدا وعشرين بيتا ، كرر فيها - والقافية حرف الكاف الموصول ألف أطلاق ، اسم الإشارة « ذاك » ثمانى مرات ، و « هناك » أربع مرات ، و « يحاكى » ثلاث مرات .

أما من ناحية الوزن ، فإنه استعمل جميع الأوزان المعروفة والأوزان القليلة الاستخدام والمولدة أيضا مثل « سلسلة الرمل » .

- قد جاء من الهادى وَهْوَ خيرُ نبيٍّ أخبارُ مسانيد قد رويت بإيصالْ[٢]

وتنبه أن من الأوزان المشهورة عنده البسيط ، والطويل ، والكامل ، والوافر والرجز ثم الربع[٣] والرمل[٤] والمديد[٥] ، وكثيرا ما يستخدم البسيط مخلعا[٦] وإن استخدم البحور عامة بعروضها وأضربها المتعارف عليها يضاف إلى ذلك - كله قدرته الإبداعية فى استخدام الألفاظ رقيقة سهلة حسنة فى التركيب واضحة فى الدلالة وغير ذلك مما جعل منظوماته - الخاصة الألفيات تأخذ مكانها اللائق بين منظومات معاصريه وسابقيه ولاحقيه فألفية العراقى التى يقول مطلعها .

- يقول راجى ربه المقتدر عبد الرحيم بن الحسين الأثرى[٧]

كثيرا ما أشار السيوطى - صراحةً - بتفوق ألفيته على ألفية العراقى فى الجمع والإيجاز والاتساق وأنها .

نظمٌ بديعُه الوصفِ سهلٌ حلو ليس بـه تعقدٌ أو حشـو[٨]

كانت بذلك أجمع منظومة عرفت ، فكيف كان شعره ؟

---

(١) راجع الحاوى ج ٢ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢) تنوير الحوالك ص ٨٤ . والوزن هو « فعلن فعلاتن متفعلن فاعلاتان » .

(٣) راجع الحاوى ج ٢ ص ١٩٨ .

(٤) راجع السابق ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٥) تنوير الحوالك ص ٥٤ .

(٦) الحاوى ج ٢ ص ١٠١ .

(٧) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث « للعراقى تحقيق محمود ربيع ط دار الكتب السلفية بالأزهر . ط الثانية ١٩٨٣ م . ص ٧ .

(٨) ألفية السيوطى فى علم الحديث ص ٢٨٩ .

الباب الثانى

شعر السيوطى

مدخل : مصادر شعر السيوطى .

الفصل الأول : موضوعات شعر السيوطى .

الفصل الثانى : شعر السيوطى ، دراسات تحليلية .

ملحق الباب الثانى : شعر السيوطى عند المؤرخين والباحثين المحدثين .

شِعْرُ السّيوطىِّ

يتكون هذا الباب من مدخلٍ ، وفصلين ، وملحقٍ .

وقد جاء المدخل إجابة عن سؤالٍ يُطرح « أَيْنَ شِعْرُ السّيوطىّ » ، وقد ذكر أن له ديوانين ، وقد زاد بعض الناس ديواناً ثالثاً ، وقد أكدنا – بما لا يقبل الشك – خطأ نسبةِ هذا الديوان إلى صاحبنا ، وأما ديوانا السيوطى « حديقة الأديب » وهو الكبير فإنه لا يزال من مؤلفاته المفقودة ، والثانى « نور الحديقة » وهو مختصر الأول ، فقد استطعنا الحصول على نسخة منه فى دار الكتب : بعد جهد سنذكر سببه ، ثم وصفنا هذه النسخة ، وقد قمنا بجمع أشعار للسيوطى تفوق عشرات المرات حجم هذا الديوان من مؤلفاته المخطوطة ، ليتسنى لنا – بعد ذلك – دراسة شعره .

وقد تحدث الفصل الأول عن موضوعات شعره ، (الهجاء – الرثاء – المدح والمديح النبوى – الذم – قضايا المجتمع – الوصايا والحكم – الوصف – الغزل والغزل الحى الألغاز والأحاجى) .

وتحدث الفصل الثانى عن شعر السيوطى ، دراسة تحليلية من خلال :

١ – شعر السيوطى فى ضوء مفهوم الوحدة العضوية .

٢ – شعر السيوطى فى ضوء علمى العروض والقوافى .

٣ – الصورة الشعرية فى شعره .

٤ – مفردات اللغة .

٥ – الاقتباس والتضمين من القرآن .

٦ – شعر السيوطى فى ضوء النظام النحوى والدلالى والتركيبى .

ثم تحدثنا فى ملحق هذا الباب عن شعر السيوطى فى ضوء كتابات المؤرخين والباحثين والمحدثين .

مدخـــل

مصادر شعر السيوطى :

إنَّ نظرة إجمالية على باحثى السيوطى جميعهم ، تؤكد أن أكثرهم لم يشر نحو السيوطى شاعراً أو تبيان امكاناته الفنية فى منظوماته ، وقد نالت منظوماته ، خاصة الألفيات هوى ورغبة عند العلماء اللاحقين شرحا وتفسيرا[1] .

أما بقية الباحثين فذهب بعضهم إلى أن السيوطى ذو شاعريةٍ ، صار بها شاعراً فحلاً ، وذهب بعضهم الآخر إلى أن انتاجه الشعرى لا يمثل إلا ركاماً ، لا قيمة فيه ، وهناك بعض الباحثين من رأى فى السيوطى شاعراً مجيداً ، كل هذا - تقريبا - دون إيراد شواهد ، بل أن بعضهم يقول ما يقول دون ذِكْرِ بيتٍ يتيمٍ للسيوطى ، بالرغم من أن السيوطى ، نفسه ، قد ذكر أن له ديواناً شعرياً كبيرا له أسماه « حديقة الأديب وطريقة الأريب » فى كتابه حسن المحاضرة[2] وفى فهرسه ذكره بقوله « ديوان شعرى ونثرى »[3] وقد اختصر هذا الديوان فى ديوان عنوانه « نور الحديقة ونور الطريقة » وذكره أيضا فى « حسن المحاضرة وفى فهرسة بـ « نور الحديقة من نظم القول[4] ونور الحديقة من نظمى[5] ، هذا فضلا عن القصائد الأخرى التى بثّها فى كتبه .

وقيل ان بعض الناس نسبوا إلى السيوطى « ديوان المرج النضر والأرج العطر » خطأً ، وهو ليس من نظمه ، إنما هو من نظم سيوطى آخر كما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية[6] وكما أشار عدنان محمد سلمان[7] .

---

(١) راجع هدية العارفين ج ٢ ص ٢٩٤ ، ص ٣٧٣ ، ص ٣٩٧ ، تر أسماء أعلام شرحت ألفياته .

(٢) ج ١ ص ٣٤٤ .

(٣) ص ٧ .

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٤٤ .

(٥) فهرس مؤلفات السيوطى ص ٧ .

(٦) صفحات من تاريخ مصر ص ٢٥٦ .

(٧) السيوطى النحوى ص ١٢٤ ، وقد ذكر الكتب التى نسبت إلى السيوطى خطأً مثل الكنز المدفون وبرد الأكباد ، وغلطات العوام ، السابق ص ١٠٠/١٠٢ ، وقيل أن كتاب الفاشوش والرحمة كذلك راجع صفحات من تاريخ مصر ص ٢٥٦ ، وأرى أن هذا يحتاج إلى ترو ودرس وتمحيص .

ولاندرى كيف تناهى لأسماع بعض الناس مثل هذا ، فالسيوطى نفسه لم يذكر هذا الأسم فى ترجمته فى حسن المحاضرة أو فى فهرسه ، ولا يذكره المؤرخون القدامى ، أو حتى البغدادى فى حديثه .

وفصل الأمر أن السيوطى يذكر فى كتابه « نظم العقيان فى أعيان الأعيان » هذا الديوان « المرج النضر والأرج العطر من مؤلفات الشريف الأسيوطى م ٨٥٩ هـ » وهو يترجم له[٢] ولا نعلم من أمر ديوانه « حديقة الأديب » شيئًا ، وهو من تعداد كتبه المفقودة ، وإن كنا نأمل أن يُعثر عليه فى يوم ما .

أما ديوانه « نور الحديقة ونور الطريقة » فقد سار الباحثون الذين أشاروا إلى هذا الديوان على مقولة حاجى خليفة أنه جمع فيه من نظمه وديوان شعره ونثره »[٣] ، حتى عبد اللاه محمود حسن الذى أقام رسالته عن السيوطى أديبا يذكر أنه « مجموع من نثره وشعره ، ومنتخبات من ديوان شعره الكبير[٤] ، ولم يكلف نفسه البحث عن هذا الديوان ، وقد ذكر عدنان محمد سلمان فى رسالته « السيوطى النحوى » أنه توجد نسخة فى دار الكتب المصرية ضمن مجموع تحت رقم « ٧٤٦ مجاميع » ونسخة أخرى فى المكتبة الظاهرية تحت رقم ٨٧٢٥ عام »[٥] .

بيد أن عدنان محمد سلمان نفسه قد أخطأ حينما نقل هذا الرقم من فهرس دار الكتب[٦] ولم يحاول عدنان محمد سلمان أن يخرج الديوان من الدار ، ومالبث أن أنساق خلفه كل الباحثين الذين أشاروا إلى نسخة هذا الديوان « المصرية » ، وكان ينبغى لباحث السيوطى أديبا أن يعرف حقيقة هذا الديوان ، هذا والديوان يوجد تحت رقم « ٧٤٢ مجاميع » وليس ٧٤٦ مجاميع » .

---

(١) يظن الباحث « أحمد عبد اللطيف محمود الليثى » أن هذا الكتاب منظومة تاريخية للسيوطى (النحو المنظوم ص ١٦) ولاندرى كيف يعد الباحث كتاب تراجم مطبوعًا من منظومات السيوطى ؟ ويبدو أنه أوّل العنوان .

(٢) ص ١٤١ .

(٣) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٩٨٢ .

(٤) السيوطى أديبا ص ٢١٧ .

(٥) السيوطى النحوى ص ١٢٤ .

(٦) فهرس دار الكتب المصرية جـ ٣ ص ٢٤٤ .

وصف ديوان « نور الحديقة ونور الطريقة » للسيوطى :

يوجد الديوان - كما قلنا - ضمن مجموع بخطوط مختلفة ، تبلغ هذه المجموعة ثلاثا وخمسين ورقة ، ومسطراتها مختلفة فى حجم « الثمن » ، والديوان يحمل رقم (١٥) فى المجموع تمت كتابته فى نهار الجمعة التاسع والعشرين من شهر جمادى الثانى ١١١٠ هـ ، ويبلغ حجم الديوان ثلاث صفحات فقط من ورقة ٥٢ / ٥٣ . وفى ٦٩ سطرا ، يشتمل على ستين بيتا فى ٢٥ جزئية ما بين نتفة ، وقطعة[١] .

تقول مقدمة الديوان « أما بعد ، حمدا لله الذى لا يشعر بكنه ذاته شاعر ، والصلاة والسلام على من تشرفت به المواقف والمشاعر ، فهذه تقاطيع وآيات التقطتها من ديوانى الذى سميته « حديقة الأديب وطريقة الأريب » مما أبدته فكرتى ، وأهدته فكرتى ، وسميته نور الحديقة وهور الطريقة »[٢] .

والديوان يخلو من النثر ، ولا نعرف كيف قال « حاجى خليفة » إنه « مجموعة منثره ونظمه » فهذا القول يحتمل عدة أشياء :

(١) ربما كانت بين يدى حاجى خليفة نسخة غير هذه النسخة التى لم يتعد عدد سطورها سبعين سطرا ، ليس فيها من النثر غير هذه المقدمة السابقة ، وقوله قلت فى ، وقلت لما وغير ذلك ، وهذا ما يثير فينا الاستغراب من السيوطى نفسه حينما يقول عن ديوانه هذا مقاطيع وآيات من ديوانى حديقة الأديب ، فالستون بيتا لا تمثل كما ولا كيفا للسيوطى الشاعر مقارنه بما جمعناه له مما وجد داخل كتبه ، ومن ناحية أخرى قد تكون النسخة التى فى المكتبة الظاهرية مختلفة عن النسخة المصرية ، وننبه إلى أن النسخة المصرية - فيما نجزم - لم يعرفها أو يعثر عليها باحث ، وربما تكون النسخة السورية قد عرفها أحد الباحثين فحققها .

(٢) وقد يكون حاجى خليفة قد خلط بين قول السيوطى عن ديوانه الكبير « ديوان شعرى ونثرى » وبين قوله عن نور الحديقة وهو مختصر الديوان الكبير « من نظم القول » ، ومن جهة أخرى نكاد نعلل هذا التعجب الذى رأيناه فى جمع

---

(١) البيت الوحيد يسمى يتيما ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهى « نتفة » وإلى العشرة تسمى « قطعة » وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى « قصيدا » ، راجع إعجاز القرآن للباقلانى ط الثالثة . تحقيق السيد صقر . دار المعارف ص ٢٥٧ .

(٢) ديوان السيوطى « نور الحديقة » ورقة ٥٣ .

السيوطى لديوانه أو مختاراته الموجودة فى نور الحديقة أنه قلما نجد كما يقول أحد الباحثين « اهتماما بصنعة الدواوين » وقال مستطردا « ومقياسنا فى ندرة ظاهرة جمع الدواوين فى القرن العاشر إننا استقصينا أخبار رجال القرن العاشر فى شذرات الذهب لابن العماد فلم نجد سوى شاعرين ، قاما بصنع ديوانى قصائدهما[١] .

ونزيد الأمر توكيداً فى تساهل السيوطى بجمع أشعاره ومنظوماته العلمية أنه يقول فى مقدمة كتابه « قلايد الفوايد » أقتضبتها من نظمى مما أودعته فائدة علمية أو مسألة حكمية أو نادرة بها يغتنى كل نفس أبية ، فدونكها منثورة على الطلاب[٢] ، وهذا الكتاب لا يحتوى إلا على نتفٍ نظمٍ تعليمى وعلمى وألغاز لا يساوى ١ / ٢٠٠ من منظومات السيوطى الموجودة فى كتابه الحاوى .

وأجدنى مضطرا بعض الشئ لأن نكثر من التمثيل بشعر السيوطى الذى جمعناه إلى حد ما حيث أن ديوانه المخطوط لا يمثله فى شئ ، ولم يجمع أحد من الباحثين شعره المتفرق فى المئات من كتبه ورسائله المطبوعة والمخطوطة ، معتقدين أن ما جمعناه كاف ليصحبنا السيوطى إلى عالمه الشعرى ، وأن نقف على درسه ، وما نظفر به – بعد ذلك – من إعطاء حق له .

وكانت موضوعات شعره على النحو الآتى :

---

(١) مصطفى ابراهيم حسين « رواية الأدب » رسالة دكتوراة مخطوطة ص ٤٠٢ ، وراجع ما قبلها .
(٢) مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٠٠ تصوف ص ١ .

الفصل الأول

موضوعات شعر السيوطى

(أ) « الهجاء » :

نود أن نذكر قبل أن نتحدث عن « الهجاء » فى شعر السيوطى ، أنك لا حظت فيما سبق أنه جعل من منظوماته الدينية والعلمية ، أداة من أدواته المتعددة لتوطيد شخصيته ، وجهازا إعلامياً يكشف عما يتصف به من سمات ، وعن أمانيه التى أرادها دون أن تفوته أدنى مناسبة إلا وزيد نفسه فخرا وتوطيدا ، مع التنبيه على أنه وضع هذا الفخر فى صورة مدح يقوله السائل فى أكثر الأحيان ، ليكون الفخر حينئذ أليق ، وأكثر بهاء .

وستراه هنا فى نظمة الغنائى مقلا فى فن الفخر ، يحتال فى فخره - أحيانا - من خلال إسقاط شخصيته على أحد أبطال مقامته ، الذى يمثل شخصية السيوطى ، كما وضحنا ذلك فى الباب الرابع من رسالتنا .

يقول على لسان البطل الأديب الموسوعى :

- يـا راغـبًـا فى أدبِى وهـائـمـاً فِى أربِى
وعـالِمـا « بِـرَبِـيـتِى » ورِفْـعَـتِى فِى الـرُّتَـبِ
كـالبحرِ لَمَّـا إنْ همَى مِنِّى تُـرِيـكَ مَنْصِبِى
إنْ كُنْتَ قد رأيْتَ قبلَ سَـنْرةً مِـن ذَهَـبِ
قَـضَـيْتَ مِنِّى عَجَبًا وأنْـتَ أىُّ مُـعْـجَـبِ
فَـإنَّ ذلـك قـطـرةٌ من فَيْضِ فَضْلِ ربِّىَ[1]

ويبدو أن إسكات مهاجيه ، وأعدائه ، بما تملك طاقات شخصيته من ألوان ردعٍ هى موضع فخره ، ولِمَ لا وأنَّ كلَّ لومٍ من هؤلاء على إفرازات شخصيته شاهدٌ برفعته .

---

(١) المقامة المكية . مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم مجاميع ٤١٦ ورقة ١٤٠ ، مجزوء الرجز والقافية متراكب .

يقول السيوطى :

- إنّ يَلُمْ كُلُّ جاهلٍ حاسدٍ جايرٍ عَتِىٌّ
فَهْوَ لا شكَّ شاهدٌ ودليلٌ برفْعَتِى(١)

مما دعاه إلى احتراف الهجاء .

وإذا كان السيوطى يحاول فى كل موضع أن يتباهى بنفسه ، موضحا سماته ، وقدراته من فنون الشعر عنده - وهو الهجاء - ليصدر بدوره من منبع واحد ، متخذا عدة روافد ، أما المنبع فهو ما يتعارض مع توطيد الإمامة الإسلامية ، والأخذ بأسباب ترقى المسلمين ، ورفع شأنهم برأب ما انصدع فى دولة الإسلام ، وهذا ما يمكنه من ناحية أخرى من الوصول إلى حلمه فى تحقيق مبعوثيته على رأس ذلك القرن .

وأما الروافد فهى متعددة بتعدد مسارات المنبع السابق الذى نَامَ فى أعظم السيوطى وأُسكِنَ فى دمه .

رافد فى هجاء من حاولوا تعطيله عن مواصلة موسوعياته ، ورد الصاع صاعين إن لم يكن أكثر لمن تجرأ واتهمه فى قدرته العلمية تأليفا وتصنيفا ، وفكرا وإبداعا بالنقص والإقلال ، خاصة عدوه الحافظ السخاوى وفريقه الذى قاد عليه حملة شعواء ارتفع أوارها حتى ألهب عنان عصرهما .

رافد يتمثل فى هجاء المتخلفين ، وسلاطين التعود ، الجامدين فى أرجاء العالم الإسلامى رافد فى رؤيته لدعاة علوم ينكرها السيوطى ، ويرى فيها فسادا للشريعة والفكر الإسلامى مثل علم المنطق والفلسفة .

رافد فى رؤيته لبعض الأجناس التى تعيش داخل الدولة ، وغير ذلك .

فتأمل هجاءه هذا وهو يقول :

- عاب إمْلَائِىَ الْحديثَ رجالٌ قد سَعوا فى الضّلالِ سعيًا حثيثًا
إنّما ينكر الأمانىَّ قومٌ لا يكادون يفقهون حَدِيثًا(٢)

فيهاجم السخاوى متهما إياه بالجهل والحماقة والكذب .

- إن السّخاوىْ جاهلٌ متمخرقٌ لا يرعوى عند الصّوابِ إذا أثِرْ

(١) ديوان السيوطى « نور الحديقة » ورقة ٥٣ « مجزو الخفيف / متدارك » .
(٢) عقود الجمان ص ١٦٦ « خفيف / متواتر » .

فإذا أَشرتَ إلى كذوبٍ أحمقٍ   فإلى السّخاوى فَهْو كذّابٌ أشرْ[1]

وحين افتخر السخاوى بنفسه فى علم الحديث عرّض به السيوطى قائلا :

- قُلْ للسّخاويِّ إنْ تَعروكَ نائِبَةٌ   علمي كبحرٍ من الأمواجِ مُلْتطم
والحافظُ الدّيمِي غَيْثُ السّحابِ فَخُذْ   غَرْفاً من البحرِ أَوْ رَشفًا من الدّيمِ[2]

فمدحَ السيوطى نفسه مشيراً إلى الحافظ الديمى « عثمان بن محمد الأزهرى ، وقد ضمّن السيوطى عجز البيت الثانى من قصيدة البوصيرى « البردة » فى قوله وهو يمدح رسول الله :

وكلّهم من رَسُولِ الله ملتمسٌ   غَرْفًا من البحرِ أو رَشْفًا من الدّيمِ

ويوضح السيوطى أن ما فعله السخاوى لإفتاء السيوطى بجواز رؤية النبى يقظة كان ضَرْبًا من الكفر :

- إنَّ السخاوى فشَرْ   وقال هُجْرًا وهذَرْ
أرادَ أنْ يُنْكِرَ ما   صِرْنا إليهِ فكفَرْ[3]

وتفاصيل المعركة تبدأ - كما قلنا - حينما وضع السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » ترجمة ظالمة للسيوطى ، فارتآها السيوطى من قبيل الخبث والاتساخ ، يقول السيوطى :

- من سخا جاء السّخاوى الذى   ملك التاريخَ جوداً وسخا
قيل : هل تصنعُ هذا قلت : لا   كثّر الله السخاوى وسخا[4]

ولذلك لم يفعل مثل هذا فى كتابه التراجم ، فيقول مادحا منهجه فى التأريخ ، معرّضاً بفعلة السخاوى السابقة « فلذلك تبعت السلف الأبرار ، ونزهت تاريخى عن هذه الأقذار ، وقلت :

---

(١) الكاوى على السخاوى للسيوطى « مقامة » مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٥١٠ أدب ورقة (٥) (كامل / متدارك) .

(٢) راجع « النور السافر للعيد روسى ص ٨١ ، وفى مقامة السيوطى السندسية فى مقاماته المطبوعة ط حجر ص ٩٦ ورد البيت الأول فقط ، وقد ذكرها د . الشكعة فى كتابه « السيوطى م . م » ص ٩٢ ، وعلق عليها بقوله « وكان الحافظ الديمى يحفظ عشرين ألف حديث » ويبدو أن هذا خطأ غير مقصود منه « بحر البسيط / متراكب » .

(٣) الكاوى ص ٤ « مجزوء الرجز - متراكب » .

(٤) السابق ص ٦ « رمل / متراكب » .

– نظفتُ تاريخى من كلِّ ما يشينه عن أَهْلِ الاخا
ولم أكنْ مثل الذى شانه بالجورِ مثلها للورى والسخا[1]

وها هو ذا يهاجم ابن الكركى ، مُعيدًا ما عابه به عليه ، معريا أمام الناس تطورات الكركى الاجتماعية فى قصيدة يقول مطلعها :

– لو كنت رمت « مساوٍ » فيك أذكرها لكان فى الصدق ما يغنى عن الكذبِ
وكنت أسردها سرداً على نسقٍ مفصلٍ ، لكين الإجمال أجمل بى
لكنٍ مقامى يعلو عن مسافهةٍ ومنصبى جلٍّ عن فحشٍ وعن زربى
لا أَنْتَ إن ذكر القوم الكرام أنا وليس جدُّكَ جدى أوْ أبوكَ أبى
عـددت إنى وسنى دون أربعـةٍ وجهت نحو أبى مادمت من طلبى
شببت فى قصب المهـدِ أطلبـه لأن منعتـك التشبيب بـالقصبِ
عملت لى زفةً بين الأنام كما عملت لى زفةً أولى وأنت صبى
لولا أجاب اليهود البهت خالقنا عن بهتهم فى ذرى التنزيل لم أجبِ[2]

وقد هاجمه فى ردٍّ عليه ، موضحا الفرق بين كتابته ، وكتابة الكركى فى قصيدة أخرى مطلعها « مقامتى القاهرية ، أوردها فى طراز العمامة »[3] .

هذا وقد هاجم محرفى الأحاديث النبوية ومعانيها فى أسلوب سبٍّ ، واستنكار وكأنه فى حالة هذه يضرب أخماسًا فى أسداس .

يقول السيوطى مهاجما تحريف السخاوى لمعانى حديث نبوى ، فصل فيه القول والقضية فى مقامته الكاوى :

تحرف يا عديمَ الذّوقِ لَفْظًا ومعنًّى فى الحديثِ ولسْتَ تدرى
فيـالله من شقـرا كـوردٍ ويـالله من حـورا كنسـرِ[4]

ويقول مستشهدًا فى سخرياته فى هؤلاء :

ومحدثٍ قد صار غاية علمهِ أجدًا يرويها عن الدّميـاطى

---

(١) السالف ص ٦ « سريع / متدارك » .

(٢) طراز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة « للسيوطى » مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٠٢٣ ز « ص ٧ » « بسيط / متراكب » .

(٣) راجع السابق ص ٢٤/ ٢٥ .

(٤) الكاوى ورقة ٣ « وافر / متواتر » .

وفلانةٍ تروى حديثًا عاليـاً ــــ وفلان يروى ذاك عن أسباطِ
والفرق بين غريرهم وغريرهم ــــ وافصح عن الخياط والحناطِ
وأبو فلانة ما اسمه ومن الذي ــــ بين الأنامِ ملقبٌ ، بسبـاطِ
وعلومُ دينِ الله نادتْ هجرةً ــــ هذا زمانٌ فيهِ طَيُّ بساطى[1]

وها هو ذا يهاجم الذين كفروا ابن الفارض فى القضية التى أثيرت بشراسة وضراوة ، وسوف نعود إلى هذه القضية فى مقاماته ، ملاحظين أن السيوطى - كما وضحنا فيما سبق - لم يرض أن يكون متصوفا ، وقد دخل فى معارك مع مدعى التصوف فى عصره ، وإن دافع عن التصوف وأعلام التصوف ، بما يتفق مع جهد هؤلاء الصادق ومكانتهم الإصلاحية من ناحية ، ولضرب أعدائه من ناحية أخرى .

يقول السيوطى :

لَيْتَ شِعْرى أىّ علمٍ أتقنوه ــــ ليت شعرى أى فنٍ أحكموه
إنْ تسلهم عن معانى بعض ألفا ــــ ظٍ أتت فى شعرهِ لم يفهموه
صعِـدوا واحدةً من دبـرجٍ ــــ فـأرادوا علّوها أنْ يقحمـوه
كلُّ شيىءٍ غلب عن أفهامهم ــــ حيثـما يستمعـوا مـا سلّموه
أجميع العلمِ ، يا من غلطوا ــــ فى ضياء الشمسِ هلا أوتيتموه
لِمَ لا قُـلتم لــه معنى ولم ــــ نَـدْرِهِ للجهل هَـلّا قلتمـوه
أنتمُ فى الناسِ أعلى من نجومٍ ــــ وأناسٍ أوّلوا مـا استبهموه[2]

الخ ....

ويقول مهاجما ، وإن لم يكن وضّح من يقصدهم بهذا الهجاء :

إنَّ القضــاة بمكـة لثـلاثـةٌ ــــ طبْقٌ لما قد جاءَ فى الأخبارِ
شَيْخُ المقامِ وقد غدا فى جنّةٍ ــــ والقضيـان كلاهُمـا فى النّـارِ
هذا لحسن صلاتـهِ وسلامـهِ ــــ فى صـدرهِ ومحـاسن الآثـارِ

---

(١) السابق ص ٢ .
(٢) « قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٨٠ تصوف تيمور ص ٩ « رمل / متواتر » .

وهما بقبحٍ فعالهم وبحقدهم وأذاهمُ والميـلُ للأشـرارِ[١]

ويوضح السيوطى رأيه فى علم الفلسفة - صراحةً - مهاجما الأعاجم وإن كانوا المتعجمين فكراً ، وعرفت فيما سبق سبب ذلك ، ودفاعه عن أهل الشرع :

إنَّ الأعـاجـم ذو سفـهْ لا تحمـدوا منهـم صفـةْ
عِلْمَ الشَّريعةِ قـد رموا وأتـوا عـلومَ الفـلسفـةْ[٢]

ولمزيد من ذلك اقرأ قصيدته - بمفهومه - التى يقول مطلعها :

قُل لمن يفهم عنّى ما أقولْ قصر القولُ فذا شرحٌ يطولْ[٣]

وها هو ذا يهاجم أجناسا غير عربية :

قال الإمامُ الشافعىُّ الرضى قولا يفوق الـزهر والـزهرةْ
الأشقـرُ الزرقـاءُ عيناه مـا فيـهِ من الخيرِ ولا ذرّةْ[٤]

(ب) « الرثاء »

يواصل السيوطى فى هذا الفن من فنون شعره ، الكشف عن طبيعة شخصيته ، إذ أنه أوقف مرثياته ، على شيوخه ، بعض شيوخه ، مبيّنًا ما هية المرثى ، ومنزلته ، معددا صفاته وسلوكه ، مفصلا الحديث عن قدراته فى الدين والعلم ، وكيف كان هذا المرثى بالنسبة إليه .

فها هو ذا ينظم أول قصيدة فى الرثاء يكتبها فى شيخه البلقينى « ت ٨٦٨ هـ » . وعدة هذه القصيدة واحد وعشرون بيتا ، أدرجها فى معجم شيوخه ، كان عمر السيوطى لما كتب هذه القصيدة أقل من عشرين ربيعا . يقول مطلعها :

---

(١) ديوان السيوطى « نور الحديقة » ورقة ٥٢ (كامل/ متواتر) .

(٢) السالف ورقة ٥٣ (مجزوء الكامل / متدارك) وراجع ما قاله السيوطى حينما ترجم للخونجى *الفيلسوف* وقد ولى قضاء الديار المرية بعد عزل عز الدين بن عبد السلام . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٤١ .

(٣) الحاوى جـ ٢ ص ٢٤٠ (رمل / ٢ مترادف) .

(٤) ديوانه « نور الحديقة » ورقة ٥٣ (سريع / متوتر) .

مات إمام الناسِ شيخُ الورى ففاضت الأعين مما جرى
وناحت الورْق على أيكها وغابت الشمسُ وماج الورى
وأظلم الأفقُ وقد كان من وجوده فى عصره أزهرا[1]

ويرثى شيخه المناوى (ت ٨٧١ هـ) فى ثلاثة أبيات قائلا :

قلت لما مات شيخ الـ ـعصرِ حقًا باتفاقِ
حين صار الأمر ما بين جهولٍ وفساقِ
أيها الدنيا لك الو يلُ إلى حين التلاقى

فالسيوطى يذكر أن شيخه المناوى ، شيخ العصر باتفاق ، وفى فقده حسرة وكمد ، ولكن المحزن أن أمر الناس صار يتنازعه الجهلاء وأهل الفسق ، وهذا ما استوجب منه اليأس ، فذم الدنيا إلى حين التلاقى ، وإن كان معنى البيت الأخير يثير شيئا من التساؤل ، أى تلاق يقصد السيوطى ، هل يقصد أنه لم يبق للدنيا عنده غير التطير والذم ، بعد فقده شيخه ، حتى يرحل هو فيلقاه ؟ أم أنه يقصد أن العصر - بعد أن فقد نجما إسلاميا ، وصار أمر الناس يعضه المتخلفون العابثون عليه بالنواجز ، كره السيوطى هذا الحال ، ولم يعد أمامه - حتما - إلا شن حروبه وويلاته حتى يلتقى بالدنيا ، معيدا إليها ضياءها كما فعل شيخه .

ويرثى السيوطى شيخه « الشمنى ت ٨٧٢ هـ » بقصيدة ، افتخر بها ، وعدة هذه القصيدة خمسون بيتا ، أوردها فى كتابه حسن المحاضرة فى ترجمته لشيخه هذا[3] نقتطف منها هذه الأبيات :

رزءٌ عظيمٌ به تُستنزل العبرُ وحادثٌ جلَّ فيه الخطبُ والغيرُ
تبكِيه عين أولى الإسلامِ قاطبةً ويضحك الفاجرُ المسرورُ والغمرُ
كل العلومِ تفاغيه وتنشدهُ لما قضي : مهلا يا أيها البشرُ
إنْ كان فى كلِّ علمٍ آيةٌ ظهرت وما العيانُ كمن (قد)[4] جاءه الخبرُ

---

(١) الآبيات أوردها عدنان سلمان فى « السيوطى النحوى ص ١٢٦ » وكتابه المنجم فى المعجم مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٢٦ تاريخ « وهو مفكك لا يعار » .
(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٤٥ .
(٣) جـ ١من ص ٤٧٥/ ٤٧٧ .
(٤) أضفنا « قد » لظننا أنها ساقطة ، ولاكتمال التفعيلة صحيحة ، وتأكيد المعنى الذى يريد .

سعى إليه قضاةُ العصرِ يخطبه فـرده خائبًـا زهداً بـه حصرُ
شيخ الشيوخِ ولا أوحشت من سكنٍ ولا عفا لك ربعٌ زانه الخفـرُ
دهرٌ عجيبٌ يطِمُّ السمع منكرهُ وما به الهدى[1] عونٌ ولا وزرُ
وإن تكن أعينُ الإسلام ذاهبةً تترى فعّها قليل يذهب الأثرُ[2]

وقد وضح السيوطى فى هذه القصيدة مكانة الشّمنىّ ، وعدد صفاته ، وفصل الحديث عن قدراته فى كل العلوم التى اتقنها الشيخ ، مما يعكس لنا المظانِ التى نهل صاحبنا من مائها العذب حتى صار مجمع هذه الأبحر الإسلامية الرفيعة ، ودوائر معرفتهم أوخلاقهم ، فضلا عن ما مَنَّ به الله عليه من إبداع وتميز .

وله فى رثاء شيخه هذا قصيدتان أخريان ، أدرجهما فى معجم شيوخه ، يقول فى مطلع قصيدة منها :

ألا قد طال تبريحى وحزنى على الشيخ الإمامىّ الشمنىّ[3]

ويرثى شيخه سيف الدين الحنفى (ت ٩٨١ هـ) ، يقول السيوطى « وهو اخر شيوخى موتا لم يتأخر بعده أحد ممن أخذت عنه العلم إلا رجل قرأت عليه ورقات من المنهاج وقلت أرثيه .... » وهى قصيدة تبلغ أربعة عشر بيتا نقتطف منها هذه الأبيات :

مـات سيفُ الـدينِ منفـردا وغـدا فى اللحدِ منغمـدا
عـالمُ الدنيـا وصـالحهـا لم تـزل أحـوالُـه رشـدا
يـبكـيـه دينُ الـنبـىِّ إذا مـا آتـاه ملحـدٌ كمـدا
لـيت شعـرى من نـؤمّله بعـد هـذا الحـبر ملتحـدا
ثُلمـة فى الـدين مـوتتـه مـالها من جـابرٍ أحـدا
قـد روينـا ذاك فِى خـبرِ وهـو مـوصـولٌ لنـا سنـدا
فـعليـه هـامعـاتُ رضـاً ومن الغفـران سحبُ نـدى
وبـعثنـا ضـمن زمـرتـهِ مع أهل الصـدقِ والشّهدا[4]

---

(١) هو « ومابه للهدى » وليس « ومابه الهدى » لكى يصح المعنى والوزن . لم يشر المحقق فى التصويب .

(٢) « بسيط / متراكب » .

(٣) راجع السيوطى النحوى - ص ١٢٥ « وافر / متواتر » .

(٤) راجع حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٧٨ وما بعدها . « مديد / متراكب » .

ويلاحظ قول السيوطى « لم يتأخر بعد ممن .. »» فهو لم يذكر اسم هذا الشيخ . ونستبعد أن ذاكرته تقبل مثل هذا النسيان ، فلعل مبعث ذلك ضعف مكانة هذا الشيخ لديه خاصة وهو يقول « قرأت عليه ورقات من المنهاج ، وإن كنا نرى أن السيوطى بعد أن فقد شيوخه موتا ، وعمره هنا فى بداية العقد الرابع ، وقد وصل إلى مكانة مرموقة ، يشعر بالمساواة مع شيوخه ، حتى فى رثائه لهم ، ملمحا أنه لم يبق إلا هو ، وهو حصاد كل من سبقه من الشيوخ والأعلام ، ولأن يتبوأ مكانهم ، ملاحظا النفس الهادىء فى المرثية « وبعثنا ضمن زمرته » وإن كنا نرى أنه قال « وابعثنا ... » . وذلك ما يقتضيه المنطق .

(ت) « المدح والمديح النبوى »

إن نظرة إجمالية إلى فن المدح عند السيوطى تشير إلى شيئين لا نستغربهما عليه انه لم يمدح إلا من بنى شخصيته ، فلم يمدح إلا شيوخه بل بعض شيوخه سواء كانوا المباشرين أم من أعلام الدين ا لسابقين خاصة إمامه وإمام الشافعية ، الشافعى ، والشىء الثانى انه كان فى المديح مقلا مقارنة – على الأقل – بالرثاء عنده ، ففى الرثـاء لم يرث إلا شيوخه فقط ، وفى المدح لم يمدح إلا شيوخه فلماذا كان فى الثانى مقلا . ؟

ورأينا فى ذلك أن السيوطى كما عرفنا شخصيته ، لم يتخذ – حتى الآن – الفنون الشعرية إلا أداة خاصة به ، فافتخر – خاصة فى النظم التعليمى – لأنه أراد أن يكون شعره جهازه الإعلامى لما يكنه فى ذهنه ، ويجسده فى إنتاجه المتعدد الزوايا ولم يتعاط الهجاء إلا ليسكت محبطيه ، ومعرقلى حلمه ، والواصدين باب الإمامة أمامه ، ونكاد نعتقد أنه لم يرث – حين يرثى – لا نفطار فى القلب ، وكمدمن الفقد فحسب ، وإنما أراد أن يبين للناس فى مرثياته تلك الروافد التى جعلت منه معينا ، فضلا عما يملك من ذاتية تفرد وابتكار .

ولذا فإن صاحب هذه الشخصية المستقلة الأنوف رأى أنه ليس كغيره يمدح ، أستحق الممدوح أو لم يستحق ، سوى بعض شيوخه ، ومع هذا فقد أبى أن يترك بعض شعره ليسكنه غيره ، فارشا له مطارف المجد أخلاقاً ، وعلمًا ودينًا وهو الذى يريد أن يكتنز كل هذه الصفات لنفسه . وعليه فقد أتى المدح عنده مقلا جد إقلال ، مسطحًا ، خافت النبض والشعور .

يقول السيوطى مادحا شيخه الشمنى :

لذ بمن كان للفضائل أهلا من قديمٍ ومنذ قد كان طِفْلا
وبمن حاز سؤددًا وارتفاعًا ومكانًا على السماكِ وأعْلَى
عالم العصرِ من عُلا ، من حديث وزكا فى القديمِ فرعًا وأصلا[١]

ويقول السيوطى «قلت فى الشيخ العلامة كمال الدين إمام المالكية لما قرأت عليه كتابه .

كلامُ الكمالِ كمالُ الكلامِ وأبهى من الدرّ جوف الصَّرفْ
به قاصدٌ كلُّ من صدَّ عن طريقِ الهداةِ ومن قد صرفْ[٢]

ويذكر شيوخه وسابقيه ، بما هم أهل له ، مستشهدا به فى فكره ، فهو يعضد رأيه على مكفرى ابن الفارض بموقف شيوخه وسابقيه يقول :

كالباسطى الذى مرقاه فى كل علمٍ شاع ما احللتموه
والكمال ابن الهمام الحبر من نوره فى العلمِ ما أوقرتموه[٣]

ويقول مادحا « الشافعى » :

إنَّ ابْن أدريسَ حقًّا بالعلم أولى وأَحْرَى
لإنَّه من قريشٍ وصاحب البيت أَدْرَى[٤]

أما المديح النبوى ، « وإن انتشرت المدائح النبوية بصورة كبيرة فى ذلك العصر ، وقد ترك لنا كثير من الشعراء إن لم يكن معظمهم قدرا وافرا[٥] فإن السيوطى لم يكثر فى مدائحه وإن كان يَبث منظوماته بمدح الرسول وصحبه ، وهو معروف بحبه الشديد للرسول وأبويه فقد كتب فى نجاه والدى الرسول ستة مؤلفات كاملة يرد بها على معارضيه فيما ذهبوا إليه .

---

(١) الأبيات أوردها عدنان لسلمان فى « السيوطى النحوى » ص ١٣٧ (خفيف / متواتر) .
(٢) نور الحديقة ورقة ٥٣ « متقارب / متدارك » .
(٣) « قمع المعارض » ص ٩ (رمل / متواتر) .
(٤) نور الحديقة ورقة ٥٣ « مجتث / متواتر » .
(٥) الأدب العامى فى مصرفى العصر المملوكى ص ٥١ .

هذا وقد ترك لنا السيوطى بديعيته فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى مطبوعة أسماها « نظم البديع فى مدح خير شفيع » وقد ضمنها السيوطى - كسابقيه من أصحاب البديعيات ، المحسنات البديعية .

يقول السيوطى فيها :

من العقيق ومن تذكار ذى سلمٍ   براعة العين فى استهلالها بدمِ
محرف الطبع حيث القلب محترق   مشوش الفكر من كلمٍ ومن كلمِ
ورمت رفو اصطبارى إذ تمزّع لا   يبلى على مستعارٍ من ودادهمِ
ولا جنـاحُ عليه فى تلفتـهِ   حبٌّ له طيران من جناحهم[1]

هذا ولم تنل بديعية السيوطى شهرة كبديعية ابن حجة الحموى (ت ٨٣٧ هـ) بل يرى شوقى ضيف أن بديعية عائشة الباعونية أشهر من بديعية السيوطى[2] .

(ث) « الذم »

إن حياة السيوطى صراح حلم لايهدأ ، هذا الحلم الواضح المقصد المستبين الخطا ، طالما وطد عوامل تجسيده بكل إمكانات المعرفة والسلوك ، محاربا كل عوامل التعرية والتفتيت بكل ما أوتى صاحبنا من قوة ، لذا فقد جاء فن الذم ، مواكبا لمظاهر شخصيته ، فنراه يوضح منهجه فى الحياة بألا يصاحب إلا من عرم ور طباعهم ، ولن يجالس إلا العالم والصالح والصديق دون تفريط ، ولن يسأل إلا استعارة كتب ، ولن يفشى سر أحد ، ولن يختلط بعامى أبد ، ولن يفعل إلا ما رضى الله عنه ، وأخاره عليه . يقول :

إنى عزمت وما عزمٌ بمنخرمٍ   مالم يساعدْه تقديرٌ من البسارىِ
أن لا أصاحب إلا من خبرتهم   دهرًا مقيمًا ، وأزمانًا بـأسفارِ
ولا أجالس إلا عالماً فَطِنًا   أو صالحًا أو صدّيقاً لا بإكثارِ
ولا أسايل شخصًا حاجةً أبداً   إلا استعـارة اجزاءٍ وأسفـارِ
ولا أذيع ولا للعالم الفطنِ الـ   ـصديقِ ما يحتوى مكنون أسرارِ

(١) شرح نظم البديع فى مدح خير شفيع . المخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨٧ تيمور « ص ٩٩ وما بعدها » .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ . ط ثالثة . دار المعارف ص ٣٦٣ وما بعدها .

ولا أصاحب عاميًا ولو شهدوا   بأنه صالحٌ معدوم أنظارِ[١]

ومما جاء فى تحديد السيوطى لمنهجه فى الحياة سواء ما يرغب فيه أو عنه يعكس بوضوح شديد رؤية السيوطى من زاويتين .

(١) ما وصل إليه عصره من عوامل سلب ، متعددة الأشكال .

(٢) موقف السيوطى - المتشدد - من عصره ، كرد فعل لما يواجه من إحباط لحلمه .

فألوان الفساد المنتشرة كثيرة ، فها هو ذا يذم القضاة وما وصل إليه حالهم من سيىء إلى أسوأ بل صار القضاة معول هدم يضرب فى صرح الإسلام ، ومفاهيمه الرفيعة . يقول :

قد بُلينا فى عصرنا بقضاةٍ   يظلمون الأنامَ ظُلْماً عَمّا
يأكلون التّراثَ أكْلاً لَمّاً   ويحبّون المال حُبّاً جَمّا[٢]

ويذم الذين يُعْطَون مالاً موفوراً ، ولا يتصدقون منه واعتقد أنه يعرض هنا بالمتصوفة حيث كانوا ينالون من الأموال حظا وفيراً ، وما الموقف الذى حديث بينه وبينهم ، وضرب فيه إمامُنا « بالقبقاب » بعد أن أوحلوه ، إلا حين منع منهم ما رآه زائداً على أعطياتهم يقول :

أيّها المعطَون مالاً وافرًا   ثم لا تؤتوا ولا تَصْدّقوا
إن تصلّوا أو تصوموا أو تحجّوا   لن تنالوا البِرّ حتّى تنفقوا[٣]

ويخشى على علوم الدين من عبث العابثين ، فيذم من يلبس جبة العلم وهو جهول ويفندهم واحدا واحدا فى سخرية ، لكنه يصرخ محذرا بأن :

علوم دين الله نادت هجرةً   هذا زمانٌ فيه طيُّ بساطِ

لكنه يَنْتصِرَ للعالمِ والعلمِ ، ويذم الجهل والجاهل ، موضحا أن العلم منتشرة ، والجهل فيقول وإن كنا نرى أنه يلمح إلى رأيه علمه هو ، وانحسار محبطية المتخلفين ، لكن سرعان ما يجتمع عند هذا الانتصار الضدان عليه « أصحابه وأعداؤه » محاولين

(١) ديوانه « نور الحديقة » ورقة ٥٣ « بسيط / متواتر » .
(٢) شرح عقود الجمان ص ١٦٧ « خفيف / متواتر » .
(٣) السابق ص ١٦٦/ ١٦٧ « رمل / متدارك » .

اغتيال نشوة ذاك الانتصار ، فيقول متأسيا :

من يحزِ الفضلُ فأصحابُهُ السّفها بذمهِ سائرهْ
ومن يصغ نظمًا فأعداؤه للقدحِ فى مقصودهِ صائرهْ[1]

وتزداد وطأة الإحباط المنثال عليه ، فيصرخ فى وجه الجاهلين ، ملتمسا من الناس أن يمنعوا عبث الجاهلين به .

قد روينا معُنْعنَاً ساقه كل من نبهْ
ارحموا عالماً يُرى تلعب الجاهلون بهْ[2]

ولم يشعر باستجابة طالبه ، فتضيق رؤيته - حتما - حتى يرى .

الناس ان ودّوا وإن أخلصوا فرضًا فما ودُّهم بالمقيمْ
ولا ترى فيهم أخا نجدةً ذلك تقدير العزيز الحكيمْ[3]

حتى نرى السيوطى ينصح قائلا :

أيّها السائلُ قوماً مالهم فى الخير مذهبْ
اترك الناسَ جميعاً وإلى ربّكَ فارغبْ[4]

ألا ترى معنا أن السيوطى يقصد نفسه ، وما نصح به نفسه قد فعله .

(حـ) « قضايا المجتمع » :

ونعنى بقضايا المجتمع فى شعر السيوطى مدى تفاعل السيوطى مع أحداث مجتمعه سواء كان المجتمع المحدود أم المجتمع الأكبر لديار الإسلام .

والحقيقة ان أكثر ما خلفه لنا السيوطى من تراث متعدد يعد نموذجا للعالم الموسوعى الملتزم بقضايا مجتمعه ، فهو لم يترك ما هفا إليه قومه إلا وأفرزت طاقات شخصيته لهم شهدا جنياً ، ولم يترك قضية من القضايا التى يراها إلا ويعالجها .

---

(١) شرح عقود الجمان ص ١٥٧ « سريع / متدارك » وورد البيتان فى ديوانه ورقة ٥٣ فى ذمة سايره / صايره .

(٢) ديوانه رقة ٥٣ « مجزء الخفيف / متدارك » ومعنى الشطر الأول من البيتين « روينا حديثا معنعنا » .

(٣) السابق نفس الورقة « سريع / مترادف » .

(٤) شرح عقود الجمان ص ١٦٧ « مجزء الرمل / متواتر » .

ولكن هذه القضايا المتعددة ، والأحداث الكثيرة ، رأى أن الشعر - وهو الإمام - لا يمكن أن يفندها بالشكل والمضمون الذى يسمح للنثر وابداء موقفه منها ، فإننا رأيناه مكتفيا بأن يرشح الشعر - أحيانا - لتوطيد موقف عالجه نثرا ، أو إشارة إلى قضية أو يتحدث عن حادث من الحوادث التى تمر بمجتمعه ، ورؤيته الالتزامية فيه ، فحينما رأى الناس وقد كادوا أن يسرقوا النيل بما يقيمون من بنيان فوق شواطئه ، فوقف إزاء هذه القضية ، ويعد كثير من محاربة من أفتى بجواز ذلك من معاصريه ، انتهى بأن استجاب السلطان مقتنعا بحجج السيوطى الدامغة « فأحاط بذلك علما » وتوعد أهل البروزات منعاً وهدماً ، حفاظا على حريم النهر وأرضه على حد قوله ، وقد ألف فى ذلك رسالتين إحداهما نثرية « الجهر لمنع البروز إلى النهر » ، والثانية وهى ترجمة شعرية لرسالة السابقة أسماها « النهر لمن برز على شاطىء النهر » فى سبعين بيتا على بحر البسيط وتوجدان بالحاوى[١] .

وشارك شعره فى قضية الحلول والفناء عند المتصوفة ، وخاصة ما أثارته فتنة ابن الفارض ، وقد رأيتَ شواهدَ شعرية على ذلك ، وحينما سأله سائل عنه ، أجاب نثرا قائلا « إن من أراد أن يفهم معناه - أى ما جاء فى شعر ابن الفارض من مصطلحات الحلول والخمر ... » - فليجع جوعه ، ويسهر سهره ، يعرف معناه »[٢] .

وقضية تأويل[٣] ما وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه ، وما وصل فى هذا العصر من هذه القضية من التنابز إلى حد التكفير ، وكان السيوطى ممن يمررون الصفات من غير تشبيه أو تمثيل[٤] ، وقال فى ذلك منظومات كثيرة . يقول :

كيف ترى من على العرش استوى   لا تقل كيف استوى كيف النزولْ
كيف تجلّى الله أم كيف يرى   فلعمرى ليس ذا إلا فضولْ

---

(١) جـ ١ ص ١٣٣ وما بعدها .

(٢) راجع الحاوى جـ ١ ص ٣٨٤ ، ويقول السيوطى فى مقامته تنبئة الغبى بتبرئة ابن عربى مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٩٢٠ تصوف ص ٩ « وما أحسن قول بعض الأولياء لرجل أن يقرأ عليه تائية ابن الفارض فقال : « دع عنك هذا من جاع جوعة القوم ، وسهر سهرهم ، رأى ما رأوا ... » .

(٣) راجع معناه فى كتاب ابن رشد « فصل المقال .. » تحقيق محمد عمارة . دار المعارف ١٩٧٢ م وما بعدها .

(٤) راجع تفصيل ذلك فى « العقيدة السلفية . أصولها أعلامها » كمال محمد محمد موسى . رسالة دكتوراه مخطوطة . دار العلوم ١٩٧٨ ص ٢٥ وما بعدها .

هــو لا كيفَ ولا أينَ لـه   وهو فى كلِّ النواحى لا يزولْ
جـلَّ ذاتـا وصفــاتٍ وسـما   وتعـالى قـدره عـمّا أقـولْ[1]

وقول السيوطى أيضا :

فــوّضْ أحـاديثَ الصفــاتِ   ولا تــشـبِّــه أو تــعــطِّلْ
إنْ رمتَ إلا الخــوضَ فى   تحقيــقِ مُعـضـلةٍ فـأوِّلْ
إنّ المــفــوِّضَ ســالمٌ   ممـا يــكــلفــه المـؤوِّلْ[2]

ومن قضايا المجتمع فى عصر السيوطى الجوهرية ، طبيعة الحكومات ، سواء كان فى مصر أم فى غيرها .

وكان موقف السيوطى من سياسات هذا العصر رافضا ، ثوريا سواء على المستوى المحلى أو المستوى الاسلامى ، وما حدث له من إهدار دمه ، من قبل « قايتباى » إلا من جراء موقفه المعروف ، وتمسكه برأيه فى الحكم وسلوك الحاكم .

وفى شعره نكاد نلمح هذه الثورية ، حينا بالإشارة ، وأحيانا بالحكمة والوعظ ، وأحيانا بالمباشرة فى رفض الظلم بكل ما يستطاع .

يقول السيوطى :

كم ذا رأيت الدّهرَ من ملكٍ   ذى صولةٍ والـدهرُ مـوقوتُ
أبـدتْ لهم دنيـاهم غــروراً   حَتّى إذا فَرِحُوا بما أوتوا[3]

ويقول صاحبنا :

أعوانُ أهلِ الظّلمِ قد زلزلوا   ببأسهم قَلْبَ الكئيبِ الكليمْ
يا أيّها النـاسُ اتّقوا ربَّكُمْ   زلزلة الساعةِ شىءٌ عظيمْ[4]

ويقول :

لا تكن ظالمًا ولا ترضى بالظلمِ   وانْكــرْ بكــلِّ مــا يستـطاعْ
يوم يأتى الحسابُ مالـظلومِ   من حميمٍ ، ولا شفيعٍ يُطاعْ[5]

---

(١) الحاوى جـ ٢ ص ٢٤٠/ ٢٤١ « رمل / متوادف » .
(٢) العقيدة السلفية ص ٢٧ « مجزوء الكامل المرفّل/ متواتر » .
(٣) شرح عقود الجمان ص ١٦٦ « سريع / متواتر » .
(٤) السابق ص ١٦٧/ ١٦٨ « سريع / مترادف » .
(٥) السابق ص ١٦٦ « خفيف / مترادف » .

ويشارك السيوطى بشعره فى الأحداث التى تلم بمجتمعه ، فى الوباء الذى انتشر فى الناس عام ٩١٠ هـ ، يقول :

يارِبِّ بالهادىّ النبىّ المجتبى أغْمدْ عن الإسلام أسيافَ الوَبَا
يارِبّ لا تشكو أليمُ عـذابهِ إلا إليكَ فقد أخافُ وأرْعبا
كَم حلَّ فى دارٍ فبدد شَمْلَ من فيها فلا يجدون منه مَهْرَبَا
يـاربِّ لطفًـا بالعبـادِ فمالهم ربٌّ سواكَ يقيهم المُستصعبَا
إنّا اعترفنا بالذنوبِ فكلّنـا عاصٍ مسيىءٌ للعذاب استوجبَا
لكن إذا قُرِنتْ عظيمُ ذنوبِنَا بعظيمِ عفوكَ كان عَفُوكَ أَغْلبا[١]

(د) « الوصايا والحكم » :

السيوطى بحكم طبيعة تكوينه الدينى والعلمى ، جاء شعره فى الوصايا نتيجة خالصة لهذه المكونات ، يستمد قوته فى التأثير من القرآن الكريم .

انظر إليه وهو يدفع الناس إلى التعهد ، وإقامة النسك الإسلامية كما ينبغى لها أن تكون .

أعـبـدِ الله وَدَعْ عـنـ ـك التـوانى بـالْهجـودْ
ومِـن الليـلِ فـسبحْـ ـه وأدبـار السّجـودْ[٢]

ويقول : وَلِّ دنـيـاكَ دبـارًا وإذا مـا رمـت تَقـواه
فـأقـمْ وجهَـكَ لـلديـ ـن حنيفًـا فطرة الله[٣]

ويرهب الذى حاد عن الطريق السوى ، مخوفا إياه من الحساب .

ابْكِ على الـذنب فى حياةٍ أقمْ عـلى نفسـكَ الإغـارَةْ
تنْجَ غـاً من وفـودِ نـارٍ وقـودُهـا النـاسُ والحجـارةْ[٤]

---

(١) أثر البينة ص ٦٣٣ « كامل متدارك » .

(٢) شرح عقود الجمان ص ١٦٦ « مجزؤ الرمل / مترادف » .

(٣) السابق ص ١٦٧ « مجزؤ الرمل - مترادف » وصورة البيت الأول كانت « أوّلْ دنياك .. » والصواب ما أثبتناه وزنا ومعنى .

(٤) السابق ص ١٦٦ « مخلع البسيط - مترادف » .

وأحيانا يضع الوصايا صنعا ، فها هو ذا يثبت لمن لم يتأهب للموت بالتقوى أن الموت حق .

كقولنا لمسلم وقد فسقْ   يا أيها المسكين إن الموتَ حقٌّ

ويشرح البيت قائلا « .. فهو لا ينكر حقيقة الموت ، ولكنه لم يتأهب للموت بالتقوى والاستعداد فكأنه ينكره ، وقد يجعل المنكر كالمقر ، إذا كان معه دلائل وشواهد لو تأملها ارتدع عن إنكاره فلا يؤكد له »[1] .

ويقول فى صناعة القضاة :

الكتابُ العزيزُ قاضٍ علينا   وبه الاقتداء فى خِلّةْ
من يُرِدْ أن يكونَ « قاضٍ » عليه   فليقل فى إمامه بسمّ الله[2]

وأحيانا تكون وصاياه مصدرها حس رقيق ، فيحذر الإنسان من إيزاء الآخرين ، إذاء ماديا أو معنويا ، فإن الإيذاء المعنوى - والإنسان روح وإحساس وشعور - أشد ضررًا من الإيذاء المادى .

إيّاكَ ما يؤلم قَلْبَ الورى   من الأذى الظاهر والكامن
من كان لا يتعب فى ظاهرٍ   فإنه يتعبُ فى الباطنِ[3]

ويحث المسلم - ترغيبا - إذا يمم وجهه لله خالصا ، ولم تشبه مطالب الدنيا ، أثابه الله بما لم تره عيناه ، واهبا إياه النصر والفوز المبين . يقول :

إذا قمت لله فى أمرهِ   ولم ترعِ خِلًّا ومُلْكًا مجيزا
أثبتَ عليه ثواباً جزيلاً   وينصركَ الله نصراً عزيزا[4]

ويعلم الناس بعض الأطر الإسلامية لسلوك المسلم .

إذا كان عند المرء منا أمانةٌ   وهمَّ بجهلٍ أن يخونَ صحبَهُ
فلا يتبع النفسَ الخبيثةَ وليعدْ   أمانتهُ ، وليتقِ الله ربَّهُ[5]

---

(١) السابق ص ١١ والبيت من الرجز .
(٢) السابق ص ١٣٠ « خفيف / متواتر » .
(٣) ديوانه « نور الحديقة » ورقة ٥٣ « سريع / متدارك » .
(٤) شرح عقود الجمان ص ١٦٦ « متقارب / متواتر » .
(٥) السابق ص ١٦٧ « طويل / متدارك » .

ويرغب الناس فى مَنِّ الله وكرمه ، فعفو الله مأمول ، فإن الله أرحم الراحمين وأقرب إليه من أمه .

لِمْ لا ترجو العفو من ربنا وكيف لا تطمع فى حلمهِ
وفى الصحيحين أتى أنّه بعبدهِ أرحمُ من أمهِ[١]

وما على الإنسان إلا أن ينتظر ما وعده الله من منّات ، فإنَّ وعده آتٍ لا ريب فيه .

وعد الله بالإجابة للسؤ ل فسَلْه وارْجَ خيرًا مليّا
وإذا أبطأ الجوابُ فأيقنْ أنّه كان وعدهُ مأتيّا[٢]

ونعم ما سيكون فيه من فاز برضاه المقدس ، وأصاب حظه من جنات الفردوس .

طوبى لأهل جنةٍ طيبةٍ لا يبتغوا نقلًا ولا تحويلا
دانيةٌ عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا[٣]

(هـ) « الوصف » :

قلنا فى مقام سابق أن السيوطى من فرط حبه لجزيرته « جزيرة الروضة » هام فى مصادرها حتى الحشرات رأى فيها رأيا حسنا ، كما ذهب إلى ذلك الدكتور الشكعة ، فقد جعل السيوطى البعوض حسناوات جرير ، وطنين البعوض ولسعاته سهام عيون .

ياليلةً غردَتْ فيها البعوضُ وقد طاروا إليَّ زرافاتٍ ووحدانا
يصر عن ذا اللبِّ حتى لا حراكَ به وهنَّ أضعف خلق الله أركانا[٤]

بل إنه يبارك براغيث الجزيرة ، ويصحف اسم البرغوث إلى كلمتين نبيلتين « بروغوث » ويجعل البراغيث تؤدى مهمتين جليلتين ، وهما « مص دم فاسد » ، « إيقاظ الملدوغ ليؤدى صلاة الفجر » .

لا تكره البرغوث ان اسمه برٌّ وغوثٌ لـه أن تبدرى

---

(١) صفحات من تاريخ مصر ص ٢٤٦ « سريع / متدارك » .
(٢) شرح عقود الجمان ص ١٦٧ « خفيف / متواتر » .
(٣) السابق نفس الصفحة « رجز / متواتر » .
(٤) مقامة الروضة بمقاماته المطبوعة « حجرا » ص ٦٧ « بسيط / متواتر » .

فبـره مصٌّ دمٍ فـاسـدٍ والغوثُ أيقاظُكَ فى الفجرِ[1]

وذكرنا أننا نرى فى هذين المثلين شيئا ثانيا ، وهو ان كان السيوطى يهيم وجدا وتفضيلا لجزيرته ، إلا أن المثلين يعكسان - فى نظرنا - خاصية من خصائص الشخصية . فالسيوطى اقتبس بيت جرير ، وهو يعلم ما فعلته العيون الحور بجرير ، إنما أن يستبدل السيوطى البعوض بالحسناوات ، ولسعاته بألحاظهن ، فشيىء يثير بعض التساؤل .

فهل لأن السيوطى أراد أن يلفت الناس إلى هذا الاقتباس المستغرب فى موضع استخدامه ؟ أو أن ذلك راجع لأن السيوطى ذاب فى أفراد هذه الطبيعة ، نتيجة اختلائه اثنين وعشرين عاما فارتفعت مكانة هذه البيئة ومصادرها حتى صارت البعوضة حسناء وطنينها تغريدا وغنجا ، ولسعاتها ألحاظ عين تجعل الرجل قتيل عشق وهوى . فضلا عما قد يكون فيه من تهكم .

أو أن فى السيوطى نفسية حادة ، ترى الشيىء مخالفا أو معكوسا لما يراه القوم نتيجة ميله أو نزوعه إلى المخالفة و « لعدم إحساسه يصدق الشيىء الذى يجذب الناس ، إن لم يكن منتفيا تماما عنه .

فالسيوطى فى المثل الثانى - وهو العالم الموسوعى - لابد أنه يعلم بمجانبة المنطق فى قوله هذا ، فالبرغوث لا يمص شيئا اسمه دم فاسد ، وليس هو جهاز تنبيه يوقظ بدقاته / لدغاته ، النائم قبيل الفجر ليؤدى الصلاة ، إنما هى بداوة فى الذهن للغة ، فمهارة لغوية فى تصحيف الكلمة إلى كلمتين تتخذان طابعا نبيلا ، ومن ناحية أخرى يكون قد دافع عن جزيرته ، فينسمنا بعبير إعجاب متناسين حقيقة هذا الشيء .

ولذا فإن السيوطى لم يدفعه حبه لجزيرته إلى أن يقول ما قال فحسب إنما المثلان يعكسان صفة من صفاته ، وهى مخالفة الرؤيا التى تصل إلى الشذوذ والتغريب الوصفى ، ومحاولة منه - كبعض أدباء عصره - لا ستخدام مهارته المتعددة على حساب أى شيء ولو جانب المنطق .

فها هو ذا يفضل فصل الشتاء على فصل الصيف ومنطقه فيه نتيجة تصحيف الكلمتين يقول :

---

(١) مقامات السيوطى المطبوعة ص ٦٧/٦٨ « سريع / متواتر » .

يامَنْ لديه الصَّيفُ ذو رفعةٍ على الشِّتا ، ما أنتَ لِي مِنْ صديقْ
أما ترى تصحيف هذا سنا والصيفُ إن صحفته فَهْو ضيقْ[١]

ويعضد رأيه السابق ، مستخدما المأثور النبوى ، وهو ما أورده فى رسالته « فصل الشتاء »[٢] .

إن الشتّا خيرُ زمانٍ يرى لكـل صبٍّ هـو ذو همـةْ
وهـو ربيع المؤمن المـرتضى عند رسول الله ذو الحكمةْ[٣]

وتصل الرؤى الوصفية عنده درجة الجمود المريب ، الذى لا يتفق مع من خالط هذه البيئة يقول فى وصف النيل والموج ومنظر النخيل :

النّيـلُ لمّا أن عـلا موجـهُ وحفَّ بـالنخل لـدى المنظر
كفـروة السمـور إذْ ركبّتْ فى مقعدٍ من سندسٍ أخضرٍ[٤]

ويقول فى موج النيل :

كـأنمـا المـوج لمـا يبـدو ويـرفـع وخـفض
كـثـبـان رمـلٍ أهـلّتْ عـلى سـطحِ أرضٍ[٥]

فأين وصفه السابق من قوله المنسوب إليه :

تأمّلْ لحنِ الصالحةِ إذْ بَدَتْ مناظرهُا مثل النّجومِ تلالا
والقلعة الغرّاءِ كالبَدرِ طالعاً يفرّح صدر المساءِ عنه هلالا
ووافى إليها الماءُ من بعد غيبةٍ كما زار مشغوفاً يريد وصالا
وعانقها من فرط شوقٍ لحسنها فمدَّ يميناً نحوهـا وشمـالا

ويصل الوصف لديه الرؤية المسطحة الهشة ، لا حياة فيها ولا شعور . وهناك بعض من وصفياته تلك .

---

(١) ديوانه « نور الحديقة » ورقة ٥٣ « سريع / مترادف » .
(٢) مخطوط بدار الكتب تحت رقم « ٢٣٢١ حديث » .
(٣) ديوانه ورقة ٥٣ « سريع / متدارك » . « والشتاء ربيع المؤمن » حديث شريف ، راجع رسالته فى فصل الشتاء ص ٢ .
(٤) ديوانه ورقة ٥٣ « سريع / متدارك » .
(٥) السابق نفس الورقة « مجتثِ / متواتر » .

قال يصف الخبازى :

خبازياتٍ نراها تحكى قباب زبرجدْ
كثيرة النفع طبّاً مقامها فيه أمجدْ
تفوق فى الطبِّ حقاً على لجينٍ وعسجدْ[1]

وقال يصف البامية :

وباميةٍ لها طعم لذيذ ومنظرها بديع فى الجمالِ
تحاكى وَهْىَ تزهرُ فى رياضٍ حقاق زمردٍ ملئت لالى[2]

ويقول وهو يحاكى تشبيهات شعراء عصره المكررة .

كأنّما دوحة الحناجِ إذْ فتحتْ أنوارها وبدت فى عين مرتقب
عروس حسنٍ تجلّت فى غلائلها خضرا وقد حليت باللؤلؤ الرّطبِ[3]

وقال وهو قافل من الحج :

لقينا شدةً لّما حررنا بمنصرفٍ أمرّ من العليلِ
فوا حرباً لِمَا لقيت منه ووا عجباً بمنصرفٍ ثقيلِ[4]

وما يزال يتردى فى الوصف الجامد ، المتحجر حتى فى القضايا التى هزته هزا ، وأنشأ فيها نثرا ، لكنه يتخلف فى الشعر - فى هذا الصدد - جد تخلف ، يقول فى مقامته الطاعونية :

يا عام سبعٍ قد أكلت الورى ورحت بالأولادِ ثم التلادْ
قد افترستَ الناس فى هدةٍ أنت إذن والله سبع شدادْ[5]

وقال وقد وافق وفاء النيل يوم عيد الفطر فأصبح العيد عيدين :

يومُ عيدِ الفطرِ وافى بهناءٍ وسعادةْ
ختم الصوم ووافى الـ ـنيل فى أحسن عادةْ

---

(١) مقامات السيوطى المخطوطة تحت رقم ٤٠٥ أدب ص ٤٢ « مجتث / متواتر » .
(٢) المقامات المطبوعة ص ٤٢ « وافر / متواتر » .
(٣) السابق ص ٣٤ « طويل / متدارك » .
(٤) ديوانه رقة ٥٤ « وافر / متواتر » .
(٥) المقامات المطبوعة ص ٧٠ « سريع / متوادف » .

يــا لــه من يــوم عيــدٍ فــيــه حــســنى وزيــادة[١]

(ط) « الغزل ، والغزل الحمى » :

لا نكاد نظفر عند السيوطى بغزل يومى إلى تدفق وجدانياته ، وأنصباب أحاسيسه طلقة تسير أنّى شاء لها السير ، إذ جاءت غزلياته ومعظمها من « البيتين » متكلفة ، عرضية ، مصنوعة يغلب عليها طابع المهارة اللغوية والتلاعب بدلالات الألفاظ .

وهذا الجمود ، والتكلف المصنوع فى غزلياته ، لم يصدر قط - فيما نرى - من توجسه خيفة الحيد عن طريق المؤمن السوى ، لكيلا يتعارض وما انفطر عليه قولا وسلوكا إسلاميين مع الغزل والوجدانيات ، وقد يتباين الواجب بكل مطالبه والوجدان بكل رغباته ، بل بالعكس بما سنعرف من خلال موضوع الغزل الحسى أو الجنسى شعرا أو نثرا ، كان إذا أراد شيئا لم يتوان ، وما من شىء دار بخلده سواء سينال القبول أم يصاب بالمهاجمة إلا وأفرزه ، وأفرغه على التو إفراغا .

وإننا نرى أن هذا التكلف والجمود فى غزليات السيوطى إنما صدر من قلب رجل أبت عليه أطوار حياته الخاصة - فيما يبدو - والعامة أن يهيم فى الجمال كما ينبغى ، وأن يرتشف الحسن من نبعه وأن يتلظى شوقا إلى حبيبه وهو أقرب إليه من قيد الحديث المهموس بينهما .

يقول الإمام الشاعر :

وكــلما ملت نــحــو حِــبٍّ لابــد لى فيــه من رقـيـبِ
فليس ينــأى فــوا عنــائى وليس ينفــك قــد رقيــبِ[٢]

ويقول : رنــا فــســلٌ مــرهــفًــا وســل قــلبــى أورثــا
لا أنــســه إنْ جــادلى بــالأنس يــومــاً أورثــا[٣]

ويقول : ورب هــيــفــاء قــالــت وهــى ارتــيــاحــى وروحــى[٤]

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى مخطوط بدار الكتب « ٢٢٤٩ ح » ص ١٣٦ « مجزؤ الرمل / متواتر » .

(٢) شرح عقود الجمان ص ١٤٤ « سريع / متوتر » .

(٣) ديوانه « نور الحديقة » ورقة ٥٣ « مجزؤ الرجز متدارك » .

(٤) السابق نفس الورقة « مجتث / متواتر » .

قــل مــا فــنــداى وإلا ... اروح نــاديــت روحــى

ويقول : لله أيــام التقــا فى النقــا ... إذ نسمّت ريح الصباح فى الصباحْ

قلت بــدا زهر التــدانى بــه ... سلمت فيه من عذول ولاحْ[1]

ويقول : قــلت لمّــا أرقت عــيــنى ... وطــال الــليــل نــامــى

كى تــرى فى الحلم بــدراً ... حبّــه فى القــلب نــامــى[2]

ويقول : وقــائــل إذْ قــطعت بــدراً ... ببقعــة صعبــة المــوالــحْ

بمــا تــســمــى هــذا ومــاذا ... أصنع فيهــا فقلتُ عــالــجْ[3]

ويقول : وبدر شكا عينيه والضعفُ فيهما ... فأفديه من بدر تحامل عن حى

أحــاشيــه من تعلقــه بتمــائم ... وارقيه بالذكر من العيسن والنفس[4]

فأنت تلاحظ أن عاطفته كرائحة زهر ذبل ، لا جديد فيها يذكره أنما هو أقرب إلى الأمثال التعليمية للمحسنات البديعية .

أما الغزل الحسى فى شعره ، وإن عزَّ علينا أن نولج هذا الحديث فى موضوعات شعره صعوبة وتعجبا واندهاشا ، وليس مصدر الصعوبة هنا الحديث إلا فجاجة التعبيرات الجنسية ، ومباشرتها وذكر تفاصيل الأعضاء الجنسية باسمائها ، ومصدر التعجب ، علاقة السيوطى بالشعر الماجن ، وهذا الكم والوفير الذى ساقه فى مقامته « رشف الزلال » سواء على لسان بطله أم من خلال حشده حشدا لأشعار ما جنة قالها سابقوه ، ومصدر الاستغراب الذى يثير فى قارىء أبياته الماجنة ، القلق ، والتساؤل هو أن السيوطى أسقط مكوناته التى عرفنا ، فالسيوطى الفقيه يقول :

تفقهت فى وصل « لـ .... » هويته ... ولى فيه بالتحرير قولٌ مذهّبُ

و .. تنبيهٌ بــه طــال شــرحــهُ ... وللقلب منه صدق ودٌّ مهذّبُ[5]

والسيوطى الحافظ ينشد :

وهيفا من وصائف قصر كِسرى ... « بـ ... » مثل رأسِ الإسطوانة

أحــرُّ المــدخــلاتِ ممرٌّ « .... » ... سلكنــاه وأحــسنهــن عــانــةُ

---

(١) السابق نفس الورقة « سريع / مترادف » .

(٢) السابق نفس الورقة ٥٣ « مجزؤ الرمل / متواتر » .

(٣) شرح عقود الجمان ص ١٤٨ « مخلع البسيط / متواتر » .

(٤) السابق ص ١٥٧ « طويل / متواتر » .

(٥) رشف الزلال من السحر الحلال ص ١١ « طويل / متدارك » .

صفاها واتركاني من حديثٍ رواه لنا فلانٌ عن فلانةْ[١]

هذا وقد أقام منظومة وضع فيها آداب الوصال يقول مطلعها :

يا سائلي عن الكلامِ المنتظمْ في وصف وصلٍ بتّ فيه مغتنمْ
اسمع لآدابِ الوصالِ منصتا واحفظ جميع الأدوات يا فتى
رأيت خودا وجهها إذا بدا وشعرها إذا التوى تجعدا
تقول ما أنقى بياض العاجِ وما أشدّ ظلمة الدياجي[٢]

ونكتفي بهذا المطلع من المنظومة .

(ى) « الألغاز والأحاجي » :

إن من أخفى الإشارات وأبعدها اللغز ، وهو أن يكون للكلام ظاهر عجب لايمكن وباطن ممكن غير عجب[٣] ويشترك في تكوين اللغز ألوان من البديع والبيان بين تشبيه ومجاز وكناية إلى تورية وابهام وغيرها مع اعتماد على الاشتراك والتضاد واستخدام للتصحيف والعكس والتحريف وغيرها .

واللغز فضلا عن كونه اثارة للعقول ، وتنشيطا للأفهام ، طريق للطرف الأدبية والدعابات الإخوانية وجولة تقصر أو تطول بين مفردات اللغة[٤] ، والألغاز والأحاجي موجودة فى شعر صاحبنا ، تدور معظمها فى موضوعات دينية وعلمية – على غير دأب عصره والعصور السابقة له – حول أشياء يستخدمها الإنسان أو يراها ، وكانت ألغاز السيوطى تنبعث منه رغبة فى تعجيز بعض خلانه ومعاصريه تبيانا لقيمته العلمية ، وأحيانا بنفس حاد غضوب ، وتارة تداعبا أخوانيا لتوطيد الصلات والأواصر العلمية ولترويح النفس من عناء العلم والمعرفة بطرف الألغاز والأحجيات .

ونكتفى بالأشارة إلى مطالع بعض ألغازه .

– قل للفقيه وللمفيدْ ولكل ذى باعٍ مديدْ[٥]

(١) السابق ص ٨ « وافر / متواتر » .
(٢) راجع السابق ص ٢٤/٢٥ .
(٣) راجع العمدة لابن رشيق القيروانى جـ ٢ ص ٣٠٧ .
(٤) الأدب فى العصر المملوكى د . كامل الفقى ص ١٦٢ .
(٥) تنوير الحوالك جـ ١ ص ٥٢ « مجزوء الكامل / مترادف » .

- قــل لـلفقيــه إذا لـقيـت محــاجـيًــا ومــغــربــا[١]
- يــا رواه الفقة هـل مـرَّبكم خـبرٌ صـحَّ غــريبُ المقصـد[٢]
- قل للمحدث ابقى الله مهجته ولم يزَلْ حله للمشكلات بدا[٣]

وهناك لغز أرسله له المنصورى فى القلم فردَّ عليه مرتجلا[٤] .

وأحيانا يكون اللغز سؤالا فينظمه ويجيب عليه نظما كذلك وبالحاوى شيء من هذا[٦] .

وأحيانا يقول هو اللغز شعرا ويجيب عليه هو كذلك ، ويبدو أن اللغز تأثر – كذلك – بأحداث عصره فى توليه سلاطين الدولة المملوكية وخلفائها وعزلهم ، يقول السيوطى فى أحد ألغازه :

وأتقنت أبواب الأحاجى بأسرها ابنْ لِىَ عن حرفٍ يُولّى ويعْزَلُ[٩]

وألغازه الشعرية فيها شيء من الكثرة – كعادة متأدبى عصره – لن تفيدنا كثيرا فى دراسة شعره .

---

(١) قلايد الفوايد ص ١ « مجزوّ الكامل / متدارك » .
(٢) السابق ص ٢ « رمل / متدارك » .
(٣) السابق ص ٢ « بسيط / متراكب » .
(٤) شرح عقود الجمان ص ١٣٧ وما بعدها .
(٥) جـ ٢ ص ١٩٠ وما بعدها وص ٣٤٥ وما بعدها .
(٦) راجع « الأشباه والنظائر فى النحو جـ ٣ ص ٢٧ « طويل / متدارك » .

الفصل الثانى

« شعر السيوطى » دراسات تحليلية

يتكون هذا الفصل من عدة نقاط هى على النحو الآتى :

أولا : شعر السيوطى فى ضوء مفهوم الوحدة العضوية للقصيدة

ونقصد بالوحدة العضوية فى القصيدة ، وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع ، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهى إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، هلى أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفة فيها ، ويؤدى بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل فى التفكير والمشاعر »[1] .

وكان نقاد العرب قد فهموا أن معنى الوحدة العضوية إجادة وصل أجزاء القصيدة بعضها ببعض وإن لم يكن بين الأجزاء منها صلة ، ولذا فقد اهتموا بأمر الابتداءات ثم التخلص « الخروج » والاستطراد وبداعة الختام أو المقطع »[2] .

وقد أشار أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة إلى أن بحث العرب فى حسن التخلص كان مصدره أنهم كانوا يشعرون بتفكك القصيدة العربية إذا لم يحسن الشاعر التخلص من غرض لآخر فيها[3] .

---

(١) النقد الأدبى الحديث د . غنيمى هلال . دار نهضة مصر ١٩٧٩ م ص ٣٧٣ ، وراجع النظرية النقدية عند العرب د . هند حسين طه ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) النقد الأدبى د . غنيمى هلال ص ٢٠٤ وما بعدها ، وراجع وحدة القصيدة بمفهوم النقد المملوكى فى « النقد الأدبى فى العصر المملوكى » « رسالة دكتوراه » .

(٣) راجع مقالات فى النقد الأدبى د . محمد مصطفى هدارة ط دار القلم ١٩٦٥ م ص ١٧٧ . بيد أننى أرى أن ظاهرة التخلص بمفهوم النقاد القدماء المحدثين ، لا تبرىء القصيدة العربية من التفكك ، وتهمة وحدة البيت قيا « دَعْ ذا - عُدْ إلى .... » إلا إشارة مباغتة لمحو غرض انتهى ، والتهيؤ لاستماع غرض تالٍ ، ولا يمكن لنا إذن أن نتفهم القصيدة العربية كوحدة بنائية ، مترابطة الأجزاء ، وعيون القصائد العربية التى مازالت تبدو متعددة الأغراض والموضوعات التى لا صلة بين الغرض والغرض لم يذكر الشاعر حسن تخلصه ، فأين حسن التخلص فى لامية كعب ، وعينيتى أبى ذؤيب واليشكرى ، وسينية البحترى وبائية ابن =

وقد عرفنا السيوطى كان ذا نفس طويل فى النظم ، سيالا ، مرتجلا ، يترجم العلوم نظما فى دقة متناهية ، وحسن عرض وتناسق تفوح فيها شاعريته ، فإنه يعدُّ بما تركه من موروث منظوم - كما وكيفا - من « ألمع النظامين فى ذلك القرن كما قال أحد باحثيه »[1] .

أما فى الشعر فلم يكن السيوطى يصاحب النفس الطويل ، بل أن أكثر شعره كتبه على طريقه البيتين (وليس الدوبيت أو المثنوى) ، ولذلك فأننا لا نظفر من شعر السيوطى على هذا المفهوم للوحدة العضوية إلا ببعض القصائد منها قصيدته التى رثى بها شيخه الشمنى .

- رزءٌ عظيمٌ به تستنـزل العبرُ وحادثٌ جلَّ فيـه الخطبُ والغـيرُ

وتبلغ هذه القصيدة خمسين بيتا ، تدور كلها فى موضوع واحد وهو رثاء الشيخ الشمنى يرتكز هذا الموضوع أو الغرض الواحد على أربع فقرات متصلة .

١ - من (١ - ٦) حديث عام عن وفاة الشيخ .
٢ - من (٧ - ٢٩) حديث العلوم فى رثاء الشيخ .
٣ - من (٣٠ - ٤١) حديث السيوطى إلى الشيخ .
٤ - من (٤٢ - ٥٠) حال الناس والسيوطى بعد فقد الشيخ .

تقول الفقرة الأولى إنَّ وفاة الشمنى لمصيبة كبرى ، تنزل الدموع ، وحادث كبر خطبه فأصاب المسلمين فى مشاعرهم المنفطرة عليه حزنا وانكسارا ، فما فقدُ أمامٍ

= خفاجة و ... الخ . وأعتقد أن ظاهرة التخلص التى لجأ إليها بعض الشعراء فى قريضهم كانت ضربا فجا اضطروا إليه للتنبيه على أهمية هذا الجزء من القصيدة ، لا للربط بين الأجزاء واعتقد أيضا أنه لو لم تكن ظاهرة التخلص موجودة فى بعض القصائد ، التى ارتاح لها النقاد - قديما وحديثا - لأن يدافعوا أو يرتضوا على الأقل مفهوم وحدة القصيدة فى الشعر العربى . لكان للنقد شأن آخر يقوم على الكليات ، لا الجزئيات ولوجد النقاد أنفسهم يتدارسون - مثلا - ما صلة المقدمة الغزلية بوصف الناقة فى لامية كعب وقد احتلتا أكثر من ثلثى القصيدة ، بهذه الأبيات التى أعلن كعب دخوله الإسلام ، مادحا الرسول وكان غرضه الأوحد ، والملح عليه إملاء - رغبة فى النجاه هو الوقوف بين يدى رسول الله تائبا ، معلنا أسلامه .

وقد لا أجدنى مبالغا أو بما أرى أن يعاد النظر إلى قصيدتنا العربية خاصة العيون فى أن نتدارس تلاقى جزئياتها وأغراضها ، دون أن نعلق دفاعنا بغض النظر عن المهاجمين عن وحدة القصيدة العربية على مشجب « حسن التخلص » الذى يسىء إلى القصيدة ، لا أن يهبها جودة النظم والإبداع الذى قد نحسه دون أن نتعرف عليه « الباحث » .

(١) النحو المنظوم بين ابن معط وابن مالك والسيوطى « لعبد اللطيف الليثى ص ١٦ » .

الشيوخ إلا انهدام ركن فى صرح الدولة الإسلامية لا يعوض ، وما موته إلا مصائب لحقت فعمت وطمت المسلمين ، فترى المسلم يبكيه فى كل مكان ، وقد فرح بموته الفاجر والمدعى علما ، الذى لا يعرف عن الشيخ والعلم شيئا ، لا يعرف ذلك الشيخ المجتهد الذى قام إلى العلم غير وانٍ أو مقصرٍ فى حقوقه .

ويواصل السيوطى فى الفقرة الثانية حديثه موضحا قيمة الشيخ على لسان علوم العربية التى تنادى فى البشر قائلة لهم : إن حقيقة الشيخ لا يعرفها أحد مثلما أعرفها أنا ، وصاحب البيت أدرى بما حوى البيت ، فالشيخ صاحب باع طويل ، ويد عليا وقدم راسخة ، والنقل والعقل يشهدان بأنه خير ممن سلف ، وممن يخلف ، فهو الذى وضع علم أصول الدين ، وحل معضلاته ، وله آيات ملموسة فى أيات القرآن تفسيرا وعلوما ، ولم لا وهو المحقق المجتهد الذى امتلك آلات العربية ، فما يجدى الثناء . ونحن نرى آثاره الحديثية تعبق الأرجاء . وقد ازدان به الفقه الإسلامى بما جاد به من بحوث قيمة ، فلينعم أبو حنيفة النعمان حين يُذكر الشمنى من مريديه ، أوليس هو الذى سحب بُسط الأصول من فخر الدين الرازى ، وما فى القوم من يزعم التباهى بنفسه ، والشيخ صاحب النظم الرقيق ، والمنهج الدقيق الواضع فى العلم والقول والفعل ، وهو المحتذى السلف الصالح ، عرضا فهو التقى العرض دينا فهو التقى الورع الذى لا تشينه الخبائث أو الدنس ، الزاهد فى المناصب . والجاه ومع ذلك فإن أخلاقه سادت - بذلك - أكابر القوم والعصر ، وهو الحاتمى كرما ، الفصيح الذى جمع كل المحاسن التى تمد الناس علما ، وسلوكا ، وفوائد يصعب حصرها ، إنه المنهل العذب - كما تقول العلوم - لكل من أراد ارتواء .

وهنا يطل السيوطى موجها حديثه إلى الشيخ قائلا: «إن حياتك ياشيخ الشيوخ ثابتة فى الدنيا والآخرة ، فما مثلك بأموات ، لأنك أنفقت عمرك تنشر الهدى ، وترشد الضال ولك العلم والمعرفة التى غرستها فينا ، وطاب جنيها ، فقد حللت المشكلات والمعضلات ، وكنت عفيفا ، تقيا ، وحزت المعالى علما وفكر وعملا ، فأبشر بجنة دانية قطوفها ، كما شهد بذلك الله ورسولهِ ، يزكى هذا ثناء الناس عليك جميعا متمنين أن يتواصل تقواك فى نسلك .

ومن ثم يشعر السيوطى بمدى الفقد فى شيخه ، فيتمنى أن تسرع منيته ، فقد صار فى هذا الدهر العصيب ، الذى أفتقد فيه الهادى الخير ، وحيدا ، فالأخيار يذهبون حبرا بعد

حبر ، ويبقى الأشرار ، والأخيار هم نور الله الذى يشع فى الدنيا فإن ذهبوا فعما قليل ينحسر النور والعلم والخير والجمال ، ويخيم الظلام والجهل والقبح على البسيطة .

وترى الوحدة العضوية كذلك فى قصيدته التى يرثى بها شيخه سيف الدين الحنفى .

- مات سَيْفُ الدينِ منفردا وغدا فى اللحدِ منعمدا

فموضوعها واحد ، وهو رثاء ذلك الشيخ ، يعدد مناقبه ، وصفاته ، وقدراته العلمية ، ثم ذكر منزلة شيوخه السابقين ، ويختم القصيدة بالدعاء للشيخ فى الآخرة ، والدعاء *لنفسه بأن يبعث ضمن زمرته بين الصديقين والشهداء وكذلك فى قصيدته التى قالها فى الوباء « الطاعون » الذى أصاب الناس .*

- يارب بالهادى النبىّ المجتبى أغدْ عن الإسلامِ أسيافَ الوبَا

وقد أثبتناها فيما سبق ، وهى تحتل فقرة واحدة يتحدث فيها عن هذا الحدث من منظورة ، فيبدأ القصيدة بالدعاء راجيا الله - جلَّ وعلا - أن يرفع عن المسلمين هذا الوباء الذى فشا بينهم فمن للناس غير الله يرجونه وهم يشكون إليه ألم هذا الوباء الذى أخافهم وأرعبهم وبدد الديار التى لم يجد أهلوها مهربا منه ، وها هم الناس اعترفوا بالذنوب مستحقين هذا الجزاء بما كانوا يعبثون ، لكن الله وهو أرحم على الإنسان من أمه سوف يشفع لهم فيشفى الناس ويرفع هذا الوباء . لكن الدكتور محمود رزق سليم وصف القصيدة بأنها مفككة ركيكة النسج[1] .

وقد أشار الباحث عبد اللاه محمود حسن إلى الصورة الكلية التى شملت القصيدة كلها فى شعر السيوطى من خلال ذكره لهذه القصيدة[2] .

والحقيقة التى لم يفطن إليها الدكتور محمود رزق سليم « ماعلاقة أعترفنا بالذنوب » بانتشار الوباء ، مما يضفى على القصيدة جواً « ظاهريا » يحمل التفكك ، يجرنا إلى إنصاف السيوطى من هذه التهمة من خلال الرجوع إلى خاصية قد عرفت لدى السيوطى وهى خاصية التنبوء .

فهناك الكثير من الروايات والأخبار التى ذكرها بعض تلاميذه والمؤرخون القدامى التى تذكر خوارق السيوطى ومقاماته ، يتنبأ فيها ببعض الحوادث التى سوف تلم

(١) أثر البيئة المصرية على الشعر فى العصر المملوكى ص ٦٣٣ .
(٢) الإمام جلال الدين السيوطى أديبا ص ٢٤١ .

بالمجتمع المصرى أو العربى ، بالوقت وبالكيفية ، وقد هام فيه الكثيرون لصدق هذه التنبوءات مثل ما ذكره الشيخ إمام الدين الإمام بجامع الغمرى بما سمعه عن السيوطى من حوادث ستلم بمصر كدخول سليم ابن عثمان عام ٩١٣ هـ والحوادث التى ستحدث عام ٩٣٦ هـ ، ٩٥٧ هـ ، ٩٦٧ هـ ، مما أورده الشعرانى فى ذيل طبقاته[١] .

عموما لا تهمنا هذه الأخبار ، وتنبوء السيوطى لها بهذه الكيفية ، إنما نشير إلى أن السيوطى وهو مؤرخ ، يعلم ما فائدة التاريخ وقد ذكر فى مقدمته على نظم العقيان ، فيلتقط السيوطى من معطيات التاريخ تقييماً حاذًا على مجريات عصره .

فقول السيوطى « اعترفنا بالذنوب » لا يمكن أن نجد له صلة بانتشار الوباء ، إلا إذا تفهمنا - بشكل عام - لتحليل أو رواية السيوطى للأحداث - أيا كانت - التى تلم بالمجتمع من منظوره الدينى الخاص .

فالسيوطى مثلا - قد ذكر فى حسن المحاضرة معظم الحوادث والمصائب التى ألمت بالمسلمين ، وما جرى عليهم قبيل الغزو التترى ، زاعما أنه كان لانقراض الخلافة ببغداد وما حدث للمسلمين فى تلك البلاد مقدمات نبه عليها العلماء ، وكان فألًا على زوال دولة بنى العباس ، ومنذرا لما سمع بعد هذا من كائنة التتار[٢] ، فيرى السيوطى أن ما يحدث فى أيامه للمسلمين - من مصائب طبيعية - هو ثمرة طبيعية لما يقترفون من أفعال فسق ، فيعلق على كل الحوادث التى ألمت بالمسلمين بقوله : « أجرى الله عادته أن العامة إذا زاد فسادها ، وانتهكوا حرمات الله ، ولم تقم عليهم الحدود : أرسل الله عليهم آيةً فى أثر آية ، فإن لم ينجح ذلك فيهم آتاهم بعذاب من عنده ، وسلط مالا يستطعون له دفاعا ، وقد وقعت فى هذه السنين ما يشبه الآيات الواقعة فى مقدمات التتار ، وأنا خائف من عقبى ذلك ، فاللهم سلّم ، سلّم . ثم ذكر بعض هذه الحوادث ثم قال ....

فهذه جملة أتت نُذراً   مستوجبات للخوق والقلق
فليحذر الناسُ أن يحلَّ بهم   ما حلَّ بالأولين من حنقٍ[٣]

أرأيت إذن كيف يفسر إمامنا السبب الذى يمهد لفناء خلافة بنى العباس ، وسبب غزو

---

(١) راجع ذيل الطبقات الكبرى ص ٢٢ و٢٣ .
(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٥ وما بعدها .
(٣) السابق جـ ١ ص ٥١ وما بعدها .

التتار ، والسبب الذى يحل به غضب الله على المسلمين ، فهو يستحضر التاريخ ويقيم بعض حوادثه من منظوره لدينى ، ليقذف فى نفوس المسلمين حكوماتٍ وشعبًا الحذر من غضب الله بما يفعله عابثو هذه الآمة ، مُسْتَشفًا رؤيته المستقبلية للأمة من تقنين الحاضر ، وما هى إلا اثنتا عشر سنة - بعد هذا الوباء ، حتى دُكّتْ دولة المماليك وصدقت رؤية السيوطى .

وهناك قصيدته أيضا التى تبدو فيها الوحدة العضوية ، التى قالها على لسان بطل مقامته المكية « ياراغبا من أربى » ، وهى تعد ردا على سؤال وجه إليه « من أنت وما خطبك ؟ » فهى ذات موضوع واحد قصصى فى عرض واضح وأسلوب بسيط . وخلاصة الأمر فى الوحدة العضوية فى شعر السيوطى أنها لا توجد إلا فى بعض القصائد لأن أغلب شعره من نظام « البيتين » والذى يصل إلى القطعة - غير ما ذكرنا - يكون أقرب إلى الحديث التعليمى لشئونه الخاصة .

والوحدة العضوية فى هذه القصائد التى استشهدنا بها « تتسم بوحدة الموضوع لا تتعدد فيها الأغراض ولا تحتاج إلى مقدمة أو إلى تخلص ، وهذا الموضوع الواحد يتناوله تناولا مباشرا ، يتكون من جزئيات تترتب ترتيبا منطقيا ، لا تكرار فيه أو تصدع فى بنيته وإن كان شعره يفتقر إلى التكثيف . وكان لموسوعيته أثرها على ذلك ، لا نقصد التعدد ، وإنما الإطناب فى الجزئية ومن ناحية أخرى تشعر - إلى حد ما - بوحدة الموقف النفسى وتطوره فى قصائده تلك .

ثانيا : شعر السيوطى فى ضوء علمى العروض والقافية

كان القدماء من علماء العربية لا يرون فى الشعر أمرا جديدا يميزه من النثر إلا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافى[1] وعلى هذا النحو عرفوه بأنه الكلام الموزون والمقفى . وشعر السيوطى الذى جمعناه يمكننا أن ندرس نظام موسيقاه من خلال .

- الأوزان الشعرية .
- سمات القوافى .
- الجرس الموسيقى .
- عيوب فى بحوره الشعرية .

---

(١) موسيقى الشعر د . إبراهيم أنيس ط الأنجلو ١٩٨١ م ص ١٨ .

- عيوب فى قوافيه .
- الضرائر الشعرية فى شعره .

١ - الأوزان الشعرية عند السيوطى :

كنا قد رأينا السيوطى الناظم قد سيطر بحر الرجز فالبسيط فالطويل والكامل ثم الوافر على معظم نظمه ، وذلك لحاجة تلك الموضوعات المتسقة والأغراض العريضة إلى هذه البحور التى تلائم متطلباتها .

ونرى السيوطى هنا . وقد أثبتنا أسماء البحور وأنواع القوافى فيما سبق للشعر الذى استطعنا جمعه قد سيطر عليه بحر السريع . ثم تلاه الخفيف ثم الكامل ثم الرمل ثم البسيط خاصة مخلعه . ثم الرجز فالطويل فالوافر ، فالمجتث فالمتقارب فالمنسرح ، ولما يجر شعره على الهزج والمتدارك والمضارع .

وميل السيوطى إلى السريع وهو من أقدم البحور ، وأن رغب عنه الشعراء كثيرا لما فيه من صدى اضطراب موسيقى لا ترتاح له الأذن فى يسر ، ويبدو أن طبيعة السيوطى فى هذا النحت الموسيقى تجد بعض انعكاس لها ، وأن خفف السيوطى استعماله للبحر منوعا ضربه ، فضلا عن أن شعره فيه - أقرب إلى النتف منه إلى القطعة ، وإن كان أكثر شعره كذلك .

هذا وقد كان السيوطى ميالا إلى الأضرب غير التامة ، ومن ناحية أخرى كان يميل إلى مجزوءات البحور ، فاستخدامه لبحر الرمل - مثلا - جاء فى أغلب أحواله من المجزوّ ، بضرب محذوف أو مذال أو صحيح .

وهذا لا يعنى أن السيوطى كان يصبو إلى الغنائية « الشكلية » بل لأن طبيعة الموسيقا الشعرية كانت متسقة الأطراف معتدلة التنغيم ، تتدخل الصنعة فيها لترجمة التعابير ترجمة نظمية .

وتلاحظ أن السيوطى كان لا يميل إلى التدوير[1] كثيرا ، فأنفاسه الشعورية مقسمة متحكم فيها ، بيزيدها بهاء فى استخدامه التفقيه ، وكثيرا من الأنواع التى تعرف بالبديع اللفظى[2] .

---

(١) التدوير هو اشتراك شطرى البيت فى كلمة .

(٢) راجع هذه الأنواع فى « موسيقى الشعر » ص ٤٤ وما بعدها .

٢ - القوافى :

والقافية ركن مهم من أركان القصيدة العربية لأنها شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، وقد اهتم بها الأقدمون كثيرا ، وقد جعل بعضهم البيت كله قافية ومنهم من توسع فى ذلك فجعل القافية القصيدة كلها[1] .

ويمكننا أن نجمل أهم الصفات للقافية فى شعره على النحو الآتى :

(أ) من ناحية حروف القافية :

استخدم السيوطى تقريبا الحروف الشائعة الاستخدام فى قوافى الشعر العربى وقد أكثر فى استخدام « الراء - النون - الميم - الدال » وقد استخدم بعض الحروف النادرة الاستخدام كالخاء « وإن لم يستخدم الظاء ، الغين ، الذال » .

(ب) من ناحية نوع القافية :

كان السيوطى ميالا إلى استخدام القافية المطلقة ، ويبدو أنه أراد لنفسه الشعور بالانسابية ، وعدم القطع ، والقافية المطلقة أوضع فى السمع ، وأشد أسرا للأذن[2] هذا والشعر العربى تقل فيه - أصلًا - القافية المقيدة .

(جـ) حركات القافية :

والسيوطى أشد توقًا إلى استخدام القافية المتراكبة فالمتداركة فالمتواترة . وينعكس هذا على اختياره نوعية أضرب البحور التى تتوافر فيها حركات هذه القوافى ، أما المترادفة فكان مقلا فى استخدامها ، تجبره أحيانا الاقتباسات .

(د) الالتزام بالروى :

رأينا السيوطى فى أغلب الأحوال يلتزم بالقافية الواحدة ، وقد الزم نفسه أحيانا ما لا يلزم[3] وإن كان يصبو إلى تنويع القافية بشىء مما عرف من تنوع القوافى[4] .

---

(١) النظرية النقدية عند العرب ص ٨٣ ، وراجع نعت القافية فى نقد الشعر لقدامة بن جعفر . تحقيق د . عبد المنعم خفاجى ط أولى ١٩٨٠ م « الكليات الأزهرية ص ٨٦ » .

(٢) موسيقى الشعر ص ٢٨١ .

(٣) راجع قصيدته « ليت شعرى أى فن أحكموه » .

(٤) راجع قصيدته « مقامتى القاهرية » بمقامته طراز العمامة ص ٢٤/٢٥ .

(هـ) يميل السيوطى فى ثنائياته أحيانا إلى إعادة كلمة الروى باستخدام المجانسة التامة ، وليس ايطاء[1] .

مثل .... × طال الليلى نامى .. .. × وهى ارتياحى وروحى .
.... × حبه فى القلب نامى .. .. × أروح ناديت روحى .
.... × ملك التاريخ جودا وسخاء .. .... × وسل قلبى أورثا .
.... × كثر الله السخاوى وسخا.. .... × بالأنس يوما أورثا .

٣ - عيوب عروضية وقع فيها الشاعر :

(أ) عيوب عروضية فاحشة :

مثل هطا البيت وهو من قصيدة من بحر البسيط .

- وقائلٍ كلّما عادتْ إلىَّ سعادُ ×× بانتْ . ودعها بنار الهجر تكوينى . فوقعت عروض البيت مزادة سبباً خفيفًا ، إذا لم يكن الاسم مرخمًا .

ومثل هذا البيت وهو من قصيدة من بحر المديد .

- يبكيه دين النبى إذا ما أتاه ملحد كمدا

فالشطر الأول مستفعلن فاعلن فعلن ، والمديد يبدأ بـ «فاعلاتن » .

ومثل هذا البيت وهو من بحر الطويل .

- إذا كان عند المرء منا أمانةٌ وهمٌ بجهلٍ أن يَخُوْن صحبَهُ

فقد حذف أول الوتد المجوع من التفعيلة الأخيرة فى الشطرالثانى ، وأعتقد أنها يُخوِّن .

ومثل هذا البيت وهو من السريع .

- أبدت لهم دنياهم غرورًا حتى إذا فَرِحَوا بما أوتوا

فقد اقتبس السيوطى الشطر الثانى من الآية رقم ٢٤ سورة الأنعام وكان الأحرى به أن يأتى بهذا الاقتباس فى بحر الكامل الأحز المضمر .

ومثل هذا البيت وهو من مخلع البسيط .

(- وقائلٍ إذْ قطعت بدرًا ببقعة صعبةِ الموالجْ .)

---

(١) الإيطاء هو تكرار كلمة الروى بنفس العنى ، وهو من عيوب القوافى ، راجع : أهدى سبيل إلى علمى الخليل . محمود مصطفى ط محمد على صبيح ١٩٧٠ م ص ٢٣٢ .

× – بما تسمى هذا وماذا تصنع فيها فقلت عالجْ .

فالشطر الأول جاء « مستفعلن فعلاتن فعولن بزيادة سبب خفيف لفاعلن المشعسة .

(ب) عيوب عروضية :

مثل هذا البيت وهو من بحر الرمل ، وقد جاء عروضه تاما ، والعرف العروضى المستخدم يرغب فى أن يكون محذوفا .

– إن تصلوا أو تصوموا أوتحجوا لن تنالو البرَّ حتى تنفقوا .

ومثل هذا البيت وهو من بحر المنسرح . جاء الشطر الثانى مخالفًا العرف المستخدم . وإن كان قد حافظ على ما نصت عليه الدائرة .

فعرف استخدام المنسرح « مستفعلن مفعلان مفتعلن » استخدام السيوطى « مفعولات » كاملة دونما زحاف فى الشطرالثانى .

– فهذه جملة أتت نُذرًا مستوجباتٍ للخوفِ والقلقِ

(جـ) عيوب وأخطاء ، نعتقد أن سببها النساخ أو المحققون :

مثل هذا البيت الذى وجد بالحاوى وهو من قصيدة (منظومة) من بحر الكامل .

– فى موت مشهور الحياة أى الخضر وحياته يا فائزا بثناء

وقد نبهنا على بعض الأمثلة فيما سبق ومنها :

– ومن حاز سؤدداً وارتفاعًا ومكانًا على السماك وأعلا

واعتقد أنها « ويمن حاز .... » .

– أول دنياك دبارًا وإذا مارمت تقواه

وهى بلا شك « وَلِّ » ليستقيم المعنى والوزن .

٤ – عيوب القافية فى شعره :

ومن هذه العيوب ، وهى – عموما – من العيوب المعروفة .

□ اختلاف نوع القافية .

ففى قوله – فإن ذاك قطرةٌ من فيضِ فضلِ ربِّى

تكون القافية من نوع المتواتر ، بالرغم من أن قافية القصيدة من المتدارك .

ومنها – قضيت منى عجبا وأنت أى مُعْجَبِ

□ اختلاف حركة ما قبل الروى بالرفع والنصب والخفض .

أرجع مثلا إلى قصيدته « مات سيف الدين منفردا .

- اختلاف حركة الوصل

.... حـر الحيـا والبشر فى بكـرهِ

.... أزال الله عـنى مـا أكـرهُ

وغير ذلك من عيوب

وأعتقد أن الإحساس الموسيقى عند السيوطى زاحمته موسوعيته ، ولم يبذل الشعراء فى هذا العصر وما سبقه لمتطلبات الشعر ما ينبغى ولم يعد بالمستغرب أن يلحن الشاعر فى شعره وزنًا ونحواً ولغةً .

٥ - الضرائر الشعرية :

وإن كنا من المؤيدين لمقولة ابن فارس اللغوى « إن الشعراء يخطئون كما يخطىء الناس ، ويغلطون كما يغلطون »[١] خاصة عن مثل هؤلاء القوم الذين لم يكن الشعر حظهم الوحيد فى الحياة ، بل كان من فيض طاقاتهم المتنوعة إلا أننا نجنح إلى رأى أستاذنا الدكتور محمدّ على رزق الخفاجى فى أنه لا بأس من قبول بعض الضرورات التى يتحقق بها نسق صوتى بشرط ألا يؤدى تحقيق ذلك إلى الاخلال بقواعد الفصاحة[٢] وقد قسم القرطاجنى الضرائر إلى قسمين : « ضرائر مستقبحة وغير سائغة ، وضرائر سائغة لا تستوجبها النفس »[٣] .

فإننا رأينا أن التجاوزات - إن كانت - أو الضرورات التى وقعت فى شعر السيوطى كان أغلبها من القسم الثانى . كصرف ما لا ينصرف ، وقصر المدود : حتى فى الأفعال الثلاثية « جاء = جا » ، وتسكين المتحرك فإن استخدامه « مع » جائت ساكنة ونادرًا ما حركها ، وهى تكاد تكون سمة للكثير من شعراء عمره وتسكين مع كما قال اللغويون لهجة لبنى جربوع من تميم[٤] .

---

(١) ذم الخطأ فى الشعر تحقيق د . رمضان عبد التواب ط الخانجى ١٩٨٠ م ص ٢٣ .

(٢) د . محمد على رزق الخفاجى على الفصاحة العربية مقدمة فى النظرية والتطبيق ط دار المعارف بمصر ١٩٧٩ م ص ١١٢ .

(٣) راجع السابق ص ١٠٧ وما بعدها .

(٤) د . فاطمة محجوب . دراسات فى علم اللغة ص ١٤٥ .

وقد مال السيوطى إلى تسكين ياء المتكلم (عملتِ لِىْ زفةَ) (لا أنسه إن جاد لِىْ) (قد طوحت يدى النوى بِىْ فى بلاد العربِ) (ورمت مِنّىْ أسمىْ ، ووصفىْ وكذلك نسبىْ) . وقد أكثر السيوطى من حذف الهمزة ، وتخفيف ياء النسب .

- (إن السخاوىْ جاهلٌ) . ومال إلى الاشباع إن احتاج الوزن ، ومثل هذه الأشياء مقبولة ومعروفة عند كل الشعراء .

٦ - الجرس الموسيقى :

يكرر السيوطى فى بعض أبياته - أحيانا - حرفا أو أكثر داخل البيت بما يحقق مقدار هذا التكرار نسقًا صوتيًا ترتاح له الأذن .

كتكراره لحرف الدال فى أوضاع متسقة داخل الألفاظ ، فى قوله :

- مات سَيْفُ الدينِ منفردا وغدا فى اللحدِ منغمدا

والسين والقاف فى قوله :

- كقولنا لمسلمٍ وقد فسقْ يا أيّها المسكينُ أن الموتَ حقّ

والباء والصاد فى قوله :

- والآل والمحبةُ ماهبَّ الصّبا وصَبا صبٌّ لذكر أحاديث المحببين

وإن كاد يصل هذا التكرار وتجاور الحروف درجةٌ من القبح البلاغى .

- كلام الكمال كمال الكلام وأبهى من الدر جوف الصدف

الصورة الفنية فى شعره

مع أن « الصورة الفنية » مصطلح حديث إلا أن نقدنا القديم قد عالج قضية الصورة الفنية كما يقول الدكتور جابر عصفور « معالجة تتناسب مع ظروفه التاريخية والحضارية فاهتم كل الاهتمام بالتحليل البلاغى للصورة القرآنية أنواعها وأنماطها المجازية وركز على دراسة الصورة الشعرية عند الشعراء الكبار »[١] .

ولما كانت الصورة الفنية هى الجوهر الثابت والدائم فى الشعر[٢] وهى سحر وحياة

(١) الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى ص ٥/٦ .
(٢) السابق ص ٥ .

القصيدة[١] وذلك لارتباط الصورة الفنية بحالة الشاعر النفسية التى تقوم عاطفته بتشكيل تلك الصورة ، فقد أهتم البلاغيون النقاد بالأسس التى تقوم عليها الصورة من خيال وتشبيه واستعارة ومجاز ، وتصوير ، وعلاقتها بالواقع الخارجى ألفة وغرابة[٢] لتؤدى الصورة المرجو فى إيصال الغرض المراد التعبير عنه . ولم يبق - إذن - للشعر إلا فضل الوزن فقط كما قال صاحب العمدة[٣] .

والواقع أن طبيعة الخيال الشعرى عند السيوطى كانت محدودة ، تدور فى نطاق ضيق ، محسوس ، أصاب الصورة لديه بالجمود ، فلم نجد له تخيلاً شعرياً مبتكرًا أو محاولةً لاقتباس المعانى الهامة توليدا ، أو حسن اتباع أو حتى سرقة حاذقة مما يعرف فى النقد القديم[٤] .

يقول السيوطىُّ :

وقلتُ فى نزول النيلِ من قناطر الجيزة .

- لله بحــرُ بــاحــرُ اخــرُ يُسمع للأمـواجِ فيه عجيـجْ
شبّهتُ ما أزيـد إذ خـرَّ من قنـاطـر الخمس بقـطنٍ حليـجْ

ثم بعد نحو ثلاثين سنة من تولى ذلك رأيت ابن أبى حجلة سبقنى إلى هذا التشبية فقال وأجاد -

سقيـاً لقنطرةٍ بجيـزة مصـركم بُسُطَتْ بسيطَ الماءِ مثلِ لحافِ
فكـأنها وكـأن رغـوة مـائهـا قــطنٌ تقبّـله يَــدُ الغَــلّافِ[٥]

فالسيوطى - وإن اعترف بإجادة من سبقوه فى هذا التشبيه ، وهو بدوره حسن مولد[٦] إلا أنه يوهمنا أنه يأتى بجديد لولا آفة إبداع السابقين الفنى .

---

(١) الصورة الشعرية . س - دى لويس ترجمة د . أحمد نصيف الجنابى ومالك ميرى ، وسلمان حسن ابراهيم . ط دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨٢ م ص٢٠ .

(٢) راجع فصل « تشكيل السورة الشعرية « فى » الصورة الشعرية فى البلاغة والنقد العربى القديم والمعاصر لإبراهيم درويش (رسالة ماجستير) دار العلوم ١٩٧٣ م ص ٣٤٨ وما بعدها .

(٣) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد . ط الرابعة دار الجبل ١٩٧٢ م جـ ١ ص ١٢٢ .

(٤) راجع « الصورة الفنية » د . جابر عصفور ص ٩٨ وما بعدها .

(٥) كوكب الروضة مخطوط تحت رقم ٢٢٤٩ ح ص ١٤٦ .

(٦) راجع الباب الثانى من « غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات » لعلى بن ظافر الأذرى دار المعارف بمصر ١٩٧١ م من ص ٥٦ .

ويدعى أنه يأتى بتشبيهات لم يسبق إليها .

يقول وهو تشبيه بديع لم أسبق إليه :

- البحثُ إن يبدو ويجلو قصدُه   كالبدرِ لم يُر حاجبٌ من دونهِ
والبحثُ فى بدء التأمّلِ ما أنجلى   كالبدر يشرق من خلال غصونهِ[1]

فهذا التشبيه السيوطىّ وهو يصور مراحل البحث المنطقى يعكس ما اتسمت به الصورة الفنية لديه من جفاف التخيل والتصوير .

والغريب أن خيال السيوطى فى النثر الإنشائى كان دفاقا ، جموحا ، يسير به أن شاء ولم يكن كذلك فى الشعر ، فلا تظفر منه بصورة شعرية كاملة ومن هذه الصور الفنية الرقيقة إلى حد ما .

قوله : تأمّلْ لحسَنِ الصالحيةِ إذْ بدتْ   مناظرُها مثل النجومِ تلالا
وللقلعةِ الغراء كالبدرِ طالعًا   يفرج صدر الماءِ عنه هلالا
ووافى إليها الماءُ من بعد غيبةٍ   كما زار مشغوفًا يروم وصالا
وعانقها من فرطِ شوقٍ لحسنها   فمدَّ يمينًا نحوها وشمالا

والجدير بالذكر ما قاله عبد اللاه محمود حسن « إن خيال السيوطى منه الحسى ، ومنه الوجدانى ويمتاز بالصورة الكلية التى امتدت فشملت بيتا بل شملت المقطوعة كلها أحيانا . وهذه الأخيرة ملائمة لما طلبه النقاد فى العصر الحديث[2] فيه شىء من المبالغة لأن شعر السيوطى كما قال الباحث فى موضع آخر . شعر عادى لم يكلف نفسه البحث عن جديد ...... »[3] .

وتفسير جمود الخيال الشعرى عند السيوطى - فيما يبدو - هو تفويق العقلانية على الحسية التى تنحسر فيها فاعلية الخيال الشعرى[4] . وذلك لدوران الشعر عنده فى إطار الوظيفة التعليمية ، وجعله بوقا إعلاميًا خاصا به ، ثم مطاردة النزعة الموسوعية لديه

---

(١) ديوانه « نور الحديقة » ورقة ٥٣ « كامل/ متدارك » .
(٢) السيوطى أديبا ص ٢٤١ .
(٣) السابق ص ٢٣٢ .
(٤) راجع تلك المفاهيم فى « الصورة الفنية » جابر عصفور ص ٩١ .

لكل ما يحتاجه الشعر من أجواء محلقه خاصة بالعملية الإبداعية[1] فضلا عن وقوف الخيال الشعرى – آنذاك – عند مرحلة التوليد المستهلك .

هذا ويمكننا أن نصف المخيلة الشعرية لدى السيوطى من النمط « التزيينى » وهى أول درجة من أنماط المخيلة[2] .

ومن أبياته التى تحقق انطباعا تصويريا إلى حد ما ، من خلال استعمالاته للإستعارة .

– كـلُّ العلومِ تناغيـه وتنشده لما قضى : مهلا أيها البشرُ
– وعلومُ دينِ الله نادتْ هجرةً هـذا زمانٌ فيـه طىُّ بساطِ
– يبكيـه دينُ النبىِّ إذا مـا أتـاه ملحـدٌ كمـدا
– وسامعًا فوائـداً منى تريكَ منصبى

وعموما فإن استعارته – جملةً – مستهلكة ، لا جديد فيها يذكر ، مثل (جاءنى لغزك البهى) (طوحت بى يد النوى) (أغمدْ عن الإسلام ، أسياف الوبا) (هل مرَّ بكم خير) وتشبيهاته كذلك (راية العلم . رداء العزِّ ، غرست دوحة العلم ، كدرت فهمك ....) وكان غير مقل فى استخدام كاف التشبيه ، وإن كان مقلا – قياسًا على شعراء هذه العصور – فى استخدامه للمحسنات البديعية . ومقلا فى الاستعمالا المجازية للألفاظ .

ومن استعمالاته البديعية ، وحقق بها نسقا بلاغيا رقيقا :

– مات سيفُ الدينِ منفردا وغـدا فى اللحـدِ منغمـدا

فقد تلاعب باسم شيخه « سيف الدين » ، وحقق به جملة شعرية حسنة :

– وفى الكتابِ وفى آياتهِ ظهرتْ آيـاتُـه حـين يتلوهـا ويعتـبرُ

واستخدم هنا المشترك اللفظى لـ « آيات » .

ويفوح فى شعره استخدامه للكناية « ويقل فى شعره التضمين » .

---

(١) راجع فصل « أسوار الإبداع الفنى » فى « مقالات فى النقد الأدبى » د . هدارة ، و « الشعر وتجربة الشعر » فى « مواقف فى النقد والأدب » د . عبد الجبار المطلبى ط دار الحرية – بغداد ١٩٨٠ م من ص ١٨١/ ٢٢٧ ، وطبيعة الخيال فى « الصورة الفنية » د . جابر عصفور وطبيعة الإبداع فى « الشعر العربى المعاصر » د . الطاهر مكى ط ثانية ص ١٣ وما بعدها .

(٢) راجع الأنماط السبعة للمخيلة فى « نظرية الأدب » أوستن وارين ورينيه ويليك ترجمة محيى الدين صبحى ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون ١٩٧٢ م ص ٢٥٨ وما بعدها .

ومن الأنواع البلاغية التى أجاد فيها السيوطى - شيئا ما - « ترتيب المعانى والتشبيهات من الأدنى إلى الأعلى والعكس صحيح ، وفق مقتضيات الحال » .

مثل قوله :

- أيها المعطون مالاً وافرًا ثم لا تؤتوا ولا تصّدقوا
إن تصلوا أو تصوموا أو تحجوا لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا

مفردات لغة شعره

وألفاظ معجم السيوطى الشعرى ، محدود جدا ، إلى الحد الذى يمكنك معه عد ألفاظه إلا أنه يشير بوضوح عن بيئة السيوطى ، وطبيعته ، والعرف اللغوى للألفاظ ، وعن طبيعة الموضوعات التى يتناولها .

ومفردات لغته الشعرية تنحصر فى بيئتين لغويتين .

١ - بيئة مائية زراعية حضارية .

وقد استمد السيوطى منها - بحكم روضة الجزيرة هذه الألفاظ التى لا يخلو منها شطر بيت له (عين - القطر - الأمواج - النهر - الورود - البحر السيل - المنهل - الكدر - جدول - الغيث - الديم - البحر المحيط قطرة - فيض - هامل - سحب) أو « غرق - فاض - غرف - رشف - التطم .... » أو « عرف الزهر - الورد - دوحة - ثمر - مستظل - ينبت - ربا - الأيك - غرس - عاطر - النشر - شذا - فاح - ضوع عنبر خمائل .... » أو « السمور - القمرى - الطير .. وحش » أو « عسجد زبرجد - بجين - الدر - ....» أو « الشمس - القمر - البدر - الهلال الأنجم - الكوكب - الزهراء - الزهرى - الشهب .... » .

٢ - بيئة إسلامية .

وقد فرضت عليه بيئته الخاصة والعامة والموضوعات التى يتناولها طائفة من الألفاظ والكلمات التى كررها تكرارا . مثل (دين النبى - إله العرش - صلاة ، صيام ، كتاب الله ، مجتهد ، ورع ، رجال الصدق والشهدا - الغفران ، البعث ، هداه الدين ، نجوم الهدى ، الرشد - الغى - الأخيار - علماء الشرع - المصطفى - الحشر - مسجد الحبر ز الخبر ، الموصول - السند ، النقل - أصول الدين - التنزيل الأثر ، وألفاظ مثل (الذنوب - عاص - مسيء - العذاب - الغير - الموت رزية - الخوف -

القلق - حنق - أخاف - أرعب - مهرب - لطفا النار - السعير - زلزلت .... الخ) .

الاقتباس والتضمين من القرآن فى شعره

الاقتباس وما جرى مجراه من ضرب مثل وتمثيل واستشهاد هو أن يضمن الناثر نثره والشاعر شعره ما وقع فى القرآن أو السنة لاعلى أنه منه ، وهذا الشيء تضرب جذوره إلى القرن الأول الهجرى على نحو ما ذكر أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة[١].

والمتتبع مما كتب عن السيوطى فى كتبه عقود الجمان[٢] والحاوى[٣] والإتقان[٤] سينتهى إلى أن السيوطى جوز الاقتباس من القرآن والسنة شرعًا وبلاغةً . مما حدا بعبده قلقيلة أن يقول عن صنيع السيوطى فى هذا الصدد « سماحة فقهاء ، ومرونة أدباء ، ثم هى مقياس جوده عند النقاد فى ذلك العصر »[٥] .

والاقتباس من القرآن فى شعر السيوطى - وما أكثره - ينقسم عدة أقسام .

□ أقتباس من القرآن بوزنه دون تغير ، مع موافقة المعنى المقصود .

● مثل - طوبى لأهلِ جنةٍ طيبةٍ لا يبتغوا نقلًا ولا تحويلا
(دانيــة عليهم ظــلالهــا وظللت قــطوفها تــذليــلا)

أخذ البيت الثانى من قوله تعالى : « ... دانية عليهم ظلالها وظللت قطوفها تذليلا »[٦] .

● مثـل - أعبـد الله ودعْ عنـك التّـوانى بــالْهُجــودْ
(ومن الليـــلِ فسبحـه وأدبــار السّجــودْ)

من قوله تعالى : « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود »[٧] .

● و - وإذا أبطأ الجواب فـأيقن انـه كـان وعـده مـأتيـا

(١) مراجع « مشكلة السرقات فى النقد العربى » دراسة تحليلية مقارنة د . محمد مصطفى هدارة ص ٩٨ وص ١٠٤ .

(٢) راجع ص ١٦٥ وما بعدها ، وراجع شرح عقود الجمان للمرشدى جـ ٢ ص ٢١١ وما بعدها .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٥٩ وما بعدها . (٤) راجع جـ ١ ص ١٤٧ وما بعدها .

(٥) النقد الأدبى فى العصر المملوكى ص ١٢٢ .

(٦) ١٤ سورة الإنسان . (٧) ٤٠ سورة ق .

من قوله تعالى : « جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب أنه كان وعده مأتيا »[١] .

● و - ولِّ دنيــاك ديــارًا وإذا مــارمـت تقــواهْ
(فــاقم وجهـك للدين حنيفــا فــطره الله)

من قوله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله »[٢].

● و - يا أيها الناس أتقوا ربكم (زلزلة الساعة شيء عظيم)

من قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم »[٣] .

□ اقتباس من القرآن بوزنه مع تغير أو نقل من المعنى المقصود فى شعره .

● مثل - أثبت عليـه ثـوابًـا جـزيــلًا (وينصرك الله نصرا عزيزا)

من قوله تعالى للرسول : « ... وينصرك الله نصرا عزيزا »[٤] .

● ومثل - إنما ينكـر الأمـانىَّ قـومٌ (لا يكادون يفقهون حديثا)

من قوله تعالى : « ... قل كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا »[٥] .

● و - أتــرك النـاس جميعــاً (وإلى ربـك فارغبْ)

من قوله تعالى للرسول : « .... وإلى ربك فارغب »[٦] .

● و - يوم يأتى الحساب مالظلوم (من حميم ولا شفيع يطاع)

من قوله تعالى : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »[٧] .

● و - تنــج غـدًا من عـذاب نــارٍ (وقـودها النــاس والحجارة)

من قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »[٨] .

---

(١) ٦١ سورة مريم .
(٢) ٣٠ سورة الروم .
(٣) ١ سورة الحج .
(٤) ٣ سورة الفتح .
(٥) ٧٨ سورة النساء .
(٦) ٨ سورة الشرح .
(٧) ١٨ سورة غافر .
(٨) ٢٤ سورة البقرة .

● و – ولا ترى فيهم أخاً نجدةٍ (ذلك تقدير العزيز العليم)

من قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم »[١] .

● و – قد بلينا فى عصرنا بقضاةٍ يظلمون الأنام ظلماً عمّا
(يأكلون التراث أكلاً لمّاً ويحبون المال حبّا جمّاً)

من قوله تعالى : « وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما ..»[٢] .

● و – إن تصلوا أو تصوموا أو تحجوا لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا

من قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »[٣] .

الحديث النبوى

ومنه اقتباس آسماه السيوطى بالعقد ، بأن يقتبس السيوطى أحاديث أو يغير فيها ، ثم يوردها فى نظمه .

● مثل – إن ترجيت رحمةً كلّ نعمى بها تتمْ
فارحم الخلق إنّما يرحم الله من رحمْ

فعقدة السيوطى من (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء)[٤] .

ثم ما يسمى بالاستدلال ، وهو إيراد الأحاديث كما هى :

– وفى الصحيحين أتى أنّه بعده أرحم من أمهِ

شعره فى ضوء النظام النحوى والدلالى والتركيبى

منذ أن تمنهج نقاد العرب اللغويون النحويون ميزوا بين علم النحو وأصول النحو ،

---

(١) ٣٨ سورة يس .
(٢) ١٩ ، ٢٠ سورة الفجر .
(٣) [illegible] سورة آل عمران .
(٤) يقول ابن حجر العسقلانى :
[illegible] يرحم أهل الأرض قد [illegible] أن يرحمه من فى السما
[illegible] الخلق جميعاً إنما يرحم الله منا [illegible] .

فأصول النحو قوانين التركيب ، بينما علم النحو هو الذى يحصر الخصائص الفنية أو الأدبية فى الكلام شعرا كان أو نثرا[١] ودلالات المفردات – وهى تقريبية – تعد دلالة أولية ، وهى قاباة للتشكيل والتغيير حسب وضعها فى الإطار النحوى »[٢] .

والنظام النحوى عند السيوطى يشير إليك أن الجملة فى شعره ، جملة حسنة مستقيمة ، أقرب إلى الجملة التعليمية منها إلى الجملة الشعرية تأليفا ، فالمحافظة على الأسلوب النحوى التعليمى واضحة فى شعره ، ويبدو أن هذا الوازع فاز بنصيبه الأوفر فى النظم النحوية لديه . ومع هذا فقد لمسنا بعض اللفتات التى تشير إلى بعض الخصائص والميزات لديه . مثل ظاهرة تكرار النفى .

وهى تعكس ما يشع فى شعره من خطابية ، ومباشرة ، وإيصال الغرض على النسق التعليمى الذى يكرر الشيء للمؤدب . فيحاول – وكأنه يتوجس خيفة أن تتلاهى أذن المستمع بعد أن سمعت ما أراد نفيه – أن يحبط هذا التلاهى مستخدما تكرار لا وهى كما قيل « إن تكرار لا ليس للعطف إنما هى مؤكدة للنفى ... »[٣] .

* – لم يكن فى دينه وهن ... لا ولا لكبر منه ردا
* – أنت لا تعرف أباك ولم ... تدر من أنت ولا كيف تقول
لا ، ولا تدرى صفات ركبت ... فيه حارت فى خفاياها العقول
هذه الأنفاس هل تحصرها ... لا ولا تدرى متى منك تزول
* – نقى عرض ، تقى الدين لا دنس ... يشينه لا ولا فى شأنه غبر
حبر فحبر ، أمام بعد آخر لا ... يرى لهم خلف كلا ولا نظر

ومثل ظاهرة كثرة أدوات النداء .

وهى ما يقلل – كما نعرف – شاعرية الشاعر[٤] وقد كانت فرضا عليه ، لتساير

---

(١) راجع مقالة نصر أبو زيد « مفهوم النظم عند عبد القاهر .. قراءة فى ضوء الأسلوبية » فى مجلة فصول . المجلد الخامس / العدد الأول ص ١١ وما بعدها .

(٢) النحو والدلالة . د . محمد عبد اللطيف حماسة ص .

(٣) الحلل فى إصلاح الخلل من كتاب الجمل لابن السيد البطليوس . تحقيق سعيد عبد الكريم سعودى . دار الرشيد – بغداد ١٩٨٠ م ص ٢٩٨ .

(٤) راجع ميزات نظام الشعر العربى فى « *أسرار اللغة* » د . *إبراهيم أنيس ط السادسة* ١٩٧٨ م مكتبة الأنجلو ص ٣٤٠.

طبيعته كإمام ، والأمثلة كثيرة فى شعره (يا أيها المعطون مالا وافرا - أيّها الدنيا لك الويل) (يا أيها الناس أتقوا ربكم) ..

ومثل ظاهرة استخدامه لجمع التكسير ، مع ملاحظة أنه لا يستخدم جمع التكسير إلا فيما يخصه ، مدحاً وثناءً ، أو تقليلاً .

ومثل ظاهرة الأخطاء النحوية .

مثل عدم نصب . المنصوبات .

- الكتاب العزيز قاض علينا   وبه الاقتداء فى كل خلّة
من يرد أن يكون « قاض » عليه   فليقل فى أمامه بسم الله
- لو كنت رمت « مسا» وفيك أذكرها   لكان فى الصدق ما يغنى عن الكذب
- ماذا تقولون لازال الزمان بكم   « زاه » وعلمكم فى الأرض منتشرا

وننبه أن السيوطى قد أخطأ فى النحو أو خالف فيه المشهور من النحاة فى النظم ، بل فى ألفيته فى النحو .

ومنها[1] جزم المضارع بلا جازم .

- والحركات كلها تقدرُ   فيما يضف للياء أو ما يقدرُ

- رفع المضارع الواقع فى جواب الشرط الجازم .

- وبالذى وفرعه أن تخبر   تسبقُ مبتدا وجى بالخبر

- وجزم المضارع بعد أن .

- حال نداء وإضافة وقل   دونها كأن تقارنْ مرتجل

وكثير من اللفتات كاستدراك الاستدراك .

- وكنت أسردها سرداً على نسقٍ   مفصلٍ لكنٍ الإجمال أجمل بى
لكن مقامى يعلو عن مسافهةٍ   ومنصبى جل عن فحش وعن زربى

والجمل الإسمية المطلقة والجمل الأفعال فقط .

- فهذا كلامٌ فيه تحريرٌ مقصدٍ   وهذا جوابٌ للذى أنت سائله
- روض ودم وأرح ودروود وزر   وازر ووال دوا داو زد ورم

(١) النحو المنظوم بين ابن معط وابن مالك والسيوطى ص ١٩٥ وما بعدها .

وكتسبيق المفعول عن الفاعل « عاب إملائى الحديث رجالٌ ، إنما ينكر الأمانىَّ قومٌ .

وكاستخدام الجمع للمثنى « وهما بقبح فعالهم ويحدقهم ... » .

واستخدامه المصادر التى تعمل عمل فعلها (أيها المعطون مالا ..) أيها السائل قوما .. « وحذف المفعول » ثم لا تؤتوا ولا تصدقوا ..

وكثرة رجوع الضمائر -

لِمَ لا ترجو العفو من ربنا ... وكيف لا تطمع فى حلمِهِ
وفى الصحيحين أتى أنه ... بعبده أرحم من أمهِ

لكأنما أراد ألا ننسى الله بكثرة « الهاءات » العائدة على لفظ الجلالة .

□ أما مكونات المعنى اللغوى واختلاف المعانى فى التراكيب اللغوية ، وهو ما يعرف بالمستوى الدلالى[1] فإن حظ السيوطى كان بسيطا فى ذلك ، فالألفاظ التى استعملها السيوطى وكررها تكرارا مملا كانت بنفس دلالاتها تقريبا - داخل السياق ، فعُدْ إلى استعماله للفظه « الزمن » ومرادفاتها وكلمة « عبد » ، « والجهل » « وبدا » تجد أن السيوطى فى أغلب استعمالاته لهذه الكلمات كان بنفس البعد الدلالى فى المعجم .

بيد أنه كان يحاول أن يفرق بين دلالات اللفظة من خلال السياق .

- أعوان أهل الظلم قد زلزلوا ... ببأسهم قلب الكئيب الكليم
يا أيها الناس أتقوا ربكم ... زلزلة الساعة شىء عظيم

ففرق - ضمنياً - بين معطيات الفعل « زلزل » من خلال فاعله ، وإن استخدم الفعل « زلزل » استخداما غير دقيق فى قوله :

.... قد زلزلت من الفرقِ

وأحيانا يعطى للفظ بُعداً دلاليا يحسن جملته .

- ابْكِ على الذنب فى حياةً ... أقمْ على نفسك الإغارةْ
تنج غدًا من عذاب نارٍ ... .

(١) راجع مقدمة فى علوم اللغة - البدراوى زهران ط دار المعارف ١٩٨١ م ص ... ، وراجع فضيلة التأليف فى النظم لا فى اللفظ » فى أسرار البلاغة للجرجانى تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ط أولى ... - الناشر على يوسف سليمان ص ٩٦ وما بعدها

فالبكاء هنا هو مواجهة النفس بأفعالها ، ثم تقييمها لرأب ما اتصدع منها .

وأحيانا نرى فى أساليبه تدرج المعنى من خلال تدرج الصيغ .

ففى قوله -وإذا أشرت إلى كذوبٍ أحمقٍ   فإلى السخاوى فهو كذّابٌ أشِرْ

فقد تدرج نعت السخاوى من خلال تدرج الصيغ المناسبة ، ملاحظا أنه . ورى بجواب الشرط للتحقير من شأن السخاوى ، فهو مختص بهذه الإشارة دائما .

وفى قوله- إذا كان عند المرء منا أمانةٌ   وهمَّ بجهلٍ أن يخون صحبَهُ

فلا يتبع النفس الخبيثة وليعدْ   أمـانـتـه وليـتق الله ربَّـهُ

ترى تتابع الأفعال ، موضوعة فى سياقها المنطقى (همَّ - يخون - لا يتبع فليعد ، وليتق) وكذلك قوله :

- لا تكن ظالما ، ولا ترض بالظلم   وانكُـرْ بكـل مـا يـسـتـطاعْ

هذا ومن ناحية أخرى ، فإن هناك ظاهرة لافتة للنظر فى شعر السيوطى وهى أنه يسبق البيت - فى بعض الأحيان بالمقولة وبالأخص (قلت) .

مثل   - قُلتُ لما أرقت عينى   وطـال الـليـل نـامـى

- كقولنا لمسلم وقد فسق   ....

- قُلتُ وقد بشروا بنجل   ....

ويلجأ السيوطى إلى التوضيح والترشيح ، وما أكثر ما حشده حشدا ، ترى ذلك - خاصة فى آخر البيت .

مثل (ملكا محيزا ، ثوابا جزيلا ، الله ربه ، بالهادى النبى المجتبى) قلب الكئيب الكليم ، طراز مذهب ، تلذ ونطرب ، الله الكريم .

فى أهل الفضائل والذكر ، أهل المآثر والفخر ، الخطب والغير يرجى وينظر ، عون ولا وزر ، يألو ويقتصر .... الخ . مما يصيب الجملة الشعرية بالنثرية ، ويكاد يكون لا فضل له أحيانا إلا الوزن والقافية .

هذا مع استخدامات خاطئة أحيانا مثل « الهناء إنما هى الهناءة .

- يـوم عيد الفـطر وافى   بهـنـاءٍ   وســـعـادةْ

ويبدو أن مثل هذه الألفاظ دارت رحلتها التاريخية وتغيرت عُرفًا .

ويفوح فى شعره أساليب عامية .

مثـل - بـانت ودعـهـا بنـار الهـجـر تكـويـنى

- عملت لى زفة..

- فيه من الخير ولا ذرة ....

- تحرف يا عديم الذوق ....

وبعض الدخيل والعرب والألفاظ الاصطلاحية وما أكثر الأخيرة .

ملحق الفصل الثانى

شعر السيوطى عند المؤرخين والباحثين المحدثين

افتخر السيوطى كثيرا بقدراته فى النظم ، كعادته فى إظهار منزلته ، وتمكنه فى علوم العربية وقد ترك لنا هذا الكم فى النظم والشعر ، بيد أن المؤرخين القدماء لم يلتفتوا إلى السيوطى شاعرا ، فكل ما ورد فى المصادر التى ترجمت له ، يأتى - أحيانا إشارة إلى نتف شعرية قالها السيوطى فى بعض معاصريه أوفى بعض الأحداث والمناسبات فاكتفى ابن العماد - مثلا - وهو يترجم له بقوله وله شعر جيد كثير متوسطه أكثر ، وغالبه فى الفوائد العلمية والأحكام الدينية ومن شعره :

- حدثنا شيخنا الكنانى عن أبهِ صاحب الخطابهْ
اسرع أخا العلم فى ثلاثٍ الأكل والمشى والكتابهْ[1]

ونصيب السيوطى من حقل الدارسين عدا واحد منهم - لا يعد إلا إشارة عابرة أو تناولا سريعا فى سطور لا يخلو من التكرار ، وبعض أحكام عجال على بعض منظوماته أو بعض قصائده لا تخلو أيضا من التعميم .

يقول محمود رزق سليم وهو يذكر العلماء الشعراء « ومنهم على سبيل المثال ابن دقيق العيد وتقى الدين السبكى وجلال الدين السيوطى ، هؤلاء وأمثالهم يعتبرون رؤساء وقمما للحركة العقلية فى عصرهم ، وكانوا شعراء ، وكان الشعر فى نفوسهم منذ الصغر كما هو الشأن الغالب - موهبة فطرية وطبيعة نشأت معهم ثم جذبتهم جوانب العلم ، ونزعت بهم نوازع الدين ، ونبغوا فى ذلك نبوغا رقهم إلى مصاف الأئمة المجتهدين ، ولكنهم لم يهجروا الشعر أو يهجرهم فمدحوا ، وتغزلوا ووصفوا ، واشتاقوا ، وحنوا ، وشكوا ، وحاجوا ، وأجابوا المسائل وأفتوا المستفتى ، ورثوا الحبيب الزائل ، ونظموا فى الزهد ، أو الحكمة أو غير ذلك[2] وينبغى أن تعرف هنا أن الدكتور محمود رزق سليم لم يورد لنا فى

---

(١) شذرات الذهب جـ ٨ ص ٥٥ .
(٢) أثر البيئة ص ٤٨٤ .

كتابة هذا كله وهو فى أثر البيئة المصرية فى الشعر فى عصر المماليك « إلا نتفة شعرية واحدة للسيوطى ، ولم يشر حتى إلى المواضع التى نجد فيها شعره الشارد ويقول عبد الوهاب حموده » لم لا يكون السيوطى شاعرا ؟ أو ليس أديبا مطلعا » أو لم نشعر بماله من حساسية الشاعر ؟ (ولا ندرى نحن كيف) ، ومن جانب آخر قد ذكر بعد ذلك بعض منظومات السيوطى) ، وهو فى هذه الناحية شبيه بابن حجر العسقلانى ، ووجهتهما حياتهما العلمية ، بعيدا عن الأدب الذى هو مزاج لنفسيهما ، فكأنا يعاودانه الفِنة بعد الفِنة ، وتتراءى على شعرهما المسحة العلمية ، وإن كان ابن حجر أرق وأغزل من السيوطى (لاندرى كيف) ، وقد نظم السيوطى الإخوانيات والرثاء والمدح النبوى ، ووصف الأحداث العامة غير أنه ذو باع طويل فى نظم العلوم والفنون ، والفوائد العلمية والأحكام الشرعية[1] ويقول شوقى ضيف :

« ونظم فى غير فن ، وهو فى الحقيقة أعجوبة من أعاجيب مصر فى أواخر عمرها المملوكى[2] ويقول فى موضع آخر وهو يتحدث عن مقاماته .. » وهذا النشاط العلمى الواسع يقصد موسوعيته - اقترن به نشاط أدبى ، فقد كان السيوطى شاعرًا كما كان كاتبًا ناثرً »[3] .

« وأجود شعره مراثيه ، وله فى الوصف شعر كثير . وكان فى المدح مقلا .. »[4] ويقول على صافى حسين :

« كان نحويًا مدققًا ، ولغويًا محققًا ، وناقدًا جهبذًا ، وأديبًا بليغًا ، وشاعرًا مغلقًا وكاتبًا مبدعًا[5] ويقول محمد حسين الذهبى مكررًا قول ابن العماد السابق :

« وله مناقب وكرامات كثيرة ، وله شعر جيد أغلبه فى الفوائد العلمية والأحكام الشرعية[6] ويقول طاهر سليمان حمودة :

« وليس غريبًا أن يكون الرجل شاعرًا ، فقد رأيناه أديبًا يجيد القول النثرى ، كما

---

(١) صفحات من تاريخ مصر ... ص ٢٤٥ .
(٢) الترجمة الشخصية ص ٥٦ .
(٣) عصر الدول والإمارات مصر - الشام ص ٤٥٧ .
(٤) السيوطى النحوى ص ١٢٤ وما بعدها .
(٥) الإمام جلال الدين السيوطى ص ١٢٧ .
(٦) التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٢٥٢ .

عرفه عصره ، وقد كان بالإضافة إلى ذلك شاعرًا ، وقد ذكر له ديوان شعر ، وقد رأينا له بعض الأشعار الجيدة (ولم يشر) ، أما منظوماته العلمية فهى من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها ..

وهذا فإن الغالب على شعر الرجل الطابع العلمى حتى فى أشعاره التى أنشأها فى غير الأغراض العلمية ، ولكن هناك أمر يدل على ذوقه الشعرى يتضح فى اختياراته الشعرية التى أوردها فى كتبه ورسائله ، وهى تدل على حسن تذوقه وفطرته السليمة[1] ويقول عبد اللاه محمود حسن الذى يعد أهم من كتبوا عن السيوطى فى هذا الصدد :

أما شعر السيوطى فهو دون الشعر ، أكثره علمى ، نظم به النمو والفقه والبيان والمعانى والبديع ، وإن كان قد مدح ورثى ووصف إلا أنه لم يصلا به إلى درجة الشعر الجيد ، الذى يمكننا القول بأنه أتى فيه بجديد ، أو ليست له ميزة على شعراء العصر سوى أنه لم يحظ بالبديع ، ولم يتلاعب بالألفاظ كما فعل شعراء العصر »[2] ويعلق على قصائد السيوطى قائلا :

« أما ما قاله بمناسبة الوباء الذى اجتاح البلاد ، وأهلك العباد ، فإنه كان سطحى الفكرة[3] وأن أبياته التى وردت فى المقامات مصنوعة ، قبلت لوقتها وليدعم بها رأيه ، وهى لا تعدو أن تكون تسجيلًا للأوصاف الحسية كما يراها أو يتذوقها »[4] .

وعن المعانى فى شعره يقول :

« وبالجملة فإن شعر السيوطى من حيث المعانى ، شعر عادى لم يكلف نفسه مئونة البحث عن حديد ، ولا هو غاص وراء المكنون من الأفكار ، فما طرق ذهنه أثبته من أول وهلة ، ولم يقلبه على بساط البحث فهو لا يشغل باله بفكرته ولا يوليها كبير اهتمام ، وما إلى ذلك إلا لأن الشعر لم يكن من اهتماماته التى أوقف عليها حياته ولقد كان مقلدًا لبعض الشعراء »[5] .

---

(١) السيوطى اللغوى ص ١٢٤ وما بعدها .

(٢) الإمام جلال الدين السيوطى أديبا ص ٧٠ ، وقد ناقض الباحث نفسه حينما علق على عدم اهتمام السيوطى بالمحسنات البديعية بأن السيوطى كان فى الإنشاء والترسل ضعيفًا راجع ص ٢٤٨ .

(٣) ناقض الباحث نفسه حينما ذكر هذه القصيدة بأن فيها صورة كلية شملتها كلها ص ٢٤١ .

(٤) السابق ص ٢٣٢ .

(٥) السابق نفس الصفحة .

وعن خيال السيوطي في الشعر يقول :

« منه الحسي ومنه الوجداني ، ويمتاز بالصورة الكلية التي امتدت فشملت بيتًا ، بل شملت المقطوعة كلها أحيانًا وهذه الأخيرة ملائمة لما طلبه النقاد حتى في العصر الحديث »[١] واستشهد بقصيدته في الوباء .

ويعلق في نهاية البحث .

وأما السيوطي في الشعر فهو بالمقياس الدقيق لم يكن شاعرًا »[٢] .

ويقول مصطفى الشكعة :

« وفي الشعر ترك عددًا كبيرًا من المنظومات العلمية النفيسة ، وكثيرًا من القصائد ، ترجمت بين الجودة والتوسط »[٣] .

ويقول معلقًا على إعجاب السيوطي لقصيدته « رزء عظيم » « أننا لا نوافق السيوطي على رأيه في قصيدته لأنها من الشعر الرديء ، ولعل له عذرًا في ذلك فقد كان عمره حينئذ ثلاثًا وعشرين سنة »[٤] .

ويرى السيوطي عمومًا :

« أما الرأي في السيوطي الأديب المؤدب فمن اليسير أن نقرر أن الرجل كان كاتبًا بليغًا ، ومترسلًا متغننا ، ولم يكن كذلك في الشعر »[٥] .

ويقول طه عبد الرؤوف سعد « إن للسيوطي قصائد شعرية أغلبها متوسطة الجودة[٦] .

ويقول علي حسني الخربوطلي :

« اشتهر السيوطي بأنه أديب كبير وشاعر مجيد ، ويبدو ذلك واضحًا في كتاب تاريخ

---

(١) السابق ص ٢٤١ .
(٢) السابق ص ٢٥٩ .
(٣) جلال السيوطي « مجموعة البحوث » مقالته ١ ص ٤٣٣ .
(٤) السيوطي ومسيرته اللغوية ص ١٨ .
(٥) السيوطي « مجموعة البحوث » مقالته ص ٤٣٢ .
(٦) مقدمة تحقيقه على الأشباه والنظائر في النحو ص ح .

الخلفاء فالأسلوب سلس ، واضح شيق ، ويثبت السيوطى تفوقه فى الشعر فيختم كتابه بقصيدة طويلة من نظمه »[١] .

وتلاحظ سيدة إسماعيل الكاشف فى نقدها لكتاب حسن المحاضرة :

« وقد ذكر السيوطى ما قيل فى النيل من الأشعار ، ونلاحظ أن السيوطى يعتبر الشعر المنثور ، أو النثر المسجوع من الأشعار ، فيورد كلام القاضى الفاضل فى المنثور فى وصف النيل المصرى ضمن ما قيل فى النيل من أشعار »[٢] . وهى ملاحظة فيها شئ من المغالاة فليس هناك فرق بين هذا النثر والنثر الأدبى المعروف فى تلك العصور ، ومن ناحية أخرى فلم يورد السيوطى كلام القاضى الفاضل فحسب إنما أورد لغيره كذلك[٣] ، ومع أننا نعتقد أن السيوطى لم يتعمد ما ذهبت إليه الباحثة وجاء هذا النثر مُردفاً بالشعر فى عفوية غير مقصودة ، إلا أن هذه الملاحظة جديرة بالشكر ، تذكى ما سوف نتحدث عنه عن الجمل الشعرية فى نثر السيوطى ، التى جاءت على أوزان البحور فى الباب الرابع من رسالتنا .

---

(١) السيوطى « مجموعة البحوث » مقالته ص ١٦٠ .

(٢) السابق (مقالتها) ص ١٤٨ .

(٣) راجع حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٥٨ وما بعدها .

البَابُ الثالث

نثر السيوطى

الفصل الأول : مقامات السيوطى دراسة فى الموضوع والبناء .

الفصل الثانى : فنونه النثرية الأخرى .

١ - الرحلات .

٢ - الرسائل والمكتبات .

٣ - خطبة الكتاب .

٤ - الموازنات .

٥ - الحكم والأمثال والمواعظ والخطب .

٦ - الترجمة الأدبية .

٧ - الألغاز والأحاجى .

نثر السيوطى

يحتوى هذا الباب فصلين ، جاء الفصل الأول تحت عنوان : « مقامات السيوطى . دراسة فى الموضوع والشكل » الذى بدأناه بنبذة تاريخية عن المقامة وشكل المقامة وموضوعاتها ، كما جاء عن الهمزانى والحريرى ، ثم ألممنا بأعلام المقامة حتى انتهينا إلى مقامات السيوطى ، لنجيب عن سؤال طرحناه « أين مقامات السيوطى ؟ » فاستعرضنا كمَّ مقامات السيوطى كما عرفه الباحثون المعاصرون والمؤرخون ، وكما ذكرها السيوطى بنفسه ، لنجد لزامًا علينا أن نقوم بإعداد ثبته بمقامات السيوطى بما استقصيناه لمقاماته فى ضوء ما هو مطبوع ، وما هو مبعثر فى دور المخطوطات وخزائن الكتب المصرية ، لنتحدث بعد ذلك عن جهود الباحثين حول مقامات السيوطى سواء فى مقالةً أم فى تضاعيف بحثٍ . لنقوم - بما نملك من مقامات « نحو ثلاثين مقامة » - بدراسة الموضوعات التى طرقها السيوطى فى مقاماته فكانت على النحو الآتى : « مقامات الموازنات ، مقامات ذاتية ، مقامات جدلية ، أحداث عصره ، مقامات وصفية مقامات تعليميةلا » ، فدرسنا كل قسم من هذه الموضوعات ، وما يحتمل من تقسيم داخلى ، ثم قمنا بدراسة مقاماته من ناحية الشكل والأسلوب ، فقسمناها إلى ستة أقسام فرضتها العناصر الشكلية للمقامات لديه ، فبدأنا بالمقامات التقليدية ، ثم المقامات التلقليدية المجددة ثم المقامات المجددة ، ثم المقامات الرسائل ، ثم المقامات المقالات ، ثم المقامات البحوث ، لنهى هذا الفصل بإشارة سريعة عن أثر مقامات السيوطى على المقاميين من بعده .

وجاء الفصل الثانى عن فنون السيوطى الأخرى ، فتحدثنا عن كل فن من فنونه النثرية مستقصين أعماله فيه لندرسه شكلًا ومضمونًا ، وخصائصه الأسلوبية فيه ، وكانت هذه الفنون على الترتيب الآتى : « الرسائل الأدبية والمكتبات - خطبة الكتاب - الموازنات - الحكَم والأمثال والمواعظ والخطب - الترجمة الأدبية - الألغاز والأحاجى » ، وستلاحظ أننا بدأنا هذا الفصل بالرحلات لنضع حقيقة تائهة نصب العيون » .

الفصل الأول

مقامات السيوطى

دراسة فى الموضوع والشكل

نبذة تاريخية :

المقامة[1] فى معناها اللغوى هى محل الإقامة ، وأما فى تعريفها الاصطلاحى فهى قصة يرويها واحد دائمًا ، كما أن بطلها واحد ، وهذا البطل شحاذ كثير الحيل تارة يتعامى ، وطورا يلبس جبة الوعظ ، وحلة العالم ، والعقدة فيها من طراز واحد أى أن الراوية يعرف أن البطل محتال كذاب فيما يدعى[2] .

وكان لبديع الزمان الهمزانى فضل السبق إلى استحداث فن المقامات فى العربية « إلا أن فريقا من الباحثين يعزو إلى ابن دريد الراوية المعروف ابتداع المقامات ، ويرى أن الهمزانى حين جاء إنما نسج على منوال سابقه[3] ، ويرى غيره أن الجاحظ قد مهد لهذا الفن فى بخلائه « فإن الكُدْية لعبت دورًا كبيرًا فى التمهيد لميلاد الفن المقامى ، وخالويه المكدى مولى المهالبة فى بخلاء الجاحظ هو بوجهه بطل مقامى فى إحتراف التكدى نمطًا للحيلة يستخدم فى ذلك مهارات يتفوق بها على مجتمعه[4] .

هذا وقد بنى الهمزانى فن المقامات على أقاصيص تصور حياة أديبٍ متسولٍ لا يزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبغوا عليه شيئًا من عطائهم يعينه على سد حاجاته فى الحياة ، وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى ، وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القصص فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض

---

(١) راجع المعنى اللغوى والإصطلاحى فى « المقامة » د . شوقى ضيف ط الخامسة . دار المعارف ص ٧ .

(٢) رواية الأدب . مصطفى إبراهيم حسين ص ٤٤٨ .

(٣) السابق ص ٤٤٨ .

(٤) المقامة والرسالة الأدبية . عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجى (رسالة دكتوراه) . آداب القاهرة ١٩٧٤ م ص ١٠ ، وراجع تفنيد هذه الآراء فى « بديع الزمان الهمزانى » مارون عبود ط الخامسة . دار المعارف بمصر ١٩٨٠ . ص ٣٤ .

عليهم أفانين بلاغته[١] ، وقد غلبت على مقاماته الصبغة اللغوية بينما مقامات الهمزانى قد غلبت عليها الصفة الفنية[٢] .

وأهم أغراض مقامات الهمزانى الوعظ والوصف والنقد الأدبى والفلسفة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى والألغاز والقصة والرمز والفكاهة[٣] ، أما الحريرى فقد سلكها جميعًا فى قالب الشحاذة ، وعرض فيها أبا زيدٍ دائمًا أديبًا شحّاذًا[٤] .

ونزعم أن مسألة الكدية ، وأن يكون بطل المقامات شحاذًا متسولاً عند المقامى الأول أو من سبقه سواء كان ابن دريد أمِ الجاحظ أم ابن فارس أم طائفة المكدين الساسانيين أم من قلده ما هو إلا ضرب من الرمز ، فرضته طبيعة المجتمع الاقتصادية لتخبرنا بأن الإنسان يعرف بجوهره لا بلحائه[٥] فبالمظاهر قد يتخفى الغث والسمين من الناس وهذا ما يفسر لنا أن اتخاذ الكدية موضوع أساسى قد ضرب صفحا عن بعض المقاميين ومنهم السيوطى .

ويذكر تاريخ المقامة العربية كثيرًا من المقاميين ، منهم أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدى م ٤٠٥ هـ ، وأبو القاسم بن ناقيا م ٤٨٥ هـ ، والسرقسطى م ٥٣٨ م الذى كدَّ ذهنه وأسهر ناظره ، وصعَّب على نفسه المسلك فيها ، فالتزم فى نثرها ونظمها مالا يلزم من تعدد القوافى ، ثم الزمخشرى ، وقد ألف مقامات تدور كلها على الوعظ ، ثم نتقدم فنجد الحسن بن صافى المصرى الملقب بملك النحاة يصنف مقاماتٍ على نسق المقامات الحريرية ، ويصنع ابن مارى النصرانى الطبيب واشتهرت مقاماته بالمقامات المسيحية ، ونجد ابن الجوزى يؤلف خمسين مقامة فى موضوعات أدبية مختلفة ، ويسعى بها نحو الوعظ ، ثم الرازى الحنفى الذى ألف ثلاثين مقامة فى وصف حمام أو محبرة أو دواة أو قلم أو فرس أو معركة ، ونلتقى بمقامات ابن الصقيل الجرزى م ٧٠١ هـ ، وعدتها خمسون مقامة فى الحديث والفقه والنحو وبمقامات الصفدى وهى ذات نزعة تعليمية ، فقد قدم فيها كثيرًا من المعلومات المختلفة فى الدين والفقه ، وكذلك مقامات ابن المعظم التى

---

(١) عصر الدولة والإمارات . د . شوقى ضيف ص ٨٠٢ .

(٢) راجع « رواية الأدب ص ٤٦٦/ ٤٦٧ .

(٣) تطور فن المقامة . محمد رشدى حسن ص ٣٣١ .

(٤) المقامة . د . شوقى ضيف ص ٥٤ .

(٥) قريب من هذا الرأى تفسير الدكتور على الراعى عن الاحتيال وأنه أيضا يحمل فى داخله ثورة وسخطا ضد الظلم والنظم المتصدعة ، راجع بالتفصيل كتابه « شخصية المحتال فى المقامة كتاب الهلال » رقم ٤١٢ . التقديم والفصل الأول والثانى .

شاركت مقامات الحريرى فى بعض أهدافها كالاحتيال والنصب والوعظ ، ولكن إغراق صاحبها فى الصنعة فى حشد المفردات الصعبة قد أخل ببنائها .

ونجد فى هذا القرن أيضًا مقامات ابن الوردى وهى مقامات لم يركز فيها كاتبها على الناحية القصصية ، بل قد خلت هذه المقامات من عنصر الكدية والحيلة ، وهى فى عمومها أشبه بالمقالات الأدبية ، وأيضًا نلتقى بمقامات ابن حبيب الحلبى والقلقشندى التى أراد بها فائدة أدبية ، وهى تعليم أصول كتابة الإنشاء[1] ، ويأتى القرن التاسع وفيه جاء السيوطى بمقاماته .

أين مقامات السيوطى ؟ :

بعض الأسئلة تطرح بداهةً كم مقامة ألف السيوطى ؟ وكم مقامة وصلت إلى أيادى الباحثين ؟ وأين بقية مقاماته ؟.

وقبل أن نعرض ما ذكره السيوطى نفسه عن مقاماته ، وكذلك ما ذكره المؤرخون ، نود أن نشير إلى أن جلّة الباحثين الذين أشاروا إلى السيوطى أديبًا ، زعموا أن للسيوطى مجموعة ضخمة من المقامات ، غير أنهم لم يعرفوا – من المطبوع منها أو المخطوط – إلا بعضها .

ونبدأ بالباحث محمد رشدى حسن الذى قال « إن عددها يصل إلى عشرين مقامة[2] منها المقامات المطبوعة وعددها اثنتا عشرة مقامة ، ثم جمع ثمانى مقامات منها .

ثم الباحث عبد اللاه محمود حسن فلم يعرف للسيوطى فى رسالته أديبًا إلا ست مقامات مطبوعة أثبتها فى بحثه ، وقد قال أن الأخبار تروى أن السيوطى كتب أربعين مقامة[3] ولم يشر .

وكذلك قال الدكتور الشكعة – إن الأخبار تذكر لنا – ولم يشر أيضًا إلى مصدر هذه الأخبار – أن السيوطى كتب أربعين مقامة ، وإن كانت عملية الاستقصاء التى قمت بها لم تهيئ لى حتى الآن « ١٩٧٦ » الحصول على أكثر من ثمانى عشرة مقامة بين مخطوطة

---

(١) راجع « المقامة » د . شوقى ضيف . ص ٨٧/٧٦ . و« فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٧٢ / ١٧٣ .

(٢) تطور فن المقامة ص ٢٢٤ .

(٣) ص ٢٠٢ .

ومطبوعة ، وأنى أرجو بمزيد من الجهد والمتابعة أن أصل إلى بقية المقامات التى لم يتح لى أن أحظى بالوقوع عليها حتى الآن[١] .

إلا أن الشكعة قد أشار فى كتابه السيوطى مسيرته العلمية .. إلى أن السيوطى خلف لنا عددًا كبيرًا من المقامات طبع بعضها فى الآستانة سنة ١٢٩٨ فى ديوان يضم اثنتى عشرة مقامة وكذلك يضم أحد الكتب تسعا وعشرين مقالة على شكل مقامات طباعة حجر سنة ١٢٧٥ هـ ، كما أن عددًا منها لا يزال مخطوطًا »[٢] .

وكنا نود أن يذكر لنا الدكتور الشكعة اسم هذا الكتاب أو يشير إلى فحواه .

ثم يأتى أخيرًا الدكتور « السيد على حسن » فيتدارك المقامات التى عرفها الشكعة بمقامتين فى مخطوطة بمكتبة الطهطاوى بسوهاج تحوى عشر مقامات للسيوطى تضيف جديدًا إلى مقاماته المتداولة مقامتين « قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض » و « ساجعة الحرم وهى فى فضل مكة والمدينة »[٣] ، بالرغم من أن هاتين المقامتين موجودتان فى دار الكتب كما سترى فى الثبت الذى أعددناه لمقامات السيوطى .

هذا وقد أشار الزّركلى إلى أنه يوجد من مقامات مخطوطة تحوى ٢٤ رسالة فى مباحث مختلفة[٣] ، وقد ذكر حاجى خليفة أسماء تسع وعشرين مقامة للسيوطى[٥] ، وذكر البغدادى فى هديته الكثير من مقامات السيوطى .

أما السيوطى فقد ذكر فى فهرسه أن مقاماته ثلاثون مقامة ، وعند ذكرهم وضع بينهم ثلاث رسائل فكان العدد ثلاثا وثلاثين[٦] ، بيد أنه قد اختلطت بعض مقاماته بفنونه الأخرى ، فرأينا أن نعد ثبتا لمقامات السيوطى فى ضوء ما توصلنا إليه ، وقد تقوم بتحقيقها بعد جمع ما تبقى من نسخ أخرى فى الخزائن .

---

(١) السيوطى (البحوث) ص ٣٩٨ .
(٢) ص ١٤١ .
(٣) مجلة كلية الآداب بسوهاج العدد الثالث ص ٣٠٦ .
(٤) الأعلام جـ ٣ ص ٣٠٢ ، بخزانة الرباط (٢٩٦) .
(٥) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧٨٥/ ١٧٨٦ .
(٦) فهرس مؤلفات السيوطى المخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٩٨ مكتبات ص ٨/٧ .

ثبت مقامات السيوطي* :

١ - ساجعة الحرم[١] .
٢ - المقامة السندسية[٢] .
٣ - المقامة اللازوردية[٣] .
٤ - النجح إلى الصلح[٤] .
٥ - المقامة المستنصرية[٥] .
٦ - المقامة الذهبية فى الحمى[٦] .
٧ - مقامة فى وصف روضة مصر[٧] .
٨ - مقامة الرياحين[٨] .
٩ - مقامة الطيب[٩] .
١٠ - مقامة الكاوى فى تاريخ السخاوى[١٠] .

---

* ننبه أن هذا الثبت ليس ثبتا نهائيًا .
** من ١ إلى ٣٣ أسماء المقامات التى ذكرها السيوطى فى فهرسه .
(١) مخطوطة بدار الكتب . ولها نسختان ٣٦٠ أدب ، ٦٧٤٩ أدب . فضلا عن نسخة سوهاج ٣١٢ أدب .
(٢) طبعت طبع حجر بالقاهرة فى ١٦ ص - ٢٠ سم وبالأزهر نسخة منها (٤٩٧٨) الإمبابى (٤٨٦٦٥) وتوجد بمقاماته المطبوعة الجوائب ١٢٩٨ هـ ص ٧٤ وما بعدها ، وطبعت بحيد أباد دكن ١٣١٦ هـ .
(٣) وتسمى « اللازوردية فى موت الزرية » وأيضا « سلوة الفؤاد فى موت الأولاد » . بالمقامات المطبوعة ص ٣٦ وما بعدها ، وتوجد مخطوطة تحت رقم ٣١٩٩٠ أدب ، ٢٦٠٨٦ ز ، ٤٠٥ أدب تيمور .
(٤) وتسمى المقامة المزهرية .
(٥) نعتقد أنها مقامة الاستنصار بالواحد القهار وهى مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .
(٦) بالمقامات المطبوعة ص ٥٥ وما بعدها ، ومخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٥١٠ أدب ٢٠٢ مجاميع تيمور .
(٧) وتسمى بلابل الروضة ، بالمقامات المطبوعة ص ٦٣ وما بعدها .
(٨) وتسمى المقامة الوردية بالمقامات المطبوعة ص ١١ وما بعدها ومخطوطة ٤٠٥ أدب تيمور .
(٩) وتسمى المسكية بالمقامات المطبوعة ص ٢ وما بعدها ومخطوطة ٤٠٥ أدب تيمور .
(١٠) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٣١٩٩٠ أدب ، و١٥١٠ أدب و٢٠٢ مجاميع تيمور .

١١ - مقامة النساء[١] .

١٢ - المقامة التفاحية[٢] .

١٣ - المقامة الزمردية[٣] .

١٤ - المقامة الفستقية[٤] .

١٥ - المقامة الياقوتية[٥] .

١٦ - المقامة اللؤلؤية[٦] .

١٧ - المقامة البحرية[٧] .

١٨ - المقامة الدرية[٨] .

١٩ - الفتاش على القشاش[٩] .

٢٠ - مقامة الاستنصار بالواحد القهار[١٠] .

٢١ - مقامة تجمع المعارض فى نصرة أبن الفارض[١١] .

٢٢ - السهم الخارق لعبد الخالق[١٢] .

٢٣ - مقامة الدوران الفلكى على ابن الكركى[١٣] .

---

(١) وتسمى رشف الزلال من السحر الحلال . طبع حجر فى مجلد ٣٢ ص - ٢٠ سم وتوجد منها نسخة بالأزهر تحت رقم ٥١٢٧٠ ، ٥٧٠٧ حسنين باشا .

(٢) بالمقامات المطبوعة ص ٢٠ وما بعدها ، ومنها خطية تحت رقم ٤٠٥ أدب تيمور .

(٣) بالمقامات المطبوعة ص ٣٧ وما بعدها ، ومنها خطية تحت رقم ٤٠٥ أدب تيمور .

(٤) بالمقامات المطبوعة ص ٤٣ وما بعدها ، ومخطوطة بدار الكتب ٤٠٥ أدب تيمور .

(٥) بالمقامات المطبوعة ص ٤٦ وما بعدها ، والمخطوطات ٤٠٥ أدب تيمور ، ونسخة أدب المخطوطات العربية ميكرو فيلم ٩٤٨ أدب .

(٦) نقلها من مخطوطة د . الشكعة فى كتابه السيوطى م . م . (ص ٦٧ / ٧٨) عن نسخة بدار الكتب ٢١١٧٤ ب ، كما يقول ، بالرغم من أنها توجد مطبوعة بدار الكتب برقم ٣٢ أدب من ص ٩٣/ ١٠٢ .

(٧) وتسمى النيلية فى الرخاء والغلاء بالمقامات المطبوعة ص ٥٨ ، وما بعدها .

(٨) كذا فى الفهرس . ولا ندرى ومن الجائز أن تكون قد حملت أسما آخر .

(٩) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .

(١٠) نعتقد أنها المستنصرية التى ذكرها السيوطى فيما سبق .

(١١) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٨٠ تصوف تيمور ، وتحت رقم ٩٧ مجاميع ، فضلا عن نسخة سوهاج تحت رقم ٣١٢ أدب .

(١٢) لم نعثر عليها .

(١٣) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .

٢٤ – مقامة الصارم الهندى فى عنق ابن الكركى[١] .
٢٥ – مقامة طراز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة[٢] .
٢٦ – مقامة الجواب الزكى عن قمامة ابن الكركى[٣] .
٢٧ – الافتراض فى رد الاعتراض[٤] .
٢٨ – نزول الرحمة فى التحدث بالنعمة[٥] .
٢٩ – منع الثوران عن الدوران[٦] .
٣٠ – الصواعق على النواعق[٧] .
٣١ – مقامة الكلاحية فى الأسئلة التاجية[٨] .
٣٢ – مقامة ساحب السيف على صاحب صيف[٩] .
٣٣ – مقامة الفتح القريب[١٠] .
٣٤ – مقامة أولى الألباب[١١] .
٣٥ – مقامة فى مسئلة الحلف[١٢] .
٣٦ – اللفظ الجوهرى فى رد خبط الجوجرى[١٣] .
٣٧ – الفارق بين المصنف والسارق[١٤] .

---

(١) وذكرها أيضا خليفة فى كشفه جـ ٢ ص ١٠٧٠ ، ص ١٧٩٢ ، ص ١٩٨٥ . ولم نعثر عليها علّها حملت أسما آخر .

(٢) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٦٠٢٣ ز .

(٣) لم نعثر عليها . ولعلها حملت اسما آخر .

(٤) مخطوطة تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .

(٥) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٧٤٢ مجاميع ورقة ٤٨/٤٢ ، ونسخة أخرى تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور وهناك كتاب للسيوطى (التحدث بنعمة الله) تحقيق إليزابث مارى سرتين – القاهرة كمبردج ١٩٧٥ م .

(٦) لما نعثر عليها .

(٧) مخطوطة بدار الكتب مجاميع ٤١٦ ورقة ٦٣ إلى ٦٨ .

(٨) ، (٩) ، (١٠) ، (١١) ، (١٢) لم نعثر عليهم وقد ذكره حاجى خليفة فى كشفه جـ٢ ص ١٧٨٥ .

(١٣) ذكره حاجى خليفة جـ ٢ ص ١٧٨٦ وللسيوطى كتاب « اسجال الاعتدال » ألفه ردا على الجوجرى . كشف الظنون جـ ١ ص ٨١ .

(١٤) لم نعثر عليها . وذكرها حاجى خليفة جـ ٢ ص ١٧٨٦ .

٣٨ - المقامة الأسيوطية[١] .

٣٩ - المقامة المكية[٢] .

٤٠ - تنبئة الغبى بتبرئة ابن عربى[٣] .

٤١ - المقامة الطاعونية[٤] .

٤٢ - منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف[٥] .

مقامات السيوطى فى حقل الدارسين :

إن نصيب مقامات السيوطى فى حقل المؤرخين الدارسين كاد أن يكون كنصيب شعره لديهم فلم نظفر إلا بعدد محدود من الدارسين قد عرفوا السيوطى مقاميا ، وقد بزّ منهم باحثان يعدان أهم من تحدثوا عنه مقاميا ، ونعنى بهما محمد رشدى حسن وعبد اللاه محمد حسن .

وسوف نوجز الحديث عن جهود هؤلاء الدارسين وإشاراتهم :

ويبدأ الترتيب الزمنى بـ « محمد رشدى حسن » فى بحثيه[٦] « أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة » و« تطور فن المقامة العربية » ، وقد ناقش فى بحثه الأول فكرة جعل مقامات السيوطى الحلقة التى تبدأ المقامة بها تطورها نحو القصة[٧] .

وقد عرض الباحث ما بين يديه من مقامات . فتحدث عن محتوى المقامات وعناصرها ، وأشار إلى بعض المقارنات بين مقامات السيوطى والحريرى والهمزانى ، هذا وإن كنا نختلف معه فى بعض الآراء إلا أن حديثه عن مقامات السيوطى به آراء ذات قيمة ، وقد ضمن بحثه الثانى خلاصة ما جاء فى بحثه الأول .

---

(١) نقلها الشكعة فى كتابه « السيوطى م . م . » (ص ٢٦٨/ ٢٧٠) عن نسخة من دار الكتب تحت رقم ٣٢ مجاميع ورقة ١٠٧ وما بعدها .

(٢) نقلها الشكعة أيضا فى كتابه السابق ص (٢٦٥ / ٢٦٨) عن نسخة من دار الكتب ٧٢ مجاميع ، وتوجد لها نسخة أخرى تحت رقم ٤١٦ مجاميع ورقة ١٤١ .

(٣) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٩٢٠ تصوف وتسمى (تنبيه الغبى وتنزهة ابن عربى) .

(٤) بالمقامات المطبوعة ص ٦٩ ، ومابعدها .

(٥) مطبوعة فى مجلد ط مطبعة الشرق الإسلامية بالقاهرة ١٩٣٨ م .

(٦) *نال بالبحث الأول درجة الماجستير عام ١٩٦٠ والثانى درجة الدكتوراة عام ١٩٦٦ آداب القاهرة فرع الخرطوم .*

(٧) يرفض الدكتور الطاهر المكى فكرة نشأة القصة القصيرة من أصل عربى كالمقامات ، راجع كتابه « القصة القصيرة » ط الرابعة . دار المعارف بمصر ص ٨٦ وما بعدها .

والثانى هو عبد الوهاب حمودة الذى اعتمد على بحث رشدى حسن السابق دون أن يذكر ذلك ، ومع هذا فقد ترك الذاكرة تلعب دورها فى عرض مقامات السيوطى ، فإنه حين عرض موضوع المقامة الوردية قال : « ... وكان فى خاتمتهم الريحان ، فخطب فيهم خطبة حاذقة طويلة مشوقة ، فتأثروا لها ، وأجمعوا من أجلها على أنه ملك الأزهار الرياحين ، وسلموا له وبايعوه بإمارته »[1] وبالطبع الذى سلمت له المبايعة بالإمارة هو « الفاغية » التى لم تشترك فى المناظرة .

وكذلك كان عدنان سلمان[2] فقد أصدر حكما على مقامات السيوطى معتمدا على إشارات التقطها من الباحثين السابقين كمحمود رزق سليم فى عصر سلاطين المماليك .

ثم طاهر حمودة[3] فاعتمد على ما كتبه عبد الوهاب حمودة وغيره فى إشارات عابرة ، ثم يأتى الباحث يوسف نور عوض[4] فى رسالته « فى المقامات بين المشرق والمغرب » الذى عرض بعض مقامات السيوطى ، وقد عرض مقامته الوردية وتفهمها فهما حسنا .

أما الباحث عبد اللاه محمود حسن فقد توقف فى رسالته « السيوطى أديبا » عند المقامات الست المطبوعة ، فأثبتها كاملةً ، وعرض موضوع تلك المقامات ، وناقش أسلوب السيوطى من خلالها وأصدر آراء وأحكامًا سوف تمر بنا .

أما شوقى ضيف فقد تحدث عن السيوطى فى كتابه المقامة وفى كتابه « عصر الدول والإمارات فى سطور تظلم السيوطى ظلمًا بيّنا .

ثم يأتى الدكتور الشكعة فى بحثه « .. السيوطى كاتبا أديبا » فتحدث عارضا بعض مقامات للسيوطى ، مقسما هذه المقامات من ناحية الشكل والمضمون ، فضلا عما ورد فى ذلك من آراء ، سنتوقف أمامها تأييدا ورفضا .

وأخيرا يأتى الدكتور السيد على حسن بمقالته السيوطى وفن المقامات ، وسبق أن أشرنا إليها .

---

(١) صفحات من تاريخ مصر ص ٢٣٢ .
(٢) السيوطى النحوى ص ١٢٢ وما بعدها .
(٣) السيوطى اللغوى ص ١٢٦ وما بعدها .
(٤) ص ٢٩١ وما بعدها .

موضوع مقامات السيوطى

إن باحثى السيوطى أشارو إلى الموضوعات التى طرقها السيوطى من خلال المقامات التى بين أيديهم ، ويعد تقسيم الدكتور الشكعة فى بحثه « السيوطى كاتبا أديبا » أحسن تقسيم بَيْنَ باحثى السيوطى من ناحية الشكل والمضمون وهذا التقسيم هو :

مقال دينى : المقامة اللؤلؤية .
مقال فى الوصف : مقامة الروضة .
مقال فى الوعظ : مقامة الحمى ، والمقامة الولدية .
مقامات المناظرات : المقامة الطاعونية ، والنيلية ، والنساء .
مقامات المفاخرات : المقامة الياقوتية / الوردية / التفاحية / الفستقية .
المقامات القصصية التقليدية : المقامة المكية / الأسيوطية / الجيزية .

إلا أننا نرى تقسيما آخر ، من شقين ، شق عن موضوعات مقاماته ، وشق عن الشكل .

وهذا هو التقسيم لمقامات السيوطى من ناحية الموضوع - منبهين بداية - أن المقامة قد تعالج أكثر من موضوع ، إنما المفاضلة فى الموضوع الأساسى .

١ - **الموازنات** : ١ - موازنات أدبية طبية (رمزية) ومنها الوردية / المسكية / التفاحية الزمردية / الياقوتية .
٢ - موازنات جغرافية وصفية (ساجعة الحرم فى وصف مكة والمدينة) .

٢ - المقامات الذاتية منها اللؤلؤية / الاستنصار بالواحد القهار / الكاوى / نزول الرحمة المزهرية / طراز العمامة / الدوران الفلكى ..

٣ - الجدلية .. قمع المعارض - الصواعق على النواعق - تنبئة الغبى / الافتراض . الكلاجية / ساحب السيف - السندسية - الفتاش عى القشاش / السهم الخارق .

٤ – أحداث عصره .. اللازوردية / الذهبية فى الحمى الطاعونية / النساء / النيلية .

٥ – الوصفية .. وصف الروضة ، منهل اللطايف .

٦ – تعليمية ... الأسيوطية / المكية / الجيزية / الفتح القريب / أولى الألباب .

١ – المقامات الموازنات :

قلنا إنها تنقسم إلى قسمين موازنات طبية أدبية وتشمل الوردية / المسكية / التفاحية الفستقية / الزمردية / الياقوتية ، وموازنات جغرافية وصفية ومنها ساجعة الحرم فى وصف مكة والمدينة .

وسوف تنال هذه المقامات حظا وفيرا من حجم هذه الرسالة ، نظرا لما ضمنها السيوطى من أبعاد رمزية تخصه هو ، وتخص المجتمع ، لكننا هنا نكتفى بعرض محتوى تلك المقامات تاركين رؤيتنا التحليلية لما بعد .

ونبدأ بعرض مضمون المقامة الأولى ، وهى الوردية[1] .

وهى مناظرة طريفة ومناقشة حامية الوطيس بين صنوف مختلفة من الأزهار تتمثل فى الورد والنرجس والياسمين والبان والنسرين والبنفسج والنيلوفر والآس الريحان ، لاختيار المَلِك من بينهم .

ويبدأ السيوطى مقامته بهذه المقدمة .

« حدثنا الريان عن أبى الريحان ، عن أبى الورد أبان ، عن بلبل الأغصان ، عن ناظر الإنسان عن كوكب البستان ، عن وابل الهتان . قال : مررت يوما على حديقة ، خضرة نضرة أنيقة ظلالها وديقة ، وأغصانها وريقة ، وكوكبها أبدى بريقه ، ذات ألوان وأفنان ، وأكمام وأكنان وإذا بها أزرار الأزهار مجتمعة ، وأنوار الأنوار ملتمعة ، وعلى منابر الأغصان أكابر الأزاهر والصَّبا تضرب رؤسها من الأوراق الخضر بالمزاهر ، فقلت لبعض من عبر ألا تحدثونى ما الخبر فقال إن عساكر الرياحين قد حضرت وأزاهر البساتين قد نظرت لما به نضرت ، واتفقت على عقد مجلس حافلٍ ، لاختيار من هو بالملك أحق وكافل ، وها أكابر الأزاهر قد صعدت المنابر ، ليبدى كلٌّ حجته للناظر ، ويناظر بين أهل المناظر ، فى أنه أحق أن يلحظ بالنواظر ، من بين سائر الرياحين

(١) بمقاماته المطبوعة من ص ١١ إلى ص ٢٤ .

النواضر ، وأولى بأن يتأمر على البوادى منها والحواضر ، فجلست لأحضر فصل الخطاب ، واستمع إلى ما يأتى به كل من فنون الحديث المستطاب »[1] .

وكان أول المتحدثين الورد - ويرر أسباب أهليته للمُلْك ، فأسكته النرجس ساحبا هذ الحق إلى نفسه ، فهاجمه الياسمين مدعيا خصائص الخلافة به ، فأسكته البان ، فجاء النسرين منتصرا لأخيه الياسمين آخذاً هذا الحق له فأتى البنفسج هاجيًا النسرين مدعيا كذلك ، فقام النيلوفر بإبطال حق البنفسج ، وكذلك فعل الآس فى النيلوفر ، فهب الريحان ليهجو الآس ، فما لبث أن عاد الآس إلى هجاء الريحان ، ولم تنته المقامة بعد إلا أننا نود أن نذكر أن حديث كل واحد منهم ذو شقين ، شق نظرى ، وشق مادى .

الشق النظرى :

١ - إبطال أحقية سابقة ، ودحض مبرراته ، وينطبق هذا عليهم جميعا عدا الورد حيث كان المتحدث الأول ، ولم يرد بعد ذلك .

٢ - وصف نفسه وملكاته .

مقدار مكانته فى الآثار المنزلة « القرآن والحديث » .

٤ - ذكر ما ورد فيه من الآثار الوضعية كأقوال الصحابة ، والملوك والأعيان وما قاله أهل الأدب والشعر فيه .

الشق المادى : ويقوم على ذكره فوائده الطبية ومنافعه العامة للإنسان ، ومما قاله الورد يمثل الشق الأول .

أنا الورد ملك الرياحين ، والوارد منعشا للارواح ومتاعا لها إلى حين ، ونديم الخلفاء والسلاطين ، المرفوع أبدًا على الأسرة ، لا أجلس على ترب ولا طين ، والظاهر لونى الأحمر على أزهار البساتين ، والأشرف على كل ريحان فخرا ، بأنى خلقت من عرق المصطفى وجبريل والبراق ليلة الإسرا ، والمظفر بقوة الشوكة والصولة ، والمقصور على من ناوانى لأنى صاحب الدولة[2] .

« ... وكفى رفعة على الأقران ، أن لفظى مذكور فى القران فى سورة الرحمن ، فى

---

(١) السابق ص ١١ .

(٢) المقامات المطبوعة ص ١١ .

قوله تعالى : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » ، وقد حمانى أمير المؤمنين المتوكل كما حمى الشقائق النعمان ، وهذا تقليد من الخلافة بالملك على سائر الريحان ، ولى من بينهم ابن يخلفنى فى الحكم إذا غبت طول الزمان ، ... وقال فى الشاعر ..."[1] ، ومما يمثله الشق الثانى قوله « ... ، أسكن حرارة الصفراء ، وأقوى الباطن من الأعضاء ، وأطيب رائحة البدن ، .... »[2] .

وكان مما قاله النرجس وهو يبطل فخر الورد قوله « .... لقد تجاوزت الحد ياورد وزعمت أنك جمع فى فرد ، إن اعتقدت أن لك بحمرتك فخرة ، فإنها منك فجرة ، قال النبى (ﷺ) إن الشيطان يحب الحمرة ، فإياكم والحمرة ، وكل ثوب ذى شهرة ... الخ[3] .

ولما انتهى جدال هذه الأزهار ، وأبدى كل ما لديه ، وقال ورد عليه اتفق رأى الناظرين وأهل الحل والعقد من الحاضرين - كما يقول الراوى - على أن يجمعوا بينهم حكما عادلا صاحب صفات عددها الراوى فذهبوا إليه ، وحكم بينهم وهنا الطريف فى المقامة لزهرة الفاغية التى لم تشترك معهم ، وأذعنوا لها مقتنعين ، ودخلوا تحت إمرتها طائعين .

٢ - المقامة المسكية :[4]

وهذه مقامة من مقامات الموازنات بين أنواع الطيب ، فقد اختلف « المسك والعنبر والزعفران والزباد » فيما بينهم ، أيهم أجل فى المرتبة الطيبية ، وأجل فى مواطن الانتفاع ، فهداهم هادٍ إلى إمامٍ فى البلاغة ، خطيب ، وهو أهلٌ لأن يفصل بين المتنازعين ويعطى كل ذى حق حقه ويبوء كل واحد منهم مكانه الذى يستحق ، فدار الحديث ذلك الإمام وهو يفصل بينهم على الشقين السابقين فانتهى تحكيمه لأن يحتل المسك المرتبة الأولى ثم العنبر ثم الزعفران ثم الزباد .

يقول السيوطى على لسان الطيب وهم بين يدى الإمام الحَكَم « .... وضربنا إليك أكباد الإبل من أقصى البلاد ، وقطعنا إليك كل بحر وواد ، وقصدناك ونحن أكرم وراد

(١) السابق ص ١٢ .
(٢) السابق نفس الصفحة .
(٣) السابق ص ١٣ .
(٤) المقامات المطبوعة ص ٢ إلى ص ١١ .

ورّواد ، ولجأنا إلى حماك الذى هو للعفاة ملاذ ، ووردنا منهلك العذب الذى هو كافل لأنواع الملاذ ، متشوفين إلى عظيم انصافك ، متشوقين إلى كريم اتصافك ، لتنشر من أوصافنا ما خفى وتظهر من أسرارنا ماصفا ، وتلبسنا من خلع الملاحة ماخفا ، وتعفو عما صدر منا من جفا ، وتأخذ من أخلاقنا ما عفى ، وتنعم لنا من در ألفاظك التى هى شفاء لمن كان على شفا ، وذلك لما طرق مسامعنا من مقامة الرياحين (الوردية) التى أنشأتها ....»[1] .

ويفصل الحكم بينه ، ومما قاله عن الزباد « .... وأما أنت أيها الزباد ، وإن اشتهرت فى كل ناد ، بين كل حاضر وباد ، فلست تعد مع هؤلاء فى الاقران . لأنه لم يرد ذكرك فى آية من القرآن ، ولا فى حديث عن سيد ولد عدنان ، لا فى الصحاح ولا فى الضعاف ولا فى الحسان ولا فى أثر عن أحد الصحابة ولا التابعين ... الخ[2] .

٣ - المقامة الياقوتية :

تبدأ المقامة بهذه المقدمة « .. اجتمع سبعة من اليواقيت ، لبضعة من المواقيت وقصدوا للمفاخرة لا للمفاجرة ، وللمكاثرة ، لا للمكابرة ، أيها فى الرتبة أعلى ، وفى الزينة أغلى ، وفى المنظر أحلى ، وفى المخبر أجلى ، فعقدوا لكل منهم حلقة ، وسبحوا الذى أحسن كل شىء خلقة ، ونصب لكل منهم فى حلقته منصه ، وأشاروا إليه بالأصابع حيث أضحى للعين الخاتم وفصه ، فقال الياقوت : الحمد لله الذى خلقنى فى أحسن التقويم ....»[3].

واستمر الياقوت ثم اللؤلؤ ثم الزمرد ثم المرجان ثم الزبرجد ثم العقيق ثم الفيروز ، ويدير كل منهم حديثه على الشقين السابقين مع عدم التهاجى ، ومن ناحية ثانية أنهم لم يحتاجوا إلى فصل ، إنما على كل عنصر أن يفرغ ما فى جعبته من وصف وذكر مقداره فى القرآن والسنة وأقوال الصحابة والاعيان ، وأهل الأدب وذكر فوائده الطبية ، وهنا محل تساؤل ، أية فوائد طبية لهذا الأحجار ؟ فالياقوت مثلا يمنع من أصابه الطاعون ويقوى القلب الجريح ، ويقاوم السموم .... الخ . وسوف نعود إلى تفسير هذا فى موضع آت .

---

(١) السابق ص ٣ .

(٢) السابق ص ١٠ .

(٣) بالسابق من ص ٤٦/ ٥٥ .

٤ - المقامة التفاحية فى أنواع الفواكه :[١]

وهذه موازنة أيضا ولكن بين أنواع الفواكه « الرمان - الأترنج - السفرجل - التفاح - الكمثرى - النبق - الخوخ » وهذه الموازنة لم تحدث من قِبَلهم ، ولم يتخاصموا فى محفل إنما كما قال السيوطى فى مقدمة المقامة :

« سألت طائفة فاقهة ، عن مناقب الفاكهة ، وصفاتها المشاكهة ، وما ضرب لها من الأمقال والمشابهة وما قاله فيها كل طبيب أريب ، وكل شاعر أديب ، واختارت منها سبعة زهرا ، وبضعة جهر الزمان بحسنها جهرا ، فأجبناها لما طلبت ، وسالت قناة القلم بالبلاغة فيها لما سالت ورغبت ، وبدأنا بالألطف فى الذات ، والأشرف فالأشرف فى الصفات .

الرمان ، وما أدراك ما الرمان ، مصرح ذكره فى القرآن ....[٢] وأعتقد أن السيوطى وضح فى مقدمة المقامة منهجه الذى سوف يسير عليه وهو نفس المنهج المتبع فى هذه الفئة من المقامات .

٥ - المقامة الزمردية فى أنواع الخضروات :[٣]

وهى كسابقتها فى الموازنة عن أنواع الخضروات (القرع - الهند باء - الخس - الرجلة - البامية - الملوخيا - الخبازى) وتسير على نفس النمط السابق .

٦ - المقامة الفستقية فى أنواع البقول :[٤]

يقول السيوطى فى مقدمتها « مرت من البقول ، على النقول عائفة ، تروم الإفصاح عن منافعها والإيضاح عن طبائعها ، فأجابها من أجاب ....»[٥] .

والمقامة حديث عن « الفستق - اللوز - الجوز - البندق - الشاهبلوط - حب الزلم - الصنوبر » .

ثانيا : الموازنات الجغرافية : فقد كتب السيوطى مقامته « فى فضل مكة والمدينة »

---

(١) بالمقامات المطبوعة من ص ٢٤ .
(٢) السابق ص ٢٤ .
(٣) بالسابق من ص ٣٧ .
(٤) بالسابق من ص ٤٣ .
(٥) السابق ص ٤٣ .

وقد عرضها الدكتور السيد على حسن فى مقالته السيوطى وفن المقامات عرضا مبسطا[١] ، وفيها يتحدث السيوطى حديثا علميا عن مكة وحرمتها ، ويذكر أسماءها وكناها وتكريم الله لها ، ويتحدث عن الكعبة ويذكر أفضالها ومآثرها وعن الأماكن المقدسة وتحدث عن المدينة ، وأسمائها ومآثرها بشىء من الموازنة بينهما .

٢ - موضوعات ذاتية :

عرفت مما سبق فى التمهيد والبابين السابقين أن الفترة الزمنية التى قضاها السيوطى منذ أن خطا فى طريق التأليف حتى توفاه الله ، تمثل جد تمثيل فترة اصطدامات ومعارك فكرية لا يبوخ أوارها ومصدر ذلك ينبعث من مصادر ما أهّل به السيوطى نفسَهُ للوصول إلى تحقيق المبعوثية ومن ناحية أخرى طبيعة الأثر الناجم من محاولاته تغيير الثوابت ، فانثالت عليه أسّنة الإحباطات والتفتيت ، محاولة ألا يكون كما أراد ، فطعنته هذه الألسنة فى شخصه وأسرته وفكره وعلمه ومؤلفاته .... الخ .

وقد تطلب ذلك - طبيعيا - أن يرد السيوطى الصاع صاعين ، إن لم يرجع السهم إلى نَحْرِ راشقه ، فأفرز لنا سيلا من المؤلفات لذلك ، كتبًا ، ورسائل ، ومقاماتٍ .

ويعنينا هنا المقامات التى واكبت السيوطى فى اصطداماته المتعددة ، التى تنقسم من خلال الموضوعات إلى شقين : الأول ندرجه تحت الموضوعات الذاتية ، والثانى تحت الموضوعات الجدلية .

وننبه على أن الأمر قد يلتبس فى عدم وجود فرق بينهما كما فعل أحد الباحثين[٢] . فالفرق بينهما ناتج من أن الشق الأول من هذه المقامات يحكى ردوده على مهاجميه فى شخصه وأسرته ومؤلفاته ، وتصور - من ناحية أخرى - موافقه إزاء ما يحدث له إيجابا أو سلبا ، وهذه ما نخصها بالمقامات ذات الموضوعات الذاتية ، أما ما تتحدث عن موقفه إزاء ما يثار من قضايا علمية أو أدبية أو فكرية أو دينية ، فهذه ما نسميها بالمقامات الجدلية .

ومن مقامات السيوطى الذاتية :

---

(١) مجلة كلية الآداب بسوهاج . العدد الثالث ص ٣٠٨ وما بعدها .

(٢) رشدى حسن فى أثر المقامة ص ٣٣ وما بعدها .

الكاوى على تاريخ السخاوى[١]

ألف السيوطى هذه المقامة ليرد بها على السخاوى الذى ترجم للسيوطى ترجمة ظالمة فى كتابه « الضوء اللامع » ، وقد جرد السيوطى كل ما تحلى السخاوى به ، فى هجاء حاد .

يقول موجها حديثه إلى « أرباب النهى والألباب ، وأصحاب المعارف والآداب وأولى الفتاوى والأحكام ، .... ،..... ، « قائلا » ما ترون فى رجل ألف تاريخا جمع فيه أكابر وأعيانا ونصب لأكل لحومهم خوانا ، ملاه بذكر المساوىء ، وثلب الأعراض ، .....، جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وأدامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق فيه بين جليل وحقير ....»[٢] .

مع أن السخاوى كما يصفه السيوطى « حقير نفير ، لا يباع فى سوق العالم بقمطير ، لا نسبه فى الأنساب عالى ، ولا حسبه إذا قورن بالأحساب غالى ، لا يزداد إلا جهلا على كد الأيام والليالى .... الخ »[٣] .

وراح السيوطى يفند مزاعم وجهل السخاوى تفنيدا علميا فى إطار هجائى فيذكر - مثلا - أن السيوطى حينما سئل عن إمكان رؤية النبى يقظة ، فلما بلغ ذلك السخاوى « تنفخ أشداقه ، وقلب أحداقه ، وصاح ، وصال ، وجاب ، وجال ، وعاب ، وغال ، وفاح ، وقال : ومان ، ومال ، وهان ، وهال ، وهينم ، وهمهم ، ورمرم ، وزمزم ، وحمحم ، ودمدم ، وجلجل وزلزل ، وصلصل ، وقلقل ، ووهوه ، وولول ، وله عادة بذلك يطلب الحرب ، وليس هو من أهل البأس ....»[٤] .

و« فقلت لأصحابى بلغوا هذا الحمق ، إن هذا القول يؤول إلى الكفران »[٥] .

وينادى السيوطى متعجبا « فيا أمة الإسلام هلموا فقد ظهرت العجايب وعظمت المصايب وفتحت المغايب ، غامى ليس له علم ، ولا فهم ، ولا ضرب فى شىء من العلوم

---

(١) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٥١٠ خصوصى من رقة ١ إلى ٧ .
(٢) السابق ورقة ١ .
(٣) الكاوى . ورقة ٤ .
(٤) السابق ورقة ٤ .
(٥) السابق ورقة ٥ .

نادنى بسهم إنما منتهى أمره كثرة السماع على شيوخ العامة والعجايز ....»[١] .

ونبه فى مقامته هذه أن « الواجب على كل مسلم أن يطرح تاريخ هذا الرجل طرحا ، ويضرب عنه صفحا ....»[٢] .

٢ - طراز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة[٣]

تعد هذه المقامة من أكبر مقامات السيوطى حجما ألفها فى ابن الكركى الذى هاجمه ورماه ببعض المثالب .

يقول السيوطى فى مقدمتها « .... اعتدى على عاد ، وظلمنى ظلم عاد ، وبدأنى بالإساءة وعاد ، وأكثر على من السفه ، وملا بشتمى فاه والشفة ، ومد لسانه إلى وهو قصير ونظر إلى بعين النقصٍ فانقلب إليه البصر خاسيًا وهو حسيرٌ ، ..... فأمهلته سنين ، وعلمت أنى متى مِلْتُ عليه صار له صراخ وأنين ....»[٤] .

وقد صبَّ على ابن الكركى سيلا من الهجاء ، موضحا أن هذه سماته ، ومن ثم رأى ألا يرد عليه ، ولا يلتفت إليه ولكنه وجد - حتما - أن يرد عليه ، فراح يصف حسن مقامته وصفا مطولا ، موضحا الفرق بين كتابته وكتابة الكركى ، فيقول عن مقامه ابن الكركى أو قمامته كما يذكر ذلك السيوطى : « .. فسولت له نفسه أن يعارض ما كتبت ، وأن يجيب كما أجبت فكتب سبا أدعاه مقامة وهى قمامة ، فيها كناسة وزبالة وسفالة وفسالة ، كأنما صيغ من خثا البقر ، وحلى بقلايد البعر ، وطليا فى البيض الفاسد من مدر ، لا ألفاظ ولا معانى ، ولا فايدة يستفيدها المعانى ، ساقطة الترتيب ، كبيرة اللحن ، قليلة التهذيب كلها إسآت وسفة ، وجهالات من غير معرفة ، عارية من قوانين العلم والأدب ... الخ[٥] .

واستمر بعد ذلك يمدح نفسه من خلال الموازنة بينهما ، ومع ذلك فقد زعم السيوطى أنه ينتهج نهجا علميًا إذْ قسم ما يتلقاه من مهاجميه إلى :

الأول : ما هو سب واغتياب ، وهذا لا يقابله بالجواب .

الثانى : انكارِ شيء عليه ، يتعلق بالعلم ويرد عليه .

---

(١) السابق نفس الورقة .

(٢) السابق ورقة ٦ .

(٣) مخطوطة تحت رقم ١٦٠٢٣ ز .

(٤) السابق ورقة ٢ .

(٥) طراز العمامة ورقة ٣ .

والثالث : ما يتردد بين التسمين ، وهذا ما يترك الجواب على أكثره[١] .

وبلغت النظر فى مقامة السيوطى من رد حاد ، وهجاء لاذع إلا أنه استعرض بعض مغالطات الكركى ، ليرد عليها رداً غير غريب عليه مثل :

« أما عيبك إياى بدعوى الاجتهاد ، وتجديد الدين على رأس هذه المائة للعباد فجوابه .... »[٢] .

و« أما اعتراضك على قولى أنى أعلم خلق الله الآن قلما وفما ، وما فى المشرق والمغرب الآن أحد إلا وهو داخل تحت لواى المشار إليه علما وعملا .... »[٣] .

وعشرات القضايا الخاصة والعامة التى بسطها بسطا فى هذه المقامة .

٣ - الدوران الفلكى على ابن الكركى[٤]

كتب السيوطى هذه المقامة قبل أن يكتب مقامته السابقة طراز العمامة ، إذْ أنه يذكر فى طراز العمامة اسم هذه المقامة وهو يرد على الكركى ، فيقول له « ولقد نبهتك فى الدوران الفلكى على أن نصوص الأئمة بفرضية الاجتهاد فى كل عصر طافحة ... »[٥] .

ويبدأ السيوطى مهاجيا ابن الكركى فى نشأة وأطوار حياته الأولى حيث كان مغنيا فى الزفة ثم قرأة الختوم والأسباع ، ثم مؤذنا ، وأنه تعلم بعض ما عنده من تلاميذ السيوطى ، وصار يخدم الأمراء والأكابر ، وحين صار شأنه مرتفعا بعض الشيء شمخ بأنفه والرأس ، وشمر مناخره على الناس ، وصال على الكبير والصغير ، وداس ، ثم يقول السيوطى . « وأما أنا بالخصوص فمازال منذ سار له فى البلد سمعة ، وامتلا بذكره بين الناس سمعه ، يفوق لى سهام الاذى ، ويغبر فى عينى بالقذى ،..... ،..... ، وأنا فى عزلة عنه وعن ساير أهل زمانى ، لا أبالى من اعتد بى ولا من رمانى »[٦] .

واستمر السيوطى يشرح استفزازات ابن الكركى ومناوشته له ، ويذكر بعض المواقف السابقة معه يقول : « ... أذكر إذ صليت واياه الجمعة مرة ، وأنا أظن أنه تهذيب

---

(١) راجع السابق ورقة ٨ .

(٢) السابق ورقة ٨ .

(٣) السابق ورقة ١٠ .

(٤) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ص ٧٨ وما بعدها .

(٥) طراز العمامة ورقة ٩ .

(٦) الدوران الفلكى ص ٧٩/٨٠ .

أخلاقه ، وخفف شره فأخذ يتبعني بالمسايل واحدة بعد أخرى ، ويطارحني بما أنا ، بل بعض طلبتي به منه أدرى ، فالتفت إليه التفات الأسد ،..... ، ولقد حصرناه ، وقصرناه ، وأخرجناه من قشره وعصرناه وجهرنا له بالتغليظ وأظهرنا للناس ما أبداه من التخليط ، فنال شدة وبوسا ، وحيرت أعلامه نكوسا ، وبدلت سعوده نحوسا ، وحلقت لحية ابراهيم بموسى[١] .

ثم بين أن المناظرة بينه وبين الكركي كما طلب الأخير ، تنقص السيوطيَّ قدرا ، لأنه كما يقول السيوطي « لو ندبت لمناظرتك واحدا من طلبتي لقصرك ، وقسرك ، وكسرك ، وأسرك ، وحسرك ، وحصرك ، وعصرك ، وإن لم تفسر من بين يديه قبرك ، وصيرك في قبضته كصفور في قبضة نسر ، .... ، .... ، ثم أنك تلهج المناظرة وأنت لا تتصور ماهلا من الكيفية ولا تدرى .... »[٢] .

ويقول - مثلا - « ثم أنك عددت عليَّ من المساوىء تصنيفي في الرد على الجوجرى والسخاوى فأما الجوجرى فكان الافتا بيني وبينه كالمشترك وكنت واياه بسبب ذلك في معترك ، فاعترض عليَّ في نحو عشرين فتيا ، على الصواب ، وكان هو قد أخطأ في الجواب ، فألفت في كل مسئلة مؤلفا أظهرت فيه المنقول ، وبنيت المردود من المقبول ... الخ »[٣] .

ونلتقى بجانب آخر من مقامات السيوطى ذات الموضوع الذاتى .

٤ - المقامة اللؤلؤية :

كتب السيوطى هذه المقامة ليعتذر عن عدم التدريس والفتيا ، وقد فجّر فيها الكثير من القضايا التى تمسه بوصفه عالما ملتزما ، وموقفه - أنذاك - من المجتمع ، ومدى ما يتجشمه من متاعب وأذى ، تؤدى إلى اعتزال الحياة العامة والناس .

---

(١) فهم ابن الكركي أنه يقصد بـ « حلقت لحية ابراهيم بموسى » النبيين ، إنما - كما وضح السيوطى في طراز العمامة ص ١٥/١٦ أن ابراهيم اسم ابن الكركى وموسى آلة الحلق ظنا منه أنها ليست موسى بالألف التامة وأنها موس كما تنطقها العامة ص ١٥ السابق ، وراجع ما قيل فى « الموسى » المذكر والمؤنث لابن الفراء تحقيق د . رمضان عبد التواب الناشر مكتبة دار الشرق ١٩٧٥ ص ٨٦ وهامشها .

(٢) الدوران الفلكى ص ٨٣ .

(٣) السابق ص ٨٥ .

ويبدأ السيوطى مقامته اللؤلؤية مفوضا أمره إلى الله مخاطبا « معشر الأحباب الصلحا وأولى الألباب النصحا ، أن يستمعوا قبل أن يسوقوا اللوم عليه إلى « سماع الأعذار ، فإن هذا الزمان زمانُ الصبر ، الصابرُ فيه كقابضٍ على الجمر ، ويوضح السيوطى قائلا « قد مُرجَت الأمانات والعهود ، وكثر القائلون بالزور والشهود ، وجمَّ الاختلاف ، وقلَّ الائتلاف ، وكُذِّب الصادق ..... ، .... ، وتكلم الرجل التافه فى أمر العامة ، .... ، واتخذت البدعة سنة ، فلا يغيرها حتى عمر ، وصار الموت أحسب إلى العلماء من الذهب الأحمر ، واستعلى الجهال على العلماء وقهر السفهاء الحلماء ، وولى الدين غير أهله .

ويوضح للناس والتاريخ بعض الأشياء فيقول :

« وتأسست بالحديث الذى هو لكل مؤمن من أسوة ، قال ما قطعت نهارى فى التدريس والإفتاء ، واستغرقت أوقاتى فى نفع الناس وقتا وقتا ، ولم أسلم مع ذلك ممن يولينى أذى ومقتا ويرمينى كذبا وبهتا .

أما التدريس فأخذ عنى ثلاث طبقات ، طبقة أولى كانت خيرًا صرفا ، دينا وفضلا وصدقا وعرفا ،...... ، وطبقة ثانية تعرف وتنكر ، وتذم وتشكر ، وهذه يجهل أمرها ، ويروج سعرها ويخفف إصرها ، ثم جاءت طبقة ثالثة ، الله أكبر ما أكثرها شرها ....» .

وأخذ يتحدث عن فتاويه وكيف طبقت الأرض شرقا وغربا ، ثم وضح طريقته فى التأليف يقول : « .... لا تقع مسألة مشكلة إلا تتبعت كلام العلماء فيها واستقصيت ما أمكن حتى أعطيتها حقها وأوفيها ، لا أكتفى بنقل أو نقلين ، ولا أتخذ للسير فيها من الحديد نعلين ، ولا أنبذها وراء الظهر ، بل أنصبها نصب العين وأجمع لها الجمع الأول ، ثم اتسعه بجمعين ، قل من ذلك واحدة واحدة إلا ألفيت فيها من المستغرب العزيز ، وكررت البسيط والوسيط والوجيز ...» .

ثم تحدث بالتفصيل عن اعدائه « فمن جهول ما شمَّ للعلم رائحة » ومن أحمق قلَّ ذوقه « ومن رعاع اتخذوا دين الله هزوا ولعبا » ، وآخرين « قصارى أمر أحدهم أن طول كمَّة ، وكبَّر العمة ، وسرح لحيته ، وحسن هيئته ... ، وترى الواحد من هؤلاء إذا شغرت مدرسة لا يصلح أن ينزل فيها طالبا مدَّ عنقه إلى مشيختها متطلعا وخاطبا ، فلا يجد من يردعه بالمقال ، ولا من يقرعه بالخفافِ والنعال » .

واستمر السيوطى مستشهدا بالأشعار التى توضح المفارقات الواقعة فى الحياة ، منتهيا بعد أن فسد نظام العلم – إلى أن يترك التدريس ... » .

٥ - مقامة الاستنصار بالواحد القهار[1]

يبدأ السيوطى مقامته مفوضا أمره إلى الله كما استهل مقامته اللؤلؤية التى شرح فيها أسباب تركه التدريس والفتيا ، إلا أنه أضطر - هنا - مُرغَما إلى العودة إلى ذلك بسبب العوام وبعض العلماء الذين حادوا عن الشريعة .

يقول السيوطى « وقد استفتيت فى هذه الأيام فى قاضٍ روى فى ميعاده حديثا من الأباطيل متضمنا للكذب على الله وعلى رسوله وعلى جبريل ، فأجبت المستغنى ببطلانه وأنه يحرم أن يرويه فى سره وإعلانه ، وأنه يجب عليه فى مايرويه فى ميعاده أن يصححه على مشايخ الحديث قبل إيراده ، ليفوز بالصدق وإسعاده ، .... ، ونقلت الفتوى عنى فى الناس ،...... مع أن لى بضع شنين منذ تركت الإكثار من الافتاء ، ..... ، وما حملنى فى هذه الواقعة على الجواب والإبانة لصوب الصواب إلا خشية الاسترسال فى الكذب على صاحب الشريعة المطهرة ....»[2] .

وقد أثار هذا الحُكْم ثورة على السيوطى من هذا الرجل واتباعه حتى نصحه ناصح بمشورته فى تسوية الأمر فقال السيوطى « هيهات أن يردنى ذلك عن قول الحق ، وأن يصدنى عن أن أقتدى بالسلف الصالح والحق ، وأنا باق على ما أفتيت به من غير أفراط »[3] ، ورأى أنه لو استمر هذا الرجل لأفتى كما أفتى البخارى فى مثل ذلك بضربه السياط إلا أن السيوطى قد زلزل - فيما يبدو - المجتمع بهذه الفتيا ، يقول « فثار العوام وشيخهم ثورة كبرى ، ..... ، وتناولونى بالسب والشتم ، وتهددونى بالقتل والحرق والرجم ، وأعانه قوم آخرون لهم سابقة أذى ، وكل هذا لا يؤثر عندى » .

٦ - وألف السيوطى كذلك « نزول الرحمة فى التحدث بالنعمة » وقد قصد الإشارة إلى فضل الله عليه وتوعيه اللوم والتقريع إلى خصومه الذين لجؤا إلى الكيد له وأسرفوا فى الحملة عليه ومن ثم يرى أن الأذى الذى أصابه من أعدائه إنما هو مما أنعم الله به عليه أسوة بما لحق بأولياء الله وأنبيائه ..

٧ - أما مقامته « المزهرية » المسماه بالنجح إلى الصلح فإنه يؤرخ لنفسه أطوار

---

(١) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ص ٧٥ وما بعدها .

(٢) السابق ص ٧٦ .

(٣) السابق نفس الصفحة .

حياته العلمية منذ أن تصدى للافتاء وهو فى عامه السابع عشر حتى ترك الإفتاء وانسحب من الحياة العامة .

ثالثا : موضوعات جدلية

فى اعتقادنا أنه ما من فن من فنون العربية وعلومها التى فجرها القرآن الكريم ، التى ذكر السيوطى نفسه أنه أتقنها فأبدع فيها ، أو ألم به إلمام ضليع فصنف وحرر فيه ألا جادل السيوطى علماء عصره فى فكرة أو رأى ينطقون بها ، مديرا هذا الرأى أو تلك الفكرة على محور شخصيته بما لديها من قدرات ، فإذا ما قابلت تماثلا وافق وارتضى وهذا قليل ، أما إذا لامست اختلافا وبونا ، انتفض مستأسدا ، مبينا مرسخا الصواب الذى ارتآه ، وإنَّ أكثر مؤلفاته الصغيرة الحجم فى سائر فنون العربية تؤكد ما نذهب إليه إن لم يكن قد ذهب هو إليه بالفعل ، ومن ناحية أخرى أن معسكر السخاوى كان يجادله فيما يكتب وفيما يعتقد .

ومقامات السيوطى التى تدور فى إطار الجدل - إذ لم نقل أن أكثر مقاماته يفوح منها الجدل والتحدى والخصام - تعدُّ كتابات إنشائية وعلمية لمؤلفات علمية عالج بها نفس القضايا .

وأهم الموضوعات الجدلية - فيما نرى - التى تحدثت عنها مقاماته فى هذا الصدد .

جدل دينى : ومنها مقامته « السندسية » .

جدل صوفى : ومنها مقامته « قمع المعارض » و« تنئة الغبى » .

جدل حديثى : ومنها « الفتاش على القشاش » .

جدل فقهى : « اللفظ الجوهرى » الكلاجية « فى مسألة الحلف » السهم الخارق .

جدل فكرى : « الصواعق على النواعق » « الافتراض فى رد الاعتراض » .

جدل أدبى : ومنها « الفارق بين المصنف والسارق » ...

والسيوطى فى مصنفاته الجدلية ، ومنها هذه المقامات ، يسير سيرًا على هدى السلف الصالح ليبين - دائما - تفوقه ، وإحقاق الحق فى فكره ، وفى مؤلفاته .

يقول السيوطى فى الدوران الفلكى « ولو كان التصنيف فى الرد على الناس مذموما ، ما فعل الأئمة ذلك ، ولا كانوا يخوضون فى هذه المسالك ، وهذه تصانيفهم فى رد بعضهم على بعض موجودة ، ملء الأرض طولها والعرض ، وقد كانوا يرون ذلك من آله

الغرض ، ولو جمعت أسماء الكتب التي ألفها أعلماء الملّة في رد بعضهم على بعض لبلغت مجلدات ،..... ، ويكفي قول « الكشاف في الإنصاف » حيث سرد ما للعالم من الأوصاف ، طال ما رد عليه ، ورجع إليه استنكر على أن أصنف في الوقايع ما أبين فيه الصواب ، وأشحنه بالفوايد والبدايع ، هاتوا برهانكم إن كنتم في دعوى العلم صادقين ، وعارضوا مصنفاتي بما يناظرها كنتم فارهين حاذقين »[1] .

١ - ونبدأ بمقاماته في الجدل الديني :

المقامة السندسية[2] .

يؤمن السيوطي إيمانا لو قطع بسببه أربا أربا - كما قال هو نفسه ذلك - ما رجع عنه بأن والدي الرسول الكريم ناجيان من النار ، وأنهما في الجنة ، وأن أجداده بين الجنة والأعراف ، وقد أيد السيوطي ذلك بالأحاديث والمأثور السلفي ، والحجج الدامغة ، ونقل رأي السيوطي إلى الإمام السخاوي فأنكر رأي السيوطي ، فصرح بأنهما في النار ، وذكر أنه نزل فيهما - أي في والدي الرسول - من القرآن الكريم « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » ، فأنشا السيوطي هذه المقامة مدافعا عن رأيه ، ناقضا اعتراض السخاوي وزعه ، بل إن إيمان السيوطي برأيه هذا فيهما جعله يؤلف في نجاتهما ستة مؤلفات كما ذكر في مقامته « الدوران »[3] ، ولم يفتأ من آن وآخر إلى تأكيد رأيه كلما اتيحت له مناسبة ووجد - كما يقول الدكتور الشكعة - رأي السخاوي ذاك فرصة سانحة لتسوية ما بينهما من حساب[4] .

وبدأ السيوطي مقامته بحشد كل مأثور وكل دليل - فضلا عن الأحاديث وتفسير بعض الآيات - ليوضح طهر نسب المصطفى ، وحفظ آبائه من الدنس ، وما استطاع من نظم الأدلة ، وسبك القول ، فيجادل السخاوي مجادلة علمية حامية ، وقد تحول الجدل بينهما إلى نزاع شخصي لا يثبت فيه السيوطي أدلته واعتقاده فقط إنما يميل إلى المبالغات أحيانا في إثبات تفوقه[5] .

---

(١) الدوران الفلكي ص ٨٦ ، وما بين القوسين غير واضح المعالم .
(٢) بمقاماته المطبوعة ص ٨٤ وما بعدها .
(٣) راجع ص ٨٧ منها .
(٤) راجع « جلال السيوطي » مجموعة البحوث ص ٤٤٩ .
(٥) أثر المقامة . محمد رشدي حسن ص ٣٥ .

٢ - الجدل الصوفى :

سبق أن بينا أن السيوطى لم يكن متصوفا ، بل حدث بينه وبين متصوفى أيامه شيء غير قليل من التصادمات ، كادوا خلالها أن يفتكوا به ، ومع هذا فقد كان السيوطى يدافع عن الصوفية وعن أقطابها ، انطلاقا من نظرات إليها كعامل من عوامل الإصلاح والفكر الإسلامى ، لا السكوت أمام من أفسدوا هذا المظهر من ذووى الجزعبلات .

وكانت مقاماته تواكب كل ما يتفجر فى أيامه من قضايا ، ونالت قضية المصوفية من مقاماته مقامتين ، تدوران حول قطبين من أقطابها ، اللذين يمثلان - مع أمثالها - هذا الجانب من جوانب الفكر الإسلامى .

١ - مقامته « قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض »[1]

وقعت بسبب ابن الفارض ، وما جاء فى شعره فتنة جارفة عام ٨٧٥ هـ فى عهد الملك الأشرف قايتباى ، وابن الفارض هو الشاعر المتصوف المشهور الذى أجاد الغزل الالهى ، وعاش فى العصر الأيوبى .

وفى العام المذكور اختلف بعض الناس فى فهم أبيات من قصيدته التائية ، وبلغت إلى العلماء فكثرت بينهم المحاجة والمناظرة ، ومنهم من أخذ بظاهر لفظه فنسبه إلى الحلول والقول بالاتحاد وحكم بفسقه وكفره ، وعلى رأس هذا الفريق برهان الدين البقاعى ، وابن الشحنة وولده القاضى عبد البر ، والشيخ نور الدين المحلى ، وعز الدين المحلى ويتبعهم جماعة كبيرة من العلماء ، ومنهم من لم يأخذ بظاهر لفظة ، وأول كلامه ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر أو حلول أو اتحاد بل حكم بايمانه ، وعلى رأس هذا الفريق الكافيجى ، وابن الفرس ، وابن حجى والسيوطى وذكريا الأنصارى وغيرهم[2]

وفى مقامة السيوطى قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض ، كما هو واضح من العنوان ، يدافع عن الصوفية والمتصوفين دفاعا حارا ، مبينا أنهم الطائفة المخصوصة بولاية الله ، وأنهم صفوته فى الخلق ، ومجل رعايته ، وهم خيار الأمة ، وهم أصحاب علم وغوث .

---

(١) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٨٠ تصوف تيمور من ص ١ إلى ص ٢٠ .

(٢) أثر البيئة ... محمود رزق سليم ص ٢٤٣ .

ويحذر من خلال الأحاديث والمأثورات الناس ، خاصة العلماء الذين رأوا فيه صورة من الشريعة – وهو مختلف فى الفكر أصلا كالبقاعى وابن الشحنة وبينهم شىء غير قليل من التصادمات – بألا يتطاولوا على هؤلاء الأولياء .

ثم تحدث عن مقام ابن الفارض مبينا حقيقة فلسفته هؤلاء القوم ، موضحا جهل الناس بأمر فلسفتهم ، وآرائهم ، ولغتهم وغاياتهم ، مطعما مقامته بشىء من شعره على نحو ما اقتطفنا فى الباب الثانى .

وننبه أن السيوطى كان ينسى نفسه فى إيراد الشواهد والعلل والتفسيرات ، ليعود إلى موقف الفتنة وهجاء مكفرى ابن الفارض قائلا « عَوْد إلى المقامة »[1] .

٢ – تنبئة الغبى بتبرئة ابن عربى[2]

واضح – أيضا – غاية هذه المقامة من عنوانها ، حينما تعرض ابن عربى من فتوى ، رجل مالوا إلى احراق مؤلفاته ، فأرّخ السيوطى موقف العلماء من ابن عربى مبينا رأيه فيه شارحًا فلسفة التصوف ، وما خصوا به أنفسهم من اصطلاحات لا يفهمها الجاهلون من العلماء .

وتعد المقامة كلها تفسيرا لقول السيوطى « والقول الفصل عندى فى ابن العربى طريقة لا يرضاها مؤقتا أهل العصر ، لا من يعتقده ، ولا من يحط من عليه »[3] .

٣ – الجدل الحديثى :

ما أكثر توقف السيوطى أمام محرفى الأحاديث ، أو مؤولى الأحاديث تأويلا يصيب صاحبها صلوات الله عليه بشىء من الأذى أو إزاء رواة الأحاديث المصنوعة[4] .

أو الضعيفة ، وقد رأيناه بكيل الهجوم كيلا للسخاوى فى مقامته الكاوى فى تفسير بعض ألفاظ حديث ، وقد قال له شعرا :

تحرّف يا عديمَ الذوقِ لفظًا ومعنىً فى الحديثِ ولست تدرى

---

(١) راجع قمع المعارض . ص ٨ ، ص ١٩ .

(٢) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٩٢٠ تصوف .

(٣) السابق ص ٢ .

(٤) مخطوطة تحت رقم ٢٠٢ مجاميع ص ٧٣/٦١ . وهناك سقط فى نهاية المقامة .

وهنا يؤلف مقامته الفتاش على القشاش[1] ويبدؤها مخاطبا أهل السماء ، والأرض وما حوت من أنس وحيوان وجماد ليتلقوا أغاثته أو شكواه أنه تبرأ إلى هؤلاء جميعا ممن قال على النبى صلى الله عليه وسلم ما لم يقله من الأقاويل ، وروى عنه من الأحاديث ما هو محدود فى الأباطيل ، وأصرَّ على العناد والمكابرة ، وجاء بأنواع من التهاويل ، وأتى عن سيد المرسلين بما لا يحفظه النقاد ولا يعرفون ،.....الخ »[2] .

وأخذ يكيل السب للمحرفين كيلا ، ثم عرج بذكائه الخاص وهو يحمد الله على وجود من يدفع هذا الأذى يقول : « ثم الحمد لله الذى جعل الاجتهاد من فروض الكفاية النقلة ، وأوجب القيام به فى كل عصر على علمه ...»[3] و« الحمد لله الذى أقام فى كل عصر من يعطى العلم حقه ويوفيه ، ويحفظه على الأمة ، وعند الحاجة يؤديه ويذب عنه كذب المبطلين وينفيه .... »[4] ليخصَّ نفسه القول ، يقول « أحمده على أن مَنَّ علىَّ بحفظ السنة ، وفتح لى طرقها التى هى مسالك إلى الجنة ، وجعلنى ممن يذبّ الكذب عن نبيّه وقايَة له وجنة ، وأمدنى فى ذلك بلسان وقلم (أمضى من الحسام والأسنة ... الخ)[5] .

واستمر يشرح أسباب ذلك وما وقع عن قاضٍ روى كذبا فأفتى السيوطى ببطلان ذلك ، وتوقع السيوطى حينما تبلغه فتواه أن يتوب إلى الله ورسوله ، ويدخل تحت إمرة علماء الحديث ، وأهل الدين ، ولكنه غضب ، ورمى السيوطى بالهجاء ، ولم يرد عليه السيوطى إنما اكتفى بأن يثبت فى مقامته دفاع معاصريه من العلماء الثقاة عليه نثرا وشعرا ، فأورد الكثير من الأشعار التى قيلت فيه تثبت ما ذهب إليه ، وتوضح للناس منزلته فى مبعوثية العصر .

والواقع أن هذه إحدى طرق السيوطى فى توظيف كل شىء لأمانيه فى تحقيق المبعوثية .

---

(١) مخطوطة تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ص ٧٣/٦١ . وهناك سقط فى نهاية المقامة .
(٢) السابق ص ٦٣ .
(٣) السابق ص ٦٣ / ٦٤ .
(٤) السابق ص ٦٤ .
(٥) السابق ص ٦٧ .

٤ - الجدل الفقهي والفكرى والأدبي .

علمت فيما سبق أن السيوطى ذكر أنه ألفَّ خمسين مؤلفا فى خمسين مسألة خالفه أهل عصره فيها ، الحق يقال أن المؤلفات التى كتبها السيوطى مجادلا بها أهل عصره تفوق هذا العدد الذى ذكر ، ويعنينا هنا بعض هذه الرسائل التى ذكرها كمقامات .

ومن المقامات ذات الجدل الفقهى والعلمى :

مقامته « اللفظ الجوهرى فى رد خبط الجوجرى » وقد كتبها ليرد بها على آراء الجوجرى وهو من معسكر السخاوى - ، وكان الجوجرى قد أفتى بتحريم كتاب السيوطى « تحفة الجلساء فى رؤية الله تعالى للنساء »[١] من التداول والقراءة ، ولم يفتأ السيوطى يظهر عداوته للجوجرى ، كلما سنحت له فرصة[٢] .

ومن مقاماته التى تتعرض لفكرة الاجتهاد والبعوثية مقامته « الصواعق على النواعق »[٣] ، ويرد بها على معترضيه فى دعواه الاجتهاد ، وفيها يوضح ما حمل عليه ويفنده تفنيدا علميًا ، وكذلك مقامته « الافتراض فى رد الاعتراض »[٤] وهى صنو مقامته السابقة .

هذا وقد ألف السيوطى مقامته « الفارق بين المصنف والسارق » وتدور حول عنوانها ، وقد كتبها لرجل سرق مؤلفا من مؤلفات السيوطى ، وادعاه لنفسه[٥] .

أحداث المجتمع

يعالج السيوطى بعض أحداث عصره فى عدد غير قليل من مقاماته ، منها ما تحدث فيها عن مرض الطاعون الذى اجتاح البلاد ، ومنها ما تكلم فيها من الحمى ، وقد فشت بين الناس ، ومنها ما طرق من خلالها ما أصاب الناس من فقد فى أولادهم ، ومنها ما عالج به

---

(١) موجودة بالحاوى للفتاوى . الجزء الثانى .

(٢) راجع السابق جـ ١ ص ٣٢٨ .

(٣) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤١٦ مجاميع ورقة ٦٣ / ٦٨ .

(٤) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور .

(٥) راجع كشف الظنون جـ ٢ ص ١٢١٥ .

قضية الترغيب فى المرأة والزواج ، ومنها ما صور به حالتى الرخاء والغلاء اللذين يصيبان المجتمع ، وعليه فإننا لا نرى وضع بعض هذه المقامات تحت موضوع الوعظ والآخر تحت الجنس والثالث تحت الوصف على نحو ماذهب بعض الباحثين[1] .

ونقدم إليك عرضا موجزا لما تضمنته مقاماته فى هذا الشأن :

(١) المقامة الطاعونية :[2]

يستهل السيوطى مقامته بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كل من عليها فإن ، ويبقى وجه ربِّك ذو الجلالِ والاكرام﴾[*]،ثم يؤرّخ دخول هذا الوباء ورحلته فى البلاد ونتائجه قائلا : « ولما كان فى أوّل سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، وردت أخبار عن الأخيار ، بأن الطاعون قد انتشر فى بلاد الروم ، وأنه بصدد أن يطرق البلاد الشامية والمصرية ويروم ، وكان للطاعون نحو خمس عشرة سنة لم يطرق هذين المِصْرين ،.... ثم جاء الخبر بوصوله إلى البلاد الحلبية بعد شهرين فأرجف الناس بدخوله مصر ، وتحملوا من خوف هجومة عليهم الأمر ، فتنقل فى بعض البلاد الشامية دون بعض ،.... ثم مشى حتى دخل الخانكاة فزلزل أهلها واجتث أهلها ، وأخذها فئة بعد فئة ، وبلغ الموتى فيها كل يوم ثلثمائة ، وهو فى خلال ذلك يتخطف فى القاهرة قليلا ويطرقهم طرقا جميلا ، بحيث أنه بين ظاهر وخاف ، والناس بين مثبت له وناف ، فلما انتصف جمادى الأولى أخذ فى الحركة ،.... ، ولما استهل جمادى الآخرة هجم الهجمة الكبرى وعاث فى الناس برا وبحرا ، وكم أخلى قصرا وملأ قبرا ، فأخذ البنين والبنات ، والفتيان والفتيات وجمع فى الموت بين إلفين ، وبلغ عدد الموتى فى كل يوم أزيد من ألفين ، وقيل أكثر من ذلك بضعف أو ضعفين ، فكم أخذ من بنين نفائس ، ومن بنات عرائس ، ومن جواهر جوار خُنّس ، كأنهن الجوارى الكُنّس ، ومن عبيد وخدم ، لهم فى التأديب والتهذيب راسخة قدم ، سبقت لهم السعادة وسبقت لهم الشهادة ...»[3] .

وراح يصف ما فعله فى البيوتات ، والناس تحاول الفرار منه وحتى الذين يفرون منه بأولادهم يدركهم فى الطريق ويناديهم أين المفر أيها الفريق ، وقد استمر وجوده فى القاهرة شهرا .

---

(١) كرشدى محمد حسن فى أثر المقامة ص ٤٠ وما بعدها ، والشكعة فى بحثه السيوطى كاتبا أديبا ص ٤٠٢ (منشور فى جلال السيوطى) وغيرهما .

(٢) بمقاماته المطبوعة ص ٦٩ إلى ٧٥ .

(٣) السابق ص ٦٩ .

(*) سورة الرحمن ٢٦/٢٧ .

واستمر السيوطى يتحدث عما اختلف به هذا الطاعون عن الطواعين عموما ، وما استخدمه الناس من مركبات كيماوية ، وتعليق فصوص ، وترتيب أدعية وأذكار لم يرد بها حديث أو أثر . ومنهم من تحول إلى الروضة ظنا أنها تصلح من الهواء مافسد ،..... وما شعروا أن مجاراة البحر من أكبر الأسباب المعينة للطاعون طبا ، والمضرة عند فساد الهواء بدنا وقلبا وجسما ولبا إنما يصلح سكن البحر لمن ليشكو بلغم ، أو سوء هضم ..[1] .

واستمر السيوطى كطبيب ، يتحدث ويطبب العلل وعاد إلى تتبع رحلة هذا الطاعون وتاريخه حتى كر الطاعون راجعا إلى البلاد الشامية ، إلا أن الأخبار فشت بين الناس بعودة المرض ثانية إلى الاسكندرية ، ويعيث فيها ، فأرغب الناس بعوده إلى القاهرة وأرجفوا فأخذه ما بقى فيها من نجومها الزاهرة ، وقال كل واحد ما تيسر له من مقالة ، ووجه بحسب فنه وحالة فقال المقرى ...[2] .

وراح كل من « المقرىء – المحدث – الفقية – الأصولى – النحوى – الصرفى – البليغ ،..... ...» يصف الطاعون ويتمنى رحيله من خلال ألفاظ علمه الذى يتبينها القارئ بداهة .

يقول المحدث – مثلا – « قد جرى الدمع المتراكم ، ونفذ فى العام الماضى ما حكم به الحاكمَ من صحيح به أصبح للوساد مسندا ، وعزيز أضحى فى لحده غريبا مفردا ، وضعيف أصبح على النعش موضوعا ، وعلى أعنقا الرجال مرفوعا ، وكم متصل الحياة به صار منقطعا مقطوعا وكم ميت أمسى فى أكفانه مدرجا ، وتوسد الترب بعد أن كان مدبجا ، فان عاد هذا العام لم يبق للناس من أثر ، ولم يرد عن الحياة حديث ولا خبر ، فنسأل الله أن يجرينا على عوائده الحسان ، وأن يمدنا بنعمة التى لا يحصى عددها لسان ...[3] .

واستمر السيوطى فى تتبع رحلة الطاعون ثانية فى الاسكندرية – والقاهرة والصعيد وما فعل فى البلاد حتى رحل ، فعاد كل من « المقرىء ، المحدث ، الفقي ، « حديثهم بالشكر إلى الله سبحانه وتعالىَ ، وما سيفعلونه من واجب نحو الله ، وتطهير النفس والسلوك لكيلا يصيبهم مثل هذا الأذى .

---

(١) المقامات المطبوعة ص ٧٠/ ٧١ .
(٢) السابق ص ٧١ .
(٣) السابق ص ٧٢ .

(٢) المقامة الولدية فى التعزية عند فقد الأولاد :[1]

لم يشر السيوطى إلى سبب تأليفه هذه المقامة ، فهى وعظ قوى لمن فقد فلذة كبده ، استشهد السيوطى بالآيات القرآنية والأحاديث والمأثورات ونماذج شعرية تعالج هذا الموضوع وتدخل السلوى والأمن على النفوس المحزونة .

ومن قول السيوطى وهو يهو الأمر عليهم « .. وكيف لا يستحسن فى هذا الزمان موت الأولاد وهو الذى ظهر فيه الفساد ، وكثر فيه العناد ، ولا يظفر فيه بواحد من الألف ساد ، وهو الذى أخبر عنه سيد بنى كنانة ، بقوله لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتنى كنت مكانه ...»[2] .

ويخاطب من فقد ولده قائلا : « فيا أيها الوالد الجريح ، والواله القريح ، ماذا البكى والصريخ بعد هذا الخبر الصحيح ، ..... ، ..... فطب نفسا بهذا الفضل العظيم ، وقرّ عينا بنزول ولدك فى جوار الرب البر الرحيم ... »[3] .

(٣) مقامة الحمى[4]

إن هذه المقامة كما يقول الشكعة « وسيلة ينفذ الكاتب من خلالها إلى إيصال الكلمة الطيبة إلى قلب القارىء ، فيعتبر الحمى امتحانا من الله يصبر اجتيازه ، فإذا صبر فقد نال ثوبًا وأجرًا بل أن السيوطى يحاول أن يجعل من مقالته (أى مقامته هذه) – وسيلة لإظهار براعته فى الطب فيذكر للحمى عددا من الفوائد ، وقدرا من المزايا[5] .

يقول السيوطى : « ولها منافع بدنية ، ومآثر سنية غير دنية ، وذلك أنها تنقى البدن وتنفى عن الإفن والعفن ، .... ، وذكروا أنها تفتح كثيرا من السدد ، وتنضج من الأخلاط والمواد ما فسد ، وتنفع من الفالج .... الخ[6] .

---

(١) بالسابق من ص ٧٦/٨٤ ، ولدينا نسخ مخطوطة منها نسخة تحت رقم ٣١٩٩٠ عمومى – ١٥١٠ خصوصى ، ونسخة تحت رقم ٢٦٠٨٦ ز ، ونسخة تحت رقم ٤٠٥ أدب تيمور .

(٢) المقامات المطبوعة ص ٨٠ .

(٣) السابق ص ٨٣/ ٨٤ .

(٤) بالسابق من ص ٥٥/٥٨ ، ولها نسخ مخطوطة منها نسخة تحت رقم مجاميع ٧٤٢ ورقة ٥٠/٥١ وتحت رقم ٣١٩٩ عمومى .

(٥) « السيوطى » مجموعة البحوث ص ٤١٣ .

(٦) المقامات المطبوعة ص ٥٦/ ٥٧ .

(٤) مقامة النساء « أو رشف الزلال من السحر الحلال »[1]

نالت هذه المقامة من باحثى السيوطى قسطا وفيرا من التعريض بها ، والهجوم عليها وعلى صاحبها الذى وصل إلى حد التطاول ، إذ أن موضوعها من الموضوعات الواهية التافهة التى أقبل عليها ، معرضا بالمرأة متناسيا سر وجودها ، مستخفا بها ، ناظرا إليها كأداة للمتعة ، متحيرين من صاحبها كيف له أن ينزلق إلى المجونيات ، ويخوض إلى الأدب المكشوف أو أدب الجنس أو أدب الفراش ، ليثبت السيوطى أنه قادر على الإسهام فى كل فن من فنون القول غلا أم رخص .

وسبق أن عرفنا فى التمهيد أن كتابات السيوطى فى الجنس من الوفرة بمكان ، وأغلب هذه الكتابات لاتزال مخطوطة ، ومنها ما طبع مثل تلك المقامة التى لا تساوى كتبه الأخرى جرأة وأباحية وتحللا - على قياسهم - شيئا .

ولا نريد هنا أن نرد على مهاجميه هؤلاء، فإن الجنس فى أدب السيوطى يحتاج إلى كتابة منفصلة ، سوف نخلص منها أن السيوطى كان فى أدب الجنس ذا جرأة لا تصدق ، وأديبا لا يجارى وهو مع هذا فى فلك غاياته الأخلاقية والإصلاح الاجتماعى .

وقد بينا - فيما سبق - أن السيوطى هاله الفساد المتفشى فى المجتمع وانتشار فاحشة الغلمان بين الناس ، بل بين الخاصة فيهم المتسترين بمظاهر الدين ، فأراد السيوطى بهذه المقامة وغيرها من كتبه أن ينفر الورى من هذه الآفة ، وينشأ على ما يشجع على التحويل إلى النساء ولو عن طريق الإثارة الجنسية .

ويبدو أن هذه الآفة قد جعلت النساء كما قال السيوطى فى مقدمة « نزهة المتأمل وبغية المتأهل » .... وبعد فلما رأيت نساء هذا الزمان يتزين بزى الفاحشات ، ويمشين فى الأسواق وهن للدين كالمحاربات ، ويكشفن وجوههن وأيديهن عند الناس لتميل إليهم النفوس .... الخ »[2] .

والغاية من هذه المقامة واضحة ، كما يسجلها راوى المقامة أبو الدر نفيس بن أبى أدريس الذى حكى فقال « خرجنا يوم عيد ، إلى مسجد بعيد ، ونحن شبيبة متقاربون ، وعصبة فى السن متجاذبون ، فلما قضينا الصلاة ، نصب المنبر فى الفلاة ، وصعد الإمام

---

(١) مطبوعة طبع حجر بمصر ١٢٩٨ هـ .

(٢) نزهة المتأمل . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٩٤٢٤ أدب ص ٢ وراجع ما بعدها .

وكبّر وهلّل ....، ....، ودلل على فضيلة النكاح ، وحذر من رذيلة الزنا والسفاح ، ونفر من اللواط كل واط ، وقرر أن التزاوج قرين الإيمان ، القائم الكافل له بضمان الأمان ،....، ....، وإن إتيان الذكران مؤذن لنعمة الله بالكفران ، معدود من أكبر الكبائر والعصيان ، منسوب إلى فاعله سوء الطباع ، والمخالفة لمقتضى الأوضاع ، ثم أورد ما نزل فى ذلك من الآيات بالتكرار ، وما روته حملة السنة ... الخ[1] .

وراح يستشهد بالشعر الذى يحث على الزواج والنساء وينفر من اللواط ، ثم يقول الراوى « فلما فرغ من عظته ، وانتهى من خطبته أخذنا فى الأوبة ، وما منا إلا من عقد التوبة ، ونعوذ بالله من تلك التوبة ، وعزم على أن يحض دينه ، بدرة من الزوجات ثمينة ، فخطب كل منا إلى أكفائه وعقد ، وساق من المهر ما سمى ونقد ، وزفت كل عروس إلى بعلها ، وقرت بكل خوداء عين أهلها فلما كان صيحة البنا ، اجتمع بعضنا البعض للهنا ، فقال قائلنا : ليصف كل منا خير ليلته وما اتفق له مع حليلته ....[2] .

وهنا يبدأ المقرىء واصفا ليلته مع عروسه ، ثم المفسر ، ثم المحدث والفقيه والأصولى والجدلى واللغوى والنحوى وصاحب التصريف وصاحب المعانى وصاحب البيان وصاحب البديع وصاحب العروض والكاتب وصاحب الحساب وصاحب الهيئة وصاحب الميقات ، والطب ، والمنطق ، وأخير الصوفى ، مواريًا كل منهم بألفاظ علمه ، فاقتضى ذلك منه أن يكون جريئا فى استخدامها والتلاعب بها والتضمين من القرآن والأحاديث والأشعار ...

ويسير حديث كل واحد منهم أو مقامته واصفًا هذه العروس الفاتنة الجمال والصفات لحظات التلاقى الغريزى بين العروس وبعلها ، ثم يصف ما يفعله جسداهما وخاصة أعضاؤهما التناسلية وطرهما .

ولو أنك قرأت حديث أى منهم دون أن تعرف قائله ، لعرفته - ببساطة - من خلال الألفاظ التى يستخدمها ، فالمقرىء يستخدم مثل هذه الألفاظ « ورد - ورش - ابن - كثير - الحرف - المد - الختم - عامر عاصم - التسهيل - التلين - المدد - الإدغام ...

ونقتطع فقرة مؤدبة إلى حد ما من حديث النحوى « ... فقلت لها ياصاحبة الجيد الحال المضارع فى ضيائه والتفاته للغزالة والغزال ، زادك الله تميزا ، وبرزك على حسادك

(١) السابق ص ٣/٤ .
(٢) مقامة النساء ص ٢/٣ .

تبريزا ، هلمي إليَّ المد والقصر ، واستقبلي الرفع والنصب والجر ، ومددت لها ..... » كأنه ألف الندبة أو عمودا عليه من رأسه قَبةَ ، فاستقبلته بسهولة وتلقت ... من غير تنازع فى العمل ، وهى عاملة معمولة ، وانتصبتِ لها مع أنها غير مشغولة ، ...... ،...... ، « ...... ، ...... » جار ومجرور ، فى حال دخوله وخروجه ممدود ومقصور ، فى إفراد وتثنية وجمع ووسطها فى صعود وهبوط وخفض ورفع ، وفى انضمام وانفتاح من ......، و« ...... » فى انتصاب انتصاب واتصال وإضمار ، كأنه علم فى رأسه نار ، ..... ، والجفون مع الغنج مجموعة جمع تكسير ، ..... ،.... ، وتعطى من ريقها البارد المستعذَب ، وتروغ من تحتى كأنها ثعلب ، تود ألا تنزع منها الأداة ، وإذا نادى « ...... » ماءها الصَّبُّ أجاب نداه ...... الخ »[١] .

ومن اقتباساته وتضميناته من القرآن (المهذبة) .

كقول للمقرىء « ثم استوينا على العرش ، وجلسنا على الفرش ، .... ،.... ،.... وبرزت لها بـ « ..... » نافع ، كأنه من حديدٍ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ ، يحاكى فى غلظة المعاصم وإذا قصد عامر حصن العدوة يخربه قيل لا عاصم .... »[٢] .

وجرأته الشديدة كقول للفقيه يقول فيه « .... وتيمت الصعيد من « .... » ، ثم أحضرت الإنابة ، ودخلت من باب الاستطابة ، وسميت متعوذا ، وسوكت ثغر « .... » بسواك « ..... » متلذذا وصححت النية ،.... ،.... وشمرت للسعي فى ذلك المطاف ونويت عليه الاعتكاف ، وارتشفت من كأس (....) وما هو ألذ مِنَ السّلاف[٣] .

وكقول صاحب البيان « لما تجلّى العيان ، وحصل غاية التبيان ، بدأ لها جِرٌ ريان ، وإليتان ، مرج البحرين يلتقيان ، بطن ذات سُرّة وأعكان ، وردف كأنه جبل الريان ....»[٤] .

وجدير بنا أن ننبه إلى أن قدرة السيوطى فى استخدام هذه الألفاظ فى مقامته النساء ونظرة الرجل إلى المرأة من خلال هذا المجال اللغوى حدت بالباحث محمد رشدى

---

(١) مقامة النساء ص ١٧/١٦ مكان النقط ألفاظ فاضحة .
(٢) السابق ص ٥/٤ .
(٣) السابق ص ١٠ .
(٤) السابق ص ٢١ .

حسن[1] إلى أن يرى السيوطى قد أعاد إلى الذاكرة ما ورد فى كتاب الأمالى لأبى على القالى فى حديث البنات اللاتى وصفن ما يحببن من الأزواج ، فقالت الكبرى : أريد أروع بساما ، أحد مِجْذاما ، سيد ناديه وثِمال عافيه ، وحسب راجيه ، فناؤه حب ، وقياده صعب ، وقالت الوسطى : أريده عالى السَّناء ، مصمم المضاء ، عظيم نار ، مُتْمم أيسار ، يفيد ويبيد ، ويبدى ويعيد ، هو فى الأهلى صبى ، وفى الجيش كمى ، تستبعده الحليلة ، وتسوده الفضيلة ، وقالت الصغرى : أريده بازل عام ، كالمهندم الصمصام ، قرانه حبور ، ولقاؤه سرور ، وإن ضمَّ فضفض ، وإن دسر أغمض ، وإن أخل أحمض ، قالت أمها : فض فوكِ ، لقد فرزت لى شره الشاب جذعة »[2] .

ويقول الباحث « ولاشك أن السيوطى أطلع على الأمالى لأبى على القالى ، وقرأ مثل هذا الحديث ، وتأثر به وهو حين كتب مقامة النساء .... »[3] .

بيد أننا نرى فى رأيه شيئا من التعميم ، فحديث الأمالى بضعة سطور بينما حديث « رشف الزلال » فى اثنتين وثلاثين صفحة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن استخدام السيوطى للمجال اللغوى لا يوجد فقط فى هذه المقامة فحسب ، بل فى الكثير من مقاماته كالطاعونية والنيلية وغيرهما فإن هذا التأثر - لو كان - يضارع - فيما نرى - تأثُّر الهمزانى بابن دريد أو الجاحظ ، أو الساسانيين فى اختراع الفن المقامى .

(٥) المقامة النيلية فى الرخاء والغلاء :[4]

وتدور هذه المقامة حول حالتى الرخاء والشدة التى تتعرض لها مصر فى فترة من الفترات فيوضح طَبيعة الناس فى اثناء هاتين الحالتين .

يقول السيوطى « ..... لما كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة أو فى النيل فى منتصف مسرى وسارت به فى البلاد رسائل البشرى ، وأسلت منه نعم الله على الكتاب تترى ، ورأوا فيه من آياته الكبرى ، وحمدوه وإن كانوا عاجزين عن القيام بحقه شكرا ،

---

(١) راجع « أثر المقامة ... » ص ٤٩ .
(٢) الأمالى للقالى المجلد الأول جـ ١ ص ٣٨ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .
(٣) أثر المقامة ص ٤٩ .
(٤) بالمقامات المطبوعة ص ٥٨/٦٣ ويسميها السيوطى المقامة البحرية ، وقد أوردها فى كوكب الروضة مخطوط تحت رقم ج ٢٢٤٩ ص ١٤٦/ ١٤٠ .

ومازال بحره البسيط المديد ، يروى عن ثابت ويزيد ... »[١] .

فراح السيوطى يصف ما يعيش فيه المجتمع من رخاء إلا أن النيل قد وقف مده ، ونقص بعد أزدياد حتى انكشف السواحل والجروف واستمر حتى صارت الروضه بغير نضارتها « وصب اليأس ، على أهل المقياس ، وصارت دار النحاس أنحس دار ، وجرت الأقدار على أهل مصر بالأكدار ، وقيل يا أرض أبلعى ماءك ، وياسما اقلعى ، ويا زيادة النيل من حيث جئت فارجعى ، وغيض الماء وانقشعت السماء ، وقُضى الأمر واستوت القلوب على أحر من الجمر ، فحينئذ ماج الناس موجا وارتقى سعر القمح وغيره من الحبوب أوجا ،...... ، وأصبحوا فى أمرهم حيارى ، وانهمك على شراء القمح المسلمون واليهود والنصارى ، ترى الناس سكارى وما هم بسكارى كأنما قامت عليهم القيامة ، ..... ، وكل من ورد البحر وصدر يقول فى الشوارع يا الله السلامة ،..... ، وعض المتأخر عن شراء القوت على يديه من الندامة ، ..... ، وتذكر الناس ... أن مالكا أوصى الشافعى إذا سكن مصر بادخار قوت عامين ، ونسوا ما تقدم فى هذا العام من هول الطاعون .... »[٢] .

واستمر السيوطى يصف هذا الهول ، ثم بدأ كل من (المقرى - المحدث - الفقيه - الفرض - الأصولى - الجدلى - الصوفى - النحوى - التصريفى - اللغوى - المعنو - البيانى - البديعى - العروضى - الكاتب - الطبيب - المنطقى - الموسيقى - الميقاتى - المؤذن .... » يصف هذه الحالة الرمادية التى يحياها المجتمع بسبب الجفاف من خلال مصطلحات علمه .

فالنحوى مثلا « أصبح يلتقط الحَبَّ كأنه ابن عصفور ، ويقول السعر ممدود والمال مقصور ، وأنا وكتبى جار ومجرور ، وقد كسر باب الإناقة ، ورفع باب الإضافة ، قد لقينا أمرًا ، إمراً وضرب زيدًا عمرًا .... »[٣]

وبعد أن ينتهى حديث المؤذن ، يستمر السيوطى قائلا : « ودام التوقف سبعة عشر يوما تبعا ، ونقص فيها سبعة عشر أصبعا ، فبينما الناس فى الياس ، ..... نادى المنادى زاد النيل المبارك .... »[٤] .

وهنا نادى لسان الحال أمير المقياس قائلاً حدث عن البحر ولا حرج وعاد كل من

---

(١) السابق ص ٥٨ .

(٢) المقامات المطبوعة ص ٥٨/٥٩ .

(٣) السابق ص ٦٠ .

(٤) السابق ص ٦٠ .

المقرى – حتى المؤذن « يصف حالة الفرحة والرغد ، وأختتم المقامة بما تلاه لسان الحال على المؤمنين بالدعاء إلى الله ، محذراً مما يغضب الله .

ومِنْ وَصْفِ هؤلاء أن النحوى مثلا قال : « قد ضَمَّ إليه كتبه وقال استوى الماء والخشبة ، وقد زال الغمُّ والهمُّ ، وصار البر الكر قفيز بدرهم وسئل أشعيرا أم برا ، فقال كليهما وتمرا .... »[١] .

(٦) مقامات وصفية :

للسيوطى فى هذا الصدد – وإن اشتركت فيه كثير من مقاماته – مقامتان الأولى بعنوان « الروضة » والثانية بعنوان « منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف » ، ومقامته الروضة روضة مصر[٢] قطعة أدبية بديعة البناء ، رفيعة الإنشاء كما يقول الدكتور الشكعة وقد عرضها فى بحثه[٣] عرضا فيه شيء من التبسط ، لذا فإننا لا نرى إفادة من عرضها مرة ثانية .

ونقتطف من هذه المقامة قوله « روضة أريضة ، عيون أزهارها مريضة ، وأنواع البركات من نهرها مفيضة ، ونوازع الهموم والغموم بها مغيضة ..... روضة هى مجمع البحرين ، ومختار تقابل مطلع البدرين ، ومنهاج يسير فيه كل فلك من النواعير ، وبدر فهى على كل حال ذات النورين ...[٤] .

إن فاخرتها مصر بأنها القديمة قالت أنا الجديدة ولكل جديد لَذَّةٌ ، أو ناظرتها الجزيرة الوسطى قابلتها بالكسر وقالت فى ملازمة النيل الفروة البذة ، وإن تطاولت نحوها الجزيرة الكبرى أعرضت عن القيل والقال ، وقالت أنى يقاس بخرطومى المشتهى ذلومة الفيل ، وإن قال التاج أنا المرفوع على الرؤوس ، قالت عروسة الحسن ، لاسيما فى عرس النيل التاج فى خدمة العروس وإن قالت السبعة الأوجه قد تعددت منا الوجوه والمناظر ، قالت رب واحد كألف أو يزيد عند المناظر ، ..... ، كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس فى وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلالة ، أو رجه دار عليه طيلسان أو سرير ملك نصب فى ميدان أو قلت جيش له مصر والجيزة جناحان ، تبرجت بأنواع

---

(١) السابق ص ٦٣ .
(٢) بالمقامات المطبوعة ض ٦٣/٦٨ .
(٣) فى « جلال السيوطى » مجموعة بحوث ص ٤٠٧ وما بعدها .
(٤) المقامات المطبوعة ص ٦٤ .

الأزاهر البهجة لا بالشيح والقيصوم ، ونداها لسان الربيع يا روضة سنسمك بالخضرة على الخرطوم ، ونغير الأسلوب ونقول نثرت السماء على أغصانها النجوم ، وارتشف من خرطومها زلال الريق والرحيق فلم يحجوا فى كلا الحالين إلى خرطوم[1] .

(٧) مقامات تعليمية :

وللسيوطى فى هذا الشأن مجموعة من المقامات نذكر منها مقامته المكية والأسيوطية والجيزية والفتح القريب وأولى الألباب .

ونعرض مقامتيه المكية[2] والأسيوطية[3] فقد احتذى السيوطى فيهما رائدى المقامة العربية ، الهمزانى والحريرى ، وإن وضحت فيهما شخصية السيوطى على نحو ما سنعرف فيما بعد .

وتحكى المقامة الأولى أن هاشم بن القاسم - وهو راوى مقامتيه - يجشّم المصاعب حتى نزل بمكة الشريفة ، وظل يجول بها ، وقد شاهد ذات يوم قومًا ملتفين وفى الحلقة شاب عالم ودار حوار علمى فقهى ، الراوى يسأل والشاب يجيب إجابات حسنة ، حتى نال إعجاب الجميع وحينما سألوه عن اسمه أنشد شعرا جاء فيه :

أنّى أبو بشْر العُلا فى تاجِ أهلِ الأدبِ[4]

ثم انصرف وود الراوى لو تبعه .

ومن الأسئلة التى وجهت إليه « ما تقول فيمن توضأ ولم يمسح أمه ؟ فقال : لم يصح (الأم : الرأس) .....[5] .

وفى الثانية يذهب الراوى إلى أسيوط ، وبعد أن قضيت صلاة الجمعة إذا هو بشاب أديب لغوى عالم فعرفه أنه « أبو البشر » وإذا برجل طويل اللسان ينبز الشاب بسهام الأذى فتدخل الراوى وطلب مناظرة بين الرجل وبين الشاب « أبى البشر » ، فراح

---

(١) السابق ص ٦٥ .

(٢) نقلها الشكعة فى كتابه « جلال السيوطى م . م » ص ٢٦٥/ ٢٦٨ .

(٣) نقلها الشكعة فى كتابه « جلال السيوطى م . م » ص ٢٦٨/ ٢٧٠ .

(٤) السابق ص ٢٦٨ .

(٥) السابق ص ٢٦٦ .

الشاب يلقى على الرجل بالأسئلة النحوية ولم يحر الرجل جوابا ، ثم اعترف واعتذر له ، وأعجب الناس بأبي البشر .

ومن الأسئلة التي قالها أبو البشر :

« كلمة إذا كثر عرضها قلَّ معناها ، وإذا ذهب بعضها جلَّ مغزاها ؟

وأي عامل يعمل في معموله ، ولا ينقطع مأموله ؟

وأي فعل ليس له فاعل ، ومعمول لا ينسب لعامل ؟[1] ..... الخ .

هذا ولم يقصد السيوطي الغاية التعليمية فحسب إنما أراد أن يوضح شخصيته ، وطاقاتها العلمية .

مقامات السيوطي دراسة في الشكل « البناء »

أقام المقاميُّ الأول فن المقامة ليحقق غرضه في إيصال الأساليب الأنيقة ، وصيغ التعبير والغايات التعليمية من خلال حيلة الكدية ، التي تمثل مظهرا أساسيا لروح المقامة ، متخذا لها شكلا يقوم على عدة عناصر « البطل - الرواية - الحادثة - الأسلوب البديعي المسجوع » .

ثم دارت المقامة مدارها عبر مقاميي العربية ، فأصابتها التغييرات التي استحدثها المقاميون المتأخرون موضوعا وشكلا ، فانطلقت المقامة من فلك الكدية وهي صناعة البطل ، إلى حرية اختيار الموضوع ، حتى رأينا بعض المقاميين كالسيوطي لا يمس الكدية على الإطلاق ، وإن كان فعل ذلك قبله الزمخشري وابن الجوزي وغيرهم ، وأحدثت كثير من ألوان التغير في شكل المقامة الذي شكلته الكدية ، فرأينا المقامة تتحول حتى تصل إلى مفهوم الرسالة الأدبية أو المقالة أو المناظرة أو جدل صحفي بمفهومنا المعاصر أو إلى قصة كانت نواة لمفهوم القصة القصيرة المعاصرة على خلاف .

ويمكننا أن نقسم مقامات السيوطي من ناحية الشكل إلى هذه الأقسام :

١ - **مقامات تقليدية** : كما عرفناها عند المقامي الأول ، مع وضوح شخصية السيوطي فيها ، ومن هذه المقامات « الأسيوطية - المكية - الجيزية » .

---

(١) السابق ص ٢٧٠ .

٢ - **مقامات تقليدية مجددة :** حافظ السيوطى فيها على عناصر المقامة الشكلية ، ولكنه جدد فى مفهوم بعض تلك العناصر ومن هذه المقامات « الوردية - النساء » .

٣ - **مقامات مجددة :** وضع السيوطى فيها بدائل لعناصر المقامة الشكلية الموروثة ومن هذه المقامات « المسكية - التفاحية - الفستقية - الياقوتية - الزمردية - النيلية - الطاعونية » .

٤ - **مقامات الرسائل :** ومنها « اللؤلؤية - الاستنصار - الكاوى - طراز العمامة - قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض - نزول الرحمة .... » .

٥ - **مقامات المقالات :** ومنها « تنبئة الغبى - اللازوردية - الذهبية - وصف الروضة ... الخ » .

٦ - **مقامات البحوث :** ومنها « الصواعق على النواعق - الافتراض - الكلاجيه .... الخ » .

وسوف نتحدث عن كل قسم من هذه الأقسام ، مبينين ما اتصف به من صفات وأسلوب .

أولا : المقامات التقليدية :

إن الناظر إلى مقامات السيوطى المشار إليها سابقا ، سوف يرى أن السيوطى حافظ فى مقاماته هذه على القالب الذى وضعه رائد المقامة الأول (البديع) ، فالبطل موجود ، والراوى موجود ، والقصة بحوارها وعقدتها وحلها موجودة ، والأسلوب ببديعه وسجعه ، وغلبة ألفاظه على معناه موجود أيضا .

فالبطل فى مقاماته تلك هو « أبو البشر » الأديب البارع ، اللغوى ، النحوى ....

والراوى هو « هاشم بن القاسم » الذى يحدثنا فى « المقامة المكية » أنه مازال يقتحم السباسب والمسالك إلى أن نزل مكة ، وظل يجول فى مشاهدها ، وتمنى أديبا يسلى بمسامرته غربته ، وذات يوم التقى بجماعة بينهم شاب ، يدعى أنه عالم علامة ، فرغب فى أن يختبره فى مسائل ومعضلات ، فازداد الشاب فخرا ، وراح يلقى عليه المسألة تلو الأخرى والشاب يجيب عليه وفى النهاية أراد منه أن يعرف اسمه ، فانشد الشاب شعرا ، ذاكرا أنه أبو البشر ، وود الراوى لو اتبع أبا البشر هذا .

وواضح تأثر السيوطى برائد المقامة العربية ، فى مقامته الأولى « القريضية »[1] التى يقص فيها البديع ما رواه عيسى بن هشام ورحلته إلى جرجان ، ووصفه لهذه البلدة وحاله ، ثم لقائه بالشاب وما توالد بينهما من حوار ، عبارة عن أسئلة والرد عليها فى القريض والشعراء ، ثم طلبوا منه أن يعرف نفسه فأنشد شعرا حتى عرفه عيسى بن هشام وقال ألست أبا الفتح ... الخ » .

ويزداد السيوطى تأثرا فى هذه المقامة بمقامة الحريرى « الطيبية »[2] التى يحكى فيها الحارث بن همام بعض ما كان يفعله فى أثناء قضائه مناسك الحج حتى يلتقى ببنى حرب ويعرف منهم أن فقيه العرب قد حضر ، فذهب الحارث إلى هذا المجمع فعرف أن هذا الفقيه هو أبو زيد ، وإذا بشاب يختبره وتتوالى الأسئلة المعضلة والأجوبة المنمقة بينهما واعترف الشاب له بالمنزلة والقدرة العلمية .

ويختلف السيوطى عنهما - بغض النظر عن الموضوع - فى أنه احتفظ بالأسلوب الأكثر سيولة وسهولة ، وأنه أسقط شخصيته على بطل المقامة كما ستعرف فى الباب الرابع من رسالتنا هذه ، وكذلك فإن المقامة لا تدور فى التكدى وإن الراوى عند السيوطى لم يعرف البطل - بداهة - كما عند البديع والحريرى ، وهذا يرجع - فيما نرى - إلى ترتيب المقامات ، فإنه فى مقامته الأسيوطية سوف يعرف الراوى لحظة أن يراه .

وكذلك يحكى الراوى « هاشم بن القاسم » فى المقامة الأسيوطية ، ذهابه إلى أسيوط وهناك يقابل شابا عالما يلفه جمع من الناس ، وإذا برجل طويل اللسان يكثر عليه الأذى ، ولم يجد الشاب له نصيرا ، فيهب هاشم بن القاسم طالبًا وقوع مناظرة بين الشاب والرجل حتى يتبينوا المحق والمبطل منهما ، فقام الشاب والقى تسع عشرة مسألة نحوية ، ولم يحر فيها الرجل جوابا ، فبهت ، ورجع عما هو فيه ، وقبل قدميه وأقرت الجماعة عظمة هذا الشاب .

وقيل إن هذه المقامة تأثر السيوطى فيها بمقامة الحريرى « القطعية »[3] التى تدور حقا

(١) المقامة من ص ١٠ إلى ص ١٧ « شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى » تأليف محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

(٢) المقامة من ص ٣٣٣ إلى ص ٣٥٧ فى « مقامات الحريرى » مكتبة صبيح بالأزهر .

(٣) المقامة من ص ٢٣٦ إلى ص ٢٤٤ فى « مقامات الحريرى » ط صبيح ، والقطعية ، محلة ببغداد معروفة . راجع هامش ص ٢٣٦ السابق .

في المسائل النحوية وإن كان السيوطي ألقى بطله أسئلته النحوية جملة مع قصر حجم السؤال، وبساطة الأسلوب فيها، ومع ذلك فقد كان السيوطي محتفظا بشخصيته في المقامة من خلال صفات البطل ويختلف أيضا في أن الراوي قد ناصر البطل.

والسيوطي لم يقصد بمقاماته تلك غايات تعليمية فحسب، إنما كان لإظهار شخصيته وتبيان مكانه وإسقاط ما يحدث معه على صفحات المقامات، ونشير إلى أن ألغازه النحوية التي قالها البطل في « الأسيوطية » قد ذكرها من ألغازه النثرية في كتابه الأشباه والنظائر في النحو[1] وارتبطت أسماء المقامات بأسماء البلاد التي يوجد بها أو ينتمي إليها أو يعشقها لأنها بلد خير رسل الله.

أما من ناحية الأسلوب في هذه المقامات فهو وإن كان جزلا رصينا، أخذ حظه من الألوان البديعية والبيانية، وقد سار سجع جمله مزدوجا أي يتغير بعد كل جملتين مثلما فعل الحريري في مقامتيه السابقتين وكذلك البديع في القريضة، إلا أن السيوطي كان أخف تأنقا في اختيار غرائب الكلمات والجملة لديه، كان رسمها الإملائي طويلا إلى حد ما، أما عند الحريري خاصة فكانت تميل إلى القصر إلى حد كبير.

القسم الثاني: « مقامات تقليدية مجددة »

وفي هذا القسم من المقامات حافظ السيوطي أيضا على شكل المقامة التقليدي من وجود بطل وراوية، وقصة وأسلوب بديعي مسجوع، لكنه جدد في مفهوم هذه العناصر على النحو الآتي:

ففي المقامة (الوردية) وقد عرضناها في موضوعات مقاماته نجد السيوطي قد حافظ على عناصر المقامة، فالراوية موجود، لكنه لم يكن زيدا أو عمرا، إنما هو كما قال السيوطي بعنعنة الإسناد الحديثي « حدثنا الريان، عن أبي الريحان، عن أبي الورد أبان عن بلبل الأغصان عن ناظر الإنسان عن كوكب البستان عن وابل الهتان، قال: مررت يوما .....».

أما البطل فهو موجود أيضا، لكنه لم يكن بطلا واحدا إنما هو متعدد بتعدد الأزهار المشتركة في المناظرة « الورد - البنفسج ...... الريحان ».

---

(١) راجع الأشباه جـ ٣ ص ٣٢/ ٣٣.

(*) ننبه على أن هذا الرأي فيه تعميم غير موجود، فلا توجد عنعنة في مقامات السيوطي إلا في هذه المقامة فقط.

وروح القصة والامتاع والتشويق الذى اتسم بوجود عقدة تتمثل فى محاولة كل زهرة الوصول إلى المُلك ، وحل قد عرفناه بواسطة ذلك الحَكم الذى فصل بينهم - كما طلبوا - معطيًا - بالاقناع - زهرة الفاغية (الحناء) التى لم تشترك فى المناظرة عَرْشَ الخلافةِ ، ويقينًا أن الباحث محمد رشدى حسن يَظْلم السيوطى حينما يقول عن مقامته هذه ومثيلاتها « أما عن المنحى القصصى فليس ظاهرا فلا حادثة ولا عقدة ولا تشويق فى مقاماته ، بل بدأ فيها متأثرا بدراسة مصطلح الحديث فهو كثير العنعنة فى مقاماته ، وبدا ذلك واضحا فى مقامته الوردية ، فقد ذكر « عن » فى هذه المقدمة ست مرات ، ونهاية السند هو وابل الهتان ، فكأنَّ هذه العنعنة مجرد إعداد للموضوع ليس إلا »[1] .

هذا وقد جاء الحوار ساخنا متقدا ، بذل فيه أديبنا جهدا كبيرا ، ليخلق جوا من التوازن بين الأزهار المتناحرة المتفاخرة ، وإن كان التفاخر بين الأزهار من الفنون القديمة إلا أن السيوطى كما قال الدكتور / السيد على حسن قد رسم بها لوحة فنية رائعة نابضة بالحياة والحركة ، حافلة بالألوان المختلفة ، زاخرة بالصوت ، فواحة الشذا بتشخيص الأزهار ، وجعلها أناسا تتحاور وتتجادل فى أسلوب حجاجى قوى ، عمد فيه إلى السجع المؤثر الذى يطول ويقصر ، فدل بذلك على خصب خياله ورحابة أفكاره ، وعمق ثقافته ، ورقة طبعه ، وقدرته على التنويع والتلوين »[2] .

والجدير كذلك فى هذه المقامة هو الحكم الذى هو السيوطى نفسه كما ستعرف فيما بعد .

أما مقامته « رشف الزلال من السحر الحلال » و« النساء » فالراوية واحد وهو « أبو الدر نفيس بن أبى أدريس » أما البطل فهو عشرون بطلا « المقرىء ، المفسر ،..... ،.... » الذى يقص لنا كل منهم ما فعله مع عروسه فى ليلة الزفاف ، موريا بألفاظ علمه ، وإن تشويق القارىء وترغيبه ، وروح القصة فى هذه المقامة موجود ، وإن كانت القصة من بداية وعقدة وحل موجودة فى حديث كل عالم منهم إلا أنها فتتت وضعفت نتيجة سير السيوطى على طريقة ليس فيها تنوع .

ويلاحظ أن السيوطى جعل حديث كل عالم باسم المقامة يقول « المقامة الأولى ، قال المقرىء ....» المقامة الثانية ، قال المفسر .....» هكذا .

---

(١) أثر المقامة ... ص ٤٥/٤٦ .

(٢) مجلة كلية الآداب بسوهاج ص ٣١٤ .

ويلاحظ أيضا أن اختيار اسم الراوى يرجع إلى ما تحبه شخصيته أو ليعبر عنها بل أن ترتيبه لأبطال مقامته إنما مبعثه :

(١) ترتيب علومهم كما هى درجتها عند مفجرها وهو القرآن الكريم .

(٢) الترتيب الطبيعى للعلوم التى ألمّ بها السيوطى .

ويلاحظ أن السيوطى حينما يجرى هذا الحديث على ألسنة مجموعة من العلماء متكاملة ذوى تخصصات مختلفة فى رشاقة وحذق ومهارة بالغة ، يجْمعُ الخيالَ حينما يتقمص شخصية كل واحد منهم ، مُوجِدًا نفسه فى بؤرة شعوره ، نابضًا بنبضه ، متحركًا بأطرافه ، متعاملاً بسلوكه ، محساً بأحاسيسه ، مفكرًا بمكوناته الثقافية العامة والخاصة ، ناطقًا بلسانه ، وبألفاظ معجمه .

أما الأسلوب فى مقامته هذه فإنه يقوم أساسا على المشترك اللفظى ، الذى يعرف من خلال السياق ، فضلا على وجود السجع والبديع ، وسيل من الاقتباسات والتضمين من القرآن والحديث والأمثال .

وعلى هذا فإن السيوطى فى هذا القسم من المقامات قد حافظ على شكل المقامة من وجود « رواية - بطل - قصدة - وأسلوب بديعى » ولكنه جدد فى :

١ - أن رواية مقامته الوردية لم يكن آدميا ، وراوية « رشف الزلال » أسقط فيه شيئا من شخصيته ، فضلا على التنوع فى اسم الرواية » .

٢ - البطل متعدد يتعدد أفراد المقامة سواء كانوا آدميين أم غير آدميين .

٣ - إن السيوطى يسمى حديث كل عالم فى « رشف الزلال » باسم المقامة .

٤ - إن السيوطى يوجد حكمًا فى مقامته « الوردية » يمثل شخصيته .

٥ - أنه يتأثر بعلم الحديث فيستخدم « السند المعنعن » فى « الوردية » .

٦ - غلبة المعنى على اللفظ لا اللفظ على المعنى ، وقد جاء البديع طيّعا والسجع مؤثراً ليناً .

القسم الثالث : المقامات المجددة :

تلاعب السيوطى فى هذا القسم بعناصر المقامة الشكلية ، مجددا تجديدا خاصا به ، ممثلا لونا من ألوان الإبداع والتفرد الذى هو عنصر من عناصر شخصيته التى عرفناها ، وهذا التجديد الخالص الذى رأيناه فى مقامات هذا القسم ، ينقسم فى رأينا إلى قسمين :

١ - الأول : ويتمثل فى مثل هذه المقامات « النيلية - الطاعونية » .
٢ - الثانى : ويتمثل فى مثل هذه المقامات « المسكية - التفاحية - الفستقية - الياقوتية - الزمردية » .

وقد كان السيوطى فى مقاماته التقليدية المجددة - ويهمنا هنا عنصرا الراوى والبطل - قد أوجد الراوى ولكن مع تعدد البطل « عشرون بطلا » ، ثم أوجد الراوى ولكنه غير آدمى ، وعدّد بطل المقامة « الأزهار المشتركة فى المناظرة » مع وجود عنصر ثالث « الحَكَم » الذى يمثل بدوره البطل الحقيقى ، بل المخرج الذى يتحكم فى توجيه « البطل » على مسرح المقامة . فإن السيوطى فى هذا القسم لم يفته هذان العنصران وبقية العناصر الأخرى ، إذ أنهم موجودون ولكن فى هيئة أخرى وخلق جديد .

فالقسم الأول من مقاماته المجددة والذى تمثله مقاماتاه « النيلية / الطاعونية » نجد أديبنا فضلا عن أنه أتجه بموضوعها اتجاها حتميًا نحو الواقع والمشاركة فى أحداث مجتمعة من منطلق خدمة أدبة لمبعوثية إمامًا مجدداً لذلك القرن ، اقتضى الأمر أن يعيد خلق العناصر الشكلية للمقامة ، فالراوى الذى يهيىء القارىء لسماع الحادثة وينبئنا بما يفعل البطل لمن يكن زيدا أو عمرا من الرواة كما فى مقاماته التقليدية ، ولم يكن نباتا أو جمادا ، كما فى مقاماته التقليدية التجديدية ، بل أصبح السيوطى بنفسه راويا لمقامته ، فها هو ذا فى النيلية يحكى بأن الناس كانت فى رغد من العيش ، وأصابهم الله بالنيل وقد وقف امتداده ، ونقص ماؤه ، وأصيب مصر بالجفاف ، فتحدث أصحاب المهن عن ذلك واصفين ما حدث فقال المقرى والمفسر ..... الخ ثم بشر الله مصر بالفرح ، فامتد النيل ، وزاد ماؤه ، وانتعشت الحياة ، فأعاد هؤلاء وصف ما حدث .

إذن فالراوى موجود يتمثل فى السيوطى نفسه حينما بدأ مقامته ، ويقص ما حدث والبطل موجود تعدد بتعدد أصحاب المهن الذين يتحدثون عن الواقعة بطرفى نقيضها من خلال ألفاظ علمهم ومهنهم وثقافاتهم ، وينطبق على السيوطى هنا قدرته السابقة فى « جَمْعِ الخيال » ، ملاحظين ان هذا البطل « المتعدد » أو هؤلاء الأبطال ، إنما يمثلون جوانب السيوطى بملكاته المتعددة فكان كل بطل من هؤلاء بشخص زاوية من زواياه ، ومتحدثا عن موقفه من الواقعة ، مبينا قدرته على التعبير من خلال معجمه فى أسلوب أدبى رفيع بديع .

إن السيوطى قد وزع نفسه فى هذه المقامة راويًا ، وبطلًا متعددا فى حالتين متناقضتين

وفى مقامته الطاعونية نجد السيوطى أيضا راويًا لها ، فإنه يقص مؤرخًا انتشار وباء الطاعون ورحلته فى البلاد العربية وخاصة مصر ، وموقف الناس أمامه ، ثم بدأ فى إظهار أبطال مقامته متحدثين عن الوباء مفسرين أسباب انتشاره ، واصفين قسوته ، موضحين للناس ما يفعلونه إزاءه ، داعين الله بالفرج .

فعيسى بن هشام راوى البديع انتهى فى مقامات أديبنا هذه ، وأحل صاحبنا نفسه متكلما وراويا مباشرًا للمقامة ، وأبو الفتح السكندرى ذلك الأديب الشحاذ المحتال صار عند السيوطى هذا البطل المتعدد أو الأبطال أصحاب المهن الدينية والعلمية والأدبية التى تمثل لا ريب فيه المهن التى اتقنها السيوطى تصنيفا وتحريرا وإبداعا وتفردا ، بنفس التدرج الذى ذكرناه فى مقامته النيلية ، وإن لم يلتزم بالعدد فى شطرى المقامة ، فقد أضاف بعض الأبطال الجدد التى لم نرها فى مثيلاتها ، وقد كان هذا من مقتضيات الحُبْكَةِ الفنية للمقامة .

فقد أضاف إلى أبطاله « لسان الحال » فى الشطر الثانى للمقامة فقط ، وأتى به مرتين مرة فى أول الشطر حيث بشر الناس مع المُنَادِى بوفاء النيل وامتداد مائه ، وفى آخر الشطر حين تلا على الناس دعوته بأن يخافوا الله ولا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، كأنه يشير إلى صوت الله الذى يبشر « أمير المقياس » بفرجه وكرمه على الناس ، ثم ينبه المؤمنين بألا ينسوا ما فيه من خير ، فيعيثوا فى الأرض فتفسد ، فيلقوا ما لقوا بل أشدّ قسوةً وأحرَّ انتقاما .

هذا وقد أضاف السيوطى إلى أبطاله هؤلاء « المؤذن » فى نهاية شطرى المقامة ليؤذن فى الناس إغاثة إلى الله ، عَلّه يشفع ، فيفرج ، ثم ليؤذن فى الناس فرج الله ودعوه إلى الوفاء بما مَنّه الرحمن عليهم صلاةً وفلاحًا .

أما القسم الثانى من مقاماته المجددة . الذى تمثله « الياقوتية - المسكية - الفستقية - التفاحية الزمردية » فإن السيوطى قد صدّع العناصر الشكلية للمقامة التقليدية أيما تصدع واضعًا بدائل جديدة للعناصر البائدة وهذا التجديد فى عناصر هذه المقامات ، لم يسر على نمط واحد ، إنما أعطى لكل مقامة - تقريبا - مقدارًا من التجديد حتى غدت - أو كادت - فنا جديدًا لا يمت إلى أصله بصلة .

وكأننا بفنان وجد لديه لونًا من الألوان ، فاستخدمه ، فما لبث أن مجّه فراح يمزج فى مرسمه التجريبى الإبداعى به ألوانًا أخرى حتى صار اللون شيئا آخر .

ويقضينا ذلك أن ننظر فى العناصر الشكلية لكل مقامة من تلك المقامات التى تدور حول النبات والجماد ، لنرى - عيانا - كيف يتلاعب السيوطى - ابداعا وتحررا - جد تلاعب بالعناصر الشكلية للفن المقامى .

فبالمقامة الياقوتية نرى السيوطى بدأ يتخلص - مما عرفناه فى مقامته الوردية بمقاماته التقليدية التجديدية من عنصر الراوى المعنعن « وحدثنا الريان عن أبى الريحان ، ..... » إنما بدأ هو نفسه مقدّمًا المقامة ، وهى اجتماع سبعة من اليواقيت « الياقوت ، اللؤلؤ، « للمفاخرة لا للمفاجرة أيها فى التربة أعلى ، وفى الزينة أغلى ، وفى المنظر أحلى ، وفى المخبر أجلى ، فعقدوا لكل منهم حلقة ، وسبحوا الذى أحسن كل شىء خلقه ، فقال الياقوت ، ثم اللؤلؤ حتى آخرهم .

إذن فالراوى موجود فى هذه المقامة ، ولم يكن زيادا أو ما شاء من الأسماء بل كان السيوطى نفسه ، وما كان ينقص لو قال « حدثنا الماس عن عنبر عن المروعن الزرقون ....» كما تعرف من أسماء الجواهر[1] إلا أنه لم يجد هناك جدوى لأن يوجد راويا لمقامته دونه .

أما البطل فإنه موجود كما فى مقدماته التقليدية المجددة متمثلا فى هذه الجواهر الكريمة التى تحدث عن نفسها ، مثبتة كيانها ، هذا الكيان المرتكز على المحورين الأساسيين أو شقى الحديث الذى وضحناه فيما سبق ، وإن كان عدد من هذه الأحجار لم يجْر ذكرها فى القرآن إلا أن السيوطى عرضها بما قيل فيها مثل « الزمرد ، والزبرجد ، والعقيق ، والفيروز » .

وننبه - دون إجابة هنا - أن الشق الثانى من حديث كل بطل من هؤلاء الأبطال « الأحجار » يدور حول منافعه الطبية عند الناس ، فأية فوائد طبية لهذه الأحجار إذا ما كان يقصد السيوطى حقا الأحجار نفسها ؟!.

فالراوى إذن فى هذه المقامة موجود ولكنه كان السيوطى فى مقدمته للمقامة والبطل متعدد إلا أنه خالف الأبطال السابقين فى مضمون حديثه من ناحيتين :

(١) الإقلال من حرفية الحوار واشتعال جوه احتداما ، وتنافرا وتناحرا .

(٢) الحديث يخالف المنطق بذكر فوائد طبية غريبة لكل بطل .

---

(١) هناك كتاب ليحيى بن ماسويه عن « الجواهر وصفاتها ... » تحقيق عماد عبد السلام رؤوف ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

أما الحكم الذى رأيناه فى مقاماته التقليدية المجددة ، بل حتى فى التقليدية نفسها إذ كان الراوى فى مقامته الأسيوطية قد لعب دور الراوى والمشير إلى حل عقدة المقامة ، فقد اختفى فى هذه المقامة ، وذلك لأن التطور الخارجى لعناصر مقاماته متأثر بالتطور الداخلى للمقامة فقد أراد - هنا - أن يترك القارىء لأن يعرف كيان ومنافع هذه الأحجار ، ثم يحكم بينهم فى نفسه ، وهذا هدف سيوطى ليتعلم قارؤه بعد أن شرح الأشياء له تشريحا ، وما عليه - حينئذ - إلا أن يتبصر ويتأمل فيستطيع الفصل بين الأشياء ، ومن ناحية أخرى يرتبط هذا بجو المقامة الذى أوجده عمدا أديبنا حينما يقول « اجتمع سبعة من اليواقيت للمفاخرة لا للمفاجرة .... » فلم يكن الحال مكدرا بالتنافر والتناحر كالذى رأيناه فى « الوردية » ، ولم يكن البطل فيهم يريد أن يتبوأ الملك حقا وابطلا بل كان كل منهم ذا ضمير دينى يسبح الذى أحسن كل شىء خلقه ، إنما أراد أن يتحدث بما أنعم الله عليه ، وينشره بين عباده جزاءً واحتسابا .

أما فى مقامته « السكية » فلا يوجد إلا عنصران ، الأول وهو مقدمة المقامة التى تحكى أن أمراء الطيب تنازعوا فيما بينهم على المرتبة العليا ، فقصدوا - بتوجيه ما - إماما عادلا فتحدث الإمامِ عن الطيب ، وعن المتنازعين ، فاصلا بينهم ، معطيا كلا منهم حقه حسبما امتلك مكانةً ومنافع .

فكانت المقدمة بديلا عن الراوى ، أما الحكم فهو السيوطى نفسه الذى لم يحكم بينَهم بعد أن عرض كل منهم حديثه ، بل هو الذى نظر فيهم ، فتحدث عنهم ففصل بينهم ، أى أن بطل المقامة المتعدد الذى رأيناه - فيما سبق - موجود ولكنه ذاب فى هذا البطل الأوحد الذى عبّر عنهم جميعا .

إذن فالسيوطى بدأ مشروعه لدمج العناصر الشكلية للمقامة ، فهو الراوى وهو البطل - وإن كان متعددا ، وهو الحكم بطريقة فنية متقنة ، أخذ يتحلل منها ، مفصحا عن مشروح إدماج العناصر الشكلية فى مراحلة المتتابعة ، فها هو ذا يتابع دمج البطل « المتعدد » بالحكم مع أختصار مقدمة الراوى الذى بدأ يتخلص من التقليدية فيه شكلا ومضمونا ، فى مقامته « الفستقية » يقول « مرت من النقول طائفة تروم الإفصاح عن طائفها ، فأجابها من أجاب أن استمعوا ما ألقى إليكم ، وعوا ما أملى عليكم ، أما الفستق ...» .

وتلاحظ أنه أعاد ذلك الجماد أو النبات الذى كان يتحدث عن نفسه تحدثا إنسيا

صرفا يتخاصم ويتجادل ويتحاور ، كائنا ما يريد أن يفصح لكنه لا يستطيع ربما لأن الآخر أفصح وأبلغ وأعرف بما يملك ، وربما لأنه غير آدمى لا يعرف إلى التعبير البشرى سبيلا ، ولكنه خفف القول بـ « فأجابها من أجاب » و« أن استمعوا ما ألقى اليكم .....» وإن كانت الجملة الأخيرة تحتمل لأن يكون الحديث موجها للبقول أو للناس .

والبطل الأوحد يتحدث عن أبطاله السابقين حديثا صريحا ، طبيًا صرفا ، وهذا ما يشير إلى أن السيوطى يصدع محورى الحديث الذى عرفناه فى مقاماته السابقة ، متجها بالمقامة اتجاها علميا يدور حول منافع البقول الطبية والحكم قد اختفى ، فما على هذا « البطل الأوحد الذى أجاب » أن يعبر عنهم ، وما على القارىء إلا أن يفصل بنفسه بينهم لو أراد .

ونجد السيوطى فى مقامته « الزمردية » يزداد اقترابا نحو الكشف عن العناصر الشكلية للمقامة الجديدة ، والتحرر من عناصرها القديمة ، فبدأها بـ « سأل سائل من أهل الوسائل من يُقصد فى المسائل ، فقال ....» .

وقد كان البقول فى مقامته السابقة تريد أن تفصح عن نفسها « فأجابها من أجاب » وكانت البقول فيها شىء من نكهة الأبطال أما هنا فأصبحت شيئا يسأل عنه ، فيجيبه الذى يعرف الحديث عنهم قائلا لسائله « القرع ، وما القرع ، ذو الفضل ....» .

فالراوى أصبح لمحا يعرف من هذا السائل بسؤاله ، والبطل هو من يجيب على من كان أندادهم سلفا أبطالا يتحدثون ويفصحون عن مشاعرهم .

وأخيرا يوحّد السيوطى للعيان الحَكَم بالبطل فى مقامته « التفاحية » فى مقدمته يقول « سألت طائفة فاقهة عن مناقب الفاكهة ، فأجبناها لما طلبت ، وبدأنا بالألطف فالألطف فى الذات ...» .

ومما سبق نجد أن السيوطى راح يمزج ألوان تجديده بدقة متناهية للمقامة واضعا فى كل مقامة مقدارا من التجديد حتى انتهى امره لأن يحول المقامة إلى شكل جديد .

ولكأنما حينما نتابع السيوطى فيما سبق من المقامات نؤرخ المقامة التى كانت تعتمد على العنار الشكلية ، كما وضعها رائدها البديع حتى استمالت فنونا عربية قائمة بذاتها كانت ومازالت تتوالد حتى يومنا هذا ، ألقى بذرتها أديبنا فى مقاماته الباقية على النحو الآتى :

القسم الرابع « المقامات : الرسائل »

وصل السيوطى بنا فيما سبق إلى إعلان تحرره صراحة من عناصر المقامة على تفاوت - فغير أوصاف البطل والراوى والقصة مفاهيم جديدة حتى الأسلوب الأدبى المسجوع لم يلتزم به أحيانا وجاء أسلوبه فى احدى المقامات حديث صيدلانى لا حديث مقامى .

ومازال السيوطى سيّارًا بمفهوم المقامة نحو فنون أدبية أخرى تدفعه صراعاته العلمية مع معاصريه ، فأنتج عددا وفيرا من الرسائل الأدبية من معمله المقامى كمقاماته (الروضة - اللؤلؤية الانتصار - نزول الرحمة - الكاوى - طراز العمامة - اللازوردية ...» .

أصبحت مقامات السيوطى - هنا - رسالة أدبية ، لا تدور حول الكدية كما عند البديع أو ألغاز نحوية ولغوية يبرع فيها أبو بشر أو مناظرات ومفاخرات ومجادلات بين النبات أو الجماد إنما تدور حول موضوعات جدلية بين السيوطى ومعاصريه .

فالقصة الخيالية فى المقامة أصبحت فى مقاماته الرسائل هى الموقف الذى يقصه لنا فى رسالته الأدبية هذه ، قصة تحكى تصاعد المشكل الذى ألف من أجله هذه « المقامة الرسالة » وموقف السيوطى مع هذا التصاعد .

والبطل القديم الذى يسأل فيجيب أو يلقى فى الناس طاقاته المتنوعة لينال دراهمهم وأعجابهم أصح السيوطى فى علله وأسبابه ، ومجادلاته الحتمية فى اكتساب الموقف إلى جانبه .

فمن خلال مقامته اللؤلؤية يوجه إلى الناس رسالة يقص فيها الموقف المتعب الذى يحياه عارضا لهم تطور هذا الموقف شارحا خطورته ، والعوامل التى تشد خيوط عقدته ، حتى يصل ونفسه إلى حل ارتضاه ، وهى اعتزال الناس والحياة العامة ومنع خير علمه عليهم ، وإن قصد إثارة التأثير العكسى فيهم من خلال هذا التهديد المؤدب .

وكذلك فعل هذا فى الاستنصار بالواحد القهار ، ويرسل رسالة أخرى مبينا المظالم التى تقع عليه من السخاوى ومعسكره ، هاجيا بعض أفراد هذا المعسكر هجاء شرسا ، موضحا للناس الفرق بينه وبين المعسكر من خلال طراز العمامة ، والدوران الفلكى ، ويؤكد أمانيه وحقه إلى ما ذهب فى رسائل أخرى مبينا حقه فى التحدث بما مَنَّ الله عليه من نعم .

وتلاحظ أن هذا القسم من تلك « المقامات – الرسائل » اتسم بعدة سمات أهمها :

(١) أنه أقرب إلى مفهوم المقامة المجدد لديه من الرسالة الصرفة .

(٢) أنه عالج فيه قضايا جدلية ، تخصه فى نزعاته الشخصية وفى صراعاته العلمية مع معاصريه فكان السيوطى البطل الذى يقص ما حدث ، ويجيب على طرح حوله ، مفنداً كل الاتهامات التى رُشِقَ بها ، مثبتاً حقه الطبيعى فى أهلية التفرد العلمى والشخصى بالوسيلة المتسمة بالموضوعية والإقناع حينا ، وبالشدة والسباب حينا آخر .

(٣) أما الأسلوب فيها فهو أسلوب أدبى ، سهل ممتنع ، اجتاز المعايير البلاغية لذلك الزمان تحررا ، وعدم التزام ، وإن التزم ، فهو التزام القوى المتمكن الذى يقوى الأسلوب الذى يصيبه بالجمهود والتقليد .

خامسًا : « المقامات المقالات » :

وفيها اتجه السيوطى اتجاهًا مباشرًا نحو الجدل والقضايا العامة للمجتمع ولإظهار قدراته وطاقاته المتنوعة لتربية النشء فى صورة المقال المعاصر ، فتارة تكون المقامة مقالاً أدبيًا رفيع المستوى يظهر فيه حبه « للروضة » يقوى الروح الأدبية فى نفس المتعلم بما يضمه المقال من نصوص شعرية ونثرية وألوان التخيل كما فى مقامته « روضة مصر » حين تقارن بينها وبين الأماكن المصرية الأخرى .

وتارة تكون المقامة مقالاً وعظيًا فى أسلوب دينى أدبى علمى كما فى مقامته فى الحمى .

وتارة تكون المقامة مقالاً علميًا يثبت فيه بعض الحقائق كما فى مقامته السندسية ، وتارة يعالج بعض القضايا المنتشرة بين المسلمين – آنذاك – كمقامته تنبئة الغبى ، وقمع المعارض ، وهكذا وإن كان السيوطى يوظف هذه المقامات المقالات فى بعض أغراضه الخاصة .

ويتراوح أسلوبها بين الأسلوب الأدبى الرفيع والسهل الممتنع والأسلوب العلمى .

سادسًا : « المقامات : البحوث »

وهى التى عالج بها السيوطى بعض قضاياه سواء كانت الخاصة بفكرة المبعوثية كالصواعق على النواعق والافتراض فى رد الاعتراض ، أم قضايا فقهية جادل وجودل فيها .

وأسلوبها أسلوب علمي يمتاز بالسردية دون الالتزام بالمعايير البلاغية المعروفة ، وهذا القسم - فيما يبدو - ساعد بعض المؤرخين على أن يخلطوا بين مؤلفات السيوطى الصغيرة التى ذكر هو بعضها كمقامات ، فكثيرًا ما نرى بعض رسائل السيوطى الصرف تُضمُّ إلى مقاماته .

عمومًا انتهت المقامة عند السيوطى إلى إفرازات لطاقات السيوطى الموسوعية التى نعرف ، ولهذا كله فقد أثرت مقامات السيوطى على المقامين اللاحقين .

أثر مقامات السيوطى فى النثر العربى :

نظرًا لأن هذه النقطة تكفى لإقامة بحث خاص وذلك لأن السيوطى كان مجددًا بمقاماته فن المقامة العربى موضوعًا وشكلًا إذ خرج من فلك الكدية إلى موضوعات حية تمس المواطن العربى بكل قضاياه الواقعية - آنذاك - صراحة ورمزًا ، وبما جدده فى العناصر الشكلية لها ، وبما حققه لأسلوبها من سهولة ووضوح ، وابتعاد عن الحشود والتعقيد ، واهتمام بالمعنى قبل اللفظ مع أنه لديه معجم لغوى ثرى يدل على تمكنه من زمام اللغة ، وتعرفه فيها ، ومن ناحية أخرى كان السيوطى ميالًا فى مقاماته إلى القصص التمثيلى ، جامعًا للخيال ولعل كاتبًا آخر كما يقول الدكتور الشكعة لم يلحق بالسيوطى فى إبداع هذا النمط الذى تفرد بإجادته عالمنا الجليل دون غيره ممن حاول السير فى هذا الدرب من دروب الكتابة الفنية[١] ، فقد أثر - بداهة - على المقامين اللاحقين ، ممتدًا أثره حتى مطلع القرن العشرين .

لذا فإننا نكتفى بإشارات بعض الباحثين عن أثر السيوطى فى النثر ، فإن السيوطى كما يقول محمد رشدى حسن « قد أثر على شهاب الدين الخفاجى م ١٠٦٩ هـ ، ومقامات الخفاجى تعد حلقة من سلسلة المقامات ذات الصبغة الصحفية الجدلية التى كان رائدها السيوطى الذى أحدث هذا التطور للمقامة العربية فى عصرها الوسيط »[٢] .

وأثر كذلك على « أحمد عبد اللطيف البربيرم ١٨١١ م فإن مقامات جمعت محاسن ما كتبه السيوطى[٣] .

---

(١) « السيوطى » مجموعة البحوث ص ٤١٧/ ٤١٨ .

(٢) راجع أثر المقامة ص ١٢٧ وما بعدها وص ٢٣٠ وما بعدها .

(٣) راجع السابق ص ٢٦٣ ، ومقارنة بينها بالسابق أيضا ص ٥٩ وما بعدها .

وتأثر به عبد الله فكرى الذى أنطق الحقائق الفلسفية كالشجاعة وغيرها ، أما السيوطى أنطق الجماد[1] .

وأغلب الظن - كما يقول محمد رشدى حسن - أن المويلحى قد تأثر بهذه المقامات التى أنشأها السيوطى فطابع النقد العنيف لمظاهر الانحلال كانت مشتركة بين السابق واللاحق على السواء ، وكان كل منهما يهدف إلى الإسلام »[2] .

---

(١) راجع مقارنة بينهما بالسابق ص ٧ وما بعدها .

(٢) راجع السابق ص ٥٣ / ٥٤ و ص ١١٩/ ١٢٠ .

الفصل الثانى

فنونه النثرية الأخرى

أولاً : الرحلات

اتفق جميع باحثى السيوطى المعاصرين حينما ترجموا له سواء فى كتبهم أم فى بحوثهم أم فى رسائلهم العلمية أم فى مقدماتهم على كتب السيوطى التى يحققونها بأن السيوطى سافر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور وما حولها ، فضلاً عن رحلاته الداخلية فى المدن المصرية إلى دمياط والفيوم والأسكندرية والمحلة الكبرى ، وزار بعضهم أسيوط .

والحقيقة التى اكتشفها بحثنا أن السيوطى – بالنسبة إلى رحلاته الخارجية – لم يرحل إلا للحجاز فقط عام ٨٨٧ هـ ، حينما ذهب لقضاء فريضة الحج ، وجاور هناك عاماً كاملاً ، ولم يَرَ الرجل لا بلاد المغرب ولا بلاد التكرور وما حولها ولا اليمن ولا الهند ، ولا غير ذلك مما توهمه الباحثون جميعهم وما دفع بعضهم لنسج آراء وهمية حول ما استفاده هذا الرحالة من تلك البلاد وأثرها العلمى عليه .

فالتقرير الأوحد الذى استهد به الباحثون قاطبة على أن السيوطى سافر إلى هذه البلاد هو هذه العبارة التى اجتزؤها دون فهم من ترجمة السيوطى لنفسه فى كتابه حسن المحاضرة .

« وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور » . لم يكن هذا تقريراً منه على سفره هو ، إنما كان على كتبه .

أى ظن الباحثون أن تاء « سافرت » للمتكلم وليس تاء تأنيث تعود إلى كتبه لا إليه وهذه أدلتنا على أنه كان يتكلم عن كتبه لا عن هذه البلاد المستثنى منها الحجاز .

(١) إنَّ السيوطى كان يتحدث عن مؤلفاته ، مؤرخاً تأليفه إياها ، وعددها فهو يقول « وشرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلثمائة

كتاب سوى ما غسلته ورجعتُ عنه ، وسافرتْ بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند »[١] .

أي أن كتبه سافرتْ وانتشرتْ فى هذه البلاد .

(٢) إنّ السيوطى كان - كما عرفنا - فخورًا بكتبه ، فخورًا بشهرتها فى البلاد الإسلامية التى سافرت إليها ودخلتها ، وشاعتْ فيها ، وهذه بعض نصوص للسيوطى نفسه وبعض تلاميذه والمؤرخين اللاحقين له تؤكد حكمنا :

(١) يقول السيوطى مخاطبًا السخاوى فى مقامته « الكاوى » .. أن كتابى سار وطار ، وشاع فى الأقطار ، وبلغ الناس منه الأوطار ، ودخل البلاد الشامية والحلبية والرومية والعراقية والحجازية واليمنية وبلاد المغرب والتكرور ...[٢] .

(٢) يقول السيوطى فى رسالته « التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » وهو يتحدث عن العلوم التى تفرد فيها ومصنفاته ومكانتها وشهرتها : « ... وعدتها إلى الآن خمسماية مؤلف ، وقد اخترعت علم أصول اللغة ودونته ، ولم أُسبق إليه وهو على نمط علم أصول الحديث وعلم أصول الفقه ، وسارت مصنفاتى إلى الشام والروم والعجم والحجاز واليمن والهند والحبشة والمغرب والتكرور ، وامتدت من التكرور إلى البحر المحيط ، ولا مشاركة لى فى مجموع ما ذكرته ...[٣] .

(٣) يقول السيوطى مخاطبًا ابنِ الكركى فى طراز العمامة » ... فليسِ فى الإسلام قطر إلا وقد وصلتْ تصانيفى إليه ، ولا مَصْر إلا وتجد شيئًا من كتبى لديه[٤] » وكما قال أيضًا فيها « فلذلك سار بها السير ، وطار بها الطير ، وسلكتْ كل مجاز ، ولم يحجزها عن الشام والحرمين مجاز[٥] .

(٤) ويقول أيضًا فى الدوران الفلكى « فما أفرغُ من مسودتها إلا وقد ازدحمت

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٣٨ .

(٢) ورقة ٥ .

(٣) المخطوطة بدار الكتب (مرت) ص ٤٥ .

(٤) ورقة ١٠ .

(٥) السابق ورقة ٣ .

عليها الناس وتداولها الفضلا والأكياس ، وبذلوا فى تحصيلها ما حوته الأكياس ، ثم تطبق الدنيا بعدًا أو قربًا وتسير إلى الآفاق شرقًا وغربًا »[١] .

وغير ذلك مما نجده من نصوص مثبوتة فى كتبه ومما قاله غيره فى هذا الصدد .

(٥) عبد الوهاب الشعرانى إذ يقول :

« وانتشرت مؤلفاته فى البلاد الحجازية والشامية والحلبية والروم وبلاد التكرور والمغرب والهند واليمن وغيرها »[٢] .

(٦) تلميذه الداودى إذ يقول :

« وقد اشتهرت أكثر مصنفاته فى حياته فى أقطار الأرض شرقًا وغربًا ... »[٣] .

إذن فالنص الأوحد الذى تعاطاه مترجمو السيوطى المعاصرون على أنه سافر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور كان عن كتبه التى سافرت ووصلت إلى هذه البلاد لا هو .

(٣) أننا قرأنا كل كتب السيوطى التى تعاملنا معها لرسالتنا هذه سواء ما نذكره منها فى نهايتها أم التى لم نجد مادة فيها فلا نذكرها ، فلم نحظ بحرف واحد يشير إلى أن السيوطى سافر إلى هذه البلاد - عدا الحجاز - فهلا استطاع باحث منهم أن يأتى لنا بما يعضد زعمه ؟

(٤) إن السيوطى حينما ذهب إلى الحجاز وجاور هنا عامًا كاملًا ، عرفنا فى عشرات المواضع أنه ذهب وجاور وقد ذكر ذلك فى حسن المحاضرة « ولما حججت » ، وقد سجل رحلته هذه فى رسالة أسماها « الرحلة الزكية فى الرحلة المكية » وذكرها فى حسن المحاضرة[٤] وفى فهرسه[٥] .

---

(١) ورقة ٩٠ .
(٢) ذيل الطبقات الكبرى ص ٧ .
(٣) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٨ ص ٥٢ .
(٤) جـ ٢ ص ٣٤٤ .
(٥) ورقة رقم ٤ .

ويمكننا أن نقول إن المقامة المكية التى تحكى قصة بطلة وراوية فى مكة وأهلها تحاكى شيئًا ما جاش فى صدره فى أثناء زيارته هذه .

هذا وقد ألف فى مكة كتابه « النفحة المكية والتفحة المكية » وألف لمكة والمدينة عدة كتب إنشائية ووصفية منها ساجحة الحرم ، والحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة .

وما من مناسبة تحين إلا ويذكر مواقفه مع علماء مكة سواء من استفاد منهم وجلس إليهم أو من دخل معهم فى صراعات علمية ، وتجد ذلك مثبوتًا فى نظم العقيان وأيضا فى حسن المحاضرة فلماذا إذن يذكر السيوطى كثيرًا هذه الرحلة وتلك الفترة التى قضاها ولا يشير مطلقًا إلى هذا السيل من البلاد التى توهم المعاصرون أنه ارتحل إليها والتى يوجد بها علماء أفذاذ يترجم لهم ، وكانوا يراسلونه ، وبها معجبون شتى بدء من ملوكها حتى من يجهل القراءة ، ولكنه سمع بعلمه وفتاويه واستفاد بها !!.

أما المراسلات والصلات التى كانت بينه وبين أصحاب بعض البلاد فإنها مراسلات علمية تدور حول الفتاوى والمسائل كما يقول هو ذلك : « ووصلت إلىَّ من علماء الأمصار المطالعات والرسائل ما بين راغب فى تأليفى وطالب لجواب ما بعث به من الفتاوى والمسائل ....»[1] .

ويكفى أن تقرأ مقدمات هذه المراسلات « المباحث الذكية ، فتح المطلب المبرور ، رسالة إلى ملوك التكرور ... إلخ » .

(٥) إن تلاميذ السيوطى والمؤرخين القدامى الذين ترجموا للسيوطى كالداودى والعيدروسى والشعرانى وابن العماد والشوكانى لم يذكر أى منهم – أو غيرهم – أية إشارة من قريب أو بعيد تومىء إلى أنه رحل إلى مثل هذه البلاد .

(٦) متى سافر السيوطى إلى هذه البلاد ؟ وكم استغرقت هذه الرحلات من وقت ؟ سؤالان كنا نود أن يسأل الباحثون أنفسهم بها ، إذ أن السيوطى فى كل كتاب ومصنف – تقريبا – يذكر تاريخ انتهائه من تأليفه هذا الكتاب أو يؤرخ الوقت الذى أرسلت فيه مسائل سائليه ولائذى فتاويه ليجيب عليهم ، ولو رتبنا هذه

---

(١) طراز العمامة ورقة ٣ .

المصنفات والتواريخ ترتيبًا زمنيًا لما وجدنا فترة شاغرة لنتوهم مثلهم أنه سافر أو ارتحل إلى هذه البلاد فى أطراف الأمة الإسلامية ؟

وسنقوم إن شاء الله بإعداد بيولوجرافيا لمؤلفات السيوطى .

وعلى ضوء ما سبق ، فليس للسيوطى من أمر رحلاته الخارجية إلا « النحلة الذكية فى الرحلة المكية » وهو من كتبه المفقودة .

- أما رحلاته الداخلية وإنتاجه الإنشائى له فيها ، فإن السيوطى نص بنفسه على أسماء الرحلات التى قام بها إلى الأسكندرية والفيوم والمحلة الكبرى ، كالاغتباط فى الرحلة إلى الأسكندرية ودمياط » و « قطف الزهر فى الرحلة الجامعة بين البر والبحر والنهر » .

غير أن هذه الرحلات من كتبه المفقودة ، ولعلّنا نعثر عليها يومًا ما .

أما عما زاده بعض الباحثين[1] من أنه سافر إلى أسيوط ، ولم يدلل على ذلك ، فإن السيوطى حقًا لم يعطنا أية إشارة إلى أنه زارها ، ولا نملك دليلًا ملموسًا إزاءها ، إلا فيما نظن أن مقامته « الأسيوطية » والتى يحكى راويها سفره إلى أسيوط وقضاء أسبوع بها ، واللقاء العلمي بين بطل المقامة وبين الناس ، وفوزه بإعجابهم ، ودحض محتقره ، ومن جانب آخر أيضًا أنه من الجائز أن يكون كتاباه « المضبوط فى أخبار سيوط ، وتاريخ أسيوط » رد فعل من رحلته هذه ، وبذلك قد نقلل من حكم باحث آخر قال « إن السيوطى لم ير مدينة أسيوط »[2] .

ثانيًا : الرسائل والمكتبات الأدبية

لاقى السيوطى فى حياته شهرة ضربت فى أكتاف البلاد الإسلامية ، إمامًا ، مفكرًا ، مجددًا ، وعالمًا موسوعيًا ، وأصبح يومه اليوم الحياتى موزعًا بين تصنيف وتحرير وإملاء وإجابة فتاو وقضاء حقوق ربه فروضًا ونوافل .

وكان نصيب الرسائل والمكتبات من يوم السيوطى غير قليل ، فقد خلف السيوطى العشرات من الرسائل والمكتبات التى كان أغلبها علميًا صرفًا ، تناقش أمور الدنيا

---

(١) كالدكتور الشكعة فى « جلال السيوطى م . م » ص ٦٤ .

(٢) عدنان محمد سليمان « السيوطى النحوى » ص ٤١ .

والدين ، وسوف نختار ثلاث رسائل ومكتبات أدبية له ، نعرضها ونحللها وننظر فى أسلوبها .

(١) رسالة السيوطى إلى ملوك التكرور[1] :

لا زالت هذه الرسالة مخطوطة بدار الكتب ، وإن كان صاحب « عصر سلاطين المماليك » قد نقل أكثرها فى كتابه هذا ، إلا أنه تعذر عليه نقل بعض الألفاظ والكلمات لصعوبة قراءتها ، وتبلغ هذه الرسالة ٤٧ سطرًا ، وتاريخ نسخها عام ١١١٧ هـ .

أرسل السيوطى رسالته هذه إلى ملوك التكرور – وهى بلاد النيجر والسنغال حاليًا – إذ وجد أن ظلمهم تفشى فى الرعية ، وجاروا عليهم ، واجتازوا حدود الله وأحكام الشريعة ، فيوصيهم السيوطى بهذه الرسالة لكى يتقوا الله ويقيموا العدل بين الرعية .

والسيوطى فى هذه الرسالة ، وقد ذكر وقائع بعينها ومظالم وقعت على الناس بذكر أسمائهم وما حدث لهم ، يستخدم شرع الله سيفًا مرهبًا به هؤلاء الحكام والأمراء جل ترهيب فى أسلوب حاد آمرا إياهم بالعودة إلى حكم الله وإحقاق الحق والعدل والكف عن المظالم .

وتدل هذه الرسالة على مكانة السيوطى فى سياسة الحكام المسلمين الداخلية ومدى قوته فى التأثير عليهم ، شاهرًا شريعة الله سيفًا على رقبة كل من صبأ على أمرٍ ، أمرً به الله حكامًا وشعوبًا .

وتشير أيضًا إلى تلك الصلة الوطيدة بين السيوطى والشعوب الإسلامية ، فالرسالة تحكى أحداثًا بعينها ومظالم وقعت على بعض الناس ، وقد ذكرت أسماؤهم ، فمما لا شك فيه أن هناك مكاتبات من هؤلاء القوم إلى السيوطى ، طالبين الغوث ، ولم يشر السيوطى – تقية – إلى أسمائهم ، وأن كنا نظن أن الشيخ صالح الدين محمد بن محمد بن على اللمتونى التكرورى من هؤلاء المكاتبين الذاكرين للسيوطى مثل هذه الوقائع ، فإنه فى رسالته المساة « مطلب الجواب بفصل الخطاب »[2] التى أرسلها إلى السيوطى

---

(١) مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤١٦ مجاميع « من الورقة ١٣٩ ومابعدها » وراجع عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى . محمود رزق سيم ط دار الكتاب العربى ١٣٨١ المجلد السادس .

(٢) الرسالة وردّ السيوطى عليها بالحاوى جـ ١ ص ٢٨٤ وما بعدها .

طالبًا الرد على ما جاء فيها من مسائل ، وهى تعد تشريحًا لما يدور فى التكرور من تمزق سياسى ودينى وأخلاقى واقتصادى ، من صنع الملوك والحكام فمنهم من يأخذ الأموال قهرًا ، ومن لم ينفذ ذلك أخذوه وعذبوه وأخرجوه ، وجعلوا فى بلادهم من أرادوا ، ومنهم ملوك لا يقيمون القصاص أصلًا ، ومنهم من يشترى القضاء بما له ويأخذ الرشوة والسحت ، ويحكم بما يريد ، ومنهم من ... إلخ » ورد السيوطى عليه ومن قوله فى هذا الصدد « فاعلم أن جميع ما سألت عنه فى هذه الفصول من فعل الملوك والرعية للأشياء التى وصفتها كلها مذمومة ، ومحرمة شرعًا إلا ما استثنيه لك ، وبعضه أشد فى الحرمة من بعض ، وبعضها مقتض للكفر »(١) .

وليس يهمنا أن يكون هذا أو ذاك ممن كانوا على صلة بالسيوطى من بلاد التكرور ، قد أرسل إليه بهذه الوقائع والمظالم ، إنما يعنينا ثقة هؤلاء القوم بالسيوطى وموقفه الجرىء مع حكام التكرور ، فيبدأ رسالته قائلًا ..

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وقولوا قولًا سديدًا يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا .

من الفقير عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى إلى الملوك والسلاطين ببلاد التكرور عمومًا ، إلى الملك الزاهد محمد بن صعفن صاحب أكور ، وأخيه محمد وعمر وعمر وابن أختم بن عبد الرحمن وإلى الملك إبراهيم صاحب كاسنة خصوصًا ، سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، .... ، ثم أوصيكم بتقوى الله فإنها رأس الأمر وسنامه ، وقد فاز وأفلح من كان به اعتصامه ، واحتكم على العدل بين الرعية ، والوقوف عند حدود الأحكام الشرعية ، لا يغرن أمرًا منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة وما خوله من زينة الحياة الدنيا ، كلها سنة منام ، ولابد أن يستيقظ من السنة .

وقد بلغنى عن أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعى فى واقعة ، والمحكوم عليه منتم إليه فيحضنه ويحول بينه وبين صاحب الحق ، ويحضنه ويقول : هذا دخل فى ملكى ، .... ، أفلا يخشى أحدكم من مالك الملك أن يحل عليه العذاب الأكبر ، أو ينزل عليه سخطه فى الدنيا قبل أن يقبر « أنّ بطش ربّك لشديد » « وما ربُّك بظلام للعبد » ، أيغترُّ أحدكم بملكه الذى هو كقطرة أو سبابة ويريد أن يلغى حكم الله بإقامة ناموسه الذى لا يساوى

---

(١) رسالة إلى ملوك التكرور ورقة ١٣٩ .

عند الله جناح ذبابة ، أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ، أو يدك عليكم ما بين طولها والعرض .... »[1] .

ويترك السيوطى أحاديث الرسول ﷺ التى تحض على الالتزام بالعدل ، وقبح الظلم ، وترهب الحاكم الظالم بعذاب القصاص الإلهى فيه ، وترغب الحاكم لفعل ما أمر به الله لينال مَنّه وكرمه .

ثم يشرح السيوطى ما يفعله هؤلاء الحكام بخصوص بعض المظالم » .. فأقيموا السلطنة بعد لها : وأدوا الأمانة إلى أهلها ، ومما ينص بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده « ... وراح يقص ما حدث وبعض الوقائع الأخرى » وقد بلغنى أن محمد بن مريم أقلع عما كان عليه « وقد بلغنى عن أهل كوبر أن منهم ... » ، فرسالة السيوطى هذه تؤدى دورًا فى توجيه ملوك التكرور نحو إحقاق الحق والعمل بما أمر الله به ، والابتعاد عن الظلم ، وتؤدى دورها التثقيفى لكلٍ شعوب العالم الإسلامى بما يجب أن يلتزم به الحاكم وما للحاكم والرعية من حقوق مبينًا أنه لا صوت يعلو فوق صوت الشريعة .

أما من ناحية الأسلوب فقد التزم بالقالب العام للرسالة مقدمة وعرض لمحتواها وخاتمة ، وجاء أسلوبه سهلًا واضحًا ، غير ملتزم بالسجع وزخرفات البديع وقد كان مهتمًا بالمعنى قبل اللفظ ، موشيا أسلوبه وغرضه بالاقتباسات والتضمين .

(٢) كتاب صفاء إلى ابن ظهيرة[2] :

سبق أن أشرنا إلى سبب الخصومة التى حدثت بين السيوطى وبين ابن ظهيرة قاضى مكة وما وقع بينهما حين جاور السيوطى فى مكة حتى اصطلحا بعد ذلك .

والسبب فى كتابة السيوطى لكتاب الصفاء هذا هو إتمام الصلح ، وإنهاء الخصومة واعتراف ابن ظهيرة بخطئه فى حق السيوطى ، وعدم فهمه لمكونات صاحبنا ، ويبدأ السيوطى كتاب صفائه هذا قائلًا :

بسم الله الرحمن الرحيم »

كل نهرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى فإليه الماءُ يوما سيعودُ

---

(١) رسالة إلى ملوك التكرور ورقة ١٣٩ .

(٢) موجودة فى ترجمة فى كتاب « نظم العقيان للسيوطى » ص ٢٣/٢١ .

يبدى محبة كانت فى نهر العروق جارية ، ومودة كانت فى الآباء ثابتة ، وإن كان عطلها بعض الكدر ، فهى الآن فى الأبناء واهية ، علمًا أنه والله شهيد ليس كل ما نقل إلى المسامع الكريمة من تلك الأكدار بصحيح ، وإن كان بعضه قد وقع ، فقد استدرك بالمحو ، ولم يقف عليه أعجم وفصيح ، ومن نقل ما نقل إنما اعتمد على التوهم ، وقصد بذلك أغراضًا أدناها التوسم[1] .

ويبدأ بعد ذلك فى تعريف نفسه من خلال المفارقة بينه وبين هؤلاء المغرضين المتلونين يقول « ولست كواحد من هؤلاء ، فإن الواحد منهم عبد بطنه ، إن أعطى مدح وأثنى ، وإن منع ذم وهجا ، وأما أنا فإنى أصاحب الإنسان على الحالين حق الصحبة ، وأحفظ له فى حضوره وغيبته رفيع الرتبة ، لكن مع حفظ الأدب ، والوقوف عند الحق المحض الخالص من شبه الريب »[2] .

ويواصل السيوطى تحديد بعض مكوناته ومنهجه فى العلاقات .

« وقد كان لكم فى قلبى من قبل أن أحج الحجة الأولى ، وقبل أن أراكم من المحبة ما لا يقدر قدرها ، ولا يستطاع حصرها ، وكنت أخر للمخدوم فى قلبى أن أكون من الناصرين وعلى أعدائه من الثائرين ، فلما حصل الاجتماع بالمخدوم رأيته يرانى بغير العين التى أراه ، ويسبوقنى مساق الطغاة الجفاة ، وربما قدم على من ليس كشكلى ، وليس ممن يرضى بذلك ، ولا يرضى بذلك من كان مثلى ؛ ولا ألين لغير الحقِّ أسألهُ حتى يلينَ لضرسِ الماضغِ الحجرُ .

فهنالك حصل ما حصل ، وفرح به العدو وافترى فيما نقل ، وعلى كل تقدير فقد زال الجفا وحصل الصفا ، ومحى ما كتب كما أشرتم فى سنة ثلاث وسبعين ، وبدل بغاية الإحسان ....[3] .

ثم تلطف السيوطى فى القول رغبةً فى إجراء الود ، والإخوة بينهما انتهى إلى مدحه مدح ندٍّ لندٍّ .

وقد كشف هذه الرسالة أو كتاب الصفاء عن شخصية السيوطى الذى لا يفتأ يذكرها ما استطاع من خلال ذكره الموقف ، ومن خلال الأسلوب الذى ينم عن قدرته

---

(١) السابق ص ٢١/ ٢٢ .
(٢) نظم العقيان ص ٢٣ .
(٣) السابق ص ٢٣ .

فى تحميل اللفظ ما يريد من معان ، مع الالتزام بالسجع مؤديًا دورًا وظيفيًا ، والجمل التى تطول وتقصر .

(٣) الرسالة الاعترافية :

هى رسالة للسيوطى مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٥٠٠ تصوف ، بعنوان من وضع النساخ « رسالة للسيوطى مشتملة على قصة جرت بينه وبين رجل من أهل التصنع والإلحاد بالاتحاد » .

وقد رغبنا فى إطلاق اسم « الرسالة الاعترافية » عليها وذلك لعدة أسباب :

(١) إن السيوطى كتبها ليعتذر فيها إلى الله ، وتبرأ مما وقع فيه من حادثة .

(٢) إن السيوطى نص على ألا يطلع عليها أحد ما دام هو حيًا .

(٣) لأنها تقارب ما تسميه بالاعترافات أو أدب الاعتراف ، فقد سجّل السيوطى فيها شيئًا ما مر بحياته .

(٤) ما راعنى فيها من السرد القصصى الممتع ، لما حدث بينه وبين هذا الرجل .

(٥) فضلًا عن ذلك فإن أسلوبها قد تفرد فيه السيوطى تفردًا مطلقًا ، لا يختلف عن أسلوب كتابنا المعاصرين ، ويكفى أن هذه الرسالة - على طولها - لم تحو - تقريبًا - هذه الألوان البديعة المعروفة آنذاك .

يقول السيوطى فى مقدمتها « اللهم أن هذه رسالةسطرتها تقربًا إليك ، واعتذارًا وتبرؤًا مما يخالف شريعتك التى جاد بها سيد المرسلين ﷺ ، وجعلتها بينى وبينك غير مطلع أحدًا عليها ما دمت حيًا ، فإن كنت مصيبًا فيها فاقبلنى واغفر لى ولا تخيب من سعى فإنه كان تقربًا إليك وإن كنت مخطئًا فلا تؤاخذنى واعف عنى واغفر لى فإنى بشر أخطىء وأصيب[1] .

والرسالة تكشف عن طبيعة السيوطى « فى الفقير وأهل الصلاح والزهد والتقشف والتعبد مع بغضه وكراهيته للمتفلسفة وعلومهم ، وهذا ما أماله إلى مصاحبة رجل من هؤلاء الفقراء الزاهدين ويقص السيوطى بداية هذه المصاحبة ، وما ظهر من هذا الرجل من إساءة لمفهوم الإسلام وميله إلى فكرة الاتحاد والحلول ، وما تم بينه وبين السيوطى

---

(١) ورقة ١ .

من محاورات قصصية انتهى السيوطى منها إلى رفض هذا الرجل .

يقول السيوطى « .... فلما كان فى حدود سنه ثمانين وثمانماية وأنا ذاك مقصود بالافتاء والتدريس وقد سارت مصنفاتى إلى الآفاق تردد إلىَّ طالبٌ للأخذ عنى كتابة مصنفاتى فذكرنى فى غضون ذلك أنه تربية شيخ صالح اسمه فلان وذكر من صلاحه وكرماته أمرًا عظيًما فملت إلى زيارته فذهبت معه إليه واجتمعت به فذكر لنا مجلس وعظ حثنا فيه على الزهد فى الدنيا والإقبال على الله والانقطاع عما سواه واحتمال أذى الخلق والرضى بما قضاه الله من المكروه فأعجبنى ذلك وملت إليه فكنتُ بعد ذلك كلما ضاق صدرى واحتجب إلى مذكر أقول لجماعة الطلبة أمضوا بنا إلى زيارة فلان ... » .

والرسالة تبين طبيعة هذه الأفكار التى دخلت إلى المسلمين وموقف السيوطى منها فى نهاية الأمر ، فهو يجنح إلى « الفقراء » زهدًا ، وصفاء ، إنما أن يتخذوا من هذا الزهد والصفاء ذريعةً إلى الحلولية ، فهذا ما يرفضه السيوطى ، ويجادل فيه ، ويتبرأ من كل الجلسات التى أنفقها مع هذا الزاهد ، كما كان يظن أو هذا المعتقد فى الاتحاد كما اكتشف فيما بعد .

والرسالة تكشف لنا أيضًا عن بعض مكونات شخصية السيوطى وخصائصها ، كما وضح فى مقدمة الرسالة .

ثالثًا : خطبة الكتاب

تتسع مقدمة الكتاب أو ما تسمى بالخطبة لدى صاحبنا باتساع مؤلفاته التى ضربت رقمًا قياسيًا فى تاريخ الكتاب العربى كما وتنوعًا .

ولما كانت مقدمة الكتاب أول ما يصادف القارىء ، فيرى فيها نموذجًا يحاكى ما حكي الكتاب ويستاف رائحةَ صاحبها مسكًا أو دفارًا ، ترغبّه فيه تشوّقًا أو ترغبه عنه تأففًا ، فيحمل فى راحتى ذهنه وقلبه فاكهة أبا ، أو يتركها نافقة ، مصيبة صاحبها بالخسران والعطن ، تطلب ذلك كله من عالمنا الموسوعي جهدًا جهيدًا ، وهو الطموح فى توزيع ثماره ، لينال رضى الله بوصفه عبدًا مخلصًا قولاً وسلوكًا ومحبًا لرسوله ، وعالمًا بلغة قرآنهِ وإمامًا هاديًا بين بشره .

فكانت كتبه من ناحية المقدمة كتبًا ذات مقدمة وخاتمة ، وكتبًا ذات مقدمات فقط

طويلة تارة ، ومتوسطة الطول حينًا ، ومتوسطة حينًا آخر ، وقصيرة تارة أخرى وقصيرة جدًا ، فى بعض الأحايين ، وكتبًا ليست لها مقدمات تقريبًا .

وكانت مقدمات كتبه تارة مقدمة علمية صرفًا ، وتارة مقدمة أدبية خالصة ، وحينًا مقدمة أدبية علمية ، وكان أسلوبها من ناحية الألفاظ ذا ألفاظ سهلة واضحة حينًا ، وحينًا آخر كانت ألفاظًا وعرة غريبة تستلزم شرحًا لها مع الكتاب ، ليرسم لنا السيوطى فى نهاية المطاف منهجه لخطبة كتابه وخصائص أسلوبه فيه .

أما الكتب ذات المقدمة والخاتمة :

فأحيانًا تكون المقدمة قصيرة والخاتمة طويلة ، أو تكون العكس ، فكتابه « البهجة المرضية فى شرح الألفية » جاءت خطبة قصيرة ، يقول فيها « .... أما بعد فهذا شرح لطيف مزجته بألفية ابن مالك ، مهذب المقاصد ، واضح المسالك ، مبين مراد ناظمها ، ومهدى الطالب إلى معالمها ، حاوٍ لأبحاث منها رحيق التحقيق يفوح ، وجامع لنكت لم يسبق إليها غيره من الشروح .... »[1] .

وفى الخاتمة يعيد وصف كتابه وأسلوبه ومنهجه ، وما فعله حتى أنتج هذا الكتاب يقول فيها « .... وقد مَنَّ الله تعالى بإكمال هذا الشرح المحرر ، موشحًا من التحقيق والتنقيح بالوشى المخبر ، محرزًا لدلائل هذا الفن ، مظهرًا لدقائق ، استعملنا فيها الفكر ما الليل جن متحريا أوجز العبارة ، وخير الكلام ما قل ودل ، معتمدًا فى دفع الإيراد ألطف الإشارة لينبه ألوا الألباب .... إلخ »[2] .

وجاء كتابه الاتقان بمقدمة كثيرة الصفحات ، وخاتمة تزيد على الصفحة ، وتعد مقدمة هذا الكتاب آية فى خطب الكتب ، أسلوبا ، وخطةً ، وأمانة علمية ، فقد تحدث فيها عن أهمية العلم ، وكيف فجر القرآن علوم العربية ، ثم يذكر محاولات العلماء فى كتابه أنواع علوم القرآن مبينا رأيه فى تلك المحاولات ، عارضا ما فى هذه المؤلفات أو المحاولات من مواضع حسن أو ضعف ثم تحدث عن كتابه هذا الذى جعله – كله – مقدمة لتفسيره الكبير الذى شرع فى تأليفه « مجمع البحرين » ، وذكر فهرس وخطة الكتاب ، ثم ذكرا اسماء تلك المراجع التى استمد منها سِفْرَهُ هذا .

---

(١) « البهجة المرضية » للسيوطى ط المطبعة المحمودية التجارية بمصر ص ٢ .
(٢) السابق ص ٢٠١ .

ومن أسلوبه فى المقدمة قوله « .. وأن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها ، ودائرة شمسها ومطلعها ، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء ، وأبان فيه كل هدى وغى فترى كل ذى فن منه يستمد ، وعليه يعتمد ، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ...»[1] .

ومنها « ثم خطر لى بعد ذلك أن أؤلف كتابا مبسوطا ، ومجموعا مضبوطا ، أسلك فيه طريق الإحصاء ، وأمشى فيه على منهاج الاستقصاء ، هذا كله وأنا أظن أنى متفرد بذلك غير مسبوق بالخوض فى هذه المسالك ، فبينما أنا أجيل فى ذلك فكرا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، إذ بلغنى ... »[2] .

وقد مدح فى خاتمة الكتاب ، وعدد صفاته وموقف الحساد منه .

يقول السيوطى عنه : وقد مَنَّ الله تعالى بإتمام هذا الكتاب ، البديع المثال ، المنيع المنال ، الفائق بحسن نظامه على عقود اللال ، الجامع لفوائد ومحاسن لم تجتمع فى كتاب قبله فى العصر الخوال ، أسست فيه قواعد معينة على فهم الكتاب المنزل وبينت فيه مصاعد يرتقى فيها للأشراف على مقاصده وتوصل ، .... ، .... ، محّصت فيه كتب العلم على تنوعها وأخذت زبدها ودرها ، ومررت على رياض التفاسير على كثرة عددها وأقتطفت ثمرها وزهرها وغصت بحار فنون القرآن فاستخرجت جواهرها ودورها ، وبقرت عن معادن كنوز فخلصت سبائكها فقرها ، فلهذا تحصل فيه من البدائع ما تبت عنده الأعناق بتا ، وتجمع فى كل نوع منه ماتفى فى مؤلفات شتى ، على أنى لا أبيعه بشرط البراءة من كل عيب ولا أدعى أنه جمع سلامة ، كيف والبشر محل النقص بلا ريب ، هذا وإنى فى زمان ملا الله قلوب أهليه من الحسد ، وقلب عليهم اللؤم حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد ، .... ، قوم غلب عليهم الدهر وطمهم ، وأعماهم حب الرياسة وأصمهم ، قد نكبوا عن علم الشريعة ونسوه وأكبوا على علم الفلاسفة وتدارسوه ، يريد الإنسان منهم أن يتقدم ويأبى الله إلاَّ أن يزيده تأخيرا ، ويبغى العِزَّ ولا علم عنده فلم يجد له وليًا ولا نصيرًا .

- أَتمسى القَوافى تَحْتَ غيرِ لوائِنَا ونَحْنُ عـلى أَقْـوالِهَـا أمـرَاءُ

ومع ذلك فلا ترى إلا أنوفا مشمخرة ، وقلوبا عن الحق مستكبرة ، وأقوالا تصدر عنهم مفتراه مزورة ، كلها هديتهم إلى الحق كان أصم وأعمى لهم ، كأنَّ الله لم يوكل بهم حافظين يضبطون أقوالهم وأعمالهم ، فالعالم بينهم مرجوم تتلاعب به الجهال والصبيان ،

---

(١) الاتقان جـ ١ ص ٣ . (٢) السابق جـ ١ ص ٦ .

والكامل عندهم مزموم داخل فى كفة النقصان ، وإيم الله إن هذا لهو الزمان الذى يلزم فيه السكوت ، والمصير حلسا من أحلاس البيوت ... »[1] .

فالسيوطى فى هذا النوع من خطب كتبه قد سجل بعض ملامح شخصيته وملكاته فى التأليف ، وبقداره فى التحديد فى علوم العربية ، وخطته فى وضع منهج قوى محكم ، أسلوبًا وصياغةً ، وعلمًا ، وأمانةً ، مبينًا لنا سمات عصره ومعاصريه وموقفه منها ، محتذيًا أسلوب الأقدمين فى استخدام الألوان البديعية ، والعبارة لديه رقيقةٌ رشيقةٌ ، تميل إلى الإقناع ، تجنح إلى الخيال الأدبى ، مستقيمةُ السياق ، صحيحةُ البناء ، لا عاميٌّ فيها ولا دخيل يذكر .

أما الكتب ذات المقدمات فقط :

فهى السواد الأعظم من كتبه ، وكانت هذه المقدمات - من ناحية الحجم - على عدة أنماط منها مقدمة طويلة كمقدمة كتابة الأشباه والنظائر فى الفقه والأشباه والنظائر فى النحو ، وتدريب الراوى وحسن المحاضرة ، وتاريخ الخلفاء ، والمزهر ، ونزهة المتأمل ، والوشاح ، وبغية الوعاة ، وتناسق الدرر فى تناسب السور وغير ذلك .

وتدور خطبة كتابة « الأشباه والنظائر فى الفقه » حول محورين أساسيين ، بعد مدخل لطيف يضمن فيه كدأبه - ألفاظ الموضوع وهو يبسمل ويحمد ويصلى بعبارات طويلة مسجوعة سجعة واحدة فضلا عن السجعات الداخلية .

يدور المحور الأول حول تعريف علم الفقه وعلمائه ، وما يتحلى به العالم حتى يطوفَ حول فقه اللغة ، يقول السيوطى :

« أما بعد ، فعلم الفقه بحوره زاخرةٌ ، ورياضه ناضرةٌ ، ونجومه زاهرةٌ ، وأصوله ثابتةٌ مقررةٌ وفروعه نابتةٌ محررةٌ ، لا يضنى بكثرة الإنفاق منزهُ ، ولا يبلى على طول الزمان عزهُ ، أهلهُ قوامُ الدينِ وقوامه ، وبهم ائتلافه وانتظامه هم ورثة الأنبياء ، وبهم يستضاء فى الدهماء ، ويستغاث فى الشدة والرخاء ويهتدى كنجوم السماء ، وإليهم المفزع فى الآخرة والدنيا ، والمرجع فى التدريس والفتيا ولهم المقام المرتفع على الزهرة العليا ، وهم الملوك ، لابل الملوك تحت أقدامِهم ... الخ[2] .

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٢٦٤ / ٢٦٥ .

(٢) الأشباه والنظائر فى قواعد وفروع فقه الشافعية للسيوطى . دار أحياء الكتب العربية ص ٣ .

وبعد ذلك يتحدث عن عالم الفقه وما يفعله كيما يدركَ هذا العلم . يقول السيوطي:

« ولعمرى إن هذا الفنَّ لايدرك بالتمنى ، ولا ينال بسوف ولعل ولو أنى ، ولا يبلغه إلا من كشف عن ساعد الجد وشمر ، واعتزل أهله وشد المئزر ، وخاض البحار وخالط العجاج ، ولازم الترداد إلى الأبواب فى الليل الداج ، يدأب فى التكرار والمطالعة بكرة وأصيلا ، وينصب نفسه للتأليف والتحرير بياتا ومقيلا ، وليس له همة إلا معضلة يحلها ، أو مستصعبة عزت على القاصرين فيرتقى إليها ويحلها ، يرد عليه ويرد ، وإذا عذله جاهل لا يصد ، قد ضرب مع الأقدمين بسهم ، والغمر يضرب فى حديد بارد ، وحلق على الفضائل واقتنص الشوارد .

- وليْسَ علـى اللهِ بمستنكـرٍ أن يجمـعَ العـالمَ فى واحـدِ

يقتحم المهامة المهولة الشاقة ، ويفتح الأبواب المرتجة ، إذا قال الغبى : لا طاقة ، إن بدت له شاردة ردَّها إلى جوف الغراء ، أو شردت عنه نادرة اقتنصها ، ولو أنها فى جوف السماء ، له نقد يميز بين الهياب والهباء .... الخ »[١] .

وتلاحظ أن السيوطى يحدد هذه السمات التى يجب أن يتحلى بها عالم الفقه ، قاصدا نفسه فاستمر بعد ذلك يعرض خطة كتابه موضحا أن كل فصل من هذا الكتاب أو كل كتاب منه كما يقول يصلح أن يكون كتابا كاملا ، فكتابه هذا « نخبَة عمر ، وزبدة دهر ، حوى من المباحث المهمات وأعان عند نزول الملمات ، وأثار مشكلات المدلهمات » فيقول : فإنى عمدت فيه إلى مقفلات ففتحتها ومعضلات فنقحتها ، ومطولات فلخصتها ، وغرائب قل أن توجد منصوصة فنصصتها »[٢] .

وتحدث بعد ذلك عن سبب تأليفه هذاالكتاب ذاكرًا كتابه الصغير فى هذا الصدد . ليبدأ المحور الثانى الأساسى لخطبة كتابة هذا ، موضحا انقسام الناس - تخيلا واقعيا - حول هذا الكتاب .

يقول السيوطى فى هذا « .... وكأنى بالناس وقد افترقوا فيه فرقا : فرقة قد انطوت على الحسد جنوبهم ، ورامت إطفاء نوره بافواههم ، وما هم ببالغيه إلا أن تقطع قلوبهم ، كيف يقاس من نشأ فى حجر العلم منذ كان فى مهده ، ودأب فيه غلاما وشابا وكهلا ، حتى وصل إلى قصده بدخيل أقام سنوات فى لهو ولعب ، وقطع أوقاتا يحترف فيها أو

---

(١) الأشباه والنظائر فى الفقه ص ٤ . (٢) السابق ص ٥ .

يتكسب ، ثم لاحت منه التفاته إلى العلم ، فنظر فيه وما احتكم ، وقنع منه بتحلة القسم ورضى بأن يقال : عالم وما اتسم .. »[١] .

ويقول « وأكثر ما عند هذه الفرقة أن تزرى بالشباب ، وبالشيخوخة افتخارها وتلك شكاه ظاهر عنك عارها ، ولو أنصفت لعرفت أن ذلك من سمات المدح ، لا من وصمات القدح ، وكفى بالرد عليها عند أولى الألباب مرفوعا وموقوتا « ما أوتى عالم علما إلا وهو شاب »[٢] .

■ وفرقة : غلب عليها الجهل المركب ، وبعد عنها طريق الخير وتنكب ، لا تبرح جدالا ، ولا تعى مقالا ، ولا تحسن جوابا ولا سؤالا ، ليس لها دأب إلا أكل الحرام ، والخوض فى أعراض الأنام ، وغمص الناس نهارا ، وبالليل نيام ، فهذه لا تصلح لخطاب ولا تأهل إذا غابت لأن تعاب والسلام .

■ وفرقة آتاها الله هداها ، وألهمها تقواها ، وزكاها مولاها ، فرأت محاسنه وسناها ، وفوائده التى لا تتناهى ، فاعترفت بشكرها وثناها ، واغترفت من بحرها ، ولم يلوها عذل عاذل ولا ثناها وارتشفت من كؤوس حمياها ، وانتشقت من شذا عرف رياها ، وهذه طائفة لا نكاد نراها ولا نسمع بخبرها فوق الأرض وثراها ، فحيّاها الله وبيّاها ، وأمطر علينا سحائب فضله وإياها »[٣] .

● وتلاحظ أن المقدمة تفصح عما يتسم به السيوطى منهجه العلمى فى الكتابة ، وترسيخ شخصية ، صراحة أو إيماء ، وهو يسجل صورة حية للحياة العلمية والثقافية والدينية ، وعلاقات العلماء فيما بينهم بناءً وهدما ، فإن المقدمة من ناحية الأسلوب تعدُّ آيةً فنيةً ، كأنما هى دفقاتُ شعوريةُ ، ومقاطع لقصيدةٍ بديعةٍ ذات وحدةٍ منطقيةٍ ، تتوزع فيها توزيعا جيدا ، طولا وقصرا ، سرعة وبطئًا ، علوا وانخفاضا ، تتنوع فيها السجعات الخارجية والداخلية ، مختارا لها أحرفا تؤدى دور الروى ، فانظر إلى الفقرة الأخيرة تركم تلأمت أحرف الألف والهاء فى مواكبة إنهاء خطبة حماسية تفصّد منها جهدًا ، لينال بها تصفيقًا يستحقه .

■ ومقدمة كتابه الأشباه والنظائر فى النحو تكاد تنحو هذا المنحى السابق ، فالتزم

---

(١) السابق ص ٦ .

(٢) رواه ابن عباس رضى الله عنهما ، وخرجه السيوطى فى الباب الحديث باب فضيلة العلم والعلماء ط الرابعة - الحلبى .

(٣) الأشباه والنظائر فى الفقه ص ٦ .

بمدخل المقدمة اللطيف ذى الجملة الطويلة والسجعة الواحدة التى يستعمل فيها ألفاظ هذا العلم الذى هو بصدده من خلال المشترك اللفظىّ ، ثم يبين مكانه هذا العلم لديه يقول « فإن الفنون العربية على أختلاف أنواعها هى أول فنونى ومبتدأ الأخبار التى كان فى أحاديثها سمرى وشجونى طالما أسهرت فى تتبع شواردها عيونى ، وأعملت فيها بدنى إعمال المجد ما بين قلبى وبصرى ويدى وظنونى ، ولم أزل من زمن الطلب اعتنى بكتبها قديما وحديثا ، وأسعى فى تحصيل مادثر منها سعيا حثيثا ، إلى أن وقفت منها على الجم الغفير ، وأحطت ... الخ »[1] .

ثم يتحدث عن كتاب ألفَّه فى ذلك ، ولم يُسبق إليه ، ولكنه لم يكن قد انتهى من تسويده ثم حبسه ليعود إليه فأصيب بفقده فاستخار الله فى إعادة تأليفه على النحو الذى وضعه فى كتابه هذا ، ذاكرا الأسباب التى دعته إلى تأليف هذا الكتاب ، وخطته .

■ وتعد مقدمة كتابه « تدريب الراوى » حديثا خاصا عن نفسه أيضا .

وفيها يقول « علم الحديث رفيع القدر ، عظيم الفخر ، شريف الذكر ، لا يعتنى به إلا كل حبر ، ولا يحرمه إلا كلُّ غَمْر ، ولا تغنى محاسنه على مر الدهر ، وكنت ممن عبر إلى لجة قاموسه حيث وقف غيرى بشاطئه ، ولم أكتف بورود مجاريه ، حتى بقرت عن منبعه ومناشئه ... الخ »[2] .

– واستعرض فى خطة كتابه تناسق الدرر مكانه القرآن الأسلوبية ، وقدرته على استخراج ما أودع فى القرآن ، وما سبق أن ألفه فى الكشف عن أساليب القرآن ، ثم تحدث عن أهميه هذا الكتاب وخطبته ، ومما قاله السيوطى فى هذه الخطبة « فإن الله من على بالنظر فى مواقع نجومه وفتح لى أبواب النظر فيه إلى استخراج ما أودع فيه من علومه ، فلا أزال أسرح النظر فى بساتينه من نوع إلى نوع ، واستنسخ الخاطر فى ميادينه فيبلغ العرض ويرجع وهو يقول : لا روع ما فتقت عن أنواع علومه ولقبتها ، أودعت ما أوعيت منها فى دواوين وأعيتها ، ونقبت عن معادن معانيه وأبرزتها وأوقدت نار القريحة وميزتها ، وألفت فى ذلك جامعا ، ومطنها ومقصدا ... »[3] .

---

(١) الأشباه والنظائر فى النجو جـ ١ ص ٣ .

(٢) تدريب الراوى ط الثانية . دار الكتب العلمية – بيروت – تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف جـ ١ ص ٣٨ .

(٣) تناسق الدرر فى تناسب السور « المنشور باسم من محققه » عبد القادر أحمد عطا « أسرار ترتيب القرآن » الطبعة الثانية – دار الاعتصام ١٩٧٨ .

– وقد جعل السيوطي مقدمة « تاريخ الخلفاء » وثيقة لموقفه من الخلافة والخلفاء يقول فيها « .. ولم أورد أحدا ممن ادعى الخلافة خروجا ، ولم يتم له الأمر ككثير من العلويين والعباسيين[١] وكذلك لم يورد أحدا من الخلفاء العبيديين لأن أمامتهم غير صحيحة ، ووضح موقفه من الخوارج .

وكانت مقدمة كتابه حسن المحاضرة علمية يذكر فيها مراجعه .

أما الكتب ذات المقدمات المتوسطة الطول : فهى من الكثرة بمكان منها مقدمة كتابة « تحفة المجالس والوسائل والروضة ، والوشاح ، بهجة الناظر – والرد على من أخلد إلى الأرض ، ونزهة المتأمل والوشاح وكوكب الروضة وهمع الهوامع ، وغير ذلك كثير .

وتمتاز هذه النوعية من المقدمات بأسلوبها الأدبى الصرف ، دون ذكر المراجع أو عرض الخطبة بالتفصيل فى الأغلب ، ومن ناحية أخرى فإن مدخل المقدمة إذا لم يكن متصلا اتصالا طبيعيا بالمقدمة فإنه سيكون قصيرا غالبا ، ومن ناحية ثالثة فإن ألفاظ هذه المقدمات كان بعضها سلسا سيابا حينا ، وذا ألفاظ غريبة حينا آخر .

وتكون مقدمة كتابه « نزهة المتأمل » عرضا لأحوال نساء عصره ورجالهن ، وما يطفو على المجتمع من دلائل فساد خلقى ، ينتهى به إلى أن يؤلف هذا الكتاب ليعرف الرجال والنساء آداب النكاح[٢] .

وفى كتابه كوكب الروضة يطول مدخل المقدمة ، ليعرض بعض قدرات الله فى الطبيعة أنهارا وبحارا ، ووديانا ، ثم يعرض ما يشمل كتابه من أبواب[٣] ، ويهجو بمقدمة الرد على من أخلد الناس ، موضحا جهلهم بأن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات »[٤] .

وكان أحيانا يميل إلى التخيل اللطيف فى المقدمة يقول فى « بهجة الناظر » « ... فقد أمرتنى النفس أن أجمع مجموعا يكون جامعا لأخبار المتقدمين ، والأشعار المستعذبة التى يتشاغل لها المحبوب عن حبيبه ، ويتداوى بها العليل ولايحتاج إلى طبيبه ، وتستريح بها

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٦ .
(٢) راجع نزهة المتأمل . مخطوط تحت رقم ٩٤٢٤ ص ٢ وص ٣ .
(٣) راجع « كوكب الروضة » مخطوط تحت رقم ٢٢٤٩ جـ ١ ص ٢ وما بعدها .
(٤) الرد على من أخلد ... ص ١٣٠ .

النفوس ، ويستغنى بها عن ترشيف الكؤوس ، فإن ارتشاف سلاف المعانى من الكلام ، ينشر مالا تفعله المدام ... الخ »[١] .

ويحتار فى نزهة المتأمل ، أنه يريد أن يؤلف فيما يراه ولكن قلبه قال له إن هذا الزمان يشتغلون فيه ، فانتصر قلبه إذ قال له يا قلب لا تؤجل وإلى ما فيه من الخير فعجل .... »[٢] .

أما الكتب ذات المقدمات القصيرة ، فهى تسود الكثير مما ألف ، ومنها مثلا مقدمة كتابه « طبقات المفسرين ، صاحب الذوق ، اللآلئ المصنوعة ، الاقتراح ، الصواعق ، القام الحجر ، الفاشوش الحجج المبينة ، شقائق الأترنج ، فاكهة الصيف ، رصف اللآل ، طبقات الحفاظ ، أسباب النزول تفسير الجلالين ، وأغلب رسائله التى وردت فى الحاوى .

وقصر المقدمة – وإن كان كتابها كبير الحجم أحيانا – يرجع فيما نرى لأنه وضع ما يستلزم فى المقدمة لتعريف العلم وأهميته فى كتب أخرى جامعة ، ولأن هذه المؤلفات يقتدى فيها أكثر مما يلوح له من إبداع وتجديد » .

ومن ناحية ثانية فإنه لا يجد – وقد كان من أسباب التأليف خصومة علمية أيضا – للحديث عن نفسه مدافعا ، أهمية تذكر فقد أطال وأكثر فى مقدمات الكتب الأخرى ، وفى تضاعيف كتبه ولم يعد السيوطى محتاجًا أن يعرّف منهجه إلى قارئه مكتفيا بذكر تأليفه هذا الكتاب .

فيقول فى مقدمة الفاشوش وبعد فقد سئلت فى درس بالجامع الطولونى فى آخر المحرم سنة تسع وتسعين وثمانمائة عن قراقوش ، وهل له أصل فى التاريخ أم لا وهل مايعزى إليه من الحكايات المضحكة لها أصل أم لا فجمعت هذه الأوراق فى تلك الليلة وجردتها فى ساعات قليلة ... الخ[٣] .

---

(١) بهجة الناظر ونزهة الخاطر . مخطوطة تحت رقم ٥١٢٤ أدب .

(٢) نزهة المتأمل ص ٣ .

(٣) الفاشوش فى أحكام قراقوش . مجاميع تيمور ٤١٦ ورقة ١٠٧ .

راجع ما كتبه د . مصطفى الصاوى الجوينى عن قراقوش فى كتابه « ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات الإيبانية فى القرن السابع الهجرى « طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب » ١٩٧٠ م ص ١٤٩ وهامشها .

وإن لم يلتزم بذكر سبب تأليفه كتابه إلا إعجابه بفعل السابقين فيقول فى مقدمة كتابه « رصف اللآل فى وصف الهلال » ... وبعد فإنى عند مطالعتى لتذكرة الإمام صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى رأيته أورد فيها عدة مقاطيع من نظمه فى وصف الهلال ، فجردتها فى هذا الجزء وضمت إليه عدة مقاطيع ... »[١] .

وفى كتابه فاكهة الصيف وأنيس الضيف « يقول السيوطى فى مقدمته » ... هذا كتاب سميته بفاكهة الصيف وأنيس الضيف ورتبته على عشرين فصلا ....[٢] .

وأحيانا يكون الكتاب جديدا فى موضوعه ومع ذلك فقد وضع له مقدمة قصيرة ككتابه « طبقات المفسرين »[٣] وطبقات الحفاظ[٤] وأسباب النزول[٥] ، وأحيانا يشرح بأسلوب مقتضى دوره فى الكتاب كتفسير الجلالين[٦] والجامع الصغير[٧] ، وتحفة المجالس ونزهة المجالس[٨] وإن اقتدى بالسلف .

وأسلوب السيوطى فى هذه النوعية من المقدمات أسلوب علمى مقتضب لا يلتزم فيه كثيرا بالسجع وما جاء مسجوعا أتى فى غير مكانه ، مملا ، مكررا ، كأنما أصبح أكليشيهات جاهزة ، وربما يرجع ذلك إلى كثرة ما ألفً هذا الرجل .

أما الكتب ذات المقدمة القصيرة جدا : فإن ما يمثلها عمل اليوم والليلة[٩] ، وتنوير الحوالك[١٠] وأسعاف المبطأ[١١] والفتح الجليل[١٢] وبشرى الكئيب[١٣] وأصول الرفق[١٤] ،

---

(١) ط الجوائب (قسطنطينية) ١٣٠٢ هـ ص ٣٧ .
(٢) مخطوط أدب تيمور ٣٧٧ ص ٢ وما بعدها .
(٣) ص ٢١ وما بعدها .
(٤) ص ١ وما بعدها .
(٥) تحقيق قرنى أبو عميرة ط مكتبة نصر بالأزهر ص ٧ - ٨ .
(٦) ط محمد على صبيح - الأزهر ص ١ .
(٧) ط الحلبى (الخامسة) ١٩٨٢ ج . ص ٣ وما بعدها .
(٨) ط أولى سنة ١٩٠٨ السعادة - مصر ص ٢ .
(٩) ط أولى ١٣٦٥ هـ - الحلبى ص ٣ .
(١٠) ط الأخيرة - الحلبى ص ٢ .
(١١) ط الأخيرة - الحلبى ص ٤ .
(١٢) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٦٠١ الزكية ص ٢ .
(١٣) بشرى الحبيب بلقاء الحبيب . ط الحلبى . ط الثانية ص ٤ .
(١٤) أصول الرفق فى الحصول على الرزق . ط المحمودية بالأزهر ص ٢ .

وما أكثر مايشيع هذا فى أجوبة الفتاوى فى العلوم المختلفة .

□ ويكون السيوطى فى هذه الكتب إما مقلدا أو جامعا أو ملخصا من كتاب له أو لغيره ، وإن كان أحيانا من بنات أفكاره كالفتح الجليل ، غير أنه لم يجد دافعا لأن يكتب خطة له .

وهناك من الكتب لم تأت لها مقدمات تقريبا مثل تحفة الأحباب فى منطق الدواب[١] ورسالة فيما ورد عن الأخبار والآثار فى المواعظ والحكم[٢] والفضل العميم فى اقطاع تميم[٣] ونزهة الجلساء فى أشعار النساء[٤] ومجلس الإملاء[٥] ، وغير ذلك ، فهو لا يكاد يبسمل ويصلى ثم يذكر اسم الكتاب الذى هو فيه غالبا حاطب ليل ، لا ذاتية فيه له إلا بعض التنسيق وجهد الجمع والتوثيق .

ولعلك لاحظت مما سبق أن المقدمة فى مؤلفات السيوطى كانت مقدمة أدبية تارة ، أطلق فيها بلاغته ليرسم لنا منهجه وشخصيته ، ويباهى بأسلوبه الرفيع المجنح إلى الخيال ، وهو يشوق النفوس إليه ، ويهيئ الأذهان لما يحوى كتابه ، وتارة تكون المقدمة علمية ، لا مكان فيها لزخرفات الأسلوب ، ووشى التراكيب وطلاقة الخيال ، وتارة علية أدبية ، تجمع حسناتها فى تناسق محكم وألفاظ جزلة رصينة ، سهلة ممتنعة فى الأغلب ، وسهلة ميسرة كثيرا ، وغريبة وحشية أو تكاد حينا آخر وكأنما كتبها عامدا ، ففى مقدمة كتابه الوشاح فى فوائد النكاح[٦] ونكتفى بذكر بعض ألفاظ وردت فيها (المفارش - المراشف - المشافر - الأشاعر - الضياغم - المراشق - القوادم - المآكم - البردين - العردين - الأصدرين - الأبهرين - الأسهرين - الأقهبين - حجحاجا - المناوح - عَمّيت - زَبيّت - حَربّت - سَحْنيت .... الخ » .

وإذا أردنا فى نهاية المطاف أن نوجز منهج السيوطى فى خطبة الكتاب فإنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) مخطوطة بدار الكتب المصرية . الزكية ٣٦١ ص ١ .
(٢) مخطوطة بدار الكتب المصرية . حديث ٢٥٠٥ ص ١ .
(٣) مخطوطة بدار الكتب المصرية . الزكية ٣٩١ ص ٢ .
(٤) مطبوع وليس بين يدينا ، فراجع النسخة المخطوطة تحت رقم ٨١٣ شعر تيمور ص ٣ .
(٥) مخطوط بدار الكتب حديث ١٥٥٥ ورقة ٨٠ .
(٦) مخطوط بدار الكتب أدب تيمور ٥٠٨ ص ٣/٢ .

(١) مدخل المقدمــة :

وهو الذى يبسمل فيه السيوطى ويحمد ويصلى ، وقد يطول هذا المدخل أحيانا ، وأحيانا يقصر وأحيانا يكون بين بين ، ويرتبط هذا المدخل بموضوع الكتاب ، مستعملا له ألفاظ هذا العلم الذى هو بصدده ، متبعا فيه العبارات الطويلة المسجوعة سجعة واحدة ، فضلا عن السجعات الداخلية ، وأحيانا تكون العبارة الأولى قصيرة والثانية طويلة ثابتة الطول الإملائى غالبا ، وتستمر العبارة الأولى فى النمو حتى تصل إلى أختها طولا ، ومحتوى .

(٢) المقدمــة :

وهى تتنوع طولا وقصرا ، يتحدث فيها عن قيمة العلم الذى هو بصدده ، وما ألف فيه من السلف ، موضحا رؤيته فيما تقدم من (المؤلفات) ، وإن لم يسبق إلى ذلك وضح شخصيته فى التجديد والاختراع والإبداع .

ومن خصائص المقدمة لديه ، ذكر الأسباب التى دعته إلى التأليف فى هذا الشأن ، سواء كانت حاجة الناس إلى ذلك ، أو لأهمية الموضوع التى تفرض نفسها فى الأزمنة ، أو دفع خطأ أرتآه فى الناس ، أو محو ما وقع فيه معاصروه من تهافتات فى هذا الشأن ، مادحا نفسه ، وكتابه مهاجما محبطيه وأعداءه مشيرا إلى أهمية ما يأتى به – دائما – كمجدِد ومبدع فى العلوم على أختلاف أنواعها .

ولقد رسمت لنا مقدمة الكتاب لدى صاحبنا صورا حية متكاملة لشخصيته بكل ما لها وما عليها ورؤيته للحياة والبيئة فى عصره .

(٣) الخاتمــة :

يوضح فيها لنا خطته أو فهرست كتابه ثم يذكر أسماء المراجع التى اعتمد عليها فى كتابه هذا وأحيانا يختم كتابه فيعود ثانية إلى الإشارة إلى كتابه ، وامتازت بعض كتبه بأن يختمها بخاتمة يعيد فيها شكره لله على مَنِهِ وكرمِهِ ، لكتابه ، والحديث عن أعدائه .

أما خصائص أسلوبه فى المقدمة :

فإن ألفاظها يستمدها - كثيرا - من ألفاظ هذا الموضوع أو هذا العلم ، والعبارة تتراوح ما بين الطول والقصر ، ملتزما بالسجع فضلا عن ألوان البديع والبيان الأخرى ، مرققا أسلوبه برشاقة الاقتباسات والتضمين من القرآن والمأثور السلفى والأشعار وغير ذلك من خصائص على نحو ما وضحنا فى كل نوع من أنواع مقدماته .

رابعا : المـوازنات

رأيت فيما سبق - أن السيوطى فى بعض مقاماته قد جعل لفن الموازنة الذى يقوم على اثنين أو أكثر ، يتحاور ، ويتجادل كل منهم مبينا محاسنه وخصوصياته ، مشيدا بنفسه واصفا اياها وصفا جميلا ، مؤثرا هدفه الأسمى فى أن يكتنز ما استطاع من أسباب الترقى والفخر والعلو متغلبا على خصمه يذكر معايبه ومثالبه ، وهو يفندها للعيون دمامة واحتقارا ، بل قد يقلب إحدى محاسن خصمه عيبا ، مما يزيد أمر الموازنة استعالا ، ويلهب حوارها وأسلوبها ، فتزداد استمتاعا .

وقد ألف السيوطى فى فن الموازنات عدة مؤلفات ، احتذى فى بعضها القدماء موضوعا خاصة الجاحظ فى رسائله[1] ، وخالف فى البعض الآخر منهجا وأسلوبا ، فقلل من المادة القصصية - على قلتها - وجاء بعضها بأسلوب علمى صرف لا الأسلوب الخطابى الحماسى الجانح أحيانا إلى الخيال .

ومن مؤلفات السيوطى فى هذا الفن :

١ - صاحب الذوق السليم والمسلوب الذوق اللئيم .

٢ - الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة .

٣ - نزهة العمر فى التفضيل بين البيض والسمر والحمر .

٤ - الفلك الدوار فى فضل الليل والنهار ، وغير ذلك .

ويعد كتاب السيوطى « صاحب الذوق السليم والمسلوب الذوق اللئيم » من أمتع

---

(١) من هذه الرسائل الجاحظية « فخر السودان على البيضان ، ومفاخرة الجوارى والغلمان » برسائل الجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . الناشر مكتبة الخانجى جـ ١ ص ١٧٣ ، جـ ٢ ص ٨٧ .

كتبه فى هذا الفن عمقا ، ورقة ، وعرضا ، وأسلوبا ، وسبرا لأغوار النفس البشرية .

وهذا الكتاب لايزال مخطوطا ، توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٨ أدب تيمور فى ٤١ صفحة ، وتوجد نسخ أخرى تحمل عنوان « الذوق السليم » تحت رقم ٤٨٨ أدب تيمور فى ٣٢ صفحة ، و ٧٨٦ الزكية فى ٨٣ ورقة ، ونسخة بعنوان « الوصف الذميم فى وصف اللئيم تحت رقم ٣٩٨٨ تصوف فى ٢٠ ورقة ، وهذا الكتاب « صاحب الذوق السليم .... » حرى بالتحقيق ، لتزداد مكتبة الدراسات الإنسانية كتابا قيّما ، شرح فيه أديبُنا الإنسانَ فى حالتيه المتناقضتين ، وغاص فى جوهرهما ، حتى اختير ما يرسو فيهما من لؤلؤ مكنون وقواقع ، راسما صورة حية متكاملة لكل ما ينضح منهما من معطيات .

وقد نهج أديبنا فى كتابه هذا إلى تقسيم الإنسان إلى صفات جوهرية وملامح شكلية ، لكل من الإنسان السوى والمدعى ، فيأتى بالصفة والشكل لصاحب الذوق السليم ، ثم بالصفة والشكل لضده المسلوب الذوق ، ملاحظا أن السيوطى جمع كل مايتحلى هو به من صفات شخصية وسلوكه وعلومه إماما ، قارئا ، محدثا ، مفسرا ، أصوليا ، مؤرخا ، أديبا ، لغويا ، وغير ذلك ثم يأتى بنقيض هذه الصفات عند المسلوب الذوق .

أما أسلوب السيوطى فى هذا الكتاب ، فإنه يقوم على حسن انتقاء الألفاظ مع سهولتها وصوغها والعبارة يحسن قصرها تارة وطولها تارة ، ملتزما بالنهج البديعى الشائع .

(٢) الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة :[١]

ألفها السيوطى حينما وقعت المجادلات حول مكة والمدينة ، أيهما أفضل مرتبة ومكانة وكان السيوطى يميل إلى تفضيل المدينة ، فأثبت فى هذه الرسالة بالحجج والأدلة تفضيله هذا . يقول السيوطى فى مقدمتها :

« وبعد فقد وقع الكلام فى التفضيل بين مكة والمدينة ، فملت إلى مارجحه أئمة مذهبنا إلى مذهب مالك ، وقلت بتفضيل المدينة لما قام عندى من الأدلة فى ذلك ، وها أنذا أبرزه فى هذه الأوراق ... »[٢] .

---

(١) مخطوطة تحت رقم ٤١٦ مجاميع من (١٤٢ إلى ١٤٦) .

(٢) السابق ورقة ١٤٢ .

وهى موازنة علمية صرف ، وسجّلٌ لما ورد من مأثور سلفى فى فضل المدينة ، فهو لم يلتزم فى أسلوبه هذا النهج البديعى ، ولم يهتم فيه بأناقة التركيب ، بل كان أسلوبا سرديًا منطقيا ولم يعقدها فى مناظر ، إنما يورد الفروقَ فى فقرات عالمٍ لا فقرات مُناظِرٍ .

(٣) رسالة فى فصل الشتاء :[١]

وقد ألفها ليثبت فضل الشتاء على فصول السنة ، ومن المعروف أن السيوطى يحب فصل الشتاء ولا يخفى حبه هذا ، إنما يعبر عنه شعرا ونثرا ، وقد سبق أن قدمنا بعض شعره فى فضل الشتاء على الصيف .

وهذه الرسالة هى سجل أيضا للموروث الحديثى والسلفى لما جاء فى فضل الشتاء ، وقيمته عن الرسول والصحابة والتابعين ، وهى تعد رسالة حديثية أثرية فى الموازنة بين الشتاء وغيره من فصول السنة ، ملاحظًا أن السيوطى يذكر الأحاديث بعنعنتها الطويلة .

ولا ننسى ما قاله الأستاذ عبدالوهاب حمودة « وللجلال السيوطى جملة الموازنات والمفاخرات من ذلك : الموازنة بين النار والتراب ، وهذا العنوان يوجهنا إلى ماعسى أن يسوق السيوطى فى موازنة ... »[٢] .

– وهذه الموازنة التى يتحدث عنها الأستاذ حمودة من كتاب « الكنز المدفون والفلك المشحون » الذى كان يُنسب خطًا إلى السيوطى ، إنما هو ليونس المالكى كما رد ذلك الباحثون[٣] ، وإن كنا نظن أن النساخ قد خلطوا بين الكنز المدفون والفلك المشحون للمالكى ، وتذكرة السيوطى المسماة « الفلك المشحون » وهو من كتبه المفقودة ، وهما يدوران حوا مختارات بارعة مسلية ، حكم أمثال ، موازنات وقصص ، ولغويات ...

خامسا : الحكم والأمثال والمواعظ والخطب

ولما كان أديبنا إماما مجددًا فى المقام الأول ، فلا غرو من أن يترك لنا ديوان خطب ورسائل إنشائية فى مواعظه وحكمه وأمثاله ، التى تعكس بوضوح طبيعة مجتمعه وموقفه منها .

---

(١) مخطوطة تحت رقم ٤٣٢١ حديث من ص (١– ٨) .

(٢) صفحات من تاريخ ص ٢٤٠ .

(٣) راجع السيوطى النحوى ص ١٠٠ وما بعدها .

وفن الحكم والأمثال من فنون العربية القديمة الذى يقوم على معرفة الحقائق على ماهى عليه بقدر الاستطاعة[١] فيصدر من ذلك الكلام القائم على العلم ، الموجه إلى الصواب والسداد فى القول والعمل[٢] ، ولكن إذا ما كان مثلا كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث فى إجادة اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه وجودة الكناية كما يقول بلاغيو العرب القدامى[٣] .

والسيوطى وقد ترك حكما وأمثالا فى رسائل منفصلة له ، وإن كان قد نثر فى مؤلفاته آياتٍ من الحكم والأمثال التى تمثل رؤيته للأشياء .

ومن رسائل السيوطى فى هذا الفن رسالته .

« درر الكلم وعذر الحكم »[٤] .

وهى رسالة صغيرة ، لاتزال مخطوطةً ، تبلغ سبعين سطرا ، وقد نقل منها صاحب « عصر سلاطين المماليك » شيئا غير قليل فى كتابه هذا[٥] .

والرسالة تحوى مجموعة لا بأس بها من حكم وأمثال سيوطية ، كانت الحكمة أو المثل فى الأغلب مزدوجا ، أى أن كل حكمة أو مثل يتكون من جملتين قصيرتين غالبا ، تكمل الجملة الثانية الجملة الأولى .

مثلا « رب امرئً أوليته جميلا ، فكان بالإساءة إليك حميلا » و « الكتابَ الكتابَ ، ولا يصدنك العتاب » و « السنة السنة ولوعلتك الأسنة » .

وتلاحظ أن طبيعة الحكمة أو المثل الاسلوبية لم تجر على طبيعة المثل العربى القديم ، ومن ناحية أخرى أستقاها من بيئته فلم يكن المثل لديه - غالبا - مضروبا بالبهائم يذم ، ويمدح بما يجد فى البهائم مثلما كان العرب القدماء كما قال الأصبهانى[٦] ، إنما عبر السيوطى بمثله أو حكمته عن أثر تلك البيئة التى عرفناها فى أول الباب الأول من

---

(١) الحكم والأمثال . حنا الفاخورى . دار المعارف . ط الرابعة ١٩٨٠ م ص ٧ .

(٢) السابق ص ٨ .

(٣) راجع السابق نفس الصفحة .

(٤) مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٦ مجاميع الورقة ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) المجلد السادس جـ ٦ ط . دار الكتاب العربى ١٩٦٢ م .

(٦) راجع « الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة » حمزة بن حسن الأصبهانى . تحقيق عبد المجيد قطامش . دار المعارف ١٩٧١ جـ ١ ص ٥٩ / ٦٠ .

رسالتنا وأثر شخصيته كذلك على المثل شكلا ومضمونا ، فمن ناحية المضمون ، قد فجّر السيوطي فيها قضاياه الذاتية ، والقضايا العامة ومواقفه إزاء تلك القضايا .

فهو يسجل فى هذه الدرر حُبَّهُ لعلوم الدين وموقفه من علم المنطق والفلسفة ، ويسجل حبه فى علماء الشرع وموقف المجتمع من العلماء ، ويسجل فيها نظرته إلى الناس والدنيا و ... الخ .

ونقتطف بعض درره هذه :

« صلة الناس ليس لها عائد ، ومعرفتهم نزره الفوايد « من عرف الناس خُصَّ بالبلا ، وأحاط به الرق والبلا » « اللئيم إذا أحسنت إليه أسا وأفاض من الأسا » « كم فى الناس من جاحد ، لمعروف فاسد » « قبح الله زمانا تضيع فيه الفضايل ، وتضوع فيه شذا الرذايل » « العوام كالأنعام ، بل أضل وأجحد للإنعام » « ما للعوام غير السيف ، ولو أصابهم الحيف » « الناس يطلعون على عيوب المرء من كوه ، ومن رواه مسندا أوقعوه فى هوه » « رب عالم لماع الثنايا آذوه بأعظم الثنايا » « رب أغيد من الغزالة أنور ، ومن الغزال أنفر » . « أف للدينا تقدم الجاهل ، وتؤخر الفاضل » « أَلم الكَلام أشد من أَلم الكِلام ، رب رجل أزهى من ذباب وهو أوهى من سراب » . ما كل خطيب مقنع ، ولا كل واعظ يصدع ، رب خطيب لا يحسن تأليف كلمتين ولا ترصيف سجعتين ، رب أشعار فى اللفظ والمعنى أوعار . « إياك والمنطق ، فهو آفة القلب والمنطق ، صُنْ المنطق والكلام عن المنطق والكلام ، علم الدين أزهى وأبهر ، وعين اليقين أبهى وأبهر ، رب ساكت أعلم من ناطق ، وساكت ليس له بارق .... الخ .

ولما كان فن الخطب والمواعظ ضروريا للعربى منذ كان فى مضارب الصحراء يقف على نشز من الأرض[١] يعبر عن متطلباته ، ولما كان السيوطى رجل دين من طبيعته أن يعظ الناس ويرشدهم إلى الهداية فقد ترك السيوطى ديوان خطب ذكره فى حسن محاضرته[٢] وفى فهرسه[٣] ، ولكنه مفقود .

---

(١) الخطب والمواعظ . محمد عبد الغنى حسن ط الرابعة . دار المعارف عام ١٩٨٠ ص ٥٠ .
(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٤٤ .
(٣) فهرس مؤلفات السيوطى ص ٤ .

سادسا : الترجمة الأدبية

لا نقصد هنا تتبع منهج السيوطى فى كتابه الترجمة ، فهذا حديث آخر ، وقد فصل السيوطى الحديث عن المنهج الذى يتبعه فى كتابه الترجمة فى مقدمة كتابه « نظم العقيان فى أعيان الأعيان » إنما الذى يعنينا هو معرفة أسلوب السيوطى الأدبى فى الترجمة .

ونخص ترجماته فى شيوخه ومعاصريه .

ففى ترجمة للحافظ ابن حجر العسقلانى (م ٨٥٢ هـ) ، يصف مكانته ، وما كان عليه وصفا أدبيا ، مرققا جملة بوشى السجع ، وبعض ألوان البديع ، مع سهولة الألفاظ ودقتها ، وجزالتها وحسن تركيبها ، ورشاقة الخيال فى العبارة .

يقول « فريد زمانه ، وحامل لواء السنة فى أوانه ، ذهبى هذا العصر ونضاره وجوهره الذى ثبت على كثير من الأعصار فخاره ، إمام هذا الفن للمتقدمين ، عساكر المحدثين ، وعمدة الوجود فى التوهية والتصحيح ، وأعظم الشهود والحكام فى بابى التعديل والتجريح ، شهد له بالانفراد خصوصا فى شرح البخاري كل مسلم ، وقضى له كل حاكم بأنه المعلم ، له الحفظ الواسع الذى وصفته فحدّث عن البحر ابن حجرٍ ولا حَرَج ، والنقد الذى ضاهى به ابن معين فلايمشى عليه بهرج هرج ، والتصانيفُ التى ماشبهتها إلا بالكنوز والمطاليب ، فمن فيض لها موانع تحول بينها وبين كل طالب ، جمل الله به هذا الزمان الأخير ، وأحيا به وبشيخه سنة الإملاء بعد انقطاعه من دهر كثير ... »[1] .

وفى ترجمة للإمام أحمد العسقلانى (م ٨٧٦) يعتمد على إبراز مكانة الرجل من خلال المقارنة بين ما كان عليه الشيء وما صار إليه عند شيخه ، ويتراوح الأسلوب بين الجملة القصيرة جدا والطويلة ، ذات السجع ، يقول :

« قاض مشى على طريقة السلف ، وسعى إلى أن بلغ العلا لما كَلَّ غيره ووقف ، من أهل بيتٍ فى العلوم والقضاء عريق ، وبالرياسة والنفاسة حقيق ، خدم فنون العلم إلى أن بلغ منها المنى وتفرد بمذهب الإمام فما كان فى عصره من يشير إلى نفسه بأنا ، ولى

---

(١) نظم العقيان ص ٤٥ .

القضاء فأحيا سنة التواضع والتقشف ، وترك الناموس وطرح التكلف ، سهل الباب ، عديم الحجاب ، خشن الأثواب ، لين الخطاب للدنيا به فخار ، وللكسير به انجبار ، تعتقده الملوك والأمراء ، ويتردد إليه الفضلاء والفقراء ، يصل إليه لتواضعه المرأة والصغير ، ويهابه لفرط دينه الجبار والأمير ، ولم يزل على حاله الجميل ، سائرا في أنواع المحاسن فى أحسن سبيل ، ما بين تأليف ومطالعة ، وافتاء ومراجعة إلى أن أتاه من الموت ما لا محيد عنه ، وحل به ما لابد منه ، فضحك له وجه الدار الآخرة وأقبل ، وبكى على فراقه مذهب ابن حنبل ... »[١] .

ويسهل أسلوبه فى الترجمة ، فى وضوح ومباشرة ، فيقول فى ترجمة المحلى : « وكان علامة آية فى الزكاء والفهم ، كان بعض عصره يقول فيه « إن ذهنه يثقب الماس ، وكان يقول عن نفسه أنا فهمى لا يقبل الخطأ ، وكان غرة هذا العصر فى سلوك طريق السلف ، على قدم من الصلاح والورع ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، يواجه بذلك الظلمة والحكام ، ويأتون إليه فلا يلتفت إليهم ولا يأذن لهم بالدخول عليه ، وكان عظيم الحدة جدا ، لا يراعى أحدا فى القول يوصى فى عقود المجالس على قضاة القضاة وغيرهم ، وهم يخضعون له ، ويهابونه ويرجعون إليه ... وكان قليل الإقراء ، يغلب عليه الملل والسآمة ، وكان متقشفا فى ملبوسه ومركوبه ، وتكسب بالتجارة وألف كتبا تشد إليها الرحال »[٢] .

وفى ترجمة الأبشيطى يقول « .. رجل يستسقى به الغيث ، ويهابه لفرط صلاحه الليث معرضٌ عن الدنيا ، حالٌ بالمرتبة العليا ، بعيدٌ عن الخلق ، قريبٌ من الحق ، مواظبٌ على الصلاة والقيام ، قائمٌ بحمده مولاه والناس نيام ، هذا مع تفننٍ وعلومٍ كثيرة ، وتصانيف ما بين منظومة ومنثورةً ، إذ دون به هذا الزمان ، وانتفع باقرائه الإنس والجان ، اتخذ طيبة المشرفة دارا ، وفاز بجوار سيد المرسلين ، وما أكرمه جارا ، إلى أن جاءه الرسول من ربه بالبشرى ... »[٣] .

ويعتمد أحيانا على دقة التقسيم وحسن الخيال ، وسهولة اللفظ ودلالة المعنى ، يقول فى ترجمة شيخه الشمنى :

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .
(٢) السابق جـ ١ ص ٤٤٣ / ٤٤٤ باختصار يسير .
(٣) السابق جـ ١ ص ٥٣٠ .

« .... قدوة عين الزمان وإنسانها ، وواحد عصره فى العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها ، وشجرة المعارف التى طاب أصلها ، فزكت فروعها وأغصانها ، ورياض الآداب التى فاضت ينابيعها ، وفاحت زهورها ، وتنوعت أفنانها ، إن أخذ فى التفسير كل عنده الكشاف وأختفى أو الحديث كان عن ألفاظه الغريبة مُزيل الخَفا ، أو الفقه عد اللنعمان شقيقا ، أو النحو كان للخليل رفيقا ، أو الكلام ، فلو رآه النظام أختل نظامه ، ولو أدرك صاحب المواقف لقال : أنت فى كل موقف مقدمه وأمامه أو الأصول ، ولو جاء له السيف لا ختفى فى غمده ، ولقطع له بالإمامه ، ولم يقطع بحضرته لكلال حده ، أو الامام الفخر لقال : ما لأحد أن يتقدم بين يدى هذا الحبر ، وخاطبه لسان حاله أنت الطائفة والرازى على فرقة هى عن الحق صادقة ، ولا فخر »[1] .

وتلاحظ أن السيوطى بيّن الصفات التى يتحلى بها من شيوخه ، وأن أثر البيئة واضح عليه فى أسلوبه فى اختياره للألفاظ والتشبيهات والاستعارات ، ويؤدى المشترك اللفظى دوره فى أظهار المعنى .

سابعا : الألغاز والأحاجى

فن الألغاز والأحاجى والمطارحات والممتحنات والمعاياة ، كثر فى الأدب المملوكى شعرا ونثرا فى كل فنون العربية وعلومها ، وقد ألف فيه مؤلفات كاملة ، بل يمكنا القول أنه ما من عالم فى هذا العصر إلا تعاطى فن اللغز والأحجية من آن لآخر ، تنشيطا للعقل ، وإثارة للفهم وتمويجا لذلك العلاقات الإخوانية ، وإثباتا للذات .

وصاحبنا نثر فى كتبه كمًّا لا بأس به من الألغاز والأحاجى النثرية التى تنطلق من اثبات للذات فى المقام الأول ثم تأتى بعد ذلك المسببات الأخرى لظهور هذا الفن .

وقد كان السيوطى – أحيانا – مطارحا عنيدا إزاء علماء عصره جميعا ، فإنه ألقى – مثلا – على علماء عصره سبعة أسئلة لم يستطع معاصروه العلماء الإجابة عنها ، وقد أوردها الشعرانى فى ذيل طبقاته الكبرى[2] .

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٧٤ / ٤٧٥ .

(٢) ص ١٦/١٥ .

ويشارك علماء عصره فى وضعه للألغاز ، ثم يجيب هو عليها ، وترى ذلك - مثلا فى كتابه الأشباه والنظائر فى النحو يقول : « ومن ألغازى النثرية : ما كلمة إذا قلٍّ .... »[١] وهى تسع عشرة مسألة فى النحو ، وقد أجاب عليها .

والجدير بالملاحظة هنا أن السيوطى قد أورد هذه الأسئلة على لسان بطل مقامته المكية[٢] ليطارح بها من قلل قيمته ، ولم يستطع هذا الرجل إلى الجواب سبيلا .

وتارة يكون اللغز موطدا علاقاته الإخوانية .

فمثلا يكتب إلى صديقه المنصورى لغزا ، ويتلقى الرد[٣] .

هذا وقد احتذى السيوطى نهج القدماء فى هذا الفن ، إلا أنه يختلف عنهم بأنه لم يكثر من هذا الفن مثلهم ، وكان اللغز ينطلق أساسًا للتعجيز والمعاياة ترسيخا لذاته وشخصيته وأسلوبه فى عرض اللغز كان سهلا ، وإن كان معضلا على نحو ما اعترف بذلك صديقه المنصورى .

---

(١) راجع الجزء الثالث ص ٣١/ ٣٢ .

(٢) المقامة نقلها د . الشكعة فى « جلال السيوطى م . م » ، راجع ص ٢٧٠ .

(٣) راجع شرح عقود الجمان للسيوطى ص ١٣٨ .

البـاب الرابـع

السيوطى وأدبه : دراسة من الداخل

الفصل الأول : شخصية السيوطى من خلال الدرس اللغوى الحديث لأسلوبه.
الفصل الثانى : التحليل التفسيرى لشخصية السيوطى الإسقاطية .
الفصل الثالث : شخصية السيوطى فى ضوء المعادل الموضوعى فى إحدى مقاماته.

الباب الرابع

يحتوى هذا الباب ثلاثة فصول تدور حول أكتشاف شخصية السيوطى كما جسّدها فى أعماله الأدبية .

فجاء **الفصل الأول** : عن « شخصية السيوطى فى ضوء الدرس اللُّغوى الحديث لأسلوبه » انطلاقا من أن الأسلوب هو الإنسان بعينه ، وانطلاقا من شخصية السيوطى النرجسية فقد جعل أسلوبه مرآة تعكس هذه الشخصية كذلك ، واستفادة من مستويات التحليل اللغوى على الأدب وجدنا ثمة ظواهر يتسم بها السيوطى فى هذا الصدد . فكانت النغمة الصوتية العامة المنبعثة فى أسلوبه تراعى مقتضيات المقام وتتبعنا ظاهرة الأفعال المتتابعة وحالاتها التى تعكس بكل وضوح حالات السويطى وخاصة القضية السيوطية هجاءً وسخرية ومدحا وتفاخرا وكذلك ظاهرة الصفات المتتابعة ، ثم درسنا ظاهرة توظيف النظم القرآنى فى أسلوبه مع الأحتفاظ بشخصيته فيها ، ورأينا مدى تأثر ذاكرة السيوطى « الواعية » فى اختزان الهندسة القرآنية والتراكيب اللغوية للتأليف القرآنى لتنسج على شاكلتها ، وتصوغ على منوالها عباراته وكلماته بحيث تبدو قوة شخصيته وأصالتها فى المواءمة بين التركيب وغرضه الذى يبتغيه والموقف الذى قيل فيه ، وإن غالت ذاكرة السيوطى فى اختزان النظم القرآنى سواء كان هو مفتخرا أم هاجيا وإن وفق إلى حدٍّ ما - وهو مبتعدٌ عن هذين الغرضين . ثم تحدثنا عن ظاهرة المجاورات اللغوية التى تعكس مفارقة الاستخفاف بالذات أو مفارقة الكشف عن الذات ثم تحدثنا عن ظاهرة الجمل الشعرية فى نثره وكذلك الدخيل والمولد والعامى فى أسلوبه ودلالة استعماله .

ثم كان **الفصل الثانى** : من « التحليل التفسيرى لشخصية السيوطى الاسقاطية » فى مقاماته . وبدأنا التحليل من مقامته « المكية » محللين إسقاط السيوطى لشخصيته على عناصر المقامة وكذلك مرورًا بالأسيوطية ثم الوردية ثم المكية ثم الفستقية ثم الزمردية ثم الياقوتية ثم التفاحية التى أعلن السيوطى فيها عن « الأنا » صراحة ويكشف لنا الفصل لماذا تحولت المقامة لدى السيوطى إلى أنواع أدبية أخرى .

وجاء **الفصل الثالث** : متحدثا عن « شخصية السيوطى فى ضوء المعادل الموضوعى » الذى قدمنا فيه تحليلا : فسر شخصية السيوطى كما رسمها فى المقامة « الوردية » جاعلا الأزهار معادلا موضوعيا لأنماط الشخصية التى مسها السيوطى ، مجسدا لنا فى النهاية الشخصية التى حملت « اسمه » بما عرفه عصره حتى كتابه بحثنا هذا .

الفصل الأول

شخصية السيوطى من خلال الدرس اللغوى الحديث لأسلوبه

نود أن نشير إلى أن عنوان هذا الفصل يستلزم بحثا منفصلا ، يستطيع به الباحث أن يقدم شيئا من تطبيق علم اللغة الحديث على دراسة الأدب شعرا ونثرا ، إلا أننا رغبة فى تتمة البحث لاكتشاف شخصية السيوطى من الداخل من خلال قدراته الفنية لا نجد غضاضةً فى أن يكون هذا الفصلُ وأخواه الآتيان محاولةً للتعرف على خلقه الإبداعى الذى جسد لنا طاقاته الشخصية .

ولما كان الأسلوب لا يمكن أن يميز عن الموضوع[1] بل لأن أسلوب المرء قطعة منه كذلك قال بوفون ليفرق بين الأفكار ، وهى حظ يشترك فيه جميع الناس وبين التعبير الشخصى الذى تصاغ به الأفكار[2] وليست هناك أفكار جميلة بدون أداة جميلة وبالعكس[3] وقد جاء عن المحدثين الأسلوب هو الرجل[4] أو أساليب الرجال صور لشخصياتهم أو « الأسلوب هو الإنسان عينه »[5] وإن كنا نرى عند الجرجانى[6] ذلك ، ومن ثم وجدنا نظرية البنائية التى تقول بسيطرة النظام اللغوى على عناصر العمل

---

(١) راجع « الذوق الأدبى » أرنولد بنيت » ترجمة د . على محمد الجندى . ط مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧ م . ص ٣٢ وما بعدها ، وراجع « التخيل لجان بول ساتر » ترجمة د . نظمى لوقا ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م ص ٥٨ / ٥٩ .

(٢) الأدب المقارن . فان تيجيم . ترجمة د . سامى الدروبى . دار الفكر العربى ص ٧٨ / ٧٩ .

(3) Criticism from Matthew- Arnold to the Presemt Day, Rashad rushady, P, 43.

(4) Ibid . P, 44 .

(٥) راجع مجلة فصول المجلد الخامس العدد الثالث . ترجمة مقال جورج بوفون ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٦) راجع « أسرار البلاغة للجرجانى» شرح محمد عبد المنعم خفاجى . مكتبة القاهرة ط أولى ١٩٧٢ م ص ٩٦ وما بعدها وثلاث وسائل فى إعجاز القرآن ط ثالثة ومؤلفات د . البدراوى زهران « عالم اللغة ، علم اللغة التاريخى ، ومقدمة فى علوم اللغة » .

الفنى ، وتهدف إلى استخلاص طابعه النسقى من خلال العلاقات القائمة بين عناصره[١] .

لذا فقد أضيف الدرس اللغوى الحديث - منهجا إلى المناهج التقليدية فى دراسة الأدب ، مبرزا ما فيه من مقومات الخلق والإبداع بسواء خرج الفنان عما هو مألوف فى نظام اللغة نفسه .

والمنهج التركيبى لتحليل اللغة يقوم على أساس المستوى الصوتى والمستوى الصرفى والنحوى والتركيبى والدلالى والمعجمى[٢] .

ونكتفى - هنا - أن نذكر بعض الظواهر اللغوية فى أسلوبه التى تعكس مضمون عنوان هذا الفصل .

ومن هذه الظواهر اللغوية فى الجوانب الصوتية فى أسلوبه وضوح النغمة الصوتية العامة المنبعثة وفق مقتضايات حالاته النفسية التى تحاكى ارتياحه الذاتى أو غضبه . أنظر إلى النغمة الصوتية المتغيرة فى أسلوبه وفق تغيرات المقام الذى هو بصدده .

فتزداد النغمة ذات الجرس الواضح حينما يَتحدّث عنه وتقل عندما ينتقل الحديث إلى غيره ، وكأنه أراد أن يكتز لنفسه كل شىء فى مقامه .

فحينما حضر أمراء الطيب بين يدى إمام فى البلاغة خطيب وهو السيوطى اسقاطيا كما ستعرف - قال هؤلاء الأمراء « أيدَّ الله مولانا وتولاه ، وأمدّه بالمكارم ووالاه ، وأولاه من نعمه وما أجدره بذلك وأولاه ، وحرسه من المكاره ووقاه ، وأصعده إلى ذروة المجد ووقاه ، إنا معشر إخوان ، وعلى الخير أعوان ، وإذا قصدنا عاف لم يرعه منا ما يسوّه ولم يسوّه منا ما يعروه ، كل خبر خير عنا شاع وذاع ، وكم ريح ربحنا إذا ربحنا ضاع »[٣] .

---

(١) مشكلة البنية د . زكريا إبراهيم مكتبة نهضة مصر ١٩٧٦ م ص ٧٨ . والجدير بالذكر أن جورج واطن يقول فى كتابه « الفكر الأدبى المعاصر » إن الشكل والبنية فى الفن العظيم لا يستحقان التعليق إلا لكون الفن العظيم أكثر من مجرد بنية وشكل ص ٧١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م . ترجمة د . محمد مصطفى بدوى . وراجع كتاب الدكتور محمد مطلوب « البلاغة والأسلوبية » ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ م .

(٢) راجع « دراسات فى علم اللغة » د . فاطمة محجوب . دار النهضة العربية ١٩٧٦ م فصل بعنوان « علم اللغة ودراسة الأدب » ص ٤١ ومابعدها . وكذلك مقدمة فى علوم اللغة د . البدراوى زهران فصل مستويات التحليل اللغوى وراجع أسس علم اللغة ماريو باى ترجمة د . أحمد مختار عمر ط ثانية عالم الكتب ١٩٨٣ م ص ٤٣ وما بعدها و« اللغة العربية معناها ومبناها » د . تمام حسان ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩ م وكتابه الآخر « الأصول . ط الهيئة المصرية ١٩٨٢ م » البلاغة والأسلوبية د . محمد مطلوب .

(٣) المقامات المطبوعة ص ٢ .

وتبدو هذه النغمة واضحة فى كثرة تنويعه للجمل داخل أسلوبه ، فيستخدم الجمل القصيرة المتتابعة فى تناسق محكم ، « قد مُرجتْ الامانات والعهود ، وكثر القائلونَ بالزور والشهود ، وجمَّ الاختلاف ، وقلَّ الائتلاف ، وكُذِّب الصادق ، وصُدِّق الكاذب المائق ، وخوِّن الأمين ، وائتمن الخائن ومن يمين ، ونطق الرومضة ، وتلك هى الطامة ... »[1] .

وقد عكس فى المخالفة بين الجمل أو الجمل المتقابلة هذا الأثر الدلالى الذى أراد التعبير عنه .

ومن هذه الجمل أيضا الجمل القصيرة المتوازية ، ويمكنك أن تأخذ أى فقرتين من كتابه صاحب الذوق السليم الذوق لترى ذلك .

وتبدو هذه النغمة واضحة أيضا حينما يستخف بمن يهجوه انظر إليه ملاحظا دور الاستفهام الاستنكارى التعجبى فى الجمل « إنما السبيلُ على الذين يظلمون الناس ، أفرحًا بالعلو ، أم تجاوزًا إلى حدِّ الغلو أم إعظامًا لنفسه واستكبارًا ، واحتقارًا لغيره واستصغارًا ، أم استجاشةً على مثلى واستفصارا ، أأتقن قاعدة شكر المنعم التى مردّ هذه القاعدة إليها ، أعرف حكم الغافل من حيث التكليف . أدرى حكم الأفعال قبل البعثة هل توصف بالشدة أو التخفيف ... الخ »[2] .

ويقول « فياسبحان الله ما أنت وذا ؟ هل أنت مغنٍّ وراء الزفف ومعنٍ فى الختوم يلحس الشقف . وقارٍ للأسباع على الأبوابِ وقارٍ للقرآن على السلالم والأعتاب ، ليت شعرى متى كَرعتَ من هذه الحياض ، ورتعتَ فى هذه الرياض ، ومتى بدلتَ عمامة جدك بعد الصفرة بالبياض ، أتروم أن تتعالى حتّى علىَّ .... » .

– وأحيانا بتكرار واضح « فله الويلُ كل الويل ثم له الويل كل الويل .... » .

– وأحيانا بترديد نغمة بعينها ولكنها بدون رتابة « يا معشر الأحباب الصلحا ، وأولى الألباب النصحا ومن لاح له أمر فلاح عليه ولحا ، ألا كم تكثرون علىَّ الكلام ، وتكثرون لدىَّ الملام ، وتشيرون إلىَّ بالسلام ، وتريشون لأجلى السهام ، وتشرعون لى ألسنة كالألسنة ، وتسرعون فى نسبتى إلى الظِّنَّة بالظِّنة ، كأنى لست عندكم ممن يحفظ السنة ، ولا ممن يعرف طرائف السلف التى هى طريق إلى الجنة » وتتصل هذه النغمة

(١) جلال السيوطى م . م . ص ٦٨ .

(٢) أنظر مقامته الاعتذار ص ٦٧ وما بعدها .

الصوتية باستخدام البديع الذى يؤدى وظيفة دلالية وليس من قبل التحسين اللفظى .

ويلعب الجناس دوره فى تنبيه ذهن المستمع « كان فى القدر ذبالة ، وفى القدر زبالة » ولٍّ حارها من تولى قارّها ، وكن منها إن كنت فارها فارها « وقيل إليك الحديث يساق ونادى كل من نطق ولها ، وزاد من شوقه إلى حله ولها اعط القوس باريها فأنت لها ولها » « لك فى الطب منهاجْ ، وقد هاج بك من هاجْ » و « ياسمين ... ياثمين » .

ظاهرة الأفعال المتتابعة :

ومما يعكس حالات السيوطى النفسية التى تصاحب الغرض المراد التعبير عنه ، استخدامه نسقا لغويا مميزا لديه ، يأخذ ما يلائمه من الوحدات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالتة على نحو لهذا النسق اللغوى دوره فى الإيصال .

ومن هذه الظواهر السياقية فى أسلوب السيوطى ظاهرة تتابع الأفعال التى يعطى لها ما يلائمها من لواصق ولواحق تسير وفق حالته النفسية دالة ومدلولة .

وظاهرة تتابع الأفعال فى أسلوب السيوطى مرتبطة بحالة الغضبة السيوطية هجاءً وسخرية وتنكيلا ومدحا وتفاخرا وثناء .

= أنظر إليه وهو يخاطب ابن الكركىّ :

« ولقد كنا قديما هجرناه ، ثم ضاعفنا هجره ، وكررناه ، والآن فقد أسقناه ، وأهبطناه ، وحططناه ، وأحبطناه ، وخرطناه ، وطرحناه ، وقرضناه ، وأدحناه ، وأهملناه ، وأغفلناه ، وكركناه ، وفركناه ، وفى دفتر ممن نمقته ذات الله شككناه ، لك عادةٌ بإطلاقِ اللسان ، والتلقطِ فى جنابِ المصطفيِ بغير إحسان ، لقد ناظركَ خدمى فما طلعت لك معه طالعةٌ ، ولا برقت لك معه بارقةٌ لامعة ، وجادلته فى العلم فقطعكَ ، وقرعكَ ، وقدعكَ ، وصدعكَ ، وقصركَ ، وحجركَ ، وسجركَ ، وزلزلَ عروشك ، وسجركَ ، وقلقلَ بيانك ، وحجركَ ، واظهرت عجرك وبحرك ، هو أدخلكَ ياذا الكرك فى كركه وعصركَ .... »[١] .

فأنت ترى أن هذه الفقرة اشتملت على سيل من الأفعال المتتابعة ، وكلها ماضية ، واستخدم لها من الصيغ واللواصق واللواحق والدلالات المعينة وأدوات الربط ما يحقق غرضه النفسى والتعبيرى معا .

---

(١) طراز العمامة ص ١٩ .

فأفعال الجزء الأول من الفقرة . ويكون كل فعل منها جملة فعلية من « فعل ماض + فاعل ونا الفاعلين + مفعول « ضمير الغائب المفرد المذكر » . وقد خص نفسه « ضمير المتكلم الجمع » ، وللكركى ضمير الغائب ، وقد أعطى تتابع الأفعال ذات الدلالات المناسبة ونا الفاعلين والهاء بأدوات الربط الملائمة تطورا يحاكى تصعيد الموقف حتى ذروته ومن ناحية أخرى فإن هذا الجرس الموسيقى المنبعث يماثل حالته النفسية بخط بيانها التفاخرى هدمًا وبناءً ، وانتقل فى أفعال الجزء الثانى من الفقرة إلى ما يوافق مقتضى الحال ، فجاء الفعل مكونا جملة فعلية من « فعل ماض ثلاثى ثم رباعى متنوع + ضمير مستتر يعود على خادمه فاعل + ضمير مخاطب مفعول ، يشير إلى الكركى وتلاحظ أيضا تطور الأفعال الدلالى ، فهو ليس تكرارا إنما لاعطائنا حدثا كاملا من خلال تتابع الأفعال ذات الدلالات المتطورة ، وبما استخدمه من أدوات ربط ذات نسب وظيفته فقد جاءت « الفاء » مرة واحدة فى قوله « وجادلته فى العلم فقطعك » للتعقيب وعدم ترك حدث لصاحب الفعل السابق واستخدم بعد ذلك « الواو » تباعا لعطف الأحداث الناتجة من الأفعال المتتابعة المتطورة دلاليا ، مرحظا مدى التوافق النفسى والبنائى بهذه الجمل الفعلية .

■ ويحقق السيوطى غرضه السابق فى عطف أفعال تتطور وهى تنقل نفسيته الهجومية بتطور الصيغ الصرفية والدلالية لهذه الأفعال المتتابعة .

فها هو ذا يصف حالة « السخاوى » وقد أفتى صاحبنا بجواز رؤية النبى ﷺ فيستخدم أربعة وعشرين فعلا معطوفا ، نصفهم ثلاثى والنصف الآخر رباعى ، ملاحظا التطور الاسقاطى للسخاوى من خلال تطور دلالات الأفعال ، وهو مارسم به السيوطى صورة فكهة سخرية وهزءً لعدوه ، ومن ناحية أخرى تعكس ما تمتاز به شخصيته فى ملاقاتها لأمثال من وصف .

يقول السيوطى « فلما بلغه - أى الإمام السخاوى - تنفّخ أشداقه ، وقلّب أحداقه وصاح ، وصال ، وجاب ، وجال ، وعاب ، وغال ، وفاح ، وقال ، ومان ، ومال وهان ، وهال ، وهينم ، وهمهم ، ورمرم ، وزمزم ، وحمحم ، ودمدم ، وحلجل وزلزل ، وصلصل ، وقلقل ، ووهوه ، وولول ، وله عادة بذلك يطلب الحرب وليس هو من أهل البأس .... »[1] .

---

(١) الكاوى ص ٤ .

■ ويحقق غرضه فى ابراز شخصيته المفاخرة المهاجمة باستخدام أفعال ذات صيغة حرفية واحدة ، معطوفة ينمو حدثها بتطور دلالتها داخل السياق ، فالفعل هنا يكون جملة فعلية من « فعل ماضى ذى صيغة واحدة + ضمير مستتر يعود على أحد طلبته » فاعل + ضمير مخاطب يعود على الكركى « مفعول به » . يقول السيوطى :

« لو ندبت لمنظرتك واحدا من طلبتى لقصرك ، (وقشرك) ، وكسرك ، وأسرك ، وحسرك ، وقسرك ، وحصرك ، وعصرك ، .... »[١] .

■ وقد يحقق غرضه السابق ليعكس أثر شخصيته على مهاجيه من خلال عطف أفعالٍ ذات صيغ صرفية مختلفةٍ ، يتناسق فيها كل فعلين مكونيين دلالة وظيفية متسقة .

يقول السيوطى « فلما رآنى ساكتًا عن ذلك ، ساكنًا عن الدخول فى هذه المسالك أمطرت سماؤه نارًا ، وقدحت زناده شرارًا ، ونفخ فيه أبليس بالغضب حتى كاد ينقد ، وصبَّ عليه من نيرانه ما توهج وتوقدّ ، وقاموقعد ، وأرغى وأزيد : ثم أبرق وأرعد ، وتهدّد وأوعد ... »[٢] .

■ ويحقق غرضه فى سوق الأفعال ، يقول مخاطبًا ابن الكركى « يا من كذب وافترى واختلق وأجترى ، وقابل الصدق بالرى ، والحق بالمرى ونقض ...»[٣] .

أو قوله « وبدّل الغالية ودهن اللوز بعكارة الزيت الحار ، وأضرم تحتها نيرانا أى إضرام ، بالأاث وأظلاق الميتة والريش والعظام ، فاسودت واحتدت ، واحترقت واشتدت ، ومرت وضرت ، وعقت ومابرت .....»[٤] .

■ ويحقق عرضه السابق لهجاء معارضية برسم صورة فنية تعتمد على المفارقات اللغوية وهى ذات شقين ، شق يستخدم فيه الأفعال والمشتقات والمصادر والأسماء والشق الثانى يعتمد فيه على الجمل الفعلية المتتابعة ثم الجمل المتراصة ذات الوحدات الصوتية المتسقة ، المنبعثة من الأفعال فى أول الجمل وخاتمتها .

يقول السيوطى « فلما وصلت – أى كتبه – إلى المذكور ، وأشرقت فى الدور أشراق البدور : شرقت منه – أى الكركى – الصدور ، وغلى كما تغلى القدور وهو معذور لاقرا

---

(١) الدوران الفلكى ص ٨٨ ما بين القوسين غير واضح المعالم .
(٢) السابق ٨٦ .
(٣) طراز العمامة ص ٥ .
(٤) طراز العمامة ص ٧ . ما بين القوسين غير واضح المعالم .

« على رأره » من الأسد واشتد غليانه وفار ، وجرى فى السقوف كأنه عرْسٌ أو فار ورقص كما يرقص القِرْدُ فى السلسلة ، أو النمس فى الأرض المرسلة ، وجار كأنه نمر ذابح أو ذئب نابح ، أوحوت سابح أو غراب ناعق ، أو حمار ناهق ، أو ثور له جوار ، أو عجل بنى إسرائيل الذى وصف عجلا جسدًا له خوار . فصاح صيحة الحبلى ، وصرخ صراخ الثكلى ، وأخذ يبكى ويشكى لكل دان وقاص ، لدغ العقرب وتصمى ، ثم زعق ونعق وزهق ونهق ، ومرق وسلق وشلق وسمص وقمص ونط كما ينط الديك فى القفص ، واشتد به الطيش والخِفّة ، وعمل لها كعادته فى كل يوم زَفّة ، وانطلق لسانه بالسِّفة ، وتحرك ولم تكن منه الشَفّة وينبح والعرض منى سماء لايضر السماء نبح الكلاب . ثم عوى وغوى ، ومال إلى الهوى فهوى وفتل رأسه من الحق ولوى ، والنجم لايحفل إن كلب عوى ، واستجاش فلم ينجده إلا من هو من نمطه وعلى طبقة فى شططه »[1] .

■ وأحيانا ينقل لنا تأثيره على طوائف مهاجيه من خلال عطف مجموعة من الأفعال ذات صيغة صرفية واحدة تعكس دلالتها اضطراب نفسيتهم وأحوالهم ، مستخدما أداة عطف واحدة بين الجمل تحاكى عدم التريث والتحكم العقلى الذى يواكب شخصياتهم يقول السيوطى « فانغمس فى الدنيا جرية ، فازداد بذلك فرية ، فتاه ، وطاش وحار ، وجاش ... »[2] .

● أو يعطف الأفعال الثنائية على جمل ذات تطور دلالى ، مبعثه المصادر الدالة على جنس معين ، يقول السيوطى « اتخذنى غرضا لسهامه ، ومرمى لمرامه ، كلما سمع منى بمسألة يجهلها هو أكثر النعيق ، وتابع النهيق ، وأخذ يطيع ويطيش ، ويجش ويستجيش »[3] .

■ وأحيانا يحقق غرضه فى التوفيق التناسبى للأفعال وما خلاها من أقسام الكلم ، محققا بهذه النسب تركيا لغويا تستجيب له الآذان سِماعًا ، فتتأثر به الذهن والخواطر ، لينال هو به ما أراد .

يقول السيوطى « ولقد وصل إلىَّ عن رجل من أهل الحديث ، وممن سعى فيه طول عمره السعى الحثيث ، أنه ذكر له » – رأى للسخاوى « ما قلته فصاح ، وأعرض بوجهه وأشاح ، وأجرى من فيه سيلا ، وجد من لسانه زيلا ، وكسا وجه الصباح ليلا ،

---

(١) طراز العمامة ص ٣ .

(٢) الاعتذار ص ٧٠ .

(٣) الاعتذار ص ٧٠ .

وكاد يطير مع بنات نعش ، وحاص حيصة حمر الوحش ثم زأر ، فى النظر ، وكلح بوجهه وبسر ، وقال فحشاء وهجر . وهذا فى منطقة وهذر ، .... »[١] .

■ ويُضيف على هذا النسق السابق بعض المهارات اللغوية فى النغمة الناتجة من التجانسات الاستهلالية والخلقية للأفعال ، ودور الأدوات واللواصق واللواحق فى هذا التناسق اللغوى المتطور .

يقول « فقلت للناقل لم لا لجات إلى وزر ، وهلا ألقمتَ فاه - أى فم السخاوى من كلام شيخه وهو الركن المشيد بحجر (يقصد بشيخه ابن حجر العسقلانى) وأطفأت النار التى أوقدها من زفر بزفر من زفر ، وعملت أنه يضرب فى حديد بارد إذ ضربنا نحن فى ذهب ذائب ويرمى عن وترٍ منقطع إذا فوّقنا نحن كل سهم صائب »[٢] .

■ ومما سبق نرى كيف اختصت هذه الظاهرة اللغوية بحالة خاصة من خصائص نفسية السيوطى ..

ظاهرة تتابع الصفات :

وعلى الجانب الآخر من ظاهرة توالى الأفعال فى السياق اللغوى عند السيوطى فى هجائه لمحبطيه ، نراه يتبع ظاهرة أخرى وهى توالى الصفات ، بصيغ تدل منها على معنى وظيفى[٣] .

وكأن السيوطى قد أراد بهذه الظاهرة بالأداء الوظيفى فى تركيبة اللغوى هذا سوق أفعال مهاجميه المتوالية وصفاتهم التى يواجهها منهم دوىًا جريرة تذكر ، وهى أفعال - كما وضح لنا من خلال دلالالتها المعينة تتسم بالقبح والدمامة ، فلا يجادلهم إلا بما تنضح به شخصيته أو أفرازاتها دماثة وكياسة وحسنا ، ليجسّد لنا بهذه المفارقة صفاته وصفات أعدائه هؤلاء .

■ انظر إليه - مثلا - وهو يسوق صفات حججه التى أوردها وهو يثبت بها نجاة أبوى الرسول ﷺ يقول السيوطى :

---

(١) مقاماته المطبوعة ص ٩١/٩٢ .

(٢) السابق ص ٩٢ .

(٣) راجع لدلالة الصيغ الصرفية للصفات « العربية معناها ومبناها » د . تمام حسان ص ١٣٧ وما بعدها .

« ... معاذ الله بل لما قام عندى من أدلة قاطِعة ساطِعة ، ناصِعة لامِعة ، جامِعة مانِعة ، هامِعة رائِعة ، صادِعة قامِعة ، بارِعة باقِعة ، جازِمة لازِمة ، مثبِتة هازِمة صحِيحة صرِيحة ، متعِبة مريِحة ، حاضِرة فسيِحة ، تامة عامة كامِلة شامِلة ، كافِلة حافِلة تجزم ولا تجزم ، وتهزم أن شاء الله ولا تهزم ... »[1] .

وإذا كان الرسم الإملائى قد استخدم الفصل بين تلك التراكيب المتكررة . معطياتها تلك النغمة المسطحة التى لا هى بالصاعدة ولا الهابطة[2] فإن السيوطى أراد تقسيم هذا الحشد من الصفات المتوالية (٢٨ صفحة) بالرسم الإملائى تقسيما ثنائيا ، هذا التقسيم الثنائى - عدا « تامة - عامة » لائم السيوطى به بين صيغها الصرفية (فاعل ، أو مفعلة ، أو فعيل أو ..) ملاحظًا أن هذه الصيغ الصرفية كان قاسمها الأكبر ذا تجانس خلفى واحد ، ثم أتمها بصيغ صرفية للأفعال المضارعة معلومة ومجهولة .

ومن الجانب الضّدىّ لهذا قوله فِي هجاء معارضيه والعامة بأنهم « ... حتّالة حفّالة جهّالة رذّالة ، بزّالة نخالة ، سحّالة فضّالة ، هزّالة نفّالة ، غسّالة بوّالة ، زبّالة ... »[3] .

ظاهرة توظيف النظم القرآنى فى أسلوبه مع الاحتفاظ بشخصيته فيه :

لا نقصد من هذه الظاهرة تبيان مدى استفادة السيوطى من القرآن الكريم اقتباسا أو تضمينا أو استدلالا ، سواء كان ذلك الاستخدام حسنا أم غير حسن فى موقعه ، فهذا من الكثرة بمكان ويكفى أن تقرأ أية صفحة من مواده الإنشائية لتخرج ماشئت من ألوان الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم فضلا عن الحديث والموروث السلفى ، إنما نقصد مدى تأثر ذاكرة السيوطى فى اختزان الهندسة القرآنية والتراكيب اللغوية للتأليف القرآنى لتنسج على شاكلتها ، وتصوغ على منوالها عباراته وكلماته بحيث تبدو وقوة شخصيته وأصالتها واضحة فى المواءمة بين التركيب وغرضه الذى يبتغيه والموقف الذى قيل فيه .

والحق يقال ان ذاكرة السيوطى الواعية غالت جدًّ غلو فى استفادتها للنظم القرآنى سواء كان مفتخرا بنفسه أم هاجيا خصومه ، وإن كان قد وفق إلى حد ما ، وكان أكثر انسجامًا ، وأوفر رقة وهومبتعد عن هذين العرضين .

---

(١) مقامات السيوطى المطبوعة ص ٩٣/٩٤ .

(٢) راجع « العربية معناها ومبناها » النغمة من ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) مقامة الاعتذار ص ٧١ .

ولسنا بصدد تقديم إحصائية عن هذه الظاهرة فى أسلوبه ، إنما نقدم بعض شواهدها للتمثيل .

■ انظر إليه وهو يصف الروضة :

« وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم لها عيد ، طالعة فى برجى السنبلة والحوت للمشترى سعيد ، وهو يوم الزينة ، وما أدراك ما يوم الزينة ، يوم يحشر له الناس ، ويجمع فيه إلى المقياس ، وتطيب من تخليقه وتحليقه الأنفاس ، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو وفى الحقيقة هو خلعة رضى ولباس ، وتكرر الحساد ، وتجتمع الأضواء ، فيحصل الصفاء إذا انكدر ، والجبر إذا انكسر ... »[١] .

■ وانظر إليه وهو يصف أثر وباء الطاعون على أهل مصر :

« فكم أخذ من بنين نفائس ، ومن بنات عرائس ، ومن جواهر جوار خنّس كأنها الجوارى الكنّس ومن عبيد وخدم ، لهم فى التأديب والتهذيب راسخة القدم ، سيقت لهم السعادة ، وسيقت لهم الشهادة ، فأكرم بها من شهادة جاء بها القضاء المحتوم ، وسعادة سقتهم عند الغرغرة كأسا من رحيق مختوم »[٢] .

■ وتتصل بظاهرة توظيف النظم القرآنى فى أسلوبه تكرار الأسم مضمرا إيجازا وأختصارا دلالة على التفخيم .

يقول باحث لغوى معلقا على اقتداء العرب بهذه النسق الأسلوبى كقوله تعالى « الحاقة ما الحاقة ، القارعة ما القارعة » فاستغنى بتكرير الظاهر عن أن يقال : الحاقة ما هى ، وإنما حسن تكرير الاسم الظاهر فى هذا النحو لأن تكريره هو الأصل ، ولكنهم استعملوا المضمرات فاستغنوا بها عن تكرير المظهرات إيجازا واختصارا ، فلما أرادوا الدلالة على التفخيم جعلوا تكرير الظاهر إمارة لما أراده[٣] .

■ ويتوافر هذا النسق الأسلوبى لدى السيوطى ، ولكنه يختص لحظة تعليمه الناس بعض الأشياء ليبين ماهيته العلمية وقدراته الشخصية ، مستخدما هذا النسق القرآنى .

---

(١) مقامات السيوطى « المطبوعة » ص ٦٨ .

(٢) السابق ص ٦٩ / ٧٠ .

(٣) د . محمود عبد السلام شرف الدين « الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة » دراسة تفسيرية ط أولى ١٩٨٤ م دار مرجان للطباعة ص ٤٨ .

● يقول السيوطى « وهل أتاك نبأ خصيص وما أدراك ما خصيص »[١] « وأما مقر الروح ، وما أدراك ما مقر الروح »[٢] « الرمان وما أدراك ما الرمان » « الأترج وما أدراك ما الأترج » « السفرجل وما أدراك ما السفرجل » « التفاح وما أدراك ما التفاح » « الكمثرى وما أدراك ما الكمثرى » « النبق وما أدراك ما النبق » « الخوخ وما أدراك ما الخوخ » « القرع وما القرع » الهندباء وما أدراك ما الهندباء » « الخصّ وما الخصّ .... الخ »[٣] .

■ ويحقق السيوطى قوة وأصالة شخصيته واضحتين مع احتفاظه بهذه الظاهرة التى تضفى على عبارته قوة وحسن تأثير .

■■ فانظر إليه - مثلا - وهو يعرض بالذين هاجوا ابن الفارض بقوله :

« هل أتاك حديث الفاشية ، الراشية الواشية ، اللاشية المتلاشية ، التى أضحت بتنقيص أولياء الله عاشية ، ولم تكن من عذاب الله حاشية ، إنما مثلها مثل الماشية ، فمزق الله منها الأهل والحاشية ، ولا نشأمنهم ناشية ، أم هل أتاك حديث الفجرة ، واللئام النكرة ، والحمر المستنفرة ، والكذبة المزورة ، الذين لا يخشون من ثره ، ولا يرعون ماثره ، لا تنفع فيهم التذكرة ، أم هل أتاك نبأالذين نبعوا من المراحض بالمحارض ، وأذوا وَلِّى الله عمر بن الفارض .... الخ »[٤] .

■ ويحقق ما يريده من تعضيد لشخصيته وفرضها فرضا ، باحتذاء تراكيب قرآنية ، أسقط أختزان هندستها فى مقامها على مقامه هو ، فانظر إليه فى مقدمة مقامته طراز العمامة يخاطب ابن الكركى والناس فيقول :

● « يا أيها الذى أضحى على من المتمردّين ، وأغرى المارقين والماردين ، ولم يعلم أن الأمر دين ، أوصل مقامك أن تكون من المعتدين على أسد الأسدين ، احضر حسابك واقرأ كتابك واسمع جوابك وذق عذابك » .

يا أيها الناس أصيغوا إلى أنبئكم بتأويله وأحدثكم بجملة الأمر وتفصيله ، اعتدى على عاد وظلمنى ظلم عاد وبدأنى بالإساءة وعاد ، وأكثر من السفه ، ملا بشتمى فاه والشفة

---

(١) الكاوى ص ٣ .

(٢) المقامات المطبوعة ص ٨٢ .

(٣) السابق الصفحات الآتية بالترتيب « ٣٤/ ٢٨/ ٣٠/ ٣٨/ ٣٣/ ٣٤/ ٣٥/ ٣٧/ ٣٩/ ٤٠ » .

(٤) قمع المعارض ص ٩/٨ .

ومد لسانه إليّ وهو قصيرٌ ، ونظر إليّ بعين النقص ، فانقلبه إليه البصر خاسئًا وهو حسير ... »[١] .

■ ويسحب بعض سبل التعجيز القرآني على شخصيته ومؤلفاته يقول :

« أفتنكر (يقصد ابن الكركى) على أن أصنف فى هذى الوقايع ، ما أبين فيه الصواب واشحنه بالفوايد والبدايع ، هاتوا برهنكم إن كنتم فى دعوى العلم صادقين ، وعارضوا مصنفاتى بما يناظرها إن كنتم فارهين حاذقين .... »[٢] .

● ونقتطف آخر سطور من مقامته الدوران :

« فقولوا له إنى حامل لواء العلم لمن يهتد ، والإمام المقدم فيه لمن يروم أن يقتدى ، ومنى يستمد كل دان وناءٍ ، وما فى المشرق والمغرب الآن أحد إلا وهو داخل فى العلم تحت لوائى ، وإن قال كما قات اليهود وأنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال الجسيم ، فقولوا كما قيل فى الجواب إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يوتى ملكه من يشاء ... »[٣] .

■ ويغالى السيوطى فى استخدام النظم القرآنى شكلا ومحتوى على نفسه ، يقول السيوطى فى مقامته الاعتذار :

« فتركت التدريس والإفادة ، والإبيداء والإعادة ، ولم أبلغ أحدا رام منى شيئا من ذلك مراده وزهدنى فى كل خير صنعته للناس ، وأجريته من قلة الشكر ، وأقصينا الذين يعيثون ويعبثون وهجرناهم كما هو فى السنة إلى يوم يبعثون ، ومحوناهم من دفتر الخطاب ، ونحيناهم عن التأهيل إذا سألوا الجواب وقلنا : يا أيتها الأنفس الخبيثة ذوقوا العذاب الأليم ، واصلوا من الهجر بنار الجحيم ، فما لكم عندنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، لا تحظون منا بفائدة ، ولا تظفرون منا بعائدة ، بل اذهبوا فى الغابرين ، وادحروا فى الداحرين ، وادخلوا نار جهنم داخرين »[٤] .

■ وتعدى السيوطى أمر توظيف هذه التراكيب اللغوية ودلالات مضمينها إلى التعبير عن خلجات نفسه بها تلاهيا ، وعبثا ، وتسامرا .

---

(١) طراز العمامة ص ٢ .
(٢) الدوران الفلكى ص ٩٠ .
(٣) الدوران الفلكى ص ٩٥ .
(٤) الاعتذار ص ٧٧ .

ونقطف بعض جمل من مقامته « رشف الزلال » التى تعرف – مما سبق – عن أى شيء تدور .

● « ثم استوينا على العرش ، وجلسنا على الفرش ... »[١] .

● « وبرزت لها باير نافع ، كأنه من حديدٍ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ ، يحاكى فى غلظة المعاصم وإذا قصد عامر حصن العدوة يخربه قيل لا عاصم .... ، .... »[٢] .

● « قال صاحب البيان ، لما تجلّى العيان ، وحصل غاية التبيان ، وبدا لها جِر ريّان ، وإليتان ، مرج البحرين فيهما يلتقيان ، بطن ذات سرة وإعكان ، وردف كأنه جبل الريان ... »[٣] .

ويقول فى طراز العمامة :

● « وزعم أنه يقابلُ مقامتى التى هى نميم عذب فرات ومغتسل بارد وشراب بقمامته التى هى حرارة قناة تجرى من سراب ، إنما رضى ذلك قوم يجهلون ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ... » .

● « فخشيت أن يكتبوا الشيءعلى غير وجهه ، لعدم اطلاعهم على حقيقة الأمر وكنهة ، وله عصبة من جنسه ، قومٌ بهتٌ سمّاعون للكذب أكّالون للسحت ، يبيع أحدهم دينه من سفرته بأكله ويشترون بيتا فى جهنم بقميص يكسوه إياه أو شمله ، .... ، فخشيت أن يحرفوا الكلم عن مواضعه وينقلوا الأمر على غير مواقعه فكتبت هذه المقامة ... »[٤] .

وغير ذلك كثير جدا من قبيل التسامر أو إبراز القدرات ، وتجد ذلك فى المقامة الطاعونية أيضا .

ظاهرة المفارقات اللغوية « اللفظية » :

ونرى السيوطى من جانب آخر يحاول إبراز شخصيته من خلال هجائه عدوه باستخدام مقابلات بين صيغ لغوية مختلفة تعكس تلك المفارقة التعبيرية عن شخصيته وشخصية عدوه .

---

(١) رشف الزلال ص ٤ .
(٢) السابق ص .
(٣) السابق ص ٢١ .
(٤) طراز العمامة ص ٤ .

■ أنظر إليه وهو يتحدث عن ابن الكركى . يقول السيوطى :

« ... وخاطبته فى مقامتى مخاطبات العليا والحكما والحلما فرد على ردّ الجمالة أو الحمالة أو الخمالة أو الترابة ، أو الطوابة أو القراءة أو الحشاشة أو السقايين والرشاشة أو المقارف ذوات العلق أو الصوانع أو وقافات الربوع والشلق... »[1].

تَرَ كَمْ أدت صيغ المبالغة وجموع التكسير ودورها الوظيفى فى نقل دلالتها التعبيرية ، راسمة لنا هيئة أعدائه الباطنية والظاهرية بما أضفاه عليها لما للعرف اللغوى من توليد معان من الألفاظ المستخدمة هنا .

وكذلك نرى السيوطى من خلال هذه المفارقات اللغوية الناجمة من تلاعبه بالمشترك اللفظى لمفردات علم النحو يحاول أن يرسم لشخصيته إطارا من التفاخر والتباهى .

يقول السيوطى ، وهو يقص شيئا مما كان يدور بينه وبين ابن الكركى :

« .... ولى تعلق يصرف على يده ، فجعل عقابى على ترك لقائه حبسه ، وأضمره فى خزانته بأشارة من معارفه الموصولة به وما ظلم إلا نفسه ، وظن أننى أتأثر إذا منع الصرف أو أزيل علة المنع لينخفض الحرف أو أوجه لنحوه الطرف ، ليتسع الظرفِ ، أو آتى بأفعال المقاربة أو أعطف بعد هذه المحاربة أو أفتح باب الاستغاثة ، .... ، .... ، فأوليته الالغاء والاهمال وأعرضت عن توجيه التكر للاشتغال به والأمال ، فلم يسمع أحدا منى له ذكرا ، ولم أقل فى حقه بسبب ذلك شيئا نكرا ، ...... ، فلم يأت شهر رجب من العام المقبل إلا وقد زُلزل مع المزلزلين فأرسل تعلقى من تلقاء نفسه ، وبعث به مع بعض من كان أشار عليه بحبسه ثم استمر بعد ذلك فى إذلال وإرغام وإخفاء وإدغام وطال عليه المد المتصل واستراحت الناس منه وهو مقصور منفصل .. »[2] .

وهذا النوع كثير عند السيوطى ، أكثره يقوم على المفارقة اللغوية التى تؤدى إلى مفارقة الاستخفاف ، ومفارقة الكشف عن الذات[3] .

---

(١) طراز العمامة ص ٤ .

(٢) الفتاش ص ٨٦ .

(٣) راجع معانى هذه الصطلحات فى « المقارقة » د . س ميوميك . ترجمة د . عبد الواحد لؤلؤة دار الرشيد للنشر – بغداد – ١٩٨٢ ص ٩٠ وص ٩٣ .

□ ظاهرة الجمل الشعرية فى نثر السيوطى ودلالتها :

والوزن لا يوجد فى الشعر فقط ، بل يوجد فى النثر أيضا ، ولكنه يختلف اختلافا نوعيا من حيث أنه وزن عددى على حد قول ألفت الروبى[1] ، وقد رأينا ملمح ذلك عند قدامى الباحثين[2] حينما فطنوا للجرس الشعرى فى النثر العربى ، وجريان العبارات النثرية مجرى الشعر الموزون المقفى وذلك ما دفع بمؤرخى الشعر الحر أن يعاودوا قراءة شىء من التراث ، علهم يثبتون ما ذهبوا إليه[3] .

■ ولنأخذ عبارة نثرية للسيوطى من مقامته «الاعتذار» وهو يهجو محبطيه .

« ... ليس لهم فى العلم إنعامٌ ، إن هم إلا كالأنعامِ ، حثّالة ، جهّالة رذّالة بزّالة نخّالة ، سحّالة فضّالة ، هزّالة نقّالة ، غسّالة بوّالة زبّالة ، لايهتدون طريقا ، ولا يرتدون وريقا ، ولا يقتدرون فريقا رفيقا ... »[4] .

■ ويمكننا أدراج هذه الفقرة النثرية أدراج الشعر الحر على النحو الآتى :

– ليسَ لَـهُمُ فى العلمِ إنعـامٌ (فاعلُ فَعْلنُ فاعِلنُ فَعْلنُ) .

– إن هـم إلا كـالأنـعـامِ (فَعْلن فَعْلن فَـعْلن فَـعْلن) .

(التفعيلة «فاعلن» كما هي فى الدائرة أو أو مقبوضة أو مضمرة)

– حثالةٌ حفالةٌ ، جهالةٌ رذالةٌ (مُستفْعِلنُ ٤ مـرات)

– بزالةٌ نخالةٌ ، سحالةٌ فضالةٌ (مُستفْعِلنُ ٤ مـرات)

– هزالةٌ نقّالةٌ، غسالة بوالةٌ زبالةٌ (مُستفْعِلنُ ٥ مـرات)

– لا يهتدونَ طَريقا ، .... (فَعْلن «أو فعولن دخلها الحزم» فعولُ فعولن)

---

(١) مجلة فصول العدد ١ المجلد الرابع ص ٢٧٦ .

(٢) من الطريف أيضا أن بعض شعراء المماليك كانت له محاولات فى تحديد أشكال الشعر العربى وأوزانه قبل أن تظهر فكرة الشعر الحديث بمئات السنين فيروى ابن تغر أن فيروز العامى قد نظم كتابا واختا وزنا خارجا من بحور الشعر العربى فيه بين أطول من أيوان كسرى ، وفيه بيت بمقدار مفرش عصير « راجع المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر « لمحمد محمد محمود عامر ص ٣٤٧ .

(٣) مثل نازك الملائكة فى كتابها « قضايا الشعر الحر » ود . محمود على السمان فى كتابه « العروض الجديد » ط دار المعارف ١٩٨٣ م ص ١٢ ومابعدها ، وآراء المحدثين فى ظاهرة الشعر المنثور ص ١١٤ ومابعدها بالسابق .

(٤) جلال السيوطى م . م د . الشكعة ص ٧١ . حيث أنه نقل هذه المقامة فى كتابه هذا .

- ولا يرتدون وريقا ، .... (فعولن ، فَعُولُ فعولن)
- ولا يقتدونَ فريقًا رفيقا، .... (فعولن ، فَعُولُ فعولن فعولن)

وهاك طائفة من الجمل النثرية التى تسير على تفعلية « فاعِلنُ » وما يدخل عليها من زحافات وعلل يقول السيوطى فى المقامة النيلية :

« قالَ التصريفيُّ : قد زالَ الركُّ ، وطاح الشّكُّ ، وقوىَ الفكُّ ، وزاد المدُّ ، وخفَّ الشدُّ وحَسُنَ الردُّ ... » .

وكتابة هذه العبارة النثرية بتفعيلة « المتدارك » على هذا النحو :

« فَعْلن فَعْلن فَاعِلنُ فَعْلن فَاعلُ فَعِلنُ فَاعلُ فَعْلن فَاعلُ فَعْلن فَاعلُ فَعْلنُ فَعْلن » .

ونموذج من جمله النثرية على هذه التفعلية أيضا .

● « القرعُ وما القرع ذو الفضلِ الذى انتشرْ ، والذى كان يحبه سيِّد البشرْ »[1] .

« فَعْلن فَعِلنُ فاعِلُن فَعْلن ، فاعِلُن ، فاعِلُن فاعِلُ فاعِلُن فَعِلْ »[2] .

وأنظر إليه وهو يقول عن الطبقات التى أُخذت عنه العلم :

● « طبقةٌ أولى كانت خيرًا صرفًا ، دينًا وفضلاً وصدقًا وعرفًا ، فحّياها الله وبياها »[3] .

يمكن أن تكتب على هذا النحو :

- طبقةٌ أولى كانت خيرًا صرفًا ... (فاعلن مخزومة « فَعْلن فَعْلن فَعْلن فَعْلن ») .
- دينا وفضلاً وصدقًا وعرفا ... (فعولن مخرومة « فعولن فعولن فعولن ») .
- فحيّاها الله وبيّاها ... (فاعلن مخزومة « فَعْلن فَعِلُن فَعْلن ») .
- ومن تفعيلة الرمل « صرنا فى عراق وصفا الوقت وراق ... »[4] .
- ومن تفعيلة الرجز « والاية الكبرى التى أنشأتها وما أنسأتها »[5] .
- ومن الكامل « الشعر والنظم صوغ بيانه والنثر والانشاء طوع بنانه »[6] .

---

(١) مقاماته المطبوعة ص ٣٧ .
(٢) بحور الشعر الحر راجع ص ٦٧ وما بعدها العروض الجديد .
(٣) جلال السيوطى م . م . ص ٦٨ .
(٤) مقاماته المطبوعة ص ٦٣ .
(٥) السابق ص ٣ .
(٦) السابق ص .

– ويجمع السيوطى فى جملته النثرية بعض التفاعيل التى تتناوب وتتنوع فى جرس موسيقى واضح فأنظر إليه وهو يقول « وما أبرزت من منافعها وأطلعت من لوامعها ، وسفرت من براقعها ونشرت من محاسنها ، وأظهرت من مكامنها ، وجلوت من محياها ، وأخرجت خباياها من زواياها »[١] .

– وقوله « واستغرقت أوقاتى فى نفع الناس وقتًا وقتًا ، ولم أسلم مع ذلك ممن يولينى أذىً ومقتًا ويرمينى كذبًا وبهتًا »[٢] .

وقوله « وكم طرق هذا الطارق من أمير ووزير ، ومستشار ومشير ، وكبير وصغير ، وغنى وفقير وطبيب ولبيب ، وعدو وحبيب ، كل قد دارت عليه هذه الكاس ، ولم تفرق بين عار وكاس ، فلذلك تمنى أن لا يولد له من تمنى ، وتغنى به من تغنى لما تغنى ... »[٣] .

وهكذا كان السيوطى ذا نزعة موسيقية فى نثره[٤] ، بل أحيانا فى أسماء كتبه[٥] ، هذه النزعة التى جعلت نثره أكثر شاعرية من شعره .

الدخيل والمولد والعامى فى أسلوبه ودلالة استعماله :

كثيرة هى ألفاظ الدخيل والمولد والعامى التى وردت فى مؤلفات السيوطى الإنشائية بحكم موسوعيته التى رغبت فى أن تطرق كل شىء ، ولو أردنا أن نحصى ماورد من هذه الألفاظ فى أدبه لخرجنا فيه – دون مبالغة – بمعجم صغير .

وقد أردنا أن نسوق إليك بعض نماذج من هذه الألفاظ ، قاصدين معرفة دلالة استعمال لهذه الألفاظ فى أسلوبه ، ولنأخذ من مقامة طراز العمامة هذه الفقرة :

---

(١) السابق ص ٣ .

(٢) جلال السيوطى م . م . ٦٨ .

(٣) مقاماته المطبوعة ص ٨٠ .

(٤) مثل « فتح المغالق من أنت طالق » « متفاعلاتن ، متفاعلاتن » و« الحبائك فى أخبار الملائك » « فاعلاتن فعلاتن فاعلاتن » « بشرى الكئيب بلقاء الحبيب » وغير ذلك كثير .

(٥) الجدير بالتنبيه أن الشافعى أديب الفقهاء كان أسلوبه ذا نزعة شاعرية أيضا فمن عباراته التى هاجم بها المتصوفة « لا يكون الصوفى صوفيا حتى يكون فيه خصال أربع : كسول أكول نئوم كثير الفضول » والعبارة الأخيرة تسير على تفعيلة فعولن ٥ مرات . ولعلك تلاحظ اتفاق السيوطى مع شيخ مذهبه فى بعض الأفكار والأسلوب ، وراجع عموما مقال الإمام الشافعى أديب الفقهاء لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة فى كتابه « دراسات فى الشعر العربى » جـ ١ ص ٥٤ وما بعدها .

« .... ووقوف قمامته كأنها أسير مقيد فى حبس ، ولو أنه عقد حلوى هنية وانتخب لها مواد سنية من قند السكر المكرر ، وقلب اللوز والفستق المقشر ، وزكاوة المسك والعنبر ، وأنواع الطيب المندل وأوقد لها نار لطيفة بحطب العود والهند والصندل ، وأجاد لها التركيب ، ولطف نارها بالهدو وحسن الترتيب لا طعمها كل ذى ذوق ، واشتاق إليها كل ذى سوق ، ولكنه اتخذ مادة ردية مردية فبدل السكر بغسالة الأمطار ، وبدل الفستق بخسالة الخشكار ، وبدل الغالية ودهن اللوز بعكارة الزيت الحار .... »[1] .

فهذه عبارة قد حوت هذه الألفاظ « قند - سكر - فستق - مسك - عنبر - المندل - الصندل - النش - الخشكار .... »[2] .

تجد أن السيوطى لا يأبه من استعمال الدخيل فى أسلوبه ، وربما يرجع هذا إلى الموقف الذى يحتاج إلى هذه الألفاظ ، فقد رسم هنا مفارقة واضحة بين مقامته ومقامة الكركى أو مقامته على حد قوله ، وموا كل منها التى يصنع منها كل عمله الأدبى ، فكأنه هنا وضع حسنا للدخيل شريطة تجميل الدخيل من صفات مصاحبة له ، وأحيانا يضم اللفظ المعرب فى جملته بحيث تؤدى غرضا وظيفيا مولد يضاف إلى معانيه المعروفة ، فها هو يستخدم « دست » بيقول « ثم حفظ دست فجور ليكابر »[3] .

وأحيانا يقترب بجمله إلى الأسلوب العامى فى بساطة ووضوح ، أو لقوة تأثير أحيانا « والثانية لما مات أبوك والثالثة لما مات بنتك ... » صدقت يا أجهل الجاهلين ، ويما عرة الحيوان الهاملين » « ومثغن فى الختوم يلحس الشقف لها حى يسعى طول عمره » « كلامه مثل العسل » .

---

(١) ص ٧ .

(٢) راجع معانى هذه الألفاظ فى « شفاء الغليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل » للشهاب الخفاجى . تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى . مكتبة القاهرة ط أولى (١٩٥٢ م الصفحات الآتية بالترتيب : ٢٥٠/ ١٤٨/ ١٩٩/ ٢٣٩/ ٢٥٠/ ١٧٠/ ٢٦٠ ... » .

(٣) راجع معانيها بالسابق ص ١٢٢/ ١٢٣ .

الفصل الثانى

التحليل التفسيرى لشخصية السيوطى الإسقاطية

يبدأ هذا الفصل بدراسة شخصية السيوطى الإسقاطية فى بعض أعماله المقامية من المعطيات التى أشرنا إليها فى الأبواب السابقة التى تخصُّ مكونات شخصيته وسماتها فى ضوء سيرته وقد أبرزها صراحةً فى شعره وأعماله الأدبية والعلمية . ومن ناحية أخرى أشرنا فى مشروع السيوطى لدمج عناصر المقامة لديه ، بدأ بها من منطلق تقليدى منتهيًا بها إلى أنواع أدبية أخرى كمقال أدبى ، وجدال صحفى ، ومحاضرة ، إلا أن السيوطى كان البطل والحكم والرواية وقد أرجأنا تبيان ذلك . ليقوم هذا الفصل بذلك التوضيح .

ولقد انتقل مفهوم الإسقاط كصورة لإحدى العمليات الدفاعية التى يعزو فيها الفرد دوافعه وإحساساته ومشاعره إلى الآخرين أو إلى العالم الخارجي وهو بمثابة عملية دفاعية تتخلّص بها الأنا من الظواهر النفسية غير المرغوب فيها والتى إن بقيت سببت الألم للأنا إلا أن الفرد حين تعرض عليه مثيرات غير متشكلة ، غامضة مبهمة إلى حد ما ، ويطلب إليه أن يستجيب لها ويفسرها فإنه يسقط على هذه المثيرات المبهمة حاجاته ونزعاته ، وتبدو هذه الحاجات والنزعات فى صورة استجابات لهذه المثيرات .

وأصبح الإسقاط هو العملية التى بواسطتها يمكن الكشف عن دوافع الفرد ورغباته وحاجاته باستخدام مثيرات غير متشكلة وغامضة إلى حد ما ، ويقوم الفرد بتفسيرها وتأويلها .

ومن ثم اهتم علماء النفس بالاختبارات الإسقاطية فى أعمال العيادات النفسية ودراسة الشخصية ومن هذه الاختبارات مثلاً - دعوة المفحوص إلى تكوين قصة أو حكاية تتحدث عن أحوال الأشخاص والأحداث التى تجرى فيها . ثم يقوم الفاحص بدراسة ما يقدمه المفحوص من قصة ويحاول أن يستشف منها ما يعتمل فى نفسه من ميول ورغبات وحاجات مختلفة .

وانتقل هذا المفهوم من علم النفس إلى الدراسات النقدية فنجد طريقة « مورى » فى

تحليل الاختبار الفني وتفسيره محللاً البطل الرئيسى الذى يتقمص الفرد شخصيته والحاجات الرئيسية للبطل والضغوط أو العوامل البيئية التى تؤثر فى الفرد"[1] . وجدير بنا قبل أن نفسر شخصية السيوطى كما أوجدها فى مقاماته التقليدية ، والتقليدية المجددة ، والمجددة نحاول أن نتفهم ما فعله رائدا فنّ المقامات فى مقاماتهما ، اللذان يديران شخصيات المقامة حول شخصيتين أساسيتين « الراوى والبطل » عدا الشخصيات الثانوية[2] المتنوعة ، غير المطردة فى مقاماتهما حسبما تقتضى طبيعة الموقف .

والقارىء العام لمقامات البديع والحريرى يتبين له إن كلا منهما حاول من خلال فن المقامة أن يصبَّ طاقات شخصيته فيها ، لغويةً وعلميةً ووعظيةً ، لينال كلٌ منهما الدراهمَ والإعجابَ والرزق والاعتراف به من خلال نسق فني يتمثل فى الراوى والبطل والموقف . وهذاالبطل شحاذ - وإن كان الراوى محتالاً فى بعض مقامات البديع - يتقمص بما استطاع من فنون الحيل والتمثيل والتلوّن والتقلّب فى المواقف والأدوار والأزياء شخصياتٍ موجودةً داخل المجتمع » ناقد أدبى تارة . أديب ، بائع دواء « صيدلانى » ، واعظ ، عالم لغوى ، لائذ بدينه من بلاد الكفار متسول غنى ، بائع أحراز ، مجنون ... إلخ » ، فالبطل إذن قد تشربت معرفته طبقات المجتمع وطبائع القوم ، ودخائل النفس البشرية ، فأراد به المقامى الأول أن يفرغ معرفته تلك التى تمثل قدراته الشخصية وجوانبها من خلال بطله ، وقد كان البديع - فيما نرى - أدق من الحريرى فى إبراز شخصيته التى نرماها وأحكم ضَخّها بما يتناسب مع الموقف من تكوين قصصى ، وحسن تقمص ، وذوبان الشخصيتين ، والحريرى كان ميّالاً لإبراز شخصيته من جانبها التعليمى من خلال صناعاته اللغوية مما أفقد العمل الفنى حرارته وملامح الخلق الإبداعى .

إذن فقد جعل المقامى الأول بطله متحدثًا عنه بلسانه كاشفًا قدرات شخصيته التى تبرز معرفته بطبائع القوم والمجتمع والنفس البشرية من خلال أسلوب أدبى بديع .

ولما كان المقامى الأول وأمثاله يتخذ من البطل نوعًا من الرمز لإظهار جوانب

---

(١) راجع « سيكولوجية الشخصية » محدداتها ، قياسها ، نظرياتها د . سيد محمد غنيم الفصل الرابع عشر « الطرق الاسقاطية » ص ٤١٩ وما بعدها .

(٢) راجع « التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى » د . جابر قميحة . دار المعارف . مصر (١٩٨٤ - ١٩٨٥) ص ٥٦ وما بعدها ، وص ١٠٩ وما بعدها إذ يعقد مقارنة « للشخصيات » فى مقامات البديع والحريرى فيما يلتقيان وفيما يختلفان .

شخصيته ، والبطل قد تقمص أشكالاً وألوانًا من طوائف المجتمع : فهم أمام شحاذ أديب يسكرهم بأدبه وتأدبه ، وناقد أدبى ضليع فى التميز وإصدار الأحكام وصيدلانى يداوى جهلهم بالطب والعقار ليكتسب فى نهايةالأمر القوم دراهم وإجابًا - ثم ما يلبث أن يقوم الراوى غالبًا - ليكشف بالاتفاق المتعمد الخفى لا بمحض الصدفة أقنعة هذا الشحاذ فإذا به أبو الفتح والصيدلانى والواعظ كذلك ، أى أن أبا الفتح هو ذا وذاك ، اختصارا هو كما يعرف نفسه « ينبوع العجائب » هذا الينبوع « شخصية البديع » المتلىء عجائب « قدرات شخصية » لا تستطيع أن تقول أنه رمز صرف للبديع أو إسقاط لشخصيته وإن رأينا إفرازاتها وعجائبها ، إنما هى مرحلة بَيْنَ بَيْن ، لأن البديع تقمص البطل والبطل تقمص بدوره هذه الضروب والأنواع مُخْفِيًا وحدانيته فيها ، ثم يكشف أوْ يكشفها الراوى فى نهاية الأمر ، وهذا ما نتفهمه - ضمنيًا - عندما نقابل البطل بقدرات البديع وقدرات شخصيته نفسها فضلاً عما يعضد ذلك من وحدانية فى بطله المتعدد الأقنعة .

أما السيوطى فيختلف فى هذا الشأن عن سلفيه جد الاختلاف . ويتمايز عنهما جل تمايز معطيا لنفسه - دون وعى - بانطلاقة التجديد مزية الإبداع واتحاد الدال والمدلول بكل أبعادهما فى تدرج منطقى دونما خلل - أى خلل - للكشف عن شخصيته وإفرازاتها كما نوضحها من خلال تحليلنا لشخصيته الإسقاطية فى فنه المقامى .

ونجدنا مطرين هنا لأن نعاود سؤالاً قد فرض نفسه فيما سبق وقد أجيب عنه ولكننا نحاول أن نقدم إجابة ثانية تواكب ما نحن بصدده ، وهو لماذا تحولت المقامة عند السيوطى وقد بدأ بها مقلدًا إلى نوع أدبى آخر سواء صار مقالة أدبية أم جدلية أم صحفية أم علمية ؟ وتغير الأسلوب . ونقول لماذا تحولت المقامة ذات البطل التخيلى أو النباتى أو الجمادى لديه إلى بيان أو منشور سيوطى يتحدث فيه عن نفسه . مادحًا إياها أو معتذرًا عن التدريس أو معتزلاً الناس أو هجائية شخصية إلى أعدائه ومحيطيه أو نقيضة علمية يرد على ما يرى من تهافتات ؟.

وكانت المقامة فى عصر المماليك « يستغلها بعض الكتاب فى التعبير المباشر عن الأحداث أو التعبير عن مواجدهم الخاصة وهمومهم أو أفراحهم فى ثوب قصصى . وكذلك استغلت فى الوعظ الدينى ، وفى اللهو والإضحاك »[1] .

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى د . محمد زغلول سلام . طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٩ جـ ٢ ص ١٧ .

إلا أن صاحبنا - كما رأيت فيما سبق - قد أمسك بالفن المقامى كما وضعه رائده البديع لكنه مَجَّ هذا المفهوم للفن المقامى شكلاً ومضموناً ، وسار فى رحلته الإبداعية لتجديد هذا المفهوم من مقامات تقليدية تحمل بصماته إلى مقامات تقليدية مجددة ثم مقامات مجددة صرفة ما لبثت أن أخذت أشكالاً وفنوناً أدبية أخرى ، لا تحمل من عناصر المقامة الظاهرية شيئاً ، حتى السجع والبديع استهان بهما ولم يقدر حقهما أى تقدير .

وقد بينا فيما سبق عن شق واحد من الإجابة عن هذا السؤال المطروح « كيف تحولت المقامة لدى السيوطى إلى مقال أو بحث فى نهاية الأمر . فتتبعنا تحولات سياق المقامة عنده . أما دلالة هذا التحول السياقى فهو ما يرجع إلى ما نحن بصدده وهذا التحليل التفسيرى لشخصيته الإسقاطية فى فنه المقامى .

ولا تعنينا هنا - بطبيعة الأمر - مقاماته « المقالات والرسائل والبحوث » فقد أصبحت المقامة سيوطية شكلاً ومضموناً ، بمعنى أنها تلاشى ما عرفناه من « راو - بطل (أبطال متعددون) - حكم وقصة خيالية - غالبًا - بعقدتها وحوارها وخاتمتها . والأسلوب المقامى وأصبحت المقامة محاضرة سيوطية هو نفسه موضوعها سواء كان موضوعًا ذاتيًا يخصه أم رأيًا يؤمن به أو تهافتاً فقهيًا يرد عليه ، وكذلك راويها وبطلها وحكمها الذى يقص الأسباب والعلل ، منتهيا إلى حل يرضى عنه فتكون المقامة إذن قطعة من شخصيته السيوطى تحكى بعض ملامحها ، وعوامل الدفع التى تتلقاها ، فتغرز بعض جوانبها التى تتمثل فى مضامين تلك المقامات الخاصة به فى الأغلب .

وإذا كنا قد فهمنا من البديع أن بطله أبا الفتح السكندرى بأقنعته المتعددة يحمل بعض جوانب شخصية البديع التى تثير ملكاتها أو إفرازاتها اكتسابه الجماهيرية والانتشار من خلال تعجب القوم ، والدراهم التى تتساقط عليه من جيوبهم فمهما كانوا عليه من تحرز : وهى ليست حيلة بالمعنى الرمزى أنما هى جزاء من اجتهد وناضل حتى فرض نجاحه وانتصاره وملكه ، جاء السيوطى بارعًا مبدعًا فى إسقاط شخصيته فى مقاماته لتغرز تلك الشخصية قدراتها .

لذا حاولنا أن نستغل الدراسات النفسية لمعرفة الأثر الأدبى وهو أن نتعرف نفس

الإنسان الذى خلقه[١] وقد يفسر لنا لماذا يحبُّ الفنان دائمًا أن يتوارى خلف عمله الفنى[٢] .

هذا والمقامات التى تمثل فى مدلول سياقها لشخصية السيوطى الإسقاطية حتى يكشف عنها بـ « الأنا » الصريحة هى بنفس تدرج مقامات السيوطى من مقامات تقليدية فتقليدية مجددة ، فمجددة خالصة ونعنى بهم على التوالى « المكية - الأسيوطية - الوردية - المكية - الفستقية - الزمردية - الياقوتية - التفاحية .. » .

١ - الشخصية الإسقاطية فى المقامة المكية :

		(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
أ	سياق المقامة الشكلى	الراوى ← حالة	البطل ← حالة	الحدث « العقدة »	الحل	الخاتمة
		↑ ↑	↑ ↑	↑	↑	↑
أَ	السياق الاسقاطى للشخصية	المهد الاسترجاعى للشخصية شخصية ظاهرية / نقطة استرجاع له	ملامح الشخصية / الشخصية الأساسية	دوافع إظهار الشخصية	إفرازات شخصية	أثر تلك الإفرازات

شكل (١) جدول يوضح سياق المقامة المكية ومقابلة السياق الإسقاطى للشخصية

إن أول ما يطالعك فى المقامة هو « الراوى » الذى يتوصل إلى « البطل » إذ أنه يصف ذهابه إلى مكة ، والتجول فى معاهدها ، ويتمنى أن يجد سميرا ، فيتمشى حتى يلقاه .

(١) النقد الأدبى ومدارسة الحديثة . ستانلى هايمن ترجمة د . إحسان عباس . ود . محمد يوسف نجم . دار الثقافة بيروت ١٩٨١ م ص ٢٩١ .

(٢) راجع التفسير النفسى للأدب د . عز الدين اسماعيل . مكتبة غريب . الطبعة الرابعة ١٩٨٤ م . الفصل الثانى مشكلة الفنان ص ٩٩ وما بعدها .

فدور « الرواى » هو الوصول إلى « البطل » ثم ليكشف لنا أو يكشف البطل بملامحه المادية والمعنوية ، ويُفْتَعل الحدث الذى يتطور حتى يصير عقدة ، ما على « البطل » إلا أن ينفعل بها ، فيحلها حلاً ، فينال فى نفس « الراوى » اقتناعًا به ، ويتمنى أن يتبعه ولا يفارقه .

فالعلاقات بين تلك العناصر محكمة جد إحكام » ، يؤدى بعضها إلى بعض ، فالراوى ويمكن أن نطلق عليه فى تحليلنا التفسيرى « الممهد الاسترجاعى » للشخصية « البطل » ، وهذا « الممهد » يصف حالهُ « نقطة الاسترجاع » التى تأخذ فى التأزم حتى تؤدى به إلى إيجاد « البطل الشخصية » فيقول « مازلت أقتحم المهامة المخيفة ، وأدخل المسالك العنيفة ، إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططت الرحال بعتابها ، وأرحت النفس من عنا بها ، وظللت أجول فى مشاهدها ، وأجوب فى معاهدها ، وأسهر فى تأمل محياها العين ، وأسهد من تجمل رباها ما يهون فيه الحين ، وأتردد فى العود والرواح ، وأتزود من تلك الآثار فى المساء والصباح وأتمنى أديبًا يسلى بمسامرته الغربة ، وأديبًا ينيل بمحاضراته الإبة ، فبينما أنا ذات ليلة فى المطاف ، وقد سمرت سحائب الألطاف ، إذ أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين وهم بين سلام وترحيب وبكاء ونحيب ، وفى صدر الحلقة شاب ... » .

وهنا يتمكن هذا الراوى أو الممهد الاسترجاعى ، الذى هو بدوره جزء من شخصية المؤلف الظاهرية من مقابلة « شخصية المؤلف الإسقاطية « البطل » . وجهًا بوجه . فيسقط الراوى عليه ملامح السيوطى وشخصيته ، ملاحظًا أن هذه الملامح التى يذكرها الراوى مزدوجة المصدر : بمعنى أن الراوى يسوق لنا ملامح شخصية البطل « الشخصية الإسقاطية » بكل حواسه الست ومن ناحية أخرى يفسح لنا البطل عن ملامح شخصيته مستخدمًا « الأنا » فى عرض قدراتها ، بعد أن تدفعه عوامل إظهارها أو ما تسمى بالعقدة .

يقول الراوى « ... وفى صدر الحلقة شاب مخيف الخلقة ، وقد تدرع بثياب البها وتقنع جلباب الحيا ، والقمر فى الجلالة انغمار القمر فى الهلالة ، إذا ظمأ بحره نقطت منه الدرر ، وإذا سمى فخره رأيت دونه الزهر ، ينفث بالسحر ويعبث ، وقد أحدثوا بروضه الفائق وتأنقوا من زهره الرائق ، وهو يزهو من خيلائه زهاء الطاووس ، ويجفو على قرنائه تجفاء الفروس ، ويدعى أنه أبو عذرة العلم والفكر ، وابن بجدة الرياسة والفخر

وسالك لجة البحر ومالك زمام النظم والنثر . ويقول : أنا فاتح المقفلات ، وموضح المشكلات ، ومصحح المعضلات قال هاشم بن القاسم : فتأممت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره وأستظهر من كامنه عل باهره ، وأتخذه معاضدًا ونصيرًا ، ومحاضرًا وسميرًا ، فقلت : قد رعيت ما منك رأيت وسمعت فيما عنك فهمت . فأت على ما ادعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب على ما اقترحته عليك من المسائل فقال : على الخبر سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسالك : وأفسح عن مقالك ، فقلت : ما تقول فيمن توضأ ... » .

فلم يكن البطل شحاذا ، رث الهيئة ، تقتحمه العين اقتحامًا ، إنما هو شاب ، مهيب الطلعة ، مخواف ، فيه حسن وصفاء وحياء ونور مشع ، ويتحلى بذلك الوشى الذى وهبه الراوى من خلال الكلمات ذات الأبعاد والدلالات (ملما بحره فتقطعت منه الدرر ينفث بالسحر : روضه الفائق ، زهره الرائق ... » .

وهو كثير الفخر بنفسه ، مختال ، يجفو على أنداده ، صاحب العلم والفكر والرياسة مالك لنواصى النثر والنظم ، فاتح المقفلات من المسائل وموضح المشكلات ومصحح المعضلات » وهذه هى بعض الصفات المجملة التى دائمًا يتباهى بها السيوطى ذو النزعة النرجسية كما عرفت مما سبق .

وتزداد الصلة بين الراوى وبين البطل ، فيقدم إليه ليستنور بباطنه على ظاهره ويتخذه لسانه الذى يدافع عنه ويناصره ويسامره ، وهنا تظهر العقدة أو عوامل دفع هذه الشخصية لتظهر بعض جوانبها المعرفية « فأت على ما أدعيت ببرهان » فيمتدح البطل نفسه بثقة سيوطية « على البحر سقطت ، ومن البحر لقطت » وستلاحظ أن هذه الجملة سوف يعيدها فى مقامة أخرى والشخصية الإسقاطية أخذت فى التطواف حول « الأنا » السيوطية .

ثم تكون إفرازات هذه الشخصية حول مسائل فقهية تعتمد على المشترك اللفظى للكلمات وفى النهاية يطلب منه معرفة اسمه ، فأنشا قصيدة يكيل فيها المدح لنفسه . وانصرف الراوى قائلًا « وددت أنى لو تبعته » .

فالسيوطى يسقط شخصيته على البطل التى تتضح معالمها باستخدام نفس الصفات التى يذكرها السيوطى حينما يفتخر بنفسه ، سواء فى شعره أو فى منظوماته أو فى مقدمات كتبه وخاتمة بعض كتبه أو فى تضاعيف أعماله فى مدح نفسه والدفاع عنها ، وهذه المرحلة

الإسقاطية أعمق درجة فى عدم وضوح الإسقاط عنده ، التى بدأ السيوطى فى مقامته التالية إعطاء مقدار من الكشف والوضوح حتى ينتهى بها إلى أن تعلن عن نفسها بـ «أنا » السيوطية الصريحة .

٢ - الشخصية الإسقاطية فى المقامة الأسيوطية :

	(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
أ	سياق المقامة الشكلى	الـــراوى -البطل - حاله حاله	الموقف	الحل	الخاتمة
أَ	السياق الاسقاطى للشخصية	المهد نقطة الشخصية الاسترجاعى ملامح استرجاع ملامح خاصة للشخصية عامة	عوامل دفع	إفرازات الشخصية	أثر الافرازات

شكل (٢) . (جدول يوضح سياق المقامة الشكلى ومقابلة السياق الإسقاطى للشخصية)

يذهب الراوى أينما يوجد البطل وإن لم يكن يعلم بوجوده ، ليلتقى به ، ويرى ويسمع بطله وهو يناضل فى إثبات ذاته وعلمه .

وأفتعال الراوى للزمان والمكان والحالة كلها نقطة استرجاع ليجسد لنا « الشخصية » فى ملامحها . وحاجاتها الرئيسية وما تعانيه من ضغوط بيئية ، وما تفرزه قدراتها من طاقات وأثر ذلك فى نهاية الأمر .

فينبئنا الراوى فى هذه المقامة أنه قرر الذهاب إلى مدينة أسيوط ، فوصف الموعد وطريقة الانتقال « لما امحق الشتا امحاق العتو ، وأذن زهر الربيع بالبدو : وأسفرت نقاب المقام ، وشمرت الحمام الاهتمام ، وركبت النيل المبسوط ، وبركت مطيتى بمدينة أسيوط ، وعكفت أدور سبلها ، وأرود أهلها ، فرأيت بها أنهارا كالفضة ، وأزهارا طرية غنة ... واستمر يصف المدينة وصفا جماليا .

ثم تزداد نقطة الاسترجاع نحو الاقتراب من الشخصية « .... ودخلت المسجد لقضاء الجمعة ، وحين قضيت من الصلاة وطرأ ، وحل البيع والشرا ، وإذا أنا بشاب » . وهنا يصف لنا البطل من خلال جانب من قدرات شخصية ، تعرفها من الدلالات الرمزية للتشبيهات والكنايات « وإذا أنا بشاب فى وجهه ترجمانه ، وفى لسانه حانه ينطق بغرر الكلم ، يومض من ثناياه البرقع الساطع ، ويهطل من خباياه الودق الهامع ، يكاد يطم سيبوية سَيْبُه ، وتغمر أبا الطيب طيبه ، يحكم دوره صحاح الجوهرى ، ويظلم بدره صباح الأزهرى ، وقد أحدق به جمع ، وأطرق له السمع ، ومدوا له الأعناق مد العيس ، وائتلفوا به ائتلاف الجن بإبليس قد نظرت إليه نظر النسر ...» .

ولم يكن الراوى بحاجة لكى ينزع أقنعة البطل ليعرف من هو ، وإن كنت قد عرفت أن « أبا البشر » بطله فى المقامة السابقة كان تاجا لأهل الادب كما قال كلاهما ذلك . فأننا أمام شاب لغوى ينطق بغرر الحكم ودر الكلم ، يبارى . إن لم يسبق . سيبويه والجوهرى والازهرى ، لذا فإنه أول ما نظر إليه متفحصا عرفه « فعرفت أنه أبو البشر » ملاحظا أنه عرف أبا بشر (كان أبا بشر وصار أبا البشر) .

عرف الراوى من نظرة ثاقبة البطل أو الشخصية الموجودة فى كل مكان يتنفس فيه صدره ، وإذا كانت عوامل إظهار تلك الشخصية جاءت فى المقامة السابقة من إظهار أبى بشر لقدراته . فدفعت الراوى لأن يتبين ذلك ، لاشكًا فيه ولكن ليطمئن قبله ، فأدار معه امتحانًا ، انتهى وقد أفرز البطل شيئا من طاقات شخصيته المعرفية نراه هنا يمثل عوامل دفع إظهار تلك الشخصية من خلال بعض المؤثرات البيئية المتمثلة فى ذلك الرجل ، المعرقل خطواته ، المحبط قدراته المفتت طموحاته (فعرفت أنه أبو البشر : وأذا برجل أجرًا من الأسد ، طويل اللسان ، جرىء البنان وجعل ينبذ الشاب بسهام الأذى ، ويكثر عليه من البذا ، إلى أن تنفس الشاب الصعدا ولم يجد له من نصير أبدا .... » .

وإذا كنت قد علمت أن الصلة التى أراد أن يعقدها الراوى بالبطل فى المقامة السابقة أن علتها قائمة باتخاذه البطل معاضدا ونصيرا ومحاضرا وسميرا ، يعجز البطل ويحتاج مخلصا ليحل ما وقع فيه من شرك ، ولم يجد له من نصير أبدا ، يصيّر الراوى نفسهُ علامة مضيئة للبطل فانغمرت بينهم فى الساعة ، فظهرت على الجماعة ، وقلت : يا معشر الخلائق ، وأهل المورد الرائق ،.... ،..... ، هل لكم فى استماع كلمة ، واتباع حكمة ،

تفصل الخصام ، وتوصل بين الأخصام ؟ فقالوا : حبذا ، وأين لنا بذا ، فقلت : إذا وقعت المناظرة ، وسمعت المحاورة ، تبين الخالى من العاطل ،. وتميز الحق عن الباطل ، وبالإصابة فيالمناضلة ، يقضى بالسبق والمفاضلة ، فقالت الجماعة : سمعا لك وطاعة ... » .

والراوى صار نصير البطل ، طالبا من الجماعة وقوع مناظرة ومجادلة بين أبى بشر والرجل الطويل اللسان ، والمناظرة واجهة أساسية فى حياة السيوطى ، ومن ناحية أخرى فإنه يتحدث عنه بكلمة « شاب » حينما يضارع به الرجل الطويل اللسان ، ويبدو أن السيوطى كتب هذه المقامة فى الفترة التى ألف فيها كتابه الأشباه فى الفقه ، وقد عيب عليه بأنه لايزال شابا .

ومما سبق يعكس السيوطى - بكل وضوح - درجات الإحلال ليستعملها بين « الراوى - المهد الاسترجاعى للشخصية وهو أيضا جزء من الشخصية المزدوجة التى أخذت طريقها فى التوحد ، وبين البطل الشخصية الإسقاطية له ، وما كان من البطل إلا أن يتحدى هذه المعوقات البيئية فى هذا الجانب من قدراته « وحينئذ شمر الشاب تشمير النهم ، وحمل على الخصم حمل النيل المدلهم ، وقال اسمع مقالى ، أيها المقالى ، وأجب عن سؤالى أيها السالى : ما حكمة إذا كثر عرضها قلَّ معناها ....» وهى عبارة عن أسئلة نحوية ملغزة ، منبهين إلى أن هذه الألغاز النحوية التى جائت على لسان البطل هى بنفسها التى أوردها السيوطى فى (الأشباه والنظائر فى النحو ج ٣ ص ٣٢/٣١) .

وتأتى الخاتمة أو أثر إفرازات تلك الشخصية من خلال قدراتها النحوية « فبهت ذلك السائل ورأى أن الرجوع خير من التمادى فى الباطل ، فبادر إليه . وقبل قدميه ، وأقرت الجماعة عظمه ، وانصرفوا يتعصبون من رسوخ قدمه » .

وتنتهى المقامة دون أن يقول الراوى وددت لو أنى تبعته ، ولن يقولها مرة أخرى ، ولم يقولها وكلاهما هو هو ، والعكس صحيح ؟ .

٣ - الشخصية الإسقاطية للمقامة « الوردية »

		(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)	(٦)
أ	سياق المقامة الشكلى	راوى مقدمة الحدث	أسباب الحدث	الموقف صراع الابطال الجدد	الحكم صفاته	حل العقدة	النهاية غير المتوقعة
أ	السياق الإسقاطى للشخصية	ممهد + نقطة استرجاع	عوامل دفع	إفرازات شخصية (ما قبل)	الشخصية الكل	إفرازات شخصية (ما بعد)	إبداعات شخصية

شكل (٣) (جدول يوضح سياق المقامة الشكلى ومقابله السياق الاسقاطى للشخصية)

تدور هذه المقامة وأخواتها الآتيات فى تحليلنا هذا حول منافع النبات أو الجماد الطبية ، وهى تمثل نوعا من إفرازات شخصية السيوطى المعرفية .

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه الإفرازات خاصة لتلك المقامة ، فقد أفردنا لها الفصل الأخير من هذا الباب يختص بمناقشة هذه المقامة فى ضوء نظرية المعادل الموضوعى ، ولذا فأننا سنهتم بمناقشة إسقاط السيوطى لكنهه شخصيته ، المتمثل فى العنصر الجديد وهو « الحكم » .

وكان السيوطى فى مقاميته السابقتين قد أسقط شخصيته فى « البطل » ، والبطل هنا موجود وإن تعدد ، ولا يعنى هنا تضاربًا فى التحليل ، فالسيوطى جدد السياق الشكلى للمقامة وفق ما يقتضيه الكشف عن « الأنا » صراحة ، فالراوى لم يصبح أبا بشر إنما هو « الريان » وعوامل الدفع لم تكن مؤثرات بيئية مثلما رأيت إنما تخيلية فى اتفاق الأزهار لإجراء انتخابات الرئاسة بالمعنى المعاصر ، فجاءت صراعات الأبطال إفرازات للشخصية الإسقاطية لاهى ، ولذا جاءت الشخصية الإسقاطية فى هذا العنصر الجديد « الحكم » الذى يضبط الموقف ويعلن موقفه من هذه الإفرازات ناسخًا ما رأى ، مشرّعًا نوعية جديدة من الإفرازات .

فالحَكَم الذى قصدته الأزهار ، ليفصل بينها يتصف بصفات السيوطى الكلية لجوانب

شخصيته وقدرتها الفائقة فى العلوم التى فجرها القرآن ، فضلا عما تتصف به هذه الشخصية من أمانة واتخاذ القرآن والحديث شريعة إلى الجنة .

وقد جاءت ملامح الشخصية الإسقاطية « الحكم » ثلاثية المصدر ، مصدر سماعى ومصدر خطابى ومصدر متكلم .

فالمصدر السماعى يتمثل فى أنهم « قصدوا رجلا عالما بالأصول والفروع ، حافظا للآثار الموقوف منها والمرفوع « عارفا بالأنساب » مميزا بين الأسماء والألقاب ، والأتباع والأصحاب ، مديد الباع ، بسيط اليدين فى معرفة الخلاف والإجماع ، خبيرا بمباحث الجدل ، بصيرا باستخراج مسالك العلل ، متبحرا فى علوم اللغة والإعراب ، متضلعا بعلوم البلاغة والخطاب ، محيطًا بفنون البديع ، حافظا للشواهد الشعرية التى هى أبهى من زهر الربيع ، سديد الرمية شديد الإصابة ، إذا فوق لفنى الشعر والكتاب ، الشعر والنظم صوغ بيانه ، والنثر والإنشاء طوع بنانه ، والتاريخ الذى هو فضيلة غيره فضله ديوانه ... « أرايت كيف حُشدت الصفات لهذا الحَكَم ، وهى نفس الصفات التى يتفاخر بها صاحبنا .

والمصدر الخطابى وهو على لسان الأزهار المتنازعة « فلما مثلوا بين يديه ، ووقعت عينهم عليه قالوا : يافريد الأرض ، ياعالم البسيطة ما بين طولها والعرض ....» .

والمصدر الثالث جاء على لسان الحكم نفسه يقول عن نفسه أمام الأزهار « فقال : أيتها الأزهار أنى لست كالذى تحاكم اليه العنب والرطب ، ولا الذى تقاضى إليه المشمش والتوت ولا التين والعنب ، إنى لا أقبل الرشا ، ولا أطوى على الغلِّ الحشا ، ولا أميل مع صاحب رشوة ، ولا أستحل من مال المسلمين حسوة ، إنما أحكم بما ثبت فى السنة . ولا أسلك إلا طريقا موصلا إلى الجنة » .

أو ليست هذه الصفات والملامح بمصادرها الثلاثية للحكم هى نفس صفات السيوطى كما وضح هو صراحة حينما يفتخر بنفسه ، ومع ذلك فلكى تلمس بنفسك درجات كشف هذه الشخصية الإسقاطية نحو التوحد فى « الأنا » سترى فى المقامة التالية أن هذا الحكم الذى فصل هنا بين الأزهار هو الذى أنشأ هذه المقامة ، جملة وتفصيلا .

٤ - الشخصية الإسقاطية فى المقامة المسكية :

	(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
أ	السياق الشكلى للمقامة	مقدمة	الحكم	أسباب العقدة	الحكم مرة أخرى	حل العقدة رؤية عامة ترتيب
أَ	السياق الاسقاطى للشخصية	نقطة استرجاع	كنهة الشخصية	عوامل دفع	قدرات الشخصية	افرازات الشخصية

شكل (٤) (جدول يوضح سياق المقامة المسكية الشكلى ، ومقابله السياق الإسقاطى للشخصية)

وسياق المقامة الشكلى يخبرنا بمجيء الطيب المتنازعين حول أحقية كل منهم لاعتلاء الدرجة الأولى كيانا ومنافع ، إلى الحَكَم ليفصل بينهم ، مرتّبًا درجاتهم ، وهذا تحول كما عرفت للمقامة إلى محاضرة سيوطية .

أما من ناحية دلالة هذا السياق من خلال الشخصية الإسقاطية له فقد واكبت هذا التحول الشكلى للمقامة .

فيلغى السيوطى دور الراوى الذى عرفناه فى المقامة السابقة ، ليقص لنا ما رآه من تنازع الأزهار وجد الهم ، فلم ير السيوطى بدّاً من إيجاد تلك المسافة الطويلة التى تهدينا إلى الحكم ، ووضع بدلا منه جملة تقريرية واحدة « حضر أمراء الطيب بين يدى إمام فى البلاغة خطيب ...» .

فكانت هذه الجملة التقريرية التى هى البديل عن دور الراوى ممهدا استراجاعيا للشخصية دونا تطويل أو استطراد .

وإذا ما كان قد ألغى دور الراوى الذى يصف البطل ويتخذه نصيرا له ، ورأيناه حينما أوّجد « الحكم » وصف « البطل » من خلال « الأبطال المتعددين » ومن ناحية

أخرى يكشف البطل عن جانب آخر من شخصيته كما رأيت فى المقامة السابقة فإنه فى هذه المقامة قد جعل « الابطال المتعددين » هم الذين يصفون شخصية الحكم ، وهم الذين يدفعونه إلى اظهار إفرازات شخصيته ، مع ملاحظة أنه يتخلّص من « الإفرازات الشخصية الـ « ما قبل » أى بمعنى لم يجعل الأبطال يظهرون قدراتهم فى حوار جدلى ثم يفصل بينهم ، فينسخ الحكم ما سبق بقوله ، بل كان الحكم فى هذه المقامة هو الذى يعرض المشكلة ويقيم حديثه عن الطيب فى إجمال عام ليبدأ بعد ذلك فى ترتيب درجاتهم بما ملك كل منهم من خصائص ومنافع . وهذا يعنى بكل وضوح انكماش هذه العناصر نحو الحَكَم « الشخصية » وحل العقدة « إفرازات الشخصيّة » .

فبدأ أفراد الطيب وصفهمن للحكم « إمام فى البلاغة خطيب » دعائهم له قائلين « أيّد الله مولانا وتولاه وأمده بالمكارم وولاه ، وأولاه من نعمه وما أجدره بذلك وأولاه ، وحرسه من المكاره ووقاه ، وأصعده ذروة المجد ورقاه » .

ثم يذكرون مشكلهم الذى هو « العقدة » فى المقامة ، التى هى بدورها عوامل دفع لإظهار شخصية « الإمام البليغ أو الحكم » لتغرز هذه الشخصية بعض قدراتها ، بل هم الذين طلبوا ذلك .

فمشكل الطيب كما قالوا « وقد كاد يحصل بيننا نزاع ، أينا أجل فى المرتبة الطيبية وأجل فى مواطن الانتفاع » ، وهنا يظهر الممهد الضمنى للشخصية « فنادانا المنادى فى النادى يا أيها الملأ ، أنى نصيحكم ، أطيعوا الله ورسوله ... « ثم وجههم أو عرفوا ذلك بداهةً ، فتواصينا على حسن السير ، وتواطئنا على الصلح والصلح خير ، وأصطلحنا على ترك الجدال والجلاد ، وضربنا إليك أكباد الأبل من أقصى البلاد .....» .

ثم يصف أمراء الطيب هذا الإمام الذى سيحكم بينهم ، ملاحظا ذلك التطور من الحكم إلى الإمام وما فيه من زيادة توضيح ، قائلين : « ... ولجأنا إلى حماك الذى هو للعفاة ملاذ ووردنا منهلك العذب الذى هو كافل لأنواع الملاذ ، متشوقين إلى عظيم أنصافك متشوقين إلى كريم انصافك ، لتنشر من أوصافنا ما خفى ، وتظهر من خفى أسرارنا ماصفا ، وتلبسنا من خلع الملاحة ماضفا ، وتعفو عما صدر منا من جفا ، وتأخذ من أخلاقنا ما عفى ، وتنعم من در ألفاظك التى هى شفاء لمن كان على شفا ، وذلك لما طرق مسامعنا من مقامة الرياحين (أى الوردية) التى أنشاتها ، والآية الكبرى التى نسختها وما أنسأتها ، وما أودعته فيها من بديع وصفك ، وبليغ رصفك ، وما أبرزت من

منافعها ، وأطلعت من لوامعها ، وسفرت من براقعها ، ونشرت من محاسنها ، وأظهرت من مكامنها ، وجلوت من محياها ، وأخرجت خباياها من زواياها ، فإن رأيت أن تجعل لنا منك حظا ، وتحبر لنا من نظامك لفظا ، وتضرب لنا مع أولئك بسهم ، وتجعل لنا لسان صدق يتناقله عنك أولوا العلم والفهم ... » .

ويتضح لك من هذه العبارة أن الحكم الذى فصل بين الأزهار المتنازعة فى المقامة السابقة هو الذى سوف يحكم بين هؤلاء الطيب . بل إن هذا الحكم السابق هو الذى أنشأ المقامة السابقة ويريد الطيب أن ينشأ لهم مثلما أنشأ المقامة السابقة للأزهار . وفى هذا ما يؤكد جلاء الشخصية الإسقاطية « بالأنا » السيوطية دونما مواربة .

ومن ناحية أخرى نود أن نقول أن سياق هذه المقامة يماثل تمامًا سياق منظومات فتاوية من ناحية السائل الذى يبدأ بالدعاء إلى السيوطى ومقداره ، ثم الشكل الذى يتعرض له ، ثم يذكر أنه لم يجد أحدًا مجيبًا إلا إياه لما له من علم وراف ، وفكر سديد ، فيجيبه السيوطى وهو راضٍ بما سمع بأنه سيخبره بفصل الخطاب ، ثم يحمد ويصلى ويجيب وارجع إلى كتابه الحاوى ستجد عشرات الأمثلة .

٥ - الشخصية الإسقاطية للمقامة الفستقية :

	(١)	(٢)	(٣)	(٤)
ا	سياق المقامة الشكلى	الأبطال	العقدة	الحكم « صفاته »	حل العقدة
اَ	السياق الإسقاطى للشخصية	نقطة استرجاع	عوامل دفع	الشخصية	إفرازات تلك الشخصية

شكل (٥) جدول يوضح سياق المقامة الفستقية ومقابله السياق الإسقاطى للشخصية

ما تزال تقترب المقامة نحو الأنواع الفنية الأخرى ، وتقترب معها وفيها الشخصية الإسقاطية نحو إعلان « الأنا » السيوطية ، أى بضمير المتكلم له .

فها هى تخفت كل العناصر السابقة التى تسترجع الشخصية ، وتدفعها مفرزة بعض طاقاتها وهو الجانب الجوهرى لما يحياه السيوطى ، فالبقول تريد أن تعرف طبائعها ومنافعها . تقول مقدمة المقامة « مرت من البقول طائفة على النقول عالقة ، تروم الإفصاح عن منافعها ، والإيضاح عن طبائعها « وبسرعة ديناميكية يقول السيوطى » فأجابها من أجاب من الألباء أن استمعوا ما ألقى إليكم وعوا ما أملى عليكم » .

وتلاحظ أن الشخصية الإسقاطية هنا تمثلت فقط فى « فأجابها من أجاب ... » فدرجة الذوبان للشخصية الإسقاطية أختلطت فى الوعاء الكشفى « للأنا » السيوطية حتى كادت لا تميز ، ولكنها ستظهر واضحة جلية فى المقامة الأخيرة .

٦ - المقامة الزمردية :

	(١)	(٢)	(٣)	(٤)
ا	السياق الشكلى	الأبطال	الحكم	العقدة	حل العقدة
اَ	السياق الإسقاطى	نقطة استرجاع	الشخصية	عوامل دفع	إفرازات الشخصية

لا يزال يختصر فى الممهد الاسترجاعى للشخصية ، حتى انتهى لأن يتعامل مع مُمَهِّدٍ بشرى يقول « سأل سائل من أهل الوسائل من يقصد فى السائل عن الخضروات السبعة ... » و « من » هو صاحب الشخصية الإسقاطية فى المقامة الذى يقول للسائل « على البحر سقطتم ومن البحر لقطتم » وهى نفس الجملة التى ذكرها السيوطى على لسان بطله « أبى بشر » وذكرها أيضًا فى العديد من مقدمات كتبه وفى المواضع الكثيرة من إفتخاراته ثم يتكلم « من » عن الخضر ومنافعها كإفرازات لشخصيته العلمية أو الطبية أو غير ذلك .

٧ - المقامة الياقوتية :

	(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
ا	التمهيد للموقف	الموقف	إختفاء الحكم	الأبطال	حل العقدة
اَ	نقطة استرجاع واعية	عوامل دفع	إختفاء الشخصية الإسقاطية	إفرازات شخصية	×

تلاحظ أن السيوطى فى هذه المقامة يستخدم مقدمتها التى تحكى إجتماع الجواهر للحديث عن نفسها دونما تناحر . عوامل دفع لإخراج إفرازات شخصية ، وهى تتحدث عن كل واحدة بلسانها مع إختفاء الحكم الذى يمثل آخر نفس من أنفاس الشخصية الإسقاطية ، ولذا فقد ترك الحل للعقدة مفتوحًا على مصراعيه .

فالشخصية الإسقاطية فى المقامة الفستقية كانت قد اقتربت من « الأنا » السيوطية ثم ازدادت « الأنا » السيوطية فى الوضوح ، والشخصية الإسقاطية فى التلاشى والتوحد فى « الأنا » فى المقامة الزمردية من خلال المزج بينهما لدرجة أن « الشخصية الإسقاطية أصبحت نكرة لا تعرف « أجابها من أجاب » وفى المقامة الياقوتية هذه وصلت درجة توحد « الشخصية الإسقاطية » بـ « الأنا » السيوطية خط التماس الذى انعدمت فيه الرؤية فلم نلمح للشخصية الإسقاطية أثرًا ، أى أثر ، ولم تسفر « الأنا » السيوطية لذى عينين اللهم إلا من إفرازاتها المطردة .

٨ - المقامة التفاحية :

وهنا نصل إلى خاتمة المطاف ، فلا يوجد راو ، ولا حكم ، ولا عقدة ، ولا حل ، إنما هو الأمر كله ، سؤال موجه إلى السيوطى نفسه فى أنواع الفواكه ، فيجيب عليه .

تقول مقدمة المقامة « سألت طائفة فاقهة عن مناقب الفاكهة وصفاتها المشاكهة ، وما ضرب لها من الأمثال والمشابهة ، وما قاله فيها كل طيب أريب ، وكل شاعر أديب ، وأختارت منها سبعة زهرًا ، وبضعة جهر الزمان بحسنها جهرًا ، فأجبناه لما طلبت ، وبدأنا بالألطف فالألطف فى الذات ، والأشرف فالأشرف فى الصفات » .

وهكذا توحدت « الشخصية الإسقاطية » للسيوطى بالسيوطى فى رحلة بدأت بمقامته المكية حتى انتهت فى المقامة « التفاحية » ، سلك السيوطى أثنائها دروبًا كثيرة ، ومسالك متعددة ، مغيرًا مساره تارة ومبدلاً مطيته تارة أخرى ، حتى أحل فى « أناه » شخصيته الإسقاطية ، هذه الشخصية الإسقاطية قد جاءت إفرازاتها معادلاً لجوانبها المتعددة فى المقامة « الوردية » على النحو الآتى :

الفصل الثالث

شخصية السيوطى فى ضوء المعادل الموضوعى لإحدى مقاماته

إن مركز القيمة داخل العمل الفنى قائم فى الأنموذج الذى يصنع من المشاعر لا فى المشاعر نفسها[1] كما يرى الموضوعيون أن فى العمل الفنى ذهنًا وصنعة ومجهودًا أشبه بالمجهود الذى يتم فى عالم المعمار، كما يرون فيه دلالاتٍ رمزية وأسطورية واستقلالاً ذاتيًا. بحيث لا يحتاج فى تحديد خصائصه والاستدلال على حياة مبدعه إلى أيّة عوامل خارجية، وإذا كان الحال كذلك فإن المهمة الأولى للناقد الأدبى هى مواجهة النص مواجهة مباشرة، وقراءته قراءة فاحصة، والاستعانة عليه بوسائل فنية تمكن من إلقاء أكبر قدر من الضوء عليه ومن ثم تتوصل إلى فهم ما فيه من رموز وإشارات[2] فالعمل الفنى ليس نتاج سكب العواطب الذاتية إذ أن الطريقة الوحيدة للتعبير عن عاطفة ما العثور على مجموعة الأشياء أو المواقف أو سلسلة من الأحداث يمكن أن تشكل معادلة لتلك العاطفة المعينة، بحيث يمكن إحداث العاطفة فى نفس المتلقى بصورة مباشرة عندما تنتهى الحقائق الخارجية فى شكل تجربة حسية وتكمن الحتمية الفنية فى وجود هذا القدر الكافى من الحقائق الحسية التى تقابل العاطفة وتجسيدها[3] وهذا ما يسمى بالمعادل الموضوعى "Objective Correlative".

ومن جانب آخر فإن أبلغ الأساليب كما يقول بوفون Buffon هو توحيد النهاية الكبرى للشخصية مع النهاية الكبرى للموضوعية فمن ناحية هو تركيز للانفعال الشخصى ومن الناحية الأخرى هو إسقاط الانفعال الشخصى على الشىء المبدع[4].

---

(١) راجع «المعال الموضوعى» فى «ت. س. اليوت» الشاعر الناقد. ق. أ. ماثيسن. ترجمة د. أحسان عباس. المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ١٩٦٥ ص ١٢٩ وما بعدها.

(٢) راجع «فى نقد الشعر» د. محمود الربيعى دار المعارف - مصر - الطبعة الرابعة ١٩٧٧ م. النظرية الموضوعية ص ١٤٢ وما بعدها. وراجع مقالات فى النقد الأدبى د. إبراهيم حماده طبعة دار المعارف - مصر - ص ٧٥ وما بعدها.

(٣) Criticism from– Matthew Arnlod to the Present day, rushady, P, 44.

(٤) The Problem of style – Middleton Murry, P, 32.

وقد كان السيوطى مسقطًا شخصيته فى مقاماته من الرمز حتى أسفر عن « الأنا » بوضوح ، ومع ذلك فقد جعل هذه الأشياء التى أسقط فيها شخصيته معادلاً موضوعيًا فى مقامته « الوردية » لجوانب شخصيته التى تشربت طبائع الشخصيات الماثلة أمامه ، راسمًا فى النهاية شخصيته التى حملت اسمه وسلوكه وآثاره المتعددة .

وقد يسأل سائل . لماذا تحمل هذه المقامة فوق ما لا تحمل ؟. فتزعم أنها يمكن دراستها بما سماه إليوت المعادل الموضوعى ؟ فالسيوطى ألف « الوردية » ومثيلاتها لإظهار قدرته المعرفية بمنافعها الطبية ، ولم يجعلها السيوطى - كذا أخواتها - معادلاً موضوعيًا لمجموعة من الأشياء عادل بها عاطفته ، أو الغرض المراد التعبير عنه .

أو ليس السيوطى يذكر فيها منافع الرياحين الطبية وما ورد لها من مأثور سواء كان مقدسًا « قرآنا وحديثًا » أم إنشاء البشر « شعرًا وأمثالاً » أو غير ذلك ؟ ، ومن ناحية أخرى فإن موضوع التفاخرات والمناظرات بين الأشياء وبعضها لم يكن من اختراع السيوطى إنما سبقه مبدعون « كتابًا وشعراء » بقرون سابقة ، فلم تكن للسيوطى - هنا - ميزة فى هذا إلا محاولته الجادة لوصف هذه المفاخرات فى أسلوب محكم ، وطريق جديد ، وعرض شيق .

أو لم ينص السيوطى صراحة فى هذه المجموعة من مقاماته على الفوائد الطبية « للطيب والرياحين . والفواكه . والبقول والخضروات والأحجار » ، فالطيب يقولون للإمام « وقد كاد يحصل بيننا نزاع ، أينا أجل فى المرتبة الطبية وأحل فى مواطن الانتفاع » ، ثم أن كل منازع فى الوردية يفتخر بمكانته فى الدواء والمنافع ، بل إن السيوطى فى « التفاحية » سألته الطائفة عن مناقب الفاكهة وصفاتها وما ضرب لها من الأمثال وما قاله الطبيب والشاعر : كان نصيب المنافع الطبية فى الإجابة يشغل الحيز الأكبر ، وإن البقول لا تسأل إلا عن منافعها فيجيب : « سأنبئكم بما يفوق حكمة بقراط ... » .

ومن ناحية أخرى فإن من غايات السيوطى فى هذه النوعية من المقامات إبراز قدرته على الوصف البيانى ، أو لم يقل الطيب للإمام حين أرادوا أن يحكم بينهم أن « تحبر لنا من نظامك لفظًا وتضرب لنا مع أولئك - أى الرياحين فى المقامة الوردية - بسهم ، وتجعل لنا لسان صدق يتناقله عنك أولوا العلم والفهم » .

فكيف تتعسف فى إخراج معادل موضوعى فى هذه المقامة ، وقد ذكر الطيب فى المقامة

المكية وهم يتحاولورن مع الإمام ذاكرين هذه المقامة فى قولهم » .. وتنعم لنا من درر ألفاظك التى هى شفا ، لمن كان على شفا ، وذلك لما طرق مسامعنا من مقامة الرياحين « أى الوردية » التى أنشأتها ، والآية الكبرى التى نسختها وما أنسانها وما أودعته فيها من بديع وصفك ، وبليغ رصفك ، وما أبرزت من منافعها ، وأطلعت من لوامعها ، وسفرت من براقعها ، ونشرت من محاسنها وأظهرت من مكامنها ، وجلوت من محياها ، وأخرجت خباياها من زواياها » .

إذن فالسيوطى لم يذهب خياله بعيدًا ، إنما أراد أن يعلم الناس منافع هذه الأنواع طبيًا ، بحكمة تفوق بقراط كما يزعم ، وإن كان قد اشتط فى إبراز المنافع الطبية فلا تنسى ذلك التمايز الحضارى الذى كان يحيا فيه الطب فى عصر السيوطى متقوقعًا فى الطب النبوى ، وتذكرات الطب الشعبى وكتاباه الطب النبوى والرحمة فى الطب والحكمة نموذج حى لمعرفة العصر الطبية ، التى تخلفت عما وضعه أطباء العرب الأسبقون جد تخلف ، ومن ناحية ثانية أراد بها تعلم الناس ما ورد فى هذه الأشياء من أمثال وأقوال وأشعار وغير ذلك من شواهد بديعة .

ولكى نجيب عن كل هذه الاستفسارات ، ونضع الأشياء فى مكانها الطبيعى ، يتحتم علينا أن نلقى عدة إيضاحات .

يجب أن نفرق بين إفرازات شخصيته فى هذه المقامات ، وبين أبعاد هذه الإفرازات فى بعض هذه المقامات .

فالسيوطى وجد فى الطيب والرياحين والخضروات والأحجار ... ، فرصة سانحة ليعمل فيها شخصيته ، لتفرز لنا بعض قدراتها المعرفية ، ومنها معرفته الطبية التى كان فيها حاطب ليل ، احتطب لها كل غث وسمين ، منها ما هو معروف فى الطب الشعبى ومنها ما لا يستطيع عصرنا أن يتحقق منه وأكثر كل هذا خزعبلات جدلية وضرب من التخيل المشوش .

ولسنا بصدد مناقشة ما جاء فى هذه المقامات طبيًا ، فالسيوطى ضرب بالمنطق والمعارف والحكمة عرض الحائط فى أكثر الأحايين ، وكأننا بالسيوطى الطبيب هنا الذى يكتب ما يفوق حكمة بقراط هو السيوطى الطبيب فى مقامته النساء الذى يسخر بجالينوس أو أفلاطون فى تشبيهه الدميم الذى ذكره[1] .

---

(١) راجع هذا التشبيه فى « مقامة النساء » ص ٣٠ السطر قبل الأخير والأخير .

فانظر إليه فى مقاماته هذه ، تر المسك مثلاً يبطل عمل السموم ونهش الأفاعى ، ويجلى البياض الرقيق من العين ، والزعفران كذلك وأن « الزباد » عرق هربرى أو لبن سنور بحرى ويعتمد على مأثورات باطلة جملة وتفصيلاً فالورد قد خلق من عرق النبى وجبريل والبراق ليلة الإسراء ونرى « الياقوت » يمنع من إصابة الطاعون على التحقيق » « ويقوى القلب الجريح » ويقاوم السموم ويدفع الهموم ، وأن اللؤلؤ » يقوى قلب الإنسان ويجلو ما فيها من الظلمة والوسخ وينفع من بياض العين ، وأن الزمرد يخلص الإنسان المسمون من الموت ، وضعف البصر ، والصرع ، ويمنع نزف الدم « والمرجان » ينفع من الطرش ، ويقوى القلب ، والزبرجد ينفع من الجذام ، والعقيق مثل ذلك ، عموماً فإن كل حجر من هذه الأحجار لا يبقى مرضا أى مرض إلا وفيه علاجه .

نخلص من هذا بأن السيوطى أراد أن يشعل حياة الجدل والمناظرات فى كل الأشياء نباتاً أو جماداً ، وأنه احتال جد احتيال فى هذه المقامات متخذاً من مكانة « النبات » أو الجماد وما ورد فيهما من أدلة مأثورة ، وما وجده لهما من منافع ، وما تخيله هو من فوائد مجالاً للجدل والتناظر .

وفكرة الجدل أو التناظر إنما تمثل لب شخصية السيوطى التى بدأت فى مقاماته القليدية من خلال راويه وبطله ، فحاول أن يجد له قالبًا آخر يصب فيه شخصيته ويظهر إفرازاتها الجدلية ، فجاء بهذه النوعية من مقاماته من خلال « النبات أو الجماد » والحكم أو الإمام بل هو بنفسه كما وضح الفصل السابق ، ومرورًا بمقاماته تجد أن السيوطى قام مجادلاً ومناظرًا أعداءه ومعاصريه .

فيجب - إذن - أن نفرق بين إفرازات شخصية السيوطى فى هذه المقامات التى تومئ إلى معرفته الطبية أو حفظه ما جاء من مأثورات يختص بالأنواع المتناظرة ، وبين أبعاد فكرة هذه المقامات التى هى خطوة من خطوات السيوطى فى إظهار كنه شخصيته الجدلية ، التى عادل بها من خلالها مرحلة من مراحل شخصيته للنمو والوضوح نحو « الأنا » .

ويجب أن نفرق بين ما ورد فى هذه المقامات من معارف طبية أو غير طبية وبين الإطار العام الذى وضعت فيه هذه المقامات ، ومن ناحية أخرى الأبعاد الرمزية التى تضمنتها أحاديث كل مناظر غير الطبية .

ونعاود القول ، فنطرح هذا السؤال ، ما الفرق بين المقامة الوردية والمقامة التفاحية من ناحية السياق إذا كان السيوطى يريد أن يظهر معرفته الطبية والأدبية لهذه الفئة من مقاماته ؟

والفرق واضح ، فصلناه فى الفصل السابق ، خلاصته ، أن السيوطى فى المقامة الوردية جعل شخصيته الإسقاطية وإفرازاتها معًا ، أما فى التفاحية فإنها إفرازات للأنا السيوطية يسأله سائل عن كذا فيجيب .

ولما كانت المقامة الوردية تشكل درجة التفاقم الجدلى الرمزى فإن فكرة الجدل وصلت فى « التفاحية » إلى درجة التفرد والوحدانية ، ما على الطالب إلا أن يسأل ، وما على السيوطى إلا أن يجيب ، فلا حاجة إذن إلى جدل أو حوار إنما هو ذلك الفيض السيوطى الذى يغمر الخلائق بعد أن وضح صباحه لذى عينين .

ومن الفصل السابق أيضًا اتضح لك أن تطور مقامات السيوطى من ناحية السياق مرتبط بتطور شخصيته الإسقاطية التى استمرت فى التكشف حتى تبدا فى ضمير السيوطى المتكلم « سألت طائفة - عن كذا - فأجبناها » .

ولما كانت المقامة الوردية على قائمة مقاماته هذه ، مبرزًا فيها عنصرًا جديدًا « وهو الحكم » الذى صار فى المقامة التالية لها إمامًا حتى صار « نا الفاعلين » السيوطية وبمعنى آخر قد جمع السيوطى فى هذه المقامة كل العناصر القديمة - بمفهومه الجديد التخيلى - والعناصر المستحدثة كالحكم الذى هو السيوطى إسقاطًا ، وما أوجده من أبعاد رمزية فى إفرازات شخصيته للعناصر المشتركة فى المقامة ، بل بوضوح أحيانًا ، لم تكن المقامة ضربًا من الرمز الصرف أو التشخيص الصرف إنما كانت تناسقًا طريفًا فى ائتلاف الذوات والأجناس معًا . أى أنه إذا كان كل ما خلق الله يسبح له - كما نسلم - كل بلغته ، فإن السيوطى فى مقامته هذه صيرها كائناتٍ حيّة تعيش مع أخيها الإنسان تحت سقف بيت واحد لا لأنه أراد أن يثبت ذلك حقيقة لا مجازًا ، بل لأن كل ذلك كان معادلاً موضوعيًا لأنماط شخصيته التى أخذ منها نمطًا فى النهاية الملك والسيادة ، وأصبح هو الجوهر لما يسمى « السيوطى » .

وإذا كان الرمز ، والتشخيص الذى يقوم بإضفاء الخصال البشرية على أشياء أو كائنات غير إنسانية سواء كانت حية أم جامدة أم معنوية[1] قد عرفا فى الأدب العربى

(١) انظر الصورة الفنية ، الفصل الثالث .

القديم ليخلع عليه الفنان حاجاته أو تصوير رغباته أو يضمنها بعض مطالب المجتمع قدر ما تسمح القوى السلطوية مدا وجزرا ، فإن الأمر يختلف هنا - وإن كان السيوطى فى هذه المقامات حاكى مايجيش بنفسه وهو المستوعب ما سفر فى المجتمع وما خفى - لأن السيوطى رمز للصراع الجدلى الذى تعيشه شخصيته وشخص الكائنات غير الإنسانية كأداة تعبيرية لما يقصد من أبعاد غير أنه أكمل ثالث الأقاليم بوجوده هو شخصيًا معها .

وتتوحد هذه الأقانيم الثلاثة أحيانًا بكل وضوح ، فإن السيوطى حينما يتحدث إلى هذه الكائنات التى أعطاها الخصال البشرية ، ينسى ذلك ، ويتفوه معهم إناسًا باللفظ الحقيقى لا التشخيص « فها هو المنادى ينادى فى النادى » يا أيها الملأ إنى نصيحكم ، أطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا ... » وها هم الطيب حينما اختلفوا فيما بينهم على الرئاسة والملك فتخلفوا إلى السيوطى ليحكم بينهم ، فقصوا عليه خطبهم وهم منتظرون الآن حكمه يقول لهم « سآتيكم بالحكمة وفصل الخطاب » ، ثم صعد منبره ، متضمخا بمسكه وعنبرهِ وأقبل على الناس ، واستنصت الجلاس ، وما الناس والجلاس إلا الطيب فلم يشر مطلقًا بوجود أحد غيرهم . ويقول بعد ذلك « أما بعد أيها الناس » ويقول بعد استطراد « ثم أنكم أيها الأمراء ... » وحرى بنا هنا قبل أن نحلل المقامة الوردية فى ضوء المعادل الموضوعى أن نتفهم المقامة « المسكية » وهى تالية للمقامة الوردية من ناحية السياق فى ضوء معطيات السيوطى فى مزج الرمز بالتشخيص بأناه ، الذى يعادل بهم موقفا عاديا يحدث أمامه ، وهو اختلاف نفر ما على شئ ما ليفصل بينهم بحكمة مقتدرة .

فالرمز جلى فى هذه المقامة وهو نقل طرف من الصراعات التى تحدث بين فئة ما من البشر سواء كانوا من المتناحرين على منصب ما أم مكانة علمية أم إجتماعية ، فيصور لنا تنازع أنواع الطيب على المرتبة العالية ، فلم يستطعوا إلى فصل ذلك سبيلاً ، فناداهم من يوجههم إلى حكم عدل وثقة خبير ، وقد استطاع ذلك الحكم أن يبين مكانة كل منهم ودرجته ، والتشخيص واضح من إضفاء الخصال البشرية على هذه الأنواع ، ومزج هاتين « بالأنا » السيوطية كان حتميًا وجوده ، ليحقق من معادلة ما فى واقعة بما يكن فى عاطفته ، ولم يصب إلى المباشرة فى نقل هذا الواقع بما هو كائن تمامًا ، فليس الفن كما يقول كسيرر « مجرد تكرار لحقيقة جاهزة أو ترديد لواقع قائم من ذى قبل ، بل هو اكتشاف لحقيقة جديدة ، وتعبير عنها بلغة رمزية » ولا نقصد هنا اللغة فحسب بل فى السياق الداخلى للمقامة .

يقول الطيب للسيوطى « إما معشر إخوان . وعلى الخير أعوان ، نرصد للخير ، ونقصد لدفع الأذى والضير ، لا يرى منا مكروه ، وإذا قصدنا عاف لم يرعه مناما يسوءه ولم يسؤه منا ما يعروه ، كل خير خير عنا شاع وذاع ، وكم ربح ربحنا إذا ربحنا ضاع ، وقد كاد يحصل بيننا نزاع » .

أفترى فى هذا الحديث ما يشير ولو أدنى إشارة إلى طيب أو غير ذلك من الكائنات غير الإنسانية سواء كانت حية أم جامدة أم معنية ؟ أم أنه حديث جماعة من الناس تربطهم رابطة ما لهم مصالح واحدة ، وعلاقات متفقة منافعها ، لكن هذه الجماعة داخلتها وساوس التفتيت فرأى كل واحد منهم أن يعرف الآخرين مكونات شخصيته ومقدار حاجة الناس إليه كيما يحصل على حقه الطبيعى فى الترتيب ، مدعيا كل منهم أنه هدة لا فضلة ، تقول المقامة « وقد كاد يحصل بيننا نزاع أينا أجل فى المرتبة الطيبة (الجنس) ، وأحل فى مواطن الانتفاع (حاجة الناس إليه) ، وهنا يطل – ولا تنسى أن السيوطى فى هذه المقامة وهى تالية للوردية ألغى المناظرة بينهم لتظهر شخصيته بكل وضوح فى تنظير الأشياء – يطل داعى الخير والصلاح لهذه الجماعة المتنازعة ليهديهم إلى الصواب تقول المقامة ملاحظا استخدامه « الفاء » للتعقيب « فنادانا المنادى ، فى المنادى ، يا أيها الملأ إنى نصيحكم ، أطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وهذا الأسلوب والتضمين القرآنى يعرف من يقوله ، ومتى يقال ولمن يقال ، وكيف يعمل به .

وحين سمعت هذه الجماعة هذا القول الحكيم نسيت ما صارت إليه ، ورجعت إلى حظيرة الهدى الإسلامى تقول المقامة « فتواصينا على حسن السير ، وتواطئنا على الصلح والصلح خير ، واصطلحنا على ترك الجدال والجلاد » .

ولكن الأمر لا يكتمل إلا بإظهار الحق ، والحق لا يعرف من قوم تنازعوا ، فلابد إذن أن يرجع الأمر إلى أولى الأمر ، وبما أن السيوطى أو الشخصية الإسقاطية هنا قد صارت فى المقامة الوردية الحَكَم بين المتنازعين أيا كانوا ، فلابد أن يرجع الأمر إلى هذا الإمام تقول المقامة : « وضربنا إليك أكباد الإبل من أقصى البلاد ، وقطعنا إليك كل بحر وواد ، وقصدناك ونحن أكرم وراد ورواد ، ولجأنا إلى حماك الذى هو للعفاة ملاذ ، ووردنا منهلك العذب الذى هو كافل لأنواع الملاذ ، متشوفين إلى عظيم إنصافك ، متشوقين إلى كريم اتصافك » .

وهنا تشرع أنواع الطيب فى عرض مطالبها من الإمام الحكم « لتنشر من أوصافنا ما خفى وتظهر من خفى أسرارنا ما صفا ، وتلبسنا من خلع الملاحة ما ضفا ، وتعفو عما صدر منا من جفا ، وتأخذ من أخلاقنا ماعفى ، وتنعم لنا من ألفاظك التى هى شفاء لمن كان على شفا .

هذه هى مطالب الطيب من السيوطى الإسقاطى بكل دلالاتها الواضحة ، طلبوا منه هذه الأشياء لكى يضارعوا المقامة السابقة ، تقول أنواع الطيب بعد هذه المطالب مباشرة « وذلك لما طرق مسامعنا من مقامة الرياحين » ، أى الوردية – التى أنشأتها ، والآية الكبرى التى نسختها ، وما أنساتها ، وما أودعته فيها من بديع وصفك وبليغ وصفك ، وما أبرزت من منافعها وأطلعت من لوامعها ، وسفرت من براقعها ، ونشرت من محاسنها وأظهرت من مكامنها ، وجلوت من محياها ، وأخرجت خباياها من زواياها » .

وجاء دور الحاكم الإمام أو الشخصية الإسقاطية فقال لهم مرحبا بالكرام ا لزور : أعيذكم بالله من الجور ، ومن الحور بعد الكور ، وأقآمكم فى أحسن طور ، وقطع عنكم التسلسل والدور ، مثلكم إذا سأل يجاب ، وإذا دعا فله يستجاب ، ثناؤكم المستطاب ، ونشركم يملا الوطاب ، وسآتيكم بالحكمة وفصل الخطاب ، ثم صعد منبره متضمخا بمسكه وغيره ، وأقبل على الناس ، واستنصت الجلاس وقال الحمد لله .. ، وراح يتحدث عن الطيب ثم خص المسك والعنبر والزعفران بالمكانة الكبرى قائلا « ثم أنكم أيها الأمراء الثلاثة المسك والعنبر والزعفران ، ثلاثتكم فى السيادة والرئاسة أقران ، ولهذا قام فيكم دليل السنة ، التى هى تالية للقرآن « وذلك هو منهج السيوطى السنى الذى سيصل به إلى الجنة ، ثم رتب هؤلاء « الأمراء » وفق إمكانات كل واحد منهم بشقيها ، فجاء المسك ثم العنبر ثم الزعفران ، أما الرابع فنترك السيوطى يتحدث عنه « وأما أنت أيها الزباد » وإن اشتهرت فى كل ناد ، بين كل حاضر وباد ، فلست تعد مع هؤلاء من الأقران ، لأنه لم يرد ذكرك فى آية من القرآن ، ولا فى حديث عن سيد ولد عدنان ، لا فى الصحاح ولا فى الضعاف ولا فى الحسان ولا فى أثر عن أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، فلا تتعد طورك ، ولا تبعدَ غيرك ومتى أدعيت أنك رابعهم قيل لك أخسا ، ومتى جاريتهم فى ميدان السبق فكبوا لك وتعسا ، وأخرى أنبئك بها من الفقها من قرر نجاستك ، وذلك مما يسقط فى سوق الطيب نفاستك ، وقصارى أمرك أنك عرق هريرى ، أو لبن سنور بحرى ، فلا نسب لك ولا حسب ولا سلف

ولا خلف ، وأنت أقل خوفا وذلك سلفا ، .... ، غير أنا نجبر كسرك ، ونغنى فقرك ، قد رزقك الله أنواعا من المنفعة وجعل فيك أسرارا مودعة ... » .

ويدعو السيوطى فى النهاية قائلا « واستغفر الله مما وقع من تنقيصه ، واستعفيه من الجهل بتمييزه وتخصيصه ، جعلنا الله من أناب إلى الحق ورجع ، وأصغى إلى الصدق وخشع ، وأعاذنا برحمته من كل شرك ، وجنبنا كل زور وكذب وأفك ، وجمعنا مع عباده الأبرار والمقربين فى سلك وجعلنا من الذين يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك .

ونود أن نشير إلى قول سابق ، بأن أحد الباحثين وهو يوسف نور عوض ، قد عرض فى رسالته « فن المقامات بين المشرق والمغرب » مقامة السيوطى « الوردية » وأشار فى طيات عرضه للمقامة إلى الرمزية فيها ، يقول الباحث معلقا على حديث الورد « إن القارىء لهذه الفقره ، لا يستطيع أن يقف بمدلولها عند الأوصاف الحسية التى ذكرها الورد عن نفسه ، بل لابد له أن يجتاز بها هذا المدلول المحدود ، فربما ذهب تصوره إلى أنها تعبر عن طبقة شاملة من الناس ترى أنها احق بالفضل لإنها تمايزت بالحسب والنسب وعلو الشأن والمظهر »[1] .

ويقول معلقا على نهاية المقامة « وعلى الرغم من أن المقامة تبلغ ذروتها عند هذه النقطة وتؤدى مدلولها الرمزى على أنها نقد مباشر لتلك الأنماط المتصارعة من البشر فى الحياة الاجتماعية كل ينسب الفضل لنفسه ، فإن السيوطى قد جمع التطوير الدرامى فى أقصى مداه ، لكى تنفرج العقدة فى آخر الأمر عن فضل « الناغية » على غيرها ، وقد أثبت ذلك بعدد من الأحاديث النبوية ، فما كان من أنواع الورد إلا أن أقبلت عليها مهنئة وعملت على نشر فضلها ، فكأنه أراد بذلك أن يقول أن الفضل ليس لكل من يحاول أن يعلن عن نفسه بل قد يكون الفضل خبيئا لا يتبينه إلا أولو الأبصار مثل هذا الحكم العادل ، كذلك فإن الناس فى حياتهم يكثرون من الرياء والزيف كل يعلن عن نفسه فى الوقت الذى ينزوى فيه أهل الفضل الحقيقيون لا يتعرف عليهم إلا من آثارهم الله من فضله[2] .

وقال باحث آخر معلقا على قول الحكم « إنى لا أقبل الرشا ، ولا أطوى على الغل الحشا ، ولا أميل مع صاحب رشوة ، ولا أستحل من مال المسلمين حسوة ، إنما أحكم

---

(١) فن المقامات ص ٢٩٢ .

(٢) فن المقامات ص ٢٩٤ .

بالسنة » « هذه العبارة التى جاءت على لسان هذا الحكيم إنما تعبر عن روح هذا العصر الذى كان يعيش فيه السيوطى ، فهو عصر الرشوة ، وزمان القسوة ، وتفشى البغى والسطوة »[1] .

وأشار باحث ثالث إلى أن المقامة تعتبر « رمزا لصراع العلماء والحياة التى يعيشها السيوطى[2] ونطرح على انفسنا سؤالا فى ضوء المعطيات السابقة ، ماهى حالة السيوطى أثناء خلقه لهذه المقامة أو بمعنى آخر ما هى امكانيات السيوطى فى عملية الخلق الفنى هذه ؟

إذ أن الفنان يختزن فى عقله كل ما يسترعى انتباهه من خبرات ، إلى أن تأتى اللحظة التى تتدخل فيها هذه الخبرات ا لمتباينة ، متيحا الفرصة لهذه الخبرات كى تتفاعل فى عقله على نحو يخلق منها تركيبا جديدا ، ويضفى عليها مغزى لم يكن موجودا من قبل مكونا عملا أدبيا متكاملاً[3] .

فالإشارات الظاهرة التى وضع السيوطى عليها يده فى هذه الفئة من مقاماته هى طرق موضوع جديد وإحلال رؤية حديثة فى بعض الأشياء وهى النباتات والجماد ، وكل الأشياء الموجودة فى الطبيعية عبارة عن أجناس تتألف كل طائفة بخواص معينة ، ممثلة فى جنس ما ، فها هى طائفة الطيب وطائفة الرياحين ، وطائفة الفواكه ، وطائفة الجواهر ، فوجد السيوطى أن هناك خواص مادية ، وخواص معنوية تجمع هذه الطوائف فى عقد واحد .

ويتمثل هذا الخيط الرفيع فى ذكر مكانة كل فرد من أفراد كل طائفة بما ورد له فى القرآن والحديث المأثور السلفى والأشعار والأقوال المشهورة ، ومن جانب اخر فوائده العامة ومنافعه الطبية على وجه الخصوص ، سواء كان الفرد مدعيا ، أم محقا فى حديثه أو حديث المؤلف الذى ترك لخياله العنان لذكر مكانة هذه الأفراد ومنافعها .

---

(١) محمد رشدى حسن « أثر المقامة ... » ص ٤٦ .

(٢) د . السيد على حسن مقالته فى « مجلة كلية الآداب بسوهاج العدد الثالث » يرى بورا أن الخيال عامل فعال يقوم بدوره بإيقاظ الناس على حقيقة تدعم المشهد المرئى المتغير وتفسير كل ما فيه من قيمة ولذا لا يكون الخيال هروبا من الحياة .وأن يكون نوعا من الاسترخاء المقبول « راجع الخيال الرومانسى » سير موريس بورا – ترجمة إبراهيم الصيرفى – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م ص ١٣ ، ص ٣٥٥ .

(٣) راجع وصف إليوت لعملية الخلق الفنى بكتاب « الشعر العربى المعاصر » د . الطاهر أحمد مكىّ ص ٩٠ .

هذه هى مجموعة الأشياء التى وجدها السيوطى أمامه التى إذا ما عبر عنها ، وجرى عليها قلمه عَرّف الناسَ ببعض إفرازات شخصيته الموسوعية ، رغبةً فى الوصول إلى قمة الهرم الذى تشكّل مواصفات حجمه . حجم ذلك الإمام المجدد ، الذى هو حلم السيوطى ومناه ، وذلك ما بذل للتزين باسمه كل ما أدخر ومالم يستطع إدخاره .

أننا لا نستطيع - إذن - أن ننكر أن السيوطى أراد بمجموعة هذه الأشياء أن يرينا بعض إفرازات شخصيته الموسوعية ، فى الوصف وذكر المأثور ، والمنافع والأسلوب ، هذه المجموعة التى بدأت بالوردية « وانتهت بالتفاحية ، ورأينا فى الأخيرة إفرازات « سيوطيةً وبمعنى آخر كانت المقامة إجابة لسؤال سائل عن الفواكه ، لكننا ننكر أن يكون السيوطى أراد بهذه المقامات هدفا تعليماً ، أو احتمالا لسؤال يسأله سائل فقرأ واختزن وصنف لأجل ذلك ، هذه الفئة من مقاماته ، بل لأن هذه المجموعة من الأشياء التى يجمعها خيط رفيع ، وجدها السيوطى صالحة لأن يحل فى بعضها وجدانه ، ووضع إبداعه الفنى يده على جسم حى يعادل بكل عناصره إحساس السيوطى المراد التعبير عنه .

وَوجدَانُ السيوطىِّ قد جاس البيئة السيوطية العامة والخاصة بل كان صورة كاملة التفاصيل لشخصية صاحبها نفسه .

فها هو إحساس السيوطى يتحسس البيئة السياسية ، ويرى ما فيها من فساد ينخر فى نخاع الدولة ، وشىء من الإيجابية ، فيكتوى تارة بما يشاهده من اضطرابات ، وتأرجح الخلفاء والسلاطين على كرسى الخلافة والسلطنة ، وكأنها سراجان تحاول كل الفراشات الوصول إلى سرهما الأبدى . دافعةً كل ما تملك ، فما تلبث أن تحترق بنورهما .

وكم شاهد إحساس السيوطى تقلب أمور مصر والأمة فى أصابع من لا يستحق ومن يستحق ولا يعمر فسرعان ما تدهمه عوامل الدس والتلصص والفتن والإحباط ، والشقاق ، وقد سجل هو وغيره ذلك فى أدبهم الوصفى .

كم رأى إحساس السيوطى فساد الحياة الاجتماعية ، وتهافت الناس على المناصب ، والتبطن تحت على القوى السلطوية ، فيشترون عذاب الآخرين ، وإضطهادهم ممن يملكون السياط بالرشوة والإغداق وادعاء الشأن والعلو فضلا وحسبا ونسبا وأصلا وفرعاً .

كم تألم إحساس السيوطى من ضروب الخراب الدينى والخلقى ، فيرى الإسلام صار عند المدعين ورقة رابحة لاكتساب ما يريدون ، ويرى مدعى التصوف يلبسون قميص الإسلام ويفعلون ضلالاً ، ويورثون كفراً .

كم جاع إحساس السيوطى وهو يشعر بالنوازل الإقتصادية فتفجر السرقة والاحتيال والتشرد وقد أصيب بالدوار وهو يرى رائحة شواء كل شىء حتى الإنسان متهادية من موائد الطبقات الفوقية وهو يتحسس الصدأ والانطفاء الذى أعتلى وجوه أفراد الطبقات التحتية وأسنانهم وأجسامهم وأرواحهم .

كم مُزِّقَ إحساس السيوطى بما رأى فى حياة عصره العقلية والفكرية وإن اتسمت بالنشاط - يتصارع مدعو العلم إلى امتلاك ادارتها ، فها هو مدع لا يعرف من العلم إلا قليلا بل ظن أن العلم ما هو إلا لبس عمة وجبة ، والتلوك بفتات علم نسيته تلاميذ نجباء فى صحن عالم ، على نحو ما وضح لنا السيوطى فى مقامته « الاعتذار » وما يلبث هؤلاء المدعون لأن يتطاولوا على أرباب العلم عرقلة لأن يؤصل نفسه ويقويها وينميها ، ويبرز كل خبيئ فيها ، أملا فى الوصول إلى فكرية الإمامة والمبعوثية على رأس القرن ، فأنفق الليل والنهار فى احتطاب العلوم ، بل وتصارعت هذه العلوم فى نفسه ، أى علم منها أقرب مكانة إلى الإمامة ، فكان الحديث أشرف العلوم إليه كما قال .

فإحساس السيوطى - قطعا - قد دنا وورد من هذه البيئات وتشرب معرفة هذه الضروب المتباينة وتؤثر هذه الضروب فى شخصية السيوطى - وجدانيا - لتشكل أنماطاً عديدة متباينة لها ، ويكون بها مثل ذلك أو هذا ، ثم تتصارع هذه الأنماط ، كل نمط يحاول أن يكون لبَّ هذه الشخصية وجوهرها ، والمؤثر الفرد فيما يؤتى من أفكار وسلوك . فأى نمط ينتصر ، كلهم - عدا واحد - مدع ، كلهم - عدا واحد - لا يستحق أن يكون عنوان السيوطى الأبدى الذى يستطيع من خلاله أن يفوز بالدنيا والآخرة ، ولا يفوز بذلك إلا نمط اتخذ خير خلق الله له سبيلا ، غير مدع ، وغير منازع ، لأنه فوق أن يدعى وأن ينازع .

هذا هو وجدان السيوطى فى هذه المقامة ، وهو تصوير شخصيته التى وجدها تأخذ أنماطا عديدة متباينة ، كل نمط منها - بكل ما يتصف به من حسن وقبح - يحاول أن يكون لب هذه الشخصية فيدعى لنفسه من التملك عليها ، وتسيير هذا المُلك تحت طوعه ، فيتصارع ، ما استطاع - مع النمط الند وما يلبث هذا النمط الند أن يحقر

قدرات ومكانة سلفه، مدعيا لنفسه حق السيادة ، وهكذا دواليك حتى تبدى كل هذه الأنماط المتصارعة لشخصية حق التملك والرئاسة عليها ، ولكن الخبرات والحنكة والتجربة تشير على هذه الأنماط بأن يحتكموا إلى ميزان الإمامة والفكر الصائب الذى يفاجئهم بأنهم لا يستحق أى منهم هذا الحق بل إن هناك من يستحق وهو الجوهر الفرد لخليفة الله على الأرض هو تلك « الشخصية السوية » التى يتصف بها خير خلقه ، وهى أحب أنماط شخصيات الإنسان إليه ، وهى الباقية الصالحة فى الدنيا والآخرة .

وكأن السيوطى أخرج لنا أنماط شخصية الإنسان (شخصيته) من مكمنها وتركها أمامه تتصارع يظن كل نمط منهم أن يفوز به ، ويحتال لذلك جد أحتيال ، ويفاجىء الجميع بأن السيوطى أعطاهم درساً قاسياً ، فقد أخذ قراراً بأنهم لا يستحقون بأن يشكل أحدهم شخصيته فأخرج لهم الشخصية السوية التى يستطيع بها أن يصل إلى الجنة وتفوق كل الأنماط كما وكيفا ، ولا يجد الجميع بعد ذلك مناصا إلا أن يبايعوه بالإمارة ويستظلوا بظل هذه الشخصية ، ويعملوا تحت لوائها قائلين جميعا « الحمد لله رب العالمين » .

هذا هو وجدان السيوطى الذى أراد التعبير عنه ، فوجد فى هذه المجموعة من الأشياء « الرياحين » قاعدة لهذا الوجدان ، محققا ذلك المعادل الموضوعى بين وجدانه وبينها .

تَفْصيلُ المَعَادِلِ الموضوعىّ فى هذه المقامة :

تتكون المقامة فى اعتقادنا من مشهدين يكونان لوحة كاملة تؤدى الحُبْكة[1] دورها التطورى داخلها ، والحُبْكة كما يقول ر . س كرين كلمة تركيبية تنطوى على ثلاث تحويرات سببية ينتج عنها حبكات الفعل وحبكات الشخصية وحبكات الفكرة[2] ، يبدأ المشهد الأول من حديث الراوى حتى نهاية حديث الريحان ، والمشهد الثانى يبدأ من ذهاب الرياحين إلى الحكم حتى نهاية المقامة .

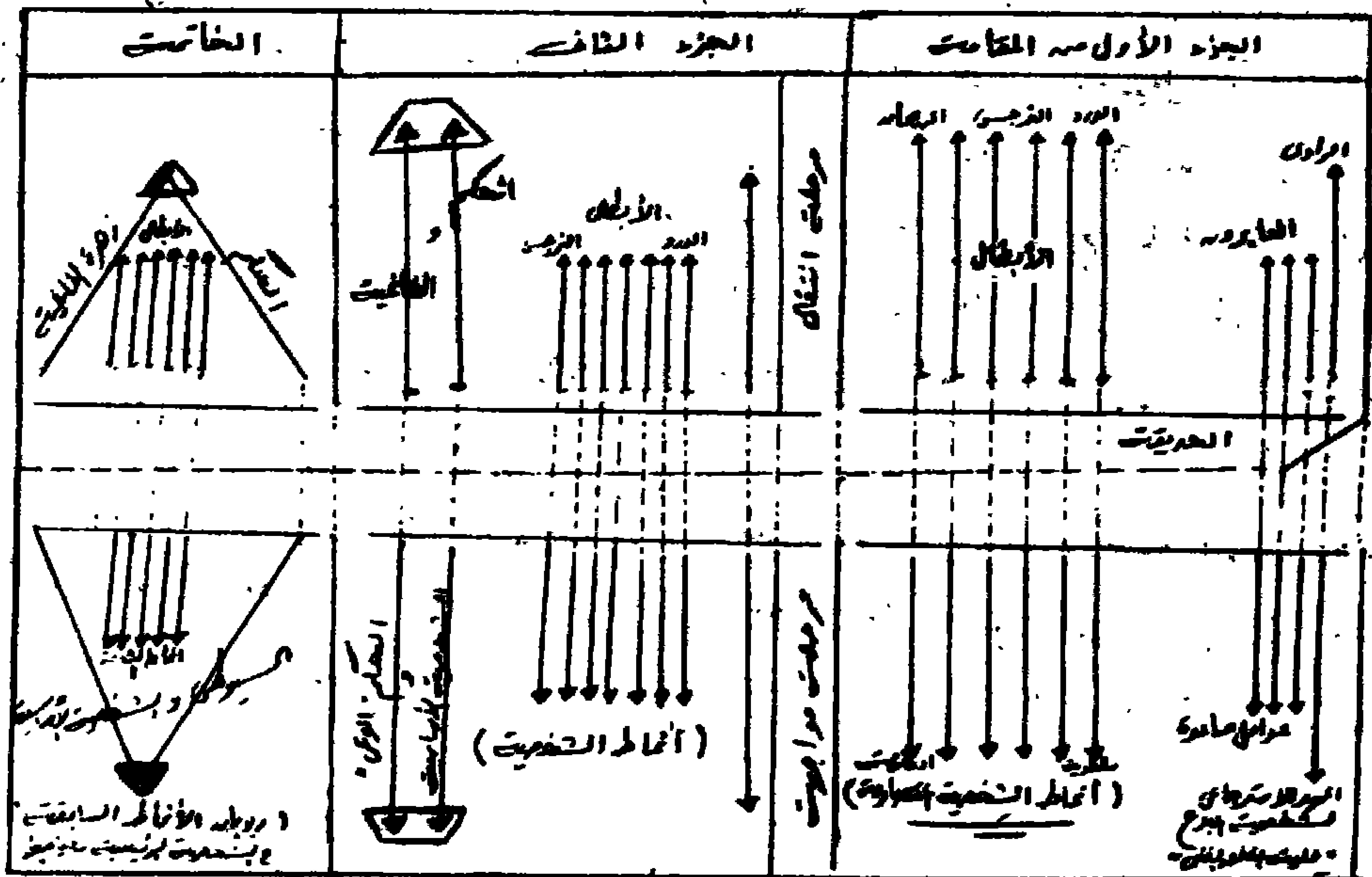
وإذا جوزنا لأنفسنا أن نسرح المشهد الأول : نراه يتمثل فى « الراوى » ذى السند

---

(١) نرى ما يراه مترجم « الحُبْكة » أن استعمال الحُبْكة أدق من « العقدة » ، راجع ذلك ص ٣٩ الحبكة لاليزابث بل – ترجمة د . عبد الواحد لؤلؤة . دار الرشيد للنشر – بغداد – ١٩٨٢

(٢) السابق ص ٢٩ .

المعنعن الذى يسترجع لنا الفعل أو الحدث ، وهو أحد أبطال الحكاية الثانويين فيتواجد هذا « الراوى » على أرض المسرح « الحديقة » ، ويستشعر أن هناك شيئا ما يحدث ، فيسأل بعض الناس « ما الخبر ؟ » فأخبره بنأ مناظرة عنيفة بين الرياحين « الأبطال » لإجراء انتخابات الرئاسة بينهم ، فيجلس ليشهد ما سيحدث ، ودارت المناظرات والحوار الشديد اللهجة بكل ألوان الفخر والهجاء فيما بينهم حتى انتهى المشهد بحديث آخرهم هجوا وافتخارا .



شكل تقريبى يوضح المعادل الموضوعى لمجموعة الأشياء والوجدان المراد التعبير عنه فى الوردية .

فتبدأ المقامة بهذا النص :

« حدثنا الريان ، عن أبى الريحان ، عن أبى الورد أبان ، عن بلبل الأغصان ، عن ناظر الإنسان عن كوكب البستان ، عن وابل الهتان قال » :

والسيوطى المحدث يعزف سلامة العنعنة فى الحديثى المعنعن خشية أن يتهم بالانقطاع أو التدليس بأنواعه ، وليس الأمر هنا حقيقيا ، بل هو تخيلى جملة وتفصيلا ، فالراوى لم

يكن فلانا ، إنما هو « الريان » ، ولم يستخدم صيغة الجزم أو التمريض إنما استخدم تدليس العطف بـ « حدثنا » وهو يحدثنا نحن حينما نقرأ « حدثنا الريان » ... » .

فـ « حدثنا الريان » تعنى تشخيص الكائنات غير الإنسانية أيا كانت ، وجها بوجه وبكل الحواس مع الإنسان ، وهذا أول خيط يربط بين وجدان الفنان ، والجسم الذى عادل به وجدانه ، المراد التعبير عنه .

ونظرة إلى رواة الإسناد هنا ، تجد أن الرواة ليسوا من جنس واحد بل من كل أجناس المخلوقات فها هو « الريان » يروى عن « أبى الريحان » فالريان يروى لنا عن « أبى الريحان » والريحان نبات أضيف إليه كنية مجازية تطلق على الإنسان ، و « أبو الريحان » هذا يحدث عن « أبى الورد أبان » وهو نبات أضيف إليه كنية ولقب و « أبو الورد أبان » يحدث عن « بلبل الأغصان » والبلبل حيوان مقرون ببيئته ، والبلبل يحدثنا عن « ناظر الإنسان « فيحل صفة للإنسان نيابة عنه ، وناظر الإنسان يحدثنا عن « كوكب البستان » وهى استعارة ضمت الجماد والنبات معا ، وكوكب البستان يحدثنا عن « وابل الهتان » أى المطر المتدفق أو الماء وإن استخدم كناية عنه مشتقين ، الأول اسم فاعل والثانى صيغة مبالغة ، وهذا الوابل الهتان قد « قال ... » .

أرأيت أن إسناد السيوطى المعنعن المتصل لم يكن راووه من جنس واحد ، بل إن الرواة السبعة - ولا ندرى هل عمد إلى ذلك الرقم أو لا - من كل أجناس المخلوقات إنسانا ، وحيوانا ، ونباتا ، جمادا .

ولم لا نقول بأن الرواة تبادلوا حواس الإنسان المقصوده السمع - النظر - اللمس ، فى إطار من صوت وحركة ولون ، ليعلنوا استرجاع حدث ما .

ولابد للحدث من زمان ومكان يكون إطاراً مناسبا للحالة العامة للفكرة ، يستطيع الحدث أن ينمو بمراحله الأولى من خلاله ، فتتطور مشاهدة المُشَاهِد تطورا طبيعيا إزاء ما يبصر ، وما يحس فيقع القاسم المشترك بين المشاهد بين ما يعرض عليه من جذب وائتلاف قدر ما يملك الفنان من حرفية الإيصال .

وهنا يحاول الراوى أو المهد الاسترجاعى لشخصية « البدع » « السيوطى » أن يكون محير ارتكاز لعملية الخلق الفنى لحبكة المقامة ، مستندا على زمان للحدث مجهول « مررت يوما » وله فى ذلك دلالة مقصودة ، إذ أن الحدث لا يمكن تحديده زمنيا ، لأنه يدور فى خاطر مبدعه لا أمام ناظريه حقيقة أو سماعا أو قراءة « كحدث تاريخى » .

ويحاول كذلك أن يأتى بمكان مناسب لحالة الفكرة العامة، تتفق والسياق الشكلى للمقامة أو لمجموعة الأشياء التى أمامه ، مضيفا لهذا المكان - من خلال الوصف - خلفية عامة لجزئيات المكان ، مضمنا إياها فى الجانب الآخر وجدانه الراد التعبير عنه حيث يقول « مررت يوما على حديقة ، خضرة نضرة أنيقة ، وكوكبها أبدى بريقه ، ذات ألوان وأفنان ، وأكمام وأكتان » .

وكأن السيوطى أراد بهذا الوصف أن ينقل لنا لحظة الخلق الفنى لحدث المقامة أو خلق وجدانه حيا ، فنرى وعيه الكامل أو وجدانه يعيش لحظة من الصفاء والحسن « خضرة نضرة انيقة ، ... » ويبدأ هذا الوعى أو الوجدان بأبعاده الكلية نحو التجسد والسفور ، تقول المقامة « وإذا بها أزرار الأزهار مجتمعة ، وأنوار الأنوار ملتمعة ، وعلى منابر الأغصان أكابر الأزاهر ، والصبا تضرب رؤوسها من الأوراق الخضر بالمزاهر » .

ويزداد تجسيد الوعى أو الوجدان ميلاً نحو الوضوح والتفسير من خلال هذا الراوى وسؤاله المارة عما يحس به محاولا - بعد هذا الوتر الذى يستشعره - تفريغ طاقته شكلا ومحتوى ، تقول المقامة « فقلت لبعض من عبر ، ألا تحدثونى ما الخبر ؟ فقال إن عساكر الرياحين قد حضرت ، وأزاهر البساتين قد نظرت لما به نضرت » .

وبدأ هذا الوعى الكامل أو وجدان المبدع مرحلة حساب مكوناته ، كل بما له وما عليه وكأنه أراد لنفسه أن يدير شريط مكوناته أمام وعيه الكامل دونما تدخل منه مباشر ، تقول المقامة « واتفقت - أى الأزهار - على عقد مجلس حافل ، لاختيار من هو بالملك أحق بكافل ، وهما أكابر الأزاهر قد صعدت المنابر ، ليبدى كل حجته للناظر ، ويناظر بين أهل المناظر ، فى أنه أحق أن يلحظ بالنواظر ، من بين سائر الرياحين النواضر ، وأولى بأن يتأمر على البوادى منها والحواضر فجلست لأحضر فصل الخطاب » .

ودور الراوى هو أن ينقل لنا ما يشاهده وكذلك وعى السيوطى أن يترك هذه الأنماط التى ستراها تمثل أنماطا للشخصية البشرية فى الإنسان ، تتصارع وتتنازع ، يحاول كل نمط أن يغرض منزلته كيما يفوز بإدارة هذا الملك « الإنسان » بواديه وحواضره ، وليتركن السيوطى مجموعةَ هذه الأشياء أو الأزهار لتتنازع ، ما يحلو لها التفاخر والمباهاة والادعاء ، بما ملكت وعالم تملك ، وليتركن السيوطى وجدانه يعبر عن أنماط الشخصية التى عرفها أو مسته مسا ثقيلا أو خفيفا ، ممثلة بعض مكوناته الثانوية كما سيتضح من المقامة ، التى ستظهر لنا - فى الخاتمة - شخصيته الجوهرية التى استطاعت أن تتراس

سلوكه وفكره ، ونرى قبيل ذلك ارتضاء هذه الأنماط إمارة الشخصية الجوهرية عليهم ، بل وذوبانهم فيها .

وأمام وعى السيوطى الكامل ، الذى ترك هذه الأنماط يبدى كل مالديه ، يكون أول مناظر أو مطالب بحقه الادعائى « الورد » .

ويقينا قد آمنا أن من يملك القوة الحسية هو الراغب - دائما - فى الاستئساد السلطوى وامتلاك المنصب الأسمى الذى من خلاله يدير المُلك بأمزجته ، ومكوناته ، ولذلك كان الورد أول متحدث أو مناظر يطلب انتخابه ملكا ، لأن مكوناته الشخصية تؤهله لهذه السيادة ، وما فطرت عليه تؤذن له بذلك .

فالورد يبهر جميع الحاضرين - فجأة - بقوته ويظهر عليهم بما يملك من ملامح عامة التى يعكسها إعجابه « بإشراق صورته وإفراق صولته » ويعلن للناس أحقيته بإدارة هذا « المُلك » .

ولنتأمل مقدمة خطبة الورد يقول :

« أنا الورد ، ملك الرياحين ، والوارد منعشا للأرواح ومتاعا لها إلى حين ، ونديم الخلفاء والسلاطين ، المرفوع أبدا على الأسرة لا أجلس على ترب ولا طين ، والمظاهر لونى الأحمر على أزهار البساتين ، والأشرف من كل ريحان فخرا ، بأنى خلقت من عرق المصطفى وجبريل والبراق ليلة الأسرا ، والمظفر بقوة الشوكة والصولة ، والمنصور على من ناوأنى لأنى صاحب الدولة ، والعزيز عند الناس ، والمودود بين الجلاس للإيناس » .

فالورد أو الشخصية السلطوية السياسية يعلن بصراحة أنه ملك ، ينعش الأرواح وهو متاع لها إلى حين ، لا يصاحب إلا الخلفاء والسلاطين ، استقراطى المنشاة والحياة مرفوع أبدا على الأسرة لا يجلس كما الورى على « ترب ولا طين » .

وملامحه الجسمية تعكس ذلك ، فلونه أحمر بفعل الغذاء الملوكى ، والصحة المرعيَّة ، فضلا عن ذلك ، فحسبه قد أسس على ذلك فانه أُوجِدَ ليلة الإسراء وهذا الحديث ، وكل الأحاديث - وهى فى الأغلب ضعاف -- لابد أن تُفَسَّر نشأتها بين الناس وعلاقتها بالموروث الدينى والفكر العربى ، عموما فإن هذا الحديث الذى يفسر خلق الورد يعكس دلالاتٍ كثيرةً تعضدِ ما ذهب الورد إليه ، الذى يؤيد أهليته لأن يكون ملكا قوله « والمظفر بقوة الشوكة والصولة » ويزيد على ذلك تأييدا لمنطق رهبوته قائلا « والمنصور

على من ناوأني لأني صاحب الدولة » وهو لذا - كما يرى « العزيز عند الناس » معتقدا بأنه « المودود بين الجلاس للأيناس » . ثم يذكر « الورد » بعد ذلك مدى حاجة الناس إليه من خلال منافعه الطبية التي ما من شئ يعوزه الانسان ليرأب صدعا ما إلا ويجده في « الورد » .

والحق يقال إن ذكر المنافع الطبية لكل متنازع ليس في هذه المقامة فحسب بل وعند كل المتنازعين في هذه الفئة من مقاماته ، قد أغرقه السيوطي في الوضوح والمباشرة ، ولم يترك لنا أبعادًا رمزية فيها ، إلا أنه باحتطابه للمنافع الطبية في هذه الأشياء التي يعرف بعضها ، والباقي ترك لخياله إن لم نقل لخزعبلاته - لو قصدنا الطب فقط - العنان يضطرنا لأن نظن أنها دلالات لأشياء أخرى لن نشعف في إخراجها ، لأننا لا سنتطيع ذلك افتراضا أو ظظنا أو تأويلا .

بيد أننا نرى أن المنافع الطبية المباشرة التي ترد على ألسنة المتنازعين في هذه المقامة - اختصارا - طاقات كل متنازع أو كل شخصية ، تبين مدى حاجة الناس إليها . ، ويستطرد الورد في كشف عناصر شخصيته يقول « بعد أن يحمل فوائده بقوله » « فيه مآرب كثيرة لذوى الحاجات : « وأنا مع ذلك جلد صبار ، أجرى مع الأقدار ، إذا صليت بالنار » .

والعبارة تشير إلى صفة تتوفر عند أهل الملك ، وما يلقونه من نوازل ، ويعضد الورد منزلته مشيرا إلى أن طوائف الملك يجمعهم شكل ومحتوى واحد ، فهم أقرب إلى بعضهم البعض من أية طائفة أخرى ، فالورد -- وهو ملك - يسانده أمير المؤمنين المتوكل كما ساند النعمان الشقائق حتى اقترنت باسمه ، وكأنه هذا تقليد من الخلافة بالملك على سائر الرياحين ، فيذكرنا الورد بحقيقة توريث الخلافة والسلطنة لابنه من بعده ، ويذكر بعد ذلك بعض أشعار تؤيده وتذكرنا بقوته يقول الورد « وقد حمانى أمير المؤمنين المتوكل كما حمى الشقائق النعمان ، وهذا تقليد من الخلافة بالملك على سائر الريحان ، ولى من بينهم ابنٌ يخلفني في الحكم إذا غبت طول الزمان .. » .

ولا *تكتمل لدينا صفات هذه الشخصية السلطوية « الورد »* إلا بشقها الثاني ، وهو ذكر عيوبها التي لابد أن تأتي على لسان منافسه « النرجس » الذى قام ورمى الورد بالأحداق ثم قال « لقد تجاوزت الحد يا ورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أن لك بحمرتك فخرة فإنها منك فجرة ، قال النبي (ﷺ) إن الشيطان يحب الحمرة ،

فإياكم والحمرة ، وكل ثوب ذى شهرة .. » وذكر بعض عيوبه الطبية ، واستطرد قائلا عنه « النائم بلا انتباه .. أتغتر ببردك القشيب ، وأنت الجالب للمشيب ، فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا أكسر بقائم سيفى شوكتك ، واستشهد بقول للرومى يذمه .

إذن فهذه مكونات تلك الشخصية التى أسقطها السيوطى فى « الورد » شخصية ابتغت كرسى السلطة لها وطرا ، وقد وصفت نفسها جيدا ، مستخدمة معجم المملكة « ملك - خلفاء - سلاطين - الأشرف --- المظفر - الشوكة والصولة - المنصور -- صاحب الدولة -- العزيز - الخلافة - ابن يخلفنى فى الحكم واصفة هيئتها المرفوعة أبدًا على الأسرة التى لا تجلس على ما يجلس - عادة - الناس عليه ، ولونها الأحمر ، مبينة قوتها » المرفوعة أبدًا على الأسرة التى لا تجلس على ما يجلس - عادة - الناس عليه ، ولونها الأحمر ، مبينة قوتها « المظفرة بقوة الشوكة المنصور على من ناوأنى لأنى صاحب الدولة ، مبرزة طباعها « وأنا مع ذلك جلد صبار أجرى مع الأقدار إذا صليت بالنار « موضحة أن فيها مآرب كثيرة لذوى الحاجات » مذكرة إيانا بحقيقة معروفة فى الخلافة « ولى ابن يخلفنى فى الحكم إذا غبت طول الزمان » ، ومن جانب آخر يعاب عليه بأنه مغرور ديكتاتورى « تجاوزت الحد ، وزعمت أنك جمع فى قرد » ، وافتخاره بلونه الملوكى إنما حذر الرسول التفاخر به ، وهو مع بعض منافعه فأنه يضر ، ويعاب عليه أنه ينام بلا انتباه ، لا لأنه صاحب القوة ، ويامن نفسه من الأنواء إنما هى عدم حيطة واحتراس وعدم تقدير للأشياء فى زمن لابد له فيه من أن يكون متوجا محتاطا ، ويعاب عليه أنه يفتن بمظهره الفاتن وهو مع ذلك يشعل الناس شيبا وكبرا ، ولذا فإن النرجس يحذره ويلزمه الصمت وإلا يكسر بسيفه قوته ويعلن هو أحقيته بالملك والرئاسة بما تلك شخصيته من صفات .

ويبدأ النرجس أو الشخصية الثانية فى عرض ملكاتها وطاقاتها ، وما تختص به من صفات فيقول النرجس مقارنا نفسه بسلفه « ولكن أنا القائم لله فى الدياجى ، الساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تطرق أحداقى وأنا مع ذلك المعد للحروب ، المدعو عند تزاحم الكروب ، ألا ترى وسطى لا يزال مشدودا وسيفى لا يبرح مجردا وأنا فريد الزمان فى المحاسن والإحسان ... » .

فنحن أمام شخصية تحاول أن تتراس الأقوام بمظاهرها الحسنة عبادة ومعاملة فهى تقوم لله فى الظلام ، تسهر الليل فى عبادة الله ، ومن جهة ثانية فانها المدعية لمناصرة

المسلمين والذب عن حياضهم عسكريا أمام محاولات الأعداء ، ملبية الغوث عند حلول الحروب والكروب وصاحب هذه الشخصية جندى كامل ، هيئةً وسلاحاً » ألا ترى وسطى لا يزال مشدودا .. » وإن عيب عليك ذلك .

ومن هاتين الصفتين الأساسيتين « جهاده الدينى والعسكرى » جمع الحسن صفة وسلوكا فهو جميل حتى تشبه به الملاحة ، والمعروف فى مهمات الأدواء بالصلاح ، ينفع غاية النفع ، ويذكر منافعة الطبية مبينا حاجة الناس إليه ، ثم يوطد شخصيته بحاجة البشر إليه بمشاعر الوجدانية ، ولأنه ذريعة للتوبة والغفران لما يصدره الإنسان من سلوك شائن يقول النرجس « ولولا اشتهارى بالنفع من الجوى ، ما أكثر النحاة التمثيل بقولهم نرجس الدوا ، ومن الدليل على صلاحى ، أن أبا نواس غُفِرَ له بأبيات قالها ففى امتداحى ... « ثم ذكر الأبيات ، وبعض الشعر الذى يؤيده وينفى عن الورد فضله الذى زعم .

ولا تكتمل جوانبه النرجس إلا بذكر عيوبه التى ذكرها الياسمين الذى قام فقال « لقد تجبست ياجبس ، وأكثرك رجس نجس ، وأنت قليل الحرمة ، وأسمك مشمول بالعجمة ، وكيف تطلب الملك وأنت بعد قائم مشدود الوسط فى الخدمة ، رأسك لا يزال منكوس وأنست المهيج للقيء المصدع من المحرورين للرءوس ، تسقط الجنين ، ولا ترثى للحنين ، أصفر من غير علة ، مكسو أحقر حلة .. » .

فصورة النرجس أو الشخصية الثانية التى يعرضها السيوطى بكل ماليها وما عليها ، تطلب الملك بما جمعته من خصائص وسمات تجمع ، الجهاد الدينى لعبادة الله والجهاد العسكرى فى سبيل الله وادعت المحاسن والمنافع ، لكنها من جانب آخخر عرفنا أن فيها جبنا ، ونجاسة وعدم ائتمان ، ذلك لأنها وافدة من جنس غير عرى ، فضلا عن ذلك فإن صاحب هذه الشخصية معد لأن يكون مرءوسا لا رئيسا ، خادما لا مخدوما ، يوضح ذلك رأسه المنكوس ، ولونه المصفر الذى يرى مشمرا – دائما – ساقه قائماً على خدمة « الورد » مذلولا عليه عمائم كعمائم اليهود .

وواضح تأثر هذه الشخصية التى رسمها السيوطى « فى النرجس » بما قد تشربته طبيعتها من فئة معينة داخل المجتمع العربى ، هذه الفئة التى تدعى الخلافة ، متظاهرة بالدين ، والقوة الجهادية مع أنها غير قادرة على ما تدعى فهى مذلولة قليلة الحرمة غير عربية مشمولة بالعجمة أسما وكنها .

فهذه الشخصية التى ألم بها السيوطى من خلال إسقاطه إياها على النرجس لا يمكن أن تنال الملك ، وإن كانت لها بعض المآثر الدينية لأنها تزعم الجهاد العسكرى وقد كتب عليها غير ذلك لعدم وجود قوة ، ووجه حق ، وإن ما تفعله هو محاولة من محاولات « المملوك » لأن يتسيد ربه « العربى » ظانا بأنه يملك أكثر ما يملك سيد البيت باسم الدين والدفاع عنه .

وكأن السيوطى أراد أن يوضح لنا أن الشخصية التى حاولت التوفيق بين طبيعتين استندت – دون تأصيل – على ما فى المسلمين من صور خيرة ، ولكنها مزجت بما هو وافد من عادات قبح مستوردة غير عربية ، لا يمكن أن تناله فى سويدائه مشكلة إياه حسبما يشاء لها التشكيل .

ويأتى المتنازع الثالث أو الشخصية الثالثة التى تعتمد فى حياتها على المظاهر الحسية للإنسان فى الحسن والبهاء يقول « الياسمين » بعد أن عاب سلفه » ولكن أنا زين الرياض ، والموسوم فى الوجه بالبياض والبياض شطر الحسن كما ورد ، وأنا ألطف ورد جاءَ بردّ ..... » .

ويعضد نفسه بإظهار الفرق بينه وبين النرجس عطرا وطبا ، ثم يقول « ويقول لى لسان الحال لست الهزيل مقاما ياسمين ، ويشهد لى لسان الألثغ بأنى الدر الغالى إذا قال ياثمين » .

وهذه الشخصية التى ترى الحق فى الملك من خلال هذه الصفات قد جانبها الصواب فيها تدعي وهذا ما أغضب « البان » عليه وقال للياسمين » .. لقد تعديت ياياسمين طورك ، وأبعدت فى المدى غورك ، وكونك أضعف الكون ، وكثرة شمك تصفر اللون ، وإذا سحق منك اليابس ورضّ ، وذرَ على الشعر الأسود أبيض ، وإذا قسم أاسمك قسمين ، صار مابين بأس ومين ، وإن ذكرت نفعك ، فأنت لا تساوى جمعك .. » .

فليس لصاحب هذه الشخصية التى تدعى أن الحسن والجمال واللطف وبعض المنافع التى تنفع إن لم تضر حق التسيد والخلافة لأن هذه الأشياء ليست جوهرية ، وجعلها جوهرية ضرب من الزلل ، ونوع من الفجور .

بيد أن المتنازع الرابع « البان » أو الشخصية التى تدعى بالحسب والنسب والمكانة أصلًا وفرعًا يجد أن له الحق – إذن . أن يؤهل لنفسه ملكا ، يقول « البان » ولكن أنا

ذو الأسمين والظافر من الأصل والفرع بالقسمين ، والقَريب من الباز ، والمضروب بقدى المثل فى الاهتزاز ، أزهارى عالية ، وأدهانى غالية ... » .

ولكن هذا التفاخر محض ادعاء بكشفه لنا « النسرين » الذى يذكر لنا أن الياسمين أخوة يقول السيوطى « فقام النسرين بين القائمين منتصرا لأخيه الياسمين وقال : أتتعدى يابان على شقيقى ، وأين الفرا من المذهب والدبيقى ، وكيف يفاخر البلور ، من هو مشبه بذنب السنور ألم يعرفك الحال قول من قال .

لله بستـــان حللنـــا دَوْحَـــهُ في جنـــةٍ فُتّحتْ أبـــوابُهـــا
والبانُ تحسبه سنـــانيراً رأتْ بَعْضَ الكلاب فُنفشّتْ أذنابُها

فأنت تلاحظ أن « النسرين » دافع عن أخيه « الياسمين » مهاجما « البان » موضحا الفرق بينهما ، وإذا كان « البان » قد جمع منزلة الحسن والمظاهر الجمالية الحسَية ، فإن « النسرين » ، مع احترامه لأخيه « الياسمين » ومهاجمته لمن ظن أنه يمتلك حق الملك « بالأصل والفرع رأى أنه بما يملك الأجدر لهذا ، أفليس المال من فضة وذهب كافياً لأن يهبه هذا الحق يقول النسرين « ولكن أنا زين البستان ، وفى من الفضة والذهب لونان .. » ويذكر بعض منافعه الطبية ، ويستشهد بقول من قال فيه :

ما أحسن النسرين عندى وما أملحــه مــذ كــان فى عينى
وهــو إذا مــا أنـــا صحفّتــه وجــدتــه بشــرى ويســرينِ

لكن الذهب والفضة لا ينفعان لكى ينال بهما هذا الحق ، لذا فإن « البنفسج » يهاجمه وقد التهب ولا حت عليه زرقة الغضب وقال « أيها النسرين لست عندنا من المعدودين ، ولا فى العلاج من المحمودين ، لأنك حار يابس أنما توافق المبرورين ، ولا تصلح إلا للمشايخ المبلغمين ، وأنت كثير الإذاعة فلست على حفظ الأسرار بأمينٍ ....» فإنه لا يصلح لكل الأحوال ، ولا يعد مطلبا أساسيا إلا للمسنين صحة وعجزاً ، فضلا عن أنه يسبب الفتن بين الناس – بما ينقله من أسرار إلى قوم ، ويحدث الفتن الطبيقية فيما تؤول .

أما البنفسج فإنه يمثل الذات البديعة ، ذات الصفات الحسنة ، والمنافع الكثيرة الموارد منها ما يسكن به القلق ، وينوم أصحاب الأرق ، وهو حسن الفأل بديع الجمال من رآه آذن بالانشراح وتفاءل بالانفتاح ، يقول البنفسج « ولكن أنا اللطيف الذات ، البديع الصفات ، ومنافعى كثيرة الموارد ، ...... ، .... وكفانى فخرا بين الإخوان ، ما روى سيد

ولد عدنان ، أن دهنى سيد الأدهان ، بارد فى الصيف حار فى الشتاء فهو صالح فى كل زمان ، وذلك لأنه يسكن القلق وينوم أصحاب الأرق ، ... ، ومنافعى لا تحصى ، وما أودعه خالقى فى لا يستقصى ، وبى تعطر الجيوب ، ويشبه عذار المحبوب ، وأنا مع ذلك حسن الفأل ، بديع الجمال ، من رآنى آذن بالانشراح وتفاءل بالانفتاح » .

وكأننا بشخصية تداوى الورى نفسياً ، فهو يسكن القلق وينوم أصحاب الأرق ، وبه يتفاءل الناس ، ويؤذن لها بالانشراح ومتابعة الحياة بكل تفتح ولكن هذه الشخصية النفسانية الاجتماعية والمصلحة الوجدانية لا يمكن ان تنال إدارة هذا الملك لأن بها – مع حسناتها – عيوبا ، يكشف لنا تلك العيوب « النيلوفر » الذى « قام على ساق وحشد الجيوش وساق ، وأنشد بعد إطراق :

بنفسجُ الروضِ تاه عجباً وقال طيبى للجوّ ضمّخْ
فأقبل الزهرُ فى احتفالٍ والبانُ من غيظهِ تنفّخْ

ثم قال أيها البنفسج بأى شئ تدعى الإمارة ، وتطاوع نفسك والنفس أمارة ، وأكثر ما عنك أنك تشبه العذار والنار فى الكبريت ، وحاصل هذين يرجع إلى أشنع صيت ، وما من نفع ذكرته عنك إلا وأنا أفعل مثله وأكثر وأنا حريٌّ بسلامة العاقبة منك وأجدر .. » .

ثم يقول « وقد كفانا الورد مؤنة الرد عليك ، وحذرنا من القرب منك والإصغاء إليك فقال :

أعلىَّ يفتخر البنفسجُ جاهلًا وإلىَّ يُعزى كلُّ فضل يبهرُ
وأنا المحببُ للقلوب زمانه وبمقدمى أَهْلُ المسرّةِ تَفْخرُ

وقال الحاكى عن الورد الباكى :

عانيت وَرْدَ الروض يلطُم خدّه ويقول وَهْو على البنفسجِ محنقُ
لا تقربوه وإن تضوّع نشره ما بينكم فهو العدوُّ الأَزْرقُ

ولعلك لاحظظت أن لترتيب استشهاداته الشعرية دلالات معينة ، ففى الشاهد الأول ضرب « النيلوفر » بالبنفسج البان ، فما لبث أن ضرب فى الشاهد الثانى ، بالورد البنفسج ، فما لبث أن وضح لنا – فى الشاهد الثالث – صرخة الورد من النفسج ، إذ هو عدو أزرق مهما أبدى من خير ومنافع .

أما « النيلوفر » فقد اعتمد فى حديثه على منافعه وكثرة عطائه ، وأن له مماثلا يشابهه فى التكوين لا فى التلوين يحدث عن الطباق النيل معروف أيضا بعطائه يسمى « البشنين » .

لكن هذا النيلوفر » يتجاوز الحد بهذا التفاخر حينما يطلب المُلْكَ ، فإنه يقلل الغريزة الحسية عند الناس ، ويجلب صفة الشيخوخة للإنسان فى صباه ، وأنه قاتل للذات منغص على المتزوجين عيشهم الهنى ، وقد جاء هذا على لسان نده « الآس » حيث يهجو قائلا » ألست المضعف للباه ، الجالب للإنسان صفة الشيخوخة فى صباه ، وتنغص على المتزوجين عيشهم الهنى » .

وكأننا بالنيلوفر أمام شخصية لا تعرف الا العمل ، وبذل الجهد والعطاء العضلى على حساب حاجاته الوجدانية ، ورغباته البشرية ، فهو يسم محيا صباه وطراوة العمر بميسم الشيخوخة ويفتت هناءة المتزوجين ، وغير ذلك ، أما « الآس » فينقل لنا حجج حقه لهذا الأمر فيقول :

« ولكن أنا أحق بالملك بالحجج المبينة ، فقد أخرج ابن أبى حاتم وابن السنى عن ابن عباس أول شيء غرس نوح الآس حين خرج من السفينة ، وهذه حجة على الاستحقاق قوية ، لأن للأولية نوعا من الأولوية ، ثم يعتضد هذا القياس ، بما أخرج ابن السنى وأبو نعيم عن ابن عباس قال : أهبط آدم من الجنة بسيد ريحان الدنيا الآس ، وهذا نص قاطع للالتباس .... » .

فهذه شخصية تقوم عناصرها على الحق المثيولوجى لبيان قيمتها الدنيوية ممثلا فى أول شيء غرسه نوح وهبوط آدم به ، لذلك فإن هذا العنصر الأساسى لهذه الشخصية المتفاخرة بالموروث القديم كان محك هجاء « الريحان » له موضحا له ولنا أن صاحب هذا العنصر قد نهى المصطفى (ﷺ) عن استخدامه تقول المقامة « فقام الريحان ، وقال يا آس لأجرحنك جرحا ماله من اس ألم يرد فيك عن طرق الأئمة الأعلام ، عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه نهى عن التخلل بك والاستياك لأنك تسقى وتحرك عروق الجذام .

وإذا كنا قد عرفنا أن الآس وهو يمثل الأصالة المتقوقعة داخل التفاخر الفج فإن الريحان يذكر قائلا .. « فأنا المنوه باسمى فى القرآن فى قوله تعالى فروح وريحان ، وإن كان الجنس فى الآية المراد ، فقد قصر هذا الأسم على العرف قصر إفراد . وقد ورد فى

الصحيحين عن سيد بنى كنانة مثل الفاجر الّذى يقرأ القرآن مثل الريحانة « فإن الريحان يمثل نقيض سلفه التى لا تقوم شخصيته على أسس بينة ، فقد يتضح هذا من رد الآس عليه إذ يقول « ياريحان ، أتريد أن تسود ، وأنت مشبه بهامات العبيد السود ، .... » .

وهنا ينتهى المشهد الأول من المقامة وقد أفرغ المرشح الا نتخابى كل ضروب الإعلان لبيان شخصيته ، ومنزلته ومنافعه ، وتبقى اللحظة الدقيقة ، أيهم سيرضى عنه ، وأيهم سيفوز بالمكانة التى حلم ، وبالمنصب الذى أمل .

ولما كان هؤلاء المتنازعون مثل المرشحين فى إطار انتخابات شرعية صحيحة ، ما على الشعب الواعى إلا أن يقول كلمته الفاصلة ، ويفوز من كان أهلا ، وجدوا أنفسهم فى حاجة لمن يمثل دور الشعب الواعى لأن ينهى عملية الانتخابات ، وإعلان النتيجة عليهم .

وقد كان هؤلاء المتنازعون من الكائنات غير الإنسانية ، وقد تناظروا فيما بينهم لإظهار من هو بالملك أحق وكافل وأن يتأمر البوادى من البسيطة والحواضر ، فمن ذا الذى يقوم بدور المحايد الواعى ، لكى يفصل بينهم بالقسط والعدل .

وحيث أن هؤلاء المتنازعين من الأزهار قد رسموا لنا أنماط الشخصيات التى يعرفها المجتمع ، كل شخصية منهم حاولت أن تأخذ مكانتها الأسمى فى الوجود حقا وادعاء ، وحيث أن السيوطى قد اختبر هذه الشخصيات ، وتشرب وجدانه طبائعها بمالها وعليها ، وعاشت فى خواطره انتظارا لأن تنتصر شخصية من تلك الشخصيات عليه ، فتشكل حينئذ - إياه وِفْقَ خصائصها قولاً وسلوكاً .

أمام هذا الصراع الداخلى الرهيب بين أنماط هذه الشخصيات وبين السيوطى ، كان حتما عليه أن يعلن على الناس عن شخصيته الجوهرية ، التى هى مرادف لاسمه ، ولا يستطيع أن يعلن ذلك إلا بعد أن يواجه هذه الأنماط التى تحيا داخله أمام وعيه الكامل الذى يمثل دور الشعب « الواعى » أثناء عملية الانتخابات الصحيحة حتى نهايتها .

ولما قلنا أن السيوطى كأنما أخرج هذه الأنماط المتصارعة من داخله ، ليبصر وعيه الكامل كلَّ شى ، ويزن هؤلاء المتنازعين ، كان حتما أن نتواجه هذه الأنماط للشخصيات المتنازعة مع وعيه هذا ، لتنال هذه الشخصيات هذا الإنسان المسمى بالسيوطى لتشكل

فكره وسلوكه ، لذا فإن المتنازعين قد ارتضوا ما أشير عليهم بأن يقصدوا إماما حاكمًا ليفصل فيما هم متنازعون عليه .

وقد أوضحنا فى الفصل السابق من هو « الحكم » فى هذه المقامة الذى كان مرحلة من مراحل السيوطى لإعلان شخصيته من الرمز فالإسقاط حتى إحلالها فى « الأنا » .

وبينا أن السيوطى قد أسقط على « الحكم » فى هذه المقامة الجوانب الكلية لشخصيته من خلال مصادر ثلاثية .

فنحن إذن أمام مشهد رائع وطريف تتواجه هذه الأنماط للشخصية التى تحيا فى وجدان السيوطى أمام وعيه الكامل المتمثل فى حصاد عمر صاحبه فكراً ومنهجاً ، هذا الوعى الكامل « الحكم » يقول لهم « أيها الأزهار إنى لست كالذى تحاكم اليه العنب والرطب ولا الذى تقاضى إليه المشمش والنوت ولا التين والعنب ، إنى لا أقبل الرشا ، ولا أطوى على الخل الحشا ، ولا أميل مع صاحب رشوة ، ولا استحل من مال المسلمين حسوة ، إنما أحكم بما ثبت فى السنة ، ولا أسلسك إلا طريقا موصلا إلى الجنة » .

فهذا الحكم ينبه الأزهار بأنه ليس الذى تحاكم إليه العنب والرطب ، ... « فهل يقصد أنه لا يحاكم فى الأمور الواهية الصادرة من الواهين وما الأزهار إلا من هذا الجنس الذى انتفاه فى حديثه ، أم أنه لا يحاكم إلا فى أمور المسلمين المعضلة ، وما هم إلا صوراً حية لهذه الأمور وهذا بالفعل ما وضحه فى بقية حديثه « أنى لا أقبل الرشا ، ... » .

إن السيوطى أو الحكم يعادل بكل وضوح فى حديثه هذا طوائف المجتمع وصراعاتها نحو التسيد والتسلط الأرضى هؤلاء المتنازعين من الازهار نحو المُلك الذى يقصدون ، فيقف وعيه الكامل هذا أو حصاد عمره لأن يعلن موقفه إزاء مايرى ، فيفاجىء المتنازعين بالحقيقة التى غابت عنهم وهى عدم استحقاق أى منهم بالملك ، لأن كل متنازع أو كل شخصية من هذه ا لشخصيات غير جوهرية ، وغير سوية ، هذه الشخصية التى يرضى الله عنها ورسوله ، فيجزى صاحبها بها الخير ، كل الخير فى الدنيا والآخرة ، هذه الشخصية التى هى أحب الأنماط من الشخصيات إلى رسول الله ، وان صاحبها سيد أهل الجنة .

يقول الحكم مخاطبا هذه الأزهار أو نماذج الشخصيات « ليس أحد منكم مستحقا للملك ، ولا صالحا للانخراط فى هذا السلك ، ولكن الأكبر ، والسيد الأبر ، وصاحب المنبر ، ذو البشر الأعطر ، والقدر الأخطر ، السيد الأيدى ، الصالح الجيد ، من شاع

فضله وانتشر ، وكان أحب إلى سيد البشر ، واشتمل على مافى الرياحين من الحسنى وزيادة ، وحكم له النبى (ﷺ) بالسيادة وشهد له بها وناهيك منه بالشهادة ».

وقبل أن نعرض ما يورده السيوطى لهذه الزهرة الملكة ، نذكر بأن المحور الأساسى لبيان منزلة كل هذه الكائنات غير الإنسانية فى مقاماته هى مقدارها عند رسول الله سواء كان حديثا أم مأثورًا نبويا أو غير ذلك وأعلى الدرجات - بداهة هنا - من كان حديثا صحيحا ثم الأقل من ذلك حسنا أو سندا مرفوعاً موقوفاً أو مقطوعا وغير ذلك مما يعرف فى علم الحديث .

وقد أشار السيوطى كثيرا إلى هذا المنهج ، وأرجع مثلا إلى حديثه عن « الزباد » فى « المسكية » فضلا على ذلك فلو تأملت الباب الذى ذكره السيوطى فى حسن المحاضرة عن الازهار[1] تجده يبدأ بالفاغية التى يقول عنها « هى نور الحناء ثم يذكر الحديثين » سيد الرياحين » و « كان أحب الرياحين »» وكأنها بهذا التعريف المختصر ثم الحديثين قد استحقت لأن تنال هذه المنزلة الرفيعة ، إذ أنه أفرد الصفحات لكل نوع من الأزهار ، ومع ذلك فقد رتب هذه الأنواع نفس الترتيب الموجود هنا فى المقامة .

فالحكم قد قرر أن « الفاغية » هى سيدة الرياحين ، لأن الرسول حكم لها بالسيادة ، وقد آثار القرار رغبة الرياحين فى التوضيح والتفسير وان صاروا مهيئين لما استشعروه . « فقالوا أيها الإمام أوضح لنا هذا الكلام ، وأرو لنا ما ورد عن النبى عليه السلام لنبلغ من اتباعه غاية المرام ، ونقطع الملام » .

تريد الرياحين أن يروى لها ما قاله النبى عن « الفاغية » فتؤمن بما تسمع قلباً وعقلاً فتتبع ما أمر به الرسول فيذكر الحكم بعض أحاديث رويت باسانيد عالية « سيد الرياحين فى الدنيا والآخرة الفاغية « سيد ريحان أهل الجنة الفاغية » وعن أنس « كان أحب الرياحين إلى رسول الله (ﷺ) الفاغية ، ثم ذكر منافعها الطبية وهى لا تمثل جديداً عما ورد لسابقيها .

---

(١) هو « ذكر الرياحين والأزهار الموجودة فى البلاد المصرية وما ورد فيها من الآثار النبوية والأشعار الأدبية والإشارات الصوفية» جـ ٢ ص ٤٠١ وما بعدها - وكنا نود أن نجد دراسة لما جاء عن الأزهار فى الأدب العربى ، دراسة تحليلية تفسر لنا أبعاد ما قيل عن الرسول ﷺ صحيحا وموضوعا عن الأزهار ، وتفسر لنا هذه النقائص الممتعة التى تنشأ بين الشعراء حول الأزهار فى تفضل هذا على ذاك واستحسان تلك على هاتى التى . ربما . يرجع إلى طبائع شخصياتهم ومدى ائتلافها بنوع ما من الأنواع ... » .

والجدير بالملاحظة هنا أن السيوطى يستخدم للفاغية أو الحناء ضمير المذكر تارة وضمير المؤنث ثم قال فى نهاية حديثه وأنا القائل فيه لأوصله حقه وأوفيه :

كانما دوحة الحناء إذ فُتحتْ أنوارُها وبدت فى عين مرتقبِ
عروسُ حسنٍ تجلّت فى غلائلها خضرا وقد حُليّتْ باللؤلَوِ الرطبِ

وننبه أيضا إلى أن السيوطى لم يقل شعراً قط فى هذه الفئة من مقاماته إلا هذين البيتين فقط . ولم يبق من هذا الحدث إلا نهايته التى تقول :

« قال فلما سمعت الرياحين هذه الأحاديث فى فضله أطرقوا رؤوسهم خاشعين . وظلت أعناقهم لها خاضعين ، ودخلوا تحت إمرته سامعين طائعين ، ومدوا أيديهم له مبايعين بالإمرة ومتابعين ، وقالوا لقد كنا قبل فى غفلةٍ من هذا إنّا كنا ظالمين وتواصوا على إشاعة ما فضله الله به وقالوا لا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين » .

الخاتمة

وبعد ، فإننا نأمل أن نكون قد قدمنا دراسة نقدية مترابطة الأجزاء ، متكاملة العناصر حول أدب السيوطى ، غير المعروف أديبا لدى جمهرة باحثيه ، دراسة اكتشفته أديبا يرتفع إلى مصاف أدباء العربية الأعلام بإنتاجه الأدبى الوفير ، وقيمته الفكرية والفنية التى مثلت تميزا وإبداعا ليس بغريب على السيوطى كما عرفه باحثوه فى فنون موسوعيته المتعددة .

ولقد ألزمنا ذلك بأن ندفع أدب السيوطى هذا إلى النقد القديم والحديث والعلوم اللغوية والإنسانية الحديثة ، ليمكننا من الغوص فى شخصيته هذا الإمام الأديب ، لنعود حاملين لؤلؤا مكنونا ، وشعائب ، وما علقهما من وحل وطحالب .

لذلك تناولنا فى مقدمة الرسالة النقدية ضرر اتجاه الدراسات الأدبية والنقدية – وإن اتخمت نظريا – شطر عصور الأدب العربى المزدهرة ، لتبقى عصور الأدب العربى اللاحقة عرضة لثلة باحثين ، هوّن أكثرهم فى طرح هذه العصور ، فتسردبت هذه العصور ، نسيا وتناسيا جهلا وجحودا ، وهى الأقرب – بفكرها – فى تشكيلنا الحديث فى نواح كثيرة ، وأبعاد شتى لولا أساتذة مخلصون يدفعون بأبنائهم ليتبصروا آداب هذه العصور ، متلافين هذا النقص البين لتبدو دراستنا الأدبية والنقدية أوفر حظًا فى مواكبة تطورات العصر نحو التقدم والرقى الإنسانى والحضارى .

ثم بينا فى المقدمة أن إحالة الدرس النقدى على أدب السيوطى ، ضرب من المغامرة ، فأى أدب ذاك الذى يدرس للسيوطى ، وهو غير معروف فى هذا الشأن لدى أكثرية باحثيه ، فوضحنا أن السيوطى وإن كان مشتهرا كأعجوبة مصر فى أواخر عصرها المملوكى شخصية ، وعلوما ، ومؤلفات إلا أن بعض الأباطيل لاحقت الرجل ، وإن كان صفة السيوطى إماما مجدد قد أصابت شخصيته الأدبية ، تعتيما أو تناسيا من أصحاب المصادر ، أو عدم معرفة أو إلماما مسطحًا ، وجهدًا ضئيلًا لدى أكثرية أصحاب المراجع الحديثة ، وقد أطلق بعضهم – ممن لهم جهود أخرى يستفاد بها – أحكاما ، قد تسرى فى الناس رؤيا يصعب زوالها ، وهى أحكام تبين للبحث ، أنها عارضة ، باهتة المحتوى ،

وذلك ما كشفه استقصاؤنا لحظ السيوطى الأدبى من خلال مؤلفاته المطبوع منها - على كثرته ، والمخطوط - على كثرته أيضا ، وما تحملنا فيهما من جهد جمع وتتبع وقراءة ، وتفهم لنستطيع بهم أن ندرس أدبه - وهو جدير بهذا - دراسة نقدية .

ومن ثم فقد جعلنا هذه الدراسة فى تمهيد وأربعة أبواب ، ينقسم كل باب منها إلى عدة فصول وقد احتوى التمهيد شقين :

كان الشق الأول عن « موسوعية السيوطى وحجمه الأدبى فيها » فأشرنا إلى أشهر موسوعى العسر المملوكى ، الذى كان السيوطى أغزرهم كما وكيفا ، فتحدثنا عن الأسباب التى أهّلت السيوطى موسوعيا ، والاختلاف على عدد مؤلفاته عند السيوطى نفسه ، والقدماء والمحدثين ، وقدمنا تفسيرنا فيه ، لنتكلم عن قضية التشكيك فى قيمة مؤلفاته عند معاصريه حتى المعاصرين ، لنبين - منتصفين للسيوطى - منهجه ، وأحكام التأليف كما رسمها هو ، وإن كان فى عدد من مؤلفاته جماعا مختصرا ليس إلا .

ثم تحدثنا عن فنون السيوطى الموسوعية ، ودرجاتها ، ومقداره فى العلوم والفنون التى أجادها « القرآن - الحديث - الفقه - علوم اللغة - التاريخ » ثم الأغراض المتنوعة التى ركزنا فيها الحديث حول مؤلفات السيوطى فى الجنس ، مفندين ما قيل عن هذه المؤلفات ، وماهية المؤلفات التى رجع عنها ، مقدمين ثبتا لمؤلفات السيوطى فى الجنس والباه .

ثم بسطنا الحديث عن السيوطى وفن الأدب لديه ، فعرضنا جهود الباحثين أدبيا ، لنتبين أن كل هذه الجهود - مع احترامنا لكاتبيها - لا تفى بحق السيوطى الأديب - وإن كان أكثرها لا يعدو إشارة عارضة يتأذى بها حق السيوطى أذى بينا .

لذ قمنا بإعداد ثبت لأعمال السيوطى الأدبية : « أعمالا شعرية ومنظومات ، وشعرا تعليميا وأدبا إنشائيا ، وأدبا وصفيا » من مؤلفات السيوطى الضاربة رقما قياسيا ، مطبوعة ومخطوطة فى خزائن الكتب المصرية ، وقد بلغ تعداد مؤلفاته الأدبية هذه التسعين مؤلفا ورسالة ، لايزال أكثرها مخطوطا وإن فقد بعضها ، وربما يعثر عليه ، لأن مؤلفات الرجل نالت شهرة واسعة ووفرة فى النسخ فى حياته .

وتحدثنا فى الشق الثانى عن المستوى الأدبى فى عصره ، فأشرنا إلى رؤية المؤرخين عن هذا العصر ، وبحوثهم ذاكرين بعض الظواهر الأدبية موضحين حتمية دراسة أدب هذا العصر وظواهره بما يتفق والدراسات والعلوم الإنسانية الحديثة ، لنلم بشعر هذا

العصر وأشهر الشعراء والنثر وفنونه وأسلوب الكتاب تمثله الباحثون ، تاركين دراسة أدب السيوطي تقرر حق ماذهب إليه الباحثون أو خطأه .

ويجيئ الباب الأول : « مصادر الإبداع الفنى عند السيوطى » منقسما إلى ثلاثة فصول : كان الفصل الأول عن « بيئة السيوطى الكبرى » لنتبين أثرها على تكوينه الأدبى من خلال ست نقاط وكانت الأولى عن البيئة الطبيعية والموقع الجغرافى ، فرأينا تأثيرها على أدبه موضوعات ولغة وخصائصا أسلوبية ، ثم تحدثنا عن الاتجاه الثقافى ، مبينين أثر الصبغات العلمية والفلسفية والدينية ، ومدى علاقته بوصفه إماما أدبيا بهذه الصياغات قبولا أو رفضا ، ثم تحدثنا فى النقطة الثالثة عن العوامل السياسية التى سادت مجتمعه القومى والعربى ، وموقف السيوطى من سياسات عصره وسياسييه ، ومدى مواكبة موسوعيته عامة ، وأدبه خاصة لهذه العوامل السياسية ، وأردفنا بالعوامل الاقتصادية العوامل السياسية وموقف السويطى من هذه النظم السائدة ، موضحين أثر هذه العوامل على صاحب الطاقات سلبا وايجابا ، ثم تحدثنا عن الحالة الاجتماعية ورؤية السيوطى لها ، وما صحاب ذلك من تأثير وتأثره مُنْطَلِقاً من خلال عزلته وترفعه عن التنظيم الاجتماعى إلى النفاذ والتأثير ، موضحين فى النقطة الأخيرة أن مستوى تقدم الحضارة ينطق – آنذاك – من نظرة علماء الدين عامة ، والسيوطى خاصة إلى الرجوع إلى الإسلام . وعلومه الدينية .

واستعرض الفصل الثانى : « بيئة السيوطى الصغرى » من خلال أربع نقاط .

الأولى عن بيئة السيوطى الخاصة ، فتحدثنا عن السيوطى « ابن الكتب » وعن سمات أبيه والوصى عليه وأشرنا إلى أمه وزوجه وبنيه وخدمه . ثم تحدثنا فى النقطة الثانية عن شيوخ السيوطى وشيخاته وأثر خصال شيوخه على سماته ، ثم فصلنا القول عن معاصريه وعلاقته بهم . فتحدثنا عن معاصريه من الأدباء والشعراء ، ثم عن مهاجميه وفصلنا أسباب ذلك . ودور شخصية السيوطى فى هذه المواقف عارضين موقفين للسيوطى من مهاجمته . يمثلان صورة حية لمفهومه لبعض مكونات شخصيته ، وكذلك تحدثنا فى هذه النقطة عن مدافعيه وأصدقائه من الشعراء والأدباء ، وختمنا هذا الفصل بالحديث عن تلاميذه . ووضوح فكره على بعض مؤلفاتهم .

وكان الفصل الثالث عن المكونات الشخصية ، ففصلنا القول عن مكونات شخصيته – وإن كان أكثر البحث يكتشف هذا النطاق – موضحين العلاقة بين مكوناته

الشخصية ومفهومه للإبداع عامة ، والإبداع الفنى بصفة خاصة ، وكيفية أثر هذه المكونات على إنتاجه الإبداعى من خلال مفهومه للدين والأدب ، ومفهومه للإبداع والسلفية فى فنونه الأدبية ، وفصلنا الحديث عن مفهومه للإبداع الفنى داخل شعره التعليمى ، واشارة موجزة عن خصائصه الفنية .

أما الباب الثانى فكان عن شعر السيوطى ، محتويا مدخلا وفصلين وملحقا .

وجاء المدخل « مصادر شعر السيوطى » عن سؤال مطروح - بداهة - « أين شعر السيوطى » وقد ذكر أن له ديوانين ، وقد زاد بعض الناس ديوانا ثالثا ، وقد أكدنا - بما لايقبل الشك - خطأ نسبة هذا الديوان إلى صاحبنا ، أما ديواناه « حديقة الأديب » وهو الكبير فإنه لايزال من كتبه المفقودة ، والثانى « نور الحديقة » وهو مختصر الأول ، فقد استطعنا العثور على نسخة منه فى دار الكتب ، فوصفنا هذه النسخة ، ومن ناحية أخرى قد قمنا بجمع أشعار له تفوق عشرات المرات حجم هذا الديوان من مؤلفاته - عموما - مطبوعة أو مخطوطة ، ليتسنى لنا - بعد ذلك دراسة شعره .

وقد تحدث الفصل الأول عن موضوعات شعره ، فتحدثنا عن كل موضوع وبينا أرتباط شخصيته بكل فن من هذه الفنون التى طرقها وهى « الهجاء » ذاكرين فيه أن فن الفخر لديه منضم تحت طى هذا الفن ، إذ أنه حمّل منظوماته التعليمية كل ضروب الفخر والثناء ، ثم تحدثنا عن الرثاء والمدح والمديح النبوى - الذم - وقضايا المجتمع ، والوصايا والحكم ، والوصف ، والغزل والغزل الحسى ، والألغاز والأحاجى .

وتحدث الفصل الثانى عن شعر السيوطى . دارسة تحليلية من خلال :

١ - شعر السيوطى فى ضوء مفهوم الوحدة العضوية ، مبينين أن الوحدة العضوية لم توجد إلا فى بعض قصائد له وإن كانت القصيدة - عموما - تفتقر إلى التكثيف ، وإن شعرنا بوجوده وحدة الموقف النفسى وتطوره .

٢ - شعر السيوطى فى ضوء علمى العروض والقوافى ، فاستعرضنا سمات أوزانه الشعرية تم القوافى ثم ذكرنا العيوب العروضية وأنواعها التى وقع فيها الشاعر وكذلك عيوب القوافى لديه . مما يشير إلى أن الإحساس الموسيقى لديه - وإن كان سيالا مرتجلا - قد زاحمته موسوعيته فضلا عن أسباب أخرى ذكرت ، وتحدثنا عن الضرائر الشعرية وهى ضرورات سائغة لا تستوحشها النفس ، ثم تحدثنا عن الجرس الموسيقى الذى حقق ببعضه نسقا ترتاح له الاذان ، والبعض الآخر أوقعه فى قبح بلاغى .

٣ – الصورة الشعرية فى شعره ، وكان خيال السيوطى فيه – بعكس نثره – محدودا ، محسوسا جامدا ، وفسرنا ذلك وتحدثنا فيه عن التشبيه والاستعارة والمجاز ... وأنواع بلاغية أخرى .

٤ – مفردات لغته الشعرية ، وكانت محدودة جدا تنحصر فى بيئتين لغويتين ، بيئة مائية زراعية حضارية ، وبيئة إسلامية .

٥ – ثم الاقتباس والتضمين من القرآن والحديث فى شعره لنجده مكثارا فيها بأنواعها ، يوطد بهما بعض مايريده وما يمر به .

٦ – شعره فى ضوء النظام النحوى والدلالى والتركيبى ، فوجدنا أن النظام النحوى يشير إلى أن الجملة فى شعره ، جملة حسنة ، مستقيمة أقرب إلى الجملة التعليمية مع وجود بعض الظواهر النحوية فى شعره ، وقد كان حظ مستوى شعره الدلالى بسيطا ، وجنح السيوطى فى شعره – كعامة شعراء عصره – إلى المباشرة والخطابية والنثرية ، وأساليب عامية ودخيل الألفاظ الاصطلاحية .

ونتهى هذا الباب بملحق عن شعر السيوطى عند المؤرخين والباحثين المحدثين ، فأثبتنا هذه الإشارات وتلك الجهود .

وقد جعلنا الباب الثالث عن نثر السيوطى فى فصلين :

جاء الفصل الأول تحت عنوان « مقامات السيوطى ، دراسه فى الموضوع والشكل » ، فبدأناه بنبذة تاريخية عن المقامة وشكلها وموضوعاتها كما جاء عن الهمزانى والحريرى ، ثم ألممنا بالمقامة وأعلامها وما أصابها من تغيرات حتى انتهينا إلى مقـامات السيوطى ، لنستعرض كم مقاماته كما عرفه الباحثون المعاصرون والمؤرخون ، لنجد لزاما علينا أن نستقصى مقامات السيوطى ، وقمنا بإعداد ثبت بمقاماته فى ضوء ما هو مطبوع وما هو مبعثر فى دور المخطوطات وخزائن الكتب المصرية وقد اجتاز عدد هذه المقامات الأربعين مقامه ، ثم تحدثنا عن جهود الباحثين حول مقامات السيوطى سواء فى مقاله أم فى تضاعيف بحث ، لنقوم – بما نملك من مقامات ، نحو الثلاثين مقامه قمنا بجمعها – بدراسة الموضوعات التى طرقها السيوطى فى مقاماته ، فكانت على النحو الآتى « مقامات الموازنات – مقامات ذاتية – مقامات جدلية – أحداث عصره – مقامات وصفية – مقامات تعليمية » .

وقد درسنا كل قسم من هذه الموضوعات ، وما يحتمل من تقسيمات داخلية

ثم قمنا بدراسة مقاماته من ناحية الشكل والأسلوب ، فقسمناها إلى ستة أقسام فرضتها العناصر الشكلية لمقاماته ، فبدأنا بالمقامات التقليدية ، موضحين بالمقاربة نقط التقاء بين السيوطي ورائدى المقامة العربية ، ثم المقامات التقليدية المجددة ، ثم المقامات المجددة ، ثم المقامات الرسائل ، ثم المقامات البحوث ، وقد تتبعنا فى هذه الأقسام الستة رحلة السيوطى فى الإمساك بالفن المقامى عند رائديه ، مضيفا وحاذقا بعض عناصر المقامة حتى تحولت فى نهاية الأمر إلى محاضرة سيوطية ، هو راويها ، وبطلها ، وقصتها ...

وأخيرا ننهى هذا الفصل بأثر مقامات السيوطى بالمقامين اللاحقين حتى مطلع هذا القرن . وكان الفصل الثانى عن فنونه النثرية الأخرى ، فبدأناه بالرحلات ، وقد وضعنا حقيقة تائهة نصب العيون ، وهى أن السيوطى لم يرحل قط إلى هذه البلاد الشتى كما التبس ذلك على باحثيه ثم أشرنا إلى أدب رحلاته الداخلية ، ثم تحدثنا عن فن الرسائل والمكاتبات الأدبية ، فعرضنا ثلاث رسائل له لنتبين أسلوبه فيهم ، ثم قمنا بدراسة استقصائية لنوعيات مقدمات كتبه ، لنوضح منهجه وأسلوب فى خطبه الكتاب لديه . وقد فعلنا هذا الشيىء فى بقية فنونه النثرية الأخرى (فى الموازنات الأدبية ، الحكم والأمثال والمواعظ والخطب والترجمة الأدبية والألغاز) .

ويجيىء الباب الأخير من دراستنا النقدية عن « السيوطى وأدبه فى دراسة من الداخل » محتويا ثلاثة فصول :

كان الفصل الأول عن « شخصية السيوطى من خلال الدرس اللغوى الحديث لأسلوبه » فتحدثنا عن حتمية تطبيق علم اللغة على أدب السيوطى ، لنرى مدى مواكبة ظواهر أسلوبه اللغوية بشخصيته ، فتحدثنا عن الجوانب الصوتية وتنوع الجمل فى أسلوبه ، وظاهرة تتابع الأفعال وارتباطها بحالة خاصة من حالات السيوطى النفسية ، وكذلك ظاهرة تتابع الصفات ، لنفصل القول فى ظاهرة توظيفه للنظم القرآن فى أسلوبه مع الاحتفاظ بشخصيته فيه ، ثم بشخصيته ، إنطلاقا من أن أسلوب المرء هو الإنسان بعينه . وانطلاقا من شخصية السيوطى النرجسية . فقد جعل أسلوبه مرآة تعكس هذه الشخصية . واستفاده من مستويات التحليل اللغوى على الأدب ، وجدنا ثمة ظواهر يتسم بها السيوطى فى هذا الصدد .

فكانت النغمة الصوتية العامة المنبعثة فى أسلوبه تراعى مقتضيات المقام السيوطى

وغير السيوطى وتتبعنا ظاهرة الأفعال المتتابعة وارتباطها بحالة خاصة من حالات السيوطى النفسية ، وخاصة الغضبة السيوطية هجاء وسخرية ومفتخرا ، وكذلك ظاهرة الصفات المتتابعة ، ثم درسنا ظاهرة توظيفه للنظم القرآنى فى أسلوبه مع الاحتفاظ بشخصيته فيه ، ورأيناه مدى تأثر ذاكرة السيوطى « الواعية » فى اختزان الهندسة القرآنية ، والتراكيب اللغوية للتأليف القرآنى لتنسج على شاكلتها وتصوغ على منوالها عباراته وكلماته ، بحيث تبدو قوة وأصالة شخصيته فى المواءمة بين التركيب وغرضه الذى يبتغيه والموقف الذى قيل فيه ، وإن غالت ذاكرة السيوطى فى اختزان النظم القرآنى سواء كان مفتخرا أم هاجيا ، وإن وفق - إلى حد ما - وهو مبتعد عن هذين الغرضين .

ثم تحدثنا عن ظاهرة المجاورات اللغوية التى تعكس مفارقة الاستخفاف بالذات أو مفارقة الكشف عن الذات ، ثم تحدثنا عن ظاهرة عن ظاهرة الجمل الشعرية فى نثره وكذلك الدخيل والمولد والعامى فى أسلوب ودلالة استعماله .

وتتقدم بنا الدراسة نحو الاستفادة من العلوم الإنسانية الحديثة ليقدم الفصل الثانى من هذا الباب « تحليلا تفسيرا لشخصية السيوطى الإسقاطية فى فنه المقامى لنتحدث عن مفهوم الإسقاط فى الأدب ، والتحليل التفسيرى للشخصية الاسقاطية ، ثم أبعاد شخصية البطل عند كل من الهمزانى - الحريرى - السيوطى . لنتكلم عن شخصية السيوطى الاسقاطية فى مقاماته « المكية - الأسيوطية - الوردية - المسكية - الفستقية - الزمردية - الياقوتية - التفاحية » ، التى أعلن فيها السيوطى عن الأنا صراحة ، ويكشف لنا الفصل - من جانب ثان - لماذا تحولت المقامة لديه إلى أنواع أدبية أخرى ؟ .

وكان الفصل الأخير عن شخصية السيوطى فى ضوء المعادل الموضوعى لإحدى مقاماته - وقد كلفنى - هذا الباب - عموما - جهدا فرضه على السيوطى وأدبه فرضا ، لنجيب على السؤال تخيلناه وهو « هل يمكن أن تدرس مقامة للسيوطى « الوردية » فى ضوء المعادل الموضوعى وقدمنا كل عائق - افترضناه - يحول دون ذلك ، لنجد أنفسنا مستطعين الرد على ذلك .

وقد كان لزاما علينا أن نوضح الفروق التى تميز طبيعة عناصر المقامة لدى رائد المقامة والسيوطى ، لنتحدث بعد ذلك عن الرمز والتشخيص والأنا - كمدخل تمهيدى لهذا

التحليل فى مقامة السيوطى « المسكية » وتحليل تلك المقامة من خلال الأبعاد الثلاثية ، لنفصل القول فى أبعاد مقامته « الوردية » ، وأحساس السيوطى المراد التعبير عنه ومجموعة الأشياء المعادلة لهذا الإحساس ، ثم قمنا – بعد ذلك – بتقديم تفصيل المعادل الموضوعى فى هذه المقامة الذى رأينا صاحبنا يعادل بالأزهار أنماط الشخصية الإنسانية كما عرفها ، ليقدم لنا الإمام – بعد ذلك – شخصيته المعادلة فى هذه المقامة .

وبعد ، فإننا نعتقد بهذه الدراسة ، قد تبين للقارئ الكريم كثرة النتائج الممتدة بامتداد الموضوعات الكثيرة التى طرقتها الدراسة ، التى دارت حول أكتشاف السيوطى أديبا فى كافة نواحيه ثم معرفة شخصيته من خلال ما قدم الرجل من أدب ، معتمدين فى هذه الدراسة على الاستقصاء والاستقراء والاستنباط مستفيدين من علوم النقد قديمه ، وحديثه ، والعلوم اللغوية ، والإنسانية المعاصرة .

وأننا نتقدم بسؤال ننبه به القارئ ، فحواه إذا كان السيوطى الذى لم يكن معروفا أديبا ليس عند عامة الناس فحسب ، بل عند جمهرة باحثيه ، قد استطاع أدبه الوارف كمًا ، الممتد إبداعا أن يتصدى للمفاهيم النقدية واللغوية والعلوم الإنسانية الحديثة ، فإلى أى حد وقع فيه المؤرخون لهذا العصر حينما قالوا ما قالوه ، على نحو ما وضحنا فى الشق الثانى من تمهيد الرسالة ؟! .

وإننا – فى نهاية الدراسة – نرفع بعض التوصيات التى فوضت إلى علمائنا المخلصين ، أساتذة ومسئولين .

ومن هذه التوصيات :

١ – نَسْخ مالحق بالرجل من أباطيل وأوهام مبثوثة فى الناس والمؤلفات التى ذكرناها فى مواضعها ومنها ما أتفق فيه – وَهْمًا – كل باحثيه ، مثل ما قيل عن رحلاته الخارجية .

٢ – إعداد ترجمة ودراسة سيكولوجية منفصلة عنه ، تعد مفتاحا ، يدخل به الدارسون إلى موروثه الموسوعى العظيم ، وما خالطه من غث ، تفسر – مثلا – كثرة استشهاد السيوطي بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ ، وهو صاحب « الآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » عموما لكيلا يظل موروث الرجل أرجوحة بين آيات التبجيل وسهام الأذى دونما تقنين علمى .

٣ – القيام بإعداد ببيبوجرافيا لمؤلفات السيوطى ، سيُرى فيها عجب – يثير

الحزن – عن المؤرخين والباحثين وما داخلهم من سقط وتهافت ، ويثبت لها ما ألفه السيوطى ، تزيل هذا البون المريع على عدد مؤلفاته التى تروا حت بين ٣٠٠ إلى ٧٠٠ مؤلف ورسالة .

٤ – القيام بجمع أعمال السيوطى الأدبية الكاملة وتحقيقها ، وإخراجها للنور والناس على نحو ما قدمنا من ثبت لهذه الأعمال فى الشق الأول من تمهيد الرسالة ، ويقينا سوف يتضافر الدارسون المحققون على هذه الأعمال ، وسيشغل السيوطى الأديب حيزا – هو أهل له – فى حجم دراساتنا الأدبية المعاصرة .

٥ – إن موروث هذا الرجل مايزال موزعا مابين مطبوع على أكثره ، ومخطوط ، أكثر المطبوع منه يتعاطاه التجار المرتزقة ، دونما تحقيق ، مما يضرًّبه ، ويبعد – للأسف – الدارسين من عطاء صاحبنا ، أما المخطوط فإن أكثره موجود – بنسخ وفيرة – تضمه خزائن الكتب فى بقاع العالم ...

لذا فإننا نوصى بإعادة طبع مؤلفات الرجل محققة – وإن كنا نستثنى بعض المؤلفات التى قدمها المحققون الموثوق فيهم ، كى يشعر السيوطى ساعة أن يحتفل بمرور خمسة قرون على وفاته ببعض حق ، ومجد أنفق فيه طاقاته حتى غدا أعجوبة إسلامية فى أواخر العصر المملوكى .

٦ – القيام بدراسة مستقصاة متقنة عن النقائص الأدبية والدينية التى كانت بين المعسكر السيوطى والسخاوى ، مع إلقاء الضوء الكافى على أفراد هذين المعسكرين والنواحى الأخرى الخاصة بهما .

٧ – إعادة تأريخ هذا العصر أدبيا بما يتفق وجهود علمائه ، غير المعروفين أدبيا – والمعروفين الذين لا يزالون منتظرين الباحثين ، مع الإشادة بأدب السيوطى وقيمته ومحددات شخصيته فى المؤلفات التى ظلمته ظلما بينا .

٨ – إعادة دراسة أدب هذا العصر وفكره بما يتفق والدراسات النقدية والفكرية الحديثة لنشرح هذا العصر الأقرب فى تأثيره علينا من أية عصور أخرى .

والله نسأل قصد السبيل ، وأن نكون قدمنا ما ينفع الدين والوطن عليه نتوكل ، وإليه ننيب .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر السيوطية :

(أ) المخطوطات :

** الاستنصار بالواحد القهار ، بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٢ مجاميع تيمور ، ومن هذا المجموع أيضا « الافتراض فى رد الاعتراض » و « التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » و « الدوران الفلكى على ابن الكركى » و « الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض » و « الفتاش على القشاش » و « الفوائد البارزة والكامنة فى النعم الظاهرة والكامنة » .

** بهجة الناظر ونزهة الخاطر بدار الكتب تحت رقم ٥١٢٤ أدب .

** التثبيت عند التبييت . بدار الكتب تحت رقم ١٤٦٤ تصوف وأخلاق .

** تحفة الأحباب فى منطق الدواب بدار الكتب تحت رقم ٣٦٠ الزكية .

** تنبئة الغبى بتبرئة ابن عربى تحت رقم ٢٩٢٠ تصوف : دار الكتب .

** الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة . بدار الكتب المصرية . تحت رقم ٤١٦ مجاميع . ومن هذا المجموع « درر الكلم وغرر الحكم » و « رسالة إلى ملوك التكرور » و « الصواعق على النواعق » و « الفاشوش فى أحكام قراقوش » .

** ديوان السيوطى المسمى « نور الحديقة ونور الطريقة » بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٢ مجاميع .

** رسالة فى فضل الشتاء . بدار الكتب تحت رقم ٢٣٢١ حديث .

** رسالة فيما ورد عن الأخبار والآثار فى المواعظ والحكم تحت رقم ١٥١٥ حديث .

** رسالة مشتملة على قصة جرت بين السيوطى وبين رجل من أهل التصنع والإلحاد بالاتحاد تحت رقم ٢٥٠٠ تصوف ، وتحت هذا الرقم أيضا « قطف الثمر من موافقات عمر » و « قلايد الفوايد » .

** شرح نظم البديع فى مدح خير شفيع تحت رقم ١٢٨٧ « تيمور » .
** شقائق الأترنج فى دقائق الغنج . بدار الكتب تحت رقم ٣٤٩٠ .
** صاحب الذوق السليم والمسلوب الذوق . تحت رقم ٨٨ أدب تيمور .
** طراز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة . بدار الكتب تحت رقم ١٦٠٢٣ الزكية .

** فاكهة الصيف وأنيس الضيف . تحت رقم ٣٧٧ أدب تيمور .
** الفتح الجليل للعبد الذليل تحت رقم ٦٠١ الزكية .
** الفضل العميم فى أقطاع تميم . بدار الكتب تحت رقم ٣٩١ الزكية .
** فهرس مؤلفات السيوطى تحت رقم ١٩٨ مكتبات .
** قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض . بدار الكتب تحت رقم ٨٠ تصوف تيمور .
** الكاوى على السخاوى . بدار الكتب تحت رقم ٣١٩٩٠ عمومى ١٥١٠٠٠ خصوصى .

** مجلس الإملاء الحادى عشر تحت رقم ١٥٥٥ حديث .
** كوكب الروضة . بدار الكتب تحت رقم « ٢٢٤٩ ح » .
** مقامات السيوطى . تحت رقم « ٤٠٥ أدب » بدار الكتب .
** نزهة الجلساء فى أشعار النساء . تحت رقم ٨١٣ شعر تيمور .
** نزهة المتأمل وبغية المتأهل . تحت رقم ٩٤٢٤ .
** الوشاح فى فوائد النكاح تحت رقم ٥٠٨ أدب تيمور . تحت هذا الرقم « اليواقيت الثمينة فى مواصفات الثمينة » .

(ب) المطبوعات :

** الإتقان فى علوم القرآن . ط الرابعة « ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م » مصطفى البابى الحلبى .
** أسباب النزول . تحقيق وتعليق قرنى أبو عميرة . الناشر مكتبة نصر بالأزهر .

** أسباب ورود الحديث . تحقيق يحيى إسماعيل أحمد . طبعة أولى ١٩٨٤م . دار الكتب العلمية - بيروت .

** إسعاف المبطأ برجال الموطأ . مكتبة الحلبى . الطبعة الأخيرة « ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م » .

** الأشباه والنظائر فى قواعد وفروع فقه الشافعية . ط إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبى .

** الأشباه والنظائر فى النحو . تحقيق طه عبدالرؤوف سعد . مكتبة الكليات الأزهرية « ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م » .

** أصول الرفق فى الحصول على الرزق . ط المكتبة المحمودية التجارية بمصر بالأزهر بدون تاريخ .

** الإيضاح فى علم النكاح . طبع حجر ١٢٧٩هـ .

** بشرى الكئيب بلقاء الحبيب . ط الثانية « ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م » مكتبة الحلبى .

** البهجة المرضية فى شرح الألفية . ط المكتبة المحمودية التجارية بمصر « بدون تاريخ » .

** تقرير الاستناد فى تفسير الاجتهاد . تحقيق د. فؤاد عبدالمنعم أحمد . دار الدعوة طبعة أولى ١٤٠٣ - ١٩٨٣م .

** تاريخ الخلفاء . المكتبة التجارية الكبرى . الطبعة الرابعة (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) .

** تحفة المجالس ونزهة المجالس طبعة أولي سنة ١٩٠٨م . السعادة بمصر .

** تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى . حققه وراجع أصوله عبدالوهاب عبداللطيف الطبعة الثانية (١٣٩٩ / ١٩٧٩م) . دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

** تفسير الجلالين (المحلى والسيوطى) . ط محمد على صبيح .

** تناسق الدرر فى تناسق السور . دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا . ط دار الاعتصام ١٩٧٨م ، وقد عنونه المحقق بـ « أسرار ترتيب القرآن » .

** تنوير الحوالك على موطأ مالك . مكتبة الحلبى . الطبعة الأخيرة (١٣٧٠هـ / ١٩٥١م) .
** الجامع الصغير . ط الحلبى (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .
** جمع الجوامع « الجامع الكبير » ط أولى « مجمع البحوث الإسلامية » « ومايزال يصدر فى حلقات » .
** الحاوى للفتاوى فى الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون وهو يشمل على ٧٨ رسالة للسيوطى . مجلدان . ط دار الكتب العلمية - بيروت لبنان (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .

** الحبائك فى أخبار الملائك . صححه وعلق حواشيه أبو الفضل عبدالله الصديق . الناشر مطبعة دار التأليف . دون تاريخ .
** حسن المحضرة فى أخبار مصر والقاهرة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ط أولى « ١٩٦٧م - ١٣٨٧هـ » . دار إحياء الكتب العربية - عيسى الحلبى وشركاه .
** الدر المنثور فى التفسير بالمأثور . ط دار المعرفة - بيروت - لبنان .
** رشف الزلال من السحر الحلال . طبع حجر عام ١٢٩٨هـ .
** رصف اللال فى وصف الهلال . طبعة الجوائب - القسطنطينية عام ١٣٠٢هـ .
** شرح شواهد المغنى . تعليق أحمد ظافر كوجان .
منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - بدون تاريخ .

** شرح عقود الجمان فى المعانى والبيان . ط الحلبى ١٩٧٩م .
** طبقات الحفاظ . تحقيق على محمد عمر . ط أولى مكتبة وهبة (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) .
** طبقات المفسرين . تحقيق على محمد عمر ط أولى مكتبة وهبة (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) .

** عمل اليوم والليلة ط أولى « ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م » - الحلبى .
** المزهر فى علوم العربية وأنواعها . تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى . طبعة الثالثة - دار التراث .
** مقامات السيوطى . طبعة الجوائب بالقسطنطينية عام ١٣٩٨هـ .

** نظم العقيان فى أعيان الأعيان . تحقيق الدكتور / فيليب حتى . المطبعة السورية الأمريكية فى نيويورك عام ١٩٢٧م .

** الوسائل فى معرفة الأوائل – تحقيق سعد أطلس – بغداد – مكتبة النجاح بالزوراء عام ١٩٥٠ .

ثانيا : « مصادر عامة » :

(أ) المخطـوطات :

– السيد عبدالقادر العيدروسى « النور السافر فى أخبار القرن العاشر » بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٧٣٣ ح .

– عائشة الباعونية ديوانها المسمى « فيض الفضل وفتح الشمل » بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٨٤ أدب .

– عبدالوهاب الشعرانى « ذيل الطبقات الكبرى » بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٧٤ تاريخ تيمور .

– مجهـول « رسالة فى مناقب السيوطى » بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦٠٧ تاريخ .

(ب) المطبوعـات :

* الباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب) .
« إعجاز القرآن » . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف – مصر – ط الثالثة .

* البطليوسى (ابن السيد) .
« الحلل فى اصلاح الخلل من كتاب الجمل » . تحقيق سعيد عبدالكريم سعودى – دار الرشيد – بغداد ١٩٨٠م .

* الجاحـظ — (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)
« رسائل الجاحظ) تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون . الناشر مكتبة الخانجي – مصر ١٩٦٤م .

* الجرجانى — ■ أسرار البلاغة شرح وتعليق د. محمد عبدالمنعم خفاجي . الناشر على يوسف سليمان . طبعة أولى ١٩٨٢م .
ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى وعبدالقاهر الجرجانى . حققها وعلق عليها محمد خلف الله ، ود. محمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر – طبعة ثالثة ١٩٧٦م .

* ابن حجر العسقلانى — « طبقات المدلسين » – مراجعة طه عبدالرؤوف طبعة الكليات االأزهرية .

* الحريـرى — « مقمامات الحريرى » . طبعة مكتبة صبيح بالأزهر .

حمزة الاصبهانى — « الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة » . تحقيق عبدالمجيد قطامش. دار المعارف– مصر ١٩٧١م.

* ابن خلدون — « المقدمة » – طبعة كتاب الشعب .

* الأزدى — (على بن ظافر)
«غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات». تحقيق د. زغلول سلام ود. الصاوى الجوينى ط دار المعارف بمصر ١٩٧١م .

* ابن رشد — « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » تحقيق د. محمد عمارة . دار المعارف ١٩٧٢م .

* السخاوى — (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن)
« الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » عنيت بنشره مكتبة المقدس . القاهرة ١٣٥٣هـ .

الشعرانى (عبدالوهاب الشعرانى)
« الطبقات الكبرى » « لواقع الأنوار فى طبقات الأخيار » طبعة الحلبى ١٩٧٣م ١٩٥٤م . الطبعة الأولى .

* الشهاب الخفاجى « شفاء الغليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل » تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجى . مكتبة القاهرة طبعة أولى (١٩٥٢م) .

* الصنعانى (محمد بن إسماعيل الأمير اليمنى)
« سبل السلام بشرح بلوغ المرام » . تحقيق إبراهيم عصر - دار الحديث - ١٩٧٩م .

* العراقى (عبدالرحيم بن الحسين العراقى)
« فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » تحقيق محمود ربيع . ط دار الكتب السلفية بالأزهر - الطبعة الثانية ١٤٠٣ - ١٩٨٣م .

* ابن العماد (أبو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلى)
« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » . ط المكتب التجارى - بيروت .

* ابن عمر النووى البنتى (تنقيح القول الحثيث بشرح أسباب الحديث) للسيوطى . (الطبعة الرابعة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م . مطبعة الحلبى .

* ابن فارس اللغوى « ذم الخطا فى الشعر ». تحقيق د. رمضان عبدالتواب . ط الخانجى ١٩٨٠م .

* ابن الغراء « المذكر والمؤنث » . تحقيق د. رمضان عبدالتواب . الناشر دار الشرق ١٩٧٥م .

* القالى (أبو على القالى)
الأمالى . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

* قدامة بن جعفر « نقد الشعر » . تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجي الكليات الأزهرية — طبعة أولى ١٩٨٠م .

القيروانى (ابن رشيق القيروانى)
« العمدة » . تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد دار الجيل ١٩٧٢ . طبعة الرابعة .

المرشدى (عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد العمرى)
« شرح عقود الجمان فى المعانى والبيان » للسيوطى . مكتبة الحلبى . الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ - ١٩٥٠م .

المناوى (الإمام عبدالرؤوف المناوى)
« كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » . الطبعة الخامسة مصطفى البابى الحلبى ١٩٨٢م .

الهمزانى (بديع الزمان الهمزانى)
« مقامات الهمزانى » بشرح محمد محيى الدين عبدالحميد دار الكتب العلمية - بيروت .

يحيى بن ماسويه « كتاب الجواهر وصفاتها وفى أى بلد هى ... » تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

ثالثا : المراجع العربية :

* إبراهيم أنيس (دكتور)
■ أسرار اللغة - مكتبة الأنجلو . الطبعة السادسة .
■ موسيقى الشعر - مكتبة الأنجلو الطبعة الخامسة . ١٩٨١م .

* إبراهيم حمادة (دكتور)
مقالات فى النقد الأدبى . دار المعارف بمصر ١٩٨٢م .

* إبراهيم درويش « الصورة الشعرية فى البلاغة والنقد العربى القديم والحديث » رسالة ماجستير . دار العلوم ١٩٧٣م .

* أحمد صادق الجمال — « الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكي » رسالة ماجستير . كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٥٩م / ١٩٦٠م .

* أحمد عبداللطيف محمود الليثى — « النحو المنظوم بين ابن معط وابن مالك والسيوطى » رسالة دكتوراة مخطوطة . دار العلوم ١٩٨٢م . بالمكتبة المركزية لجامعة القاهرة .

* أحمد محمد شاكر — « شرح ألفية السيوطى فى الحديث » . طبعة دار المعارف ببيروت – دون تاريخ .

* أسامة ناصر النقشبندى — مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة – فى مكتبة المتحف العراقى . ط دار الحرية للطباعة بغداد – ١٩٨١م .

* إسماعيل باشا البغدادى — هدية العارفين فى اسماء المؤلفين وآثار المصنفين ط المثنى – بيروت – عن طبعة استنابول عام ١٩٥١م أوفست .

* البدراوى زهران — (دكتور)

■ عالم اللغة عبدالقاهر الجرجانى . طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٩م .

■ فى علم اللغة التاريخى . دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى . الطبعة الثانية – دار المعارف ١٩٨١م .

■ مقدمة فى علوم اللغة. دار المعارف–مصر–١٩٨١.

* تمام حسان — (دكتور)

■ الأصول دراسة أبيستيمولوچية للفكر اللغوى عند العرب . نحو / فقه لغة / بلاغة .

■ اللغة العربية معناها ومبناها . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .

* جابر عصفور (دكتور)
الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى . دار المعارف بمصر - ١٩٨ م .

* جابر قميحة (دكتور)
التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى . دار المعارف بمصر - ١٩٨٤ - ١٩٨٥م .

* حاجى خليفة كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون - طبعة المثنى - بيروت .

* حنا الفاخورى الحكم والأمثال - دار المعارف بمصر - ط الرابعة ١٩٨٠م

* خديجة الحديثى (دكتورة)
موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف دار الرشيد - بغداد - ١٩٨١م .

* خير الدين الزركلى الأعلام . مكتبة المثنى - بيروت - الطبعة الرابعة كانون الثانى - يناير ١٩٧٩م .

* زكريا إبراهيم (دكتور)
« مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية » مكتبة مصر ١٩٧٦م .

* سيد محمد غنيم (دكتور)
سيكولوجية الشخصية ، محدداتها ، قياسها نظرياتها . دار النهضة العربية ١٩٧٨م .

* شوقى ضيف (دكتور)
■ البلاغة ، تطور وتاريخ . دار المعارف - طبعة ثالثة .
■ الترجمة الشخصية . دار المعارف ط ٧ .
■ الرحلات . دار المعارف .
■ العصر العباسى الثانى . الطبعة الثانية .

■ عصر الدول والإمارات « مصر - الشام » دار المعارف ١٩٨٤م .
■ الفن ومذاهبه فى النثر العربى . الطبعة السابعة .
■ المقامة . الطبعة الخامسة .

* الطاهر أحمد مكى (دكتور)
■ الشعر العربى المعاصر .دار المعارف - بمصر الطبعة الثانية .
■ القصة القصيرة .. الطبعة الرابعة . دارالمعارف بمصر .

* طاهر سليمان حمودة
السيوطى اللغوى . رسالة دكتوراة « مخطوطة » بآداب الاسكندرية ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

* عبدالجبار المطلبى (دكتور)
مواقف فى النقد الأدبى . طبعة دار الحرية بغداد ١٩٨٠م .

* عبدالحليم محمد السيد (دكتور)
■ الإبداع . دار المعارف - مصر ١٩٨م .
■ الإبداع والشخصية . دار المعارف - مصر ١٩٧١م

* عبدالحميد أحمد جاد
(منهج النحاة العرب من خلال الاقتراح) رسالة ماجستير مخطوطة . دار العلوم ١٩٧٣م .

* عبدالرحمن عبدالرؤوف الجانجى
(المقامة والرسالة الأدبية) رسالة دكتوراة مخطوطة آداب القاهرة ١٩٧٤م .

* عبدالرحمن زكى (دكتور)
القاهرة وتاريخها وآثارها . طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ - ١٣٨٦هـ .

* عبداللاه محمود حسن
الإمام جلال الدين السيوطى أديبا . رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة اللغة العربية . أزهر - أسيوط ١٩٧٨م - ١٣٩٨هـ .

* عبدالمتعال الصعيدى — المجددون فى الإسلام . طبعة مكتبة الآداب بالجماميز .

* عبده عبدالعزيز قلقيلة — النقد فى العصر المملوكى . رسالة دكتوراة . دار العلوم ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

* عبدالوهاب حمودة — صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى . ط الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م .

* عدنان محمد سلمان — السيوطى النحوى . رسالة دكتوراة آداب القاهرة ١٩٧٠م .

* عز الدين اسماعيل — (دكتور) التفسير النفسى للأدب - مكتبة غريب . الطبعة الرابعة ١٩٨٤م .

* على صافى حسين — الإمام جلال الدين السيوطى . كتاب الجمهورية الدينى ١٩٧١م - ١٣٩١هـ .

* على الراعى — (دكتور) شخصية المحتال فى المقامة والحكاية ... كتاب الهلال العدد ٤١٢ .

* فاطمة محجوب — (دكتورة) دراسات فى علم اللغة - دار النهضة العربية ١٩٧٦م.

* كمال السامرائى — (دكتور) مختصر تاريخ الطب العربى . دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٤م .

* كمال محمد محمد موسى — العقيدة السلفية أصولها ، أعلامها . رسالة دكتوراة . دار العلوم ١٩٧٨م .

* مارون عبود — بديع الزمان الهمزانى . دار المعارف . الطبعة الخامسة ١٩٨٠م .

* مجموعة من الباحثين
جلال الدين السيوطى . بحوث ألقيت فى الندوة التى أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٦ - ١٠ مارس ١٩٧٦م . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* محمد حسين الذهبى
(دكتور)
التفسير والمفسرون ط الثالثة ، دار الكتب الحديثة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

* محمد رجب بيومى
(دكتور)
مواقف تاريخية لعلماء الإسلام . كتاب الهلال العدد ٢٠٢ رمضان ١٤٠٤هـ .

* محمد رشدى حسن
■ أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة . رسالة ماجستير . آداب القاهرة فرع الخرطوم عام ١٩٦٠م .
■ تطور فن المقامة العربية . رسالة دكتوراة . آداب القاهرة فرع الخرطوم عام ١٩٦٦م .

* محمد زغلول سلام
(دكتور)
الأدب فى العصر المملوكى . دار المعارف . مصر ١٩٧١م .

* محمد عبدالغنى حسن
(الحكم والمواعظ - دارالمعارف . الرابعة ١٩٨٠)

* محمد عبداللطيف حماسة
(دكتور)
النحو والدلالة - المكتب الإسلامى - ط أولى .

* محمد على رزق الخفاجى
(دكتور)
علم الفصاحة العربية - مقدمة فى النظرية والتطبيق دار المعارف - مصر - ١٩٧٩م .

* محمد غنيمى هلال
(دكتور)
النقد الأدبى الحديث . دار نهضة مصر ١٩٧٩م .

* محمد قنديل البقلى
الطربِ فى العصر المملوكى . سلسلة الكتبة الثقافية . العدد رقم ٣٨٩ .

* محمد كامل الفقى
(دكتور)
الأدب فى العصر المملوكى . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م .

* محمد المبارك عبدالله
الناقد الحديث فى علوم الحديث . طبعة محمد على صبيح بالأزهر . طبعة أولى ١٣٨١هـ / ١٩٦١ .

* محمد محمد محمد عامر
المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر دراسة دكتوراة مخطوطة . دار العلوم ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م .

* محمد مصطفى هدارة
(دكتور)
■ اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٧٠م .
■ دراسات فى الشعر العربى . تحليل لظواهر أدبية وشعراء . دار المعرفة الجامعية ١٩٨٣م .
■ مقالات فى النقد الأدبى . طبعة دار القلم بالاسكندرية عام ١٩٦٥م .
■ مشكلة السرقات فى النقد الأدبى ، دراسة تحليلية مقارنة . ط المكتب الإسلامية . الطبعة الثانية عام ١٩٧٥م .

* محمد مطلوب
(دكتور)
البلاغة والأسلوبية . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .

* محمود الربيعى
(دكتور)
فى نقد الشعر . دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة ١٩٧٧م .

* محمود رزق سليم
(دكتور)
■ أثر البيئة المصرية فى الشعر فى عصر المماليك . رسالة دكتوراة . دار العلوم ١٩٦٤م / ١٣٨٣هـ .

■ عصر سرطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى . طبعة دار الكتاب العربى ١٣٨١ .

* محمود عبدالسلام شرف الدين (دكتور)
الاعراب والتركيب بين الشكل والنسبة . دراسة تفسيرية . دار مرجان للطباعة . ط أولى ١٩٨٤م .

* محمود على السمان (دكتور)
العروض الجديد « أوزان الشعر الحر وقوافيه » دار المعارف - مصر ١٩٨٣م .

* محمود مصطفى
أهدى سبيل إلى علمى الخليل . طبعة محمد على صبيح (١٩٧٠م) .

* ميخائيل شارو بيم بك
الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث . المطبعة الأميرية ببولاق - مصر - طبعة أولى عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٨م .

* مصطفى إبراهيم حسين
رواية الأدب من القرن الرابع حتى نهاية العاشر رسالة دكتوراة . دار العلوم ١٩٧٥م .

* مصطفى الصاوى الجوينى (دكتور)
الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية فى القرن السابع الهجرى . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٠م .

* مصطفى الشكعة (دكتور)
جلال الدين السيوطى مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ط البابلى الحلبى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* هند حسين طه (دكتور)
النظرية النقدية عند العرب . المطبعة الوطنية عمان - بغداد عام ١٩٨١م .

* يوسف نور عوض
فن المقامان بين المشرق والمغرب . رسالة دكتوراة مخطوطة . دار العلوم عام ١٩٨٢م .

رابعا : مراجع مترجمة :

* أرنولد بنيت — الذوق الأدبي . ترجمة د. على محمد الجندى طبعة مكتبة مصر عام ١٩٥٧م .

* إليزابث بيل — الحُبْكة . ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة . دار الرشيد للنشر - بغداد - ١٩٨٢م .

* أوستن وارين ورينيه ويليك نظرية الأدب . ترجمة محيي الدين صبيحى ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون - ١٩٧٢ .

* چورچ واطسن — الفكر الأدبي المعاصر . ترجمة د. محمد مصطفى بدوى . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م .

* چان بول سارتر — التخيّل . ترجمة د. نظمى لوقا . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٢م .

* د. س. ميومك — المفارقة . ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤوة. دار الرشيد للنشر . بغداد . ١٩٨٢م .

* ديزموند ستيوارت — القاهرة . ترجمة يحيى حقى . كتاب الهلال (٢١٦) ١٩٦٩م / ١٣٨٨هـ .

* ستانلى هايمن — النقد الأدبي ومدارسه الحديثة . ترجمة إحسان عباس ود. محمد يوسف نجم . دار الثقافة بيروت عام ١٩٨١م .

* س. دى. لويس — الصورة الشعرية . ترجمة د. أحمد نصيف الجنابي ومالك ميرى ، وسلمان حسن إبراهيم . ط دار الرشيد - بغداد - ١٩٨٢م .

* شارل لالو — مبادئ علم الجمال « الاستطيقا » . ترجمة مصطفى ماهر . طبعة عيسى الحلبى ١٩٥٩م .

* ڤان تيجيم — الأدب المقارن . ترجمة د. على محمد الجندى مكتبة نهضة مصر - ١٩٥٧م .

* ف. أ. ماثيسن « ت. س. إليوت . الشاعر الناقد » . ترجمة إحسان عباس . الكمتبة العصرية - صيدا - ببيروت ١٩٦٥م .

* مجموعة موسوعة المصطلح النقدى . المجلد الأول . ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة . دار الرشيد - بغداد ١٩٨٢م .

* ماريو بارى أسس علم اللغة . ترجمة د. أحمد عمر المختار عالم الكتب .طبعة ثانية عام ١٩٨٣م .

* يوهان فك العربية . دراسات فى اللغة واللهجان والأساليب مع تعليقات المستشرق الألمانى « شبيتالمر . ترجمة وتقديم وفهرست د. رمضان عبدالتواب . مكتبة الخانجى - مصر ١٤٠٠ / ١٩٨٠م .

خامسا : مراجع باللغة الأجنبية :

- Middleton Murry' The Problem of style Oxford Universty Prn 1975.
- Rashad Rushady' Criticism Mathew Arnold to the Present day. Rahad Rushdy. Tge Anglo Egyption Bookshop. !?« Mohamed Farid Street' Cairo.

سادسا : الدوريات :

- مجلة عالم الفكر الكويتية . المجلد الرابع عشر . العدد الرابع .
- مجلة فصول « المجلد الرابع » العدد الأول عام ١٩٨٣م .
- مجلة فصول « المجلد الخامس » العدد الأول عام ١٩٨٤م .
- مجلة فصول « المجلد الخامس » العدد الثالث عام ١٩٨٤م .
- مجلة المورد العراقية المجلد الثالث عشر العدد الثانى .
- مجلة كلية الآداب للبحوث والدراسات الإنسانية (سوهاج) العدد الثالث ١٩٨٣م .
- مجلة منبر الإسلام عدد رجب ١٣٨٨هـ

